


للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الحصن المنصوري

حققه وخرج أحاديثه

خادم الكتاب والسنة

محمد علي الصابوني

المجلد الأول

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

# مقدمة التفسير

بقلم
الشيخ محمد علي الصابوني

الحمد لله منزل الكتاب، تبصرةً وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على السراج المنير، المنزَّل عليه قول الإله العلي الكبير ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ سيدنا محمد البشير النذير، الذي ختم الله ببعثته رسالة الأنبياء والمرسلين، فكان ذلك ختام مسك، كما ختم بالقرآن العظيم الكتب السماوية، فكمل الدينُ، وتمت النعمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فحين كنت في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ـ حرسها الله ـ أستاذاً باحثاً أحقق بعض كتب التراث، قدم عليَّ أخ فاضل تركي، يحمل معه مجلدات ضخمة مخطوطة، لقريبٍ له من علماء الأتراك، توفي رحمه الله قبل زمنٍ ليس بالبعيد، عرض عليَّ هذه الأسفار الكبيرة، التي خطَّها المؤلف بيده، ثم أدركته الوفاة قبل أن تجد النور، وطلب مني أن أبحث له عمن يطبع هذا الكتاب على نفقته من المحسنين، لأن المؤلف ترك لهم هذه المخطوطات «ثروة علمية» ثم عاجلته المنيَّة قبل طباعتها، فتصفحت تلك المجلدات فوجدتها كتاباً كاملاً في علم التفسير، وثروة علمية لا يستهان بها في تراثنا الإسلامي، بذل

المؤلف جهداً كبيراً في إخراجه في سنين عديدة، وفي زمنٍ عصيب، طغت فيه المادية، ونجم فيه النفاق، وطلع قرن الشيطان، فنفخ في أنصاره وأتباعه، فحاربوا الدين وأهله، وقضوا على الخلافة الإسلامية، التي كانت رمز قوة المسلمين، وتماسكهم واتحادهم، وتعاون معهم شياطين أوروبا وأمريكا، وأرادوا بعملهم المنكر أن يقضوا على الإسلام، ويقوّضوا دعائمه، ولكنَّ الإسلام كان أقوى منهم وأرسخ، لأن الإسلام يستمد قوته من القوي المتين، ربِّ العزة والجلال، فهو القادر الذي ينصر رسله وجنده المؤمنين، ولهذا بقي للدين عزته وقوته، وظهر من يكافح عنه ويناضل، ورجع أعداء الإسلام بالخيبة والخسران، من الصهاينة، والعلمانيين، والملاحدة. وفي هذا العصر المتأجج بالفتن، المشحون بالمتناقضات، قيَّض الله لهذا الدين، من يحميه من العلماء العاملين، فظهر شيوخ أجلاء، وقفوا في وجه هذه الهجمة الشرسة على الإسلام، ينافحون عنه ويكافحون، منهم الشيخ الجليل العلامة الشيخ «مصطفى الخيري الحصني المنصوري» فقد بذل جهداً كبيراً لخدمة القرآن العظيم، وأخرج هذا التفسير الميسَّر النافع، اختاره من أمهات كتب التفسير وسمّاه «المقتطف من عيون التفاسير» أخرجه باللغة العربية خدمة للإسلام والمسلمين وهو بحق اسم على مسمًّى، فهو شذرات وزهرات يانعة من رياض علم التفسير، وقد عرضتُه على الأخ الوجيه المحسن، الشيخ «عبد الله أبو الحسن» من وجهاء أهل جدة السعوديين، الذي يحرص دائماً على نشر ثقافة القرآن، ويهتم بالمخطوطات العلمية الدينية، فكلفني جزاه الله خيراً بالعمل على طباعته والعناية به، ليخرج بالوجه الأنيق المناسب للعصر، تقبَّل الله عمله، وأجزل مثوبته، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء، وصلى الله على نبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

# ترجمة المؤلف

بقلم أحد معاصريه

الأستاذ إبراهيم طائر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على رسولنا وشفيع ذنوبنا محمد ﷺ وآله وأصحابه الطيّبين الطاهرين أجمعين، إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذه ترجمة مختصرة لفضيلة المرحوم الشيخ مصطفى الخيري الحصني المنصوري مؤلف كتاب «المقتطف في التفسير» رحمه الله تعالى، وجعل الجنة مسكنه ومأواه.

ولد الأستاذ الشيخ «مصطفى بن ميمش بن الحسين» في مدينة حصن المنصور واسمها الآن «آدي يامان» مركز الولاية في الأناضول سنة ١٣٠٧ هـ ودرس العلوم الابتدائية والرشيدية بمحل ولادته، وكان أبوه طباخاً محباً للعلم وأهله، وقد حرص على أن يكون ابنه من أهل العلم، ولذلك لم يعلمه صنعة الطبخ، بل آثر أن ينفق عليه ليكون من العلماء، فأرسله إلى مدينة «عنتاب» فتعلَّم اللغة العربية وبرع فيها، على يد أستاذ زمانه الشيخ «عبد الله خواجه». ثم رحل إلى استانبول بإشارة بعض أساتذته والتحق بمدرسة الواعظين، فدرس فيها سنتين، ثم انتسب إلى مدرسة القضاة، وبعد تكميل تحصيله في مدرسة القضاة، دُعي للخدمة العسكرية الوطنية في صنف المدافع «طوبجي» وفي الحرب العالمية الأولى اشترك في المحاربات في «جاناق قلعه» وسائر جبهات الحرب في «ماكدونيا» وفي

العراق، وقبل نهاية الحرب العالمية الأولى سُبي مع كثير من أفراد العسكر، وجال في ممالك عديدة عدة سنين أسيراً.

وبعد خلاصه من الأسر، عُيّن مدرساً في مدرسة النواب في مدرسة «شمسني» فدرَّس فيها ثماني سنوات، خمس سنين في القسم الثانوي، وثلاث سنوات في القسم العالي، درّس فيها اللغة العربية، والفارسية، وعلم الفقه، وعلم الأصول، والفرائض، وأصول الصكّ، وأحكام الأوقاف.

وفي زمن اشتغاله بالتدريس ألَّف كتابه «المقتطف في الفقه» سنة ١٩٢٢ م ثم نقل إلى دار الإفتاء في مدينة «صوفيا» ببلغاريا، وفي فترة اشتغاله بدار الإفتاء في هيئة الديوان العالي الشرعي ابتدأ بتأليف كتابه «المقتطف في التفسير» واشتغل به سنين عديدة وطويلة، حتى انتهى منه، وله كتاب «لغة الطب» وعلم الحال لأطفال المسلمين، ومجموعة الفوائد بالتركي والعربي، وكتابه المقتطف في الفقه مطبوع.

كان الأستاذ الحاج مصطفى الخيري الحصني المنصوري عالماً فاضلاً، ومرجعاً في علم الفقه، وكان زاهداً ورعاً، قوي الجسم، بسيماً، قليل الكلام والمنام، مداوماً على صلاة الجماعة في الأوقات الخمس، يشتغل بالمطالعة دائماً وكان محباً للفقراء وطلاب العلم والمساكين، ويكتب ويتكلم باللغات الثلاث: التركية، والعربية، والفارسية.

توفي رحمه الله سنة ١٣٩٠ هـ ودفن في «استانبول» في مقبرة «قوزلو» عن عمر يناهز /٨٢/ الثانية والثمانين، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إبراهيم طاني

# تفسير البسملة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ للملابسة عند صاحب الكشاف، وعند البيضاوي للاستعانة، والقول بالاستعانة أولىٰ، إذْ فيه من الأدب، وإظهار العبودية، ما ليس في المصاحبة، وهذا المعنىٰ أُمِرَ بِهِ المسلِم بقوله تعالىٰ: ﴿وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتعلَّقتِ الباءُ بمحذوف، وهو هنا ما جُعلت التسميةُ مبدأً له، والأولىٰ تقديرُ المتعلق مؤخّراً، ليفيد قصد الاهتمام باسمه تعالىٰ، وليكون أوقع في التعظيم، وأدلَّ على الاختصاص، وأوفق للوجود، فإن اسمه تعالىٰ مقدَّمٌ على القراءة، كيف لا وقد جُعل آلةً لها من حيثُ إنَّ الفعل لا يتمُّ ويُعتدُّ به شرعاً، ما لم يُصدَّر باسمه تعالىٰ، لقوله ﷺ: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدأُ فيه ببسم الله فهو أبترُ»(١)، وتقديرُه: «بسم الله أقرأُ» وهذا وما

(١) أخرجه ابن ماجه في النكاح بلفظ «كل أمر ذي بالٍ لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع» رقم ١٨٩٤ ورواه أحمد في المسند ٢/٣٥٩، وابن حبان في صحيحه رقم ٥٧٨، ومعنى «أبتر» أي مقطوع، ناقص من الخير والفضيلة، وأمّا الرواية التي أوردها المصنّف فهي من إخراج الحافظ الرّهاوي.

بعده مقولٌ على ألسنة العباد، ليعلموا كيف يُتبرك باسمه تعالىٰ، ويُحمد علىٰ نعمه، ويُسأل من فضله.

والاسم لغةً: علامة للشيء، وعرفاً: اللفظُ الموضوع لمعنى، مفرداً كان أو مركَّباً، والمرادُ بالاسم هنا: ما قابل الكناية واللَّقَب، فيشمل الصفاتِ، ليدلَّ على أن التبرُّك والاستعانة بجميع أسمائه تعالىٰ، وقد تكون الأسماء كثيرةً والمسمّى واحداً، لقوله تعالىٰ: ﴿وَلله الأَسْمَآءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[1].

والاسم إن أُريد به اللفظ فغير المسمى، لأنه يتألف من أصوات مقطعة ويختلف باختلاف الأمم، والمسمى لا يكون كذلك، وإن أُريد ذات الشيء فهو المسمَّى، لكنه لم يشتهر بهذا المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿تباركَ اسمُ ربك﴾ و﴿سبِّحْ اسمَ ربك﴾ المرادُ به اللفظُ، لأنه كما يجب تنزيهُ ذاته وصفاته عن النقائص، يجب تنزيهُ الألفاظ الموضوعة لها عن الرَّفثِ، وسوء الأدب.

وإنما لم يقل «بالله» لأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه، وللفرق بين اليمين والتيمن[2]، ولم تكتب الألف لكثرة الاستعمال، وطُوِّلت الباءُ عوضاً عنها، قال عمر بن عبد العزيز لكاتبه: طوِّلِ الباء، وأظهر السين، ودوِّر الميم، تعظيماً لكتاب الله عزَّ وجلّ.

﴿ٱللَّهِ﴾ اسم عَلَم خاص لله تعالى، تفرَّد به سبحانه، ولا يشركه فيه أحد، وهو الصحيح المختار، دليله قوله تعالىٰ: ﴿هل تعلمُ له سَمِيّاً﴾[3]؟ وهو عَلَمٌ على المعبود بحق، واختير لفظ الجلالة من بين سائر الأسماء، لكونه أشهر في الألسن، وأدور في الاستعمال، ولكونه مستجمعاً لجميع

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.
(٢) التيمُّنُ: أي التبرك بذكر اسمه جلَّ وعلا.
(٣) سورة مريم، آية: ٦٥.

الصفات الفاضلة، يصلح للتبرك بذكره، وكما تاهت العقول في ذاته وصفاته، لاحتجابها بنور العظمة، تحيرت أيضاً في اللفظة الدالة على الذات، والجمهور على أنَّ لفظ «الله» عربي، اسمُ عَلَمٍ مرتجل، من غير اعتبار أصلٍ منه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من الرحمة، والرحمة رقةُ القلب والانعطاف، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها، والرحمٰن من الصفات الغالبة، حيث لم يُطلق على غيره تعالى، وفيه من المبالغة ما ليس في الرحيم أو هما بمعنى واحد، كما قاله الجوهري، وهما صفتان جليلتان مشرقتان بنور الفيض الرباني، تشملان النعم، حسية أو معنوية، وإفرادهما بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة، وتقديم الرحمٰن لأنه باختصاصه به تعالى، صار حقيقياً بأن يكون قريناً للاسم الجليل.

## «فصــل»

البسملة آية من القرآن، أُنزلت للفصل بين السور، وقال الشافعي آية من كل سورة ما عدا براءة، فحرّم قراءتها على الجنب، والحائض، والنفساء، وهذا لو قصد التلاوة، ومذهب الجمهور أنها من القرآن، ولم تجز الصلاة بها، نظراً إلى شبهة خلاف مالك، لأنه ادَّعى عدم تواتر كونها قرآناً.

وَرَدَ الأمر بقراءة البسملة في مواضع من القرآن، كقوله سبحانه ﴿اقرأ باسم ربك﴾ والبسملة تجب عند الذبح، ورمي الصيد، والإرسال إليه، ولكن يقوم مقامها كلُّ ذكرٍ خالص، ولا يأتي بالرحمن الرحيم عند الذبح، لأن الذبح ليس بملائم للرحمة، لكن في الجوهرة لو قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهو حسن، وفي ابتداء الفاتحة في كل ركعة، قيل: تجب قراءتها لكن الأصحَّ أنها سنة، ويسنُّ في ابتداء الوضوء، والأكل،

وفي كل أمرٍ ذي بال، وتكره عند كشف العورة، أو في محل النجاسة، وعند شرب الدخان ونحوه، فمعنى «ذي بال» أي شريفٍ يُهتم به.

وفي هذا الوصف فائدتان: إحداهما رعاية تعظيم اسم الله، بأن يبتدأ به في الأمور المعتدّ بها.

والأخرى كل أمرٍ يخطر بالبال، وفي هذا إظهار عظمة الله تعالى، وحثٌ على التبري عن القوة إلا بالله[1]، نعم التسميةُ على الحرام حرامٌ، ومكروهةٌ في المكروه، إن لم يكن استخفافاً، وإن قصده والعياذُ بالله كَفَر.

---

(١) لهذه اللفظة «بسم الله الرحمٰن الرحيم» سرٌّ من أسرار العظمة الربانية، والكمالات القدسية، ما يجعلها شعاراً للمسلم في جميع شؤون الحياة، يلتجيء بها إلى الله، ويحتمي بها من شرِّ كل ذي شرّ، فإن فيها ثلاثة أسماء من أسماء الله الحُسنى «الله» «الرحمٰن» «الرحيم» ولهذا رغّبنا الرسول ﷺ أن نقولها في كل أمرٍ من أمورنا الدينية والدنيوية، تبركاً وتيمّناً باسمه تعالى.. روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ كان راكباً على دابة، وخلفه بعضُ أصحابه، فعثرت بالنبي ﷺ، فقال الذي كان رديفه: تَعِسَ الشيطانُ، فقال له النبي ﷺ: «لا تقل تَعِسَ الشيطانُ فإنك إذا قلت ذلك تعاظم وقال: بقوّتي صرعتُه، وإذا قلت «بسم الله» تصاغر حتى يصير مثل الذبابة»!!

قال الحافظ ابن كثير: وهذا من تأثير بركة «بسم الله الرحمٰن الرحيم» ولهذا تستحبُّ في أول كل قولٍ وعملٍ، فتستحب في أول الخطبة لحديث «كل أمر لا يُبدأ فيه بـ «بسم الله الرحمٰن الرحيم» فهو أجذم»، وتستحب البسملة في أول الوضوء لحديث «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»، وتستحب عند الذبيحة لقوله تعالى: ﴿فكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه﴾ وأوجبها بعضهم، وتستحب عند الأكل لقوله ﷺ للغلام «قل بسم الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»، وتستحب كذلك عند الجماع، لما في الصحيحين «لو أنَّ أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهمَّ جنِّبنا الشيطان، وجنِّبِ الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدَّر بينهما ولد، لم يضرَّه الشيطان أبداً». فالمشروع ذكر اسم الله في ذلك كله تبركاً وتيمُّناً واستعانة به تعالى على التقبُّل والإتمام» اهـ. من تفسير ابن كثير بشيء من الإيجاز.




## مكية وآياتها سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمد لله رب العالمين ۝٢ الرحمن الرحيم ۝٣ مالك
يوم الدين ۝٤ إياك نعبد وإياك نستعين ۝٥ اهدنا
الصراط المستقيم ۝٦ صراط الذين أنعمت عليهم غير
المغضوب عليهم ولا الضالين ۝٧﴾.

السورة: من سور المدينة لإحاطتها بآياتها، وقد ثبتت أسماء جميعها بالأحاديث والآثار، والحكمة في التسوير، ليكون أنشط للقارىء، وأبعث على التحصيل، ولأن الجنس إذا انطوى تحته أنواعٌ كان أحسن مع أن في ذلك تحقيقَ كون السورة بمجردها معجزة، وآية من آيات الله، والفاتحة في الأصل صفة جعلت اسماً لأول الشيء، وفاتحةُ الكتاب سميت بذلك لأن بها افتتح القرآن الكريم، وتسمى: «أم القرآن» لأنها مبدأه، فكأنها أصلُه، ولذلك يسمى أساساً، وتسمى سورة الكنز، والوافية، والكافية، والشافية، وسورة الحمد والشكر والدعاء، لاشتمالها على ذلك، والسبع المثاني لأنها سبع آيات بالاتفاق ولأنها تكرر في الصلاة، وتثنى بسورة أخرى، والأكثرون على أنها مكية، بل من أول ما نزل من القرآن، وهو المروي عن علي، وابن عباس، وأكثر الصحابة، وعن مجاهد أنها مدنية، وصح

أنها مكية لقوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾[1] وهو مكيٌّ بالنصّ.

روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبعُ المثاني[2]».

الحمدُ: هو الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل، وقالوا في تحقق الحمد خمسة أمور:

١ ـ محمود به. ٢ ـ محمود عليه. ٣ ـ حامد. ٤ ـ محمود. ٥ ـ ما يدل على اتصاف المحمود بصفة.

وتعليقُ الحمد أولاً باسم الذات للإيذان بأنه عزَّ وجلّ هو المستحق له بذاته ووصف بصفة الكمال للتنبيه على استحقاقه له باعتبار الصفة أيضاً.

والفرقُ بين الحمد والمدح من وجوه:

١ ـ الحمد يختص بالثناء على الفعل الاختياري لذوي العلم، والمدحُ في الاختياري وغيره.

٢ ـ صدور الحمد عن علمٍ لا عن ظن، والمدح أعم.

---

(١) سورة الحِجْر، آية: ٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ١٤٥٧ باب فاتحة الكتاب، والترمذي رقم ٣١٢٣ في تفسير القرآن، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، ورواه البخاري ٧/ ١٢٠ باب ما جاء في فاتحة الكتاب، ولفظُه عن أبي سعيد بن المعلَّىٰ رضي الله عنه قال: «كنت أصلّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيتُه فقلت يا رسول الله: إني كنت أصلّي، فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ ثم قال لي: ألا أعلّمك سورةً هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد!! ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلتُ يا رسول الله: ألم تقل: لأعلمنّك سورةً هي أعظمِ سورةٍ في القرآن؟ قال: ﴿الحمد لله رب العالمين...﴾ هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أوتيتُه» وانظر جامع الأصول ٨/ ٤٦٥.

٣ ـ في الحمد من التعظيم وهو أخص بالعظماء وأكثر إطلاقاً على الله تعالىٰ، والمدحُ ليس كذلك.

٤ ـ الحمد مأمورٌ فيه، والمدحُ ليس كذٰلك.

٥ ـ المدحُ يكون قبل الإحسان وبعده، والحمد لا يكون إلا بعده.

٦ ـ المدحُ قد يكون منهياً عنه، والحمدُ مأمورٌ به وواجبٌ على العبد، والشكر أيضاً مغاير للحمد فإن الشكر ثناء عليه تعالى بسبب إنعام وصل إليه، والحمد ليس كذلك، فهو أظهر عبودية[١].

والحمد من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها، وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته، والتعريف فيه للجنس، والمحلى بلام الجنس في المقامات الخطابية يتبادر منه الاستغراق، وهو الشائع لا سيما في المصادر، والحمد في الحقيقة كله له تعالى، إذ ما من خير إلا وهو موليه كما قال الله تعالىٰ: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[٢].

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الربُّ: في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، وصف به الفاعل مبالغةً كالعدل، وسُمّي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ويطلق أيضاً على السيد، والمنعم، والمصلح، والصاحب، والمعبود، وأنه حقيقة في التربية، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً، كربِّ الدار، وهذا ونحوه جوازه مخصوصٌ بزمانه، وما في الصحيحين من أنه ﷺ قال: «لا يقل أحدكم ربي، وليقل سيدي ومولاي» فقد قيل إن النهي فيه للتنزيه.

والعَالَمُ: اسمٌ لما يُعلم به كالخاتم، غلب فيما يعلم به الصانع جلَّ وعلا من المصنوعات، وهو من العلامة لأنه علامة لموجده وإنما جَمَعه

---

(١) انظر تفسير القاضي البيضاوي «أنوار التنزيل» الجزء الأول ص ٦.

(٢) سورة النحل، آية: ٥٣.

ليشمل ما تحته من الأجناس، يقال عالم الأفلاك، وعالم النبات، وعالم الإنس والجن، ويطلق على المجموع كما في قولنا: العالَم بجميع أجزائه محدث، وإنما ورد بالياء والنون تغليباً للعقلاء، وبعضهم خصَّ العالمين بذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل: هم الإنس والجن. لقوله تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾(١).

وفي الرب معنى التربية والتهذيب للعوالم العاقلة الناطقة، والإلهام بالنافع للعوالم غير الناطقة، فعناية الله عزَّ وجلّ للعالمين جميعاً، ومن تأمل في مخلوقاته تعالى وتفكر في صنعه، ظهرت عظمة باريه وشمول تربيته للعوالم كلها، لأن آثار تربيته واضحة المنار، وساطعة الأنوار، فسبحانه من ربٍّ لا يُضاهى، ومَنَّانٍ لا يُحصى كرمُه ولا يتناهى.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ صفتان جليلتان مشرقتان بنور الفيض الرباني، تشملان النعم الحسية والمعنوية، وذكرهما هنا تعليل للحمد، فالرحمٰن يشير إلى التربية بالوسائط، والرحيم يشير إلى التربية بلا واسطة، والرحمٰن ينبىء بالنعم المادية، والرحيم بالمعنوية، وإيرادهما ههنا يدل على أن التسمية ليست من الفاتحة، ولو كانت منها لما أعادهما.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ المالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف شاء، والمَلِك المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين في الملك، وقرىء بهما، والقراءتان صفة لله تعالىٰ، الأولى إشارة إلى الفضل الكبير ويعضده قوله تعالىٰ: ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً﴾(٢) والثانية قراءة أهل الحرمين ويعضده قوله تعالىٰ: ﴿لمن المُلْكُ اليومَ﴾؟

واليوم عبارة عمّا بين طلوع الشمس وغروبها، وفي الشرع بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس، والمراد هنا مطلق الوقت، إذ ليس عند ربنا

(١) سورة الفرقان، آية: ١.
(٢) سورة الانفطار، آية: ١٩.

صباحٌ ولا مساء، والتعبيرات المختلفة بالنظر إلى حال المخاطب، ولم يقل «يوم القيامة» ترجيحاً للعموم، ومراعاةً للفاصلة، ولكونه أدخل في الترغيب والترهيب، وتخصيصُ اليوم بالإضافة مع أنه مالك الأشياء في جميع الأوقات، إمّا لتعظيمه وتهويله، أو لبيان تفرده بإجراء الأمر فيه، وانقطاع العلائق بين المُلاَّك والأملاك كلها، ولذا قال الله تعالىٰ: ﴿لمن المُلْكُ اليوم﴾[1]؟ ويوم الدين، يوم الجزاء ومنه «كما تَدِينُ تُدان»، ومنه الحديث المرسل عن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ: «البرُّ لا يبلى، والإثمُ لا يُنسى، والديّانُ لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تُدان»[2]، والدينُ المطلق في اصطلاح أهل الإسلام والقرآن: الإسلام. أما سائر المذاهب فلا يسمّى ديناً إلا مقيَّداً، كدين اليهود، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الدِينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾[3]، وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى، من كونه موجداً للعالمين، رباً لهم، منعماً عليهم بالنعم كلها، مالكاً لأمورهم يوم الثواب والعقاب، للدلالة على أنه تعالى حقيقٌ بالحمد، لا أحد أحق به منه، بل لا يستحقه سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات، لا يستأهل لأن يُحمد، فضلاً عن أن يعبد.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصفه بصفاتٍ عظام تميز بها من سائر الذوات، تعلق العلم بمعلوم معيّن، فخوطب بذلك، أي يا من هذا شأنه، نخصك بالعبادة

---

(١) سورة غافر، آية: ١٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق قال ابن حجر في الفتح ٨/١٥٦: وهو مرسل رجاله ثقات، وأخرج البخاري طرفاً منه تعليقاً فقال: والدينُ: الجزاء في الخير والشر، كما تدين تُدان، انظر تفسير سورة الفاتحة.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩.

والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان، ومن عادة العرب التفنن في الكلام، والعدول من أسلوب إلى آخر، تنشيطاً للسامع، فتعدل من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس كقوله تعالىٰ: ﴿والله الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِير سَحَاباً فَسُقْنَاهُ﴾[١]. وقُدِّم المفعول للتعظيم والاهتمام به، والدلالة على الحصر، والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات، ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه، ووصلةٌ بينه وبين الحق، وتكرير الضمير للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب، والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق معبَّد أي مذلَّل، والعبودية أدنى منها، وقيل: العبادة فعل ما يرضى به الله، والعبودية: الرضاءُ بما فعل الله تعالى، ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً فعل العبادة إلا لله تعالىٰ، لأنه هو المستحق لذلك لا غيره، لأنه مولي أعظم النعم، من الحياة، والوجود وتوابعهما، ولذا يحرم السجود لغيره تعالى، وهي تستعمل بمعنى الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[٢]، وبمعنى الدعاء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[٣] وبمعنى التوحيد ومنه قوله تعالى: ﴿ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٤] وكلها متقاربة المعنى.

وقدّمت العبادةُ، لأن تقديم الوسيلة، قبل طلب الحاجة، أقرب إلى الإجابة، ولأن العبادة من حقوق الله تعالى، والاستعانة من حقوق المستعين، ولأن العبادة واجبة حتماً، والاستعانة تابعة للمستعان فيه، وقد

---

(١) سورة فاطر، آية: ٩.
(٢) سورة يّس، آية: ٦٠.
(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.
(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

قيل: لما كان المسؤول هو المعونة في العبادة، وهو المناسب لحال الحامد، كأنه قيل: وإياك نستعين في ذلك، لذا كان وجه الترتيب واضحاً.

والاستعانةُ: طلب المعونة في أمرٍ من الأمور، والمراد بها في الآية: طلب المعونة في المهمات كلها، ولهذا لم يخصصها هنا بل ورد اللفظ بالعموم ﴿وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ﴾ أي على أمور الدنيا والدين.

والضمير في الفعلين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَستَعِينُ﴾ للقارىء ولجماعة الحاضرين، من المؤمنين الموحدين، أدرج عبادته في عبادتهم، وخلط حاجته ضمن حاجتهم، لعلها تقبل ببركة دعاء المؤمنين، ولذا شُرعت صلاة الجماعة، وفُضّلت على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة.

وأمرنا المولى جلَّ وعلا أن نكون مع الصادقين، وأن ننخرط في سلكهم ﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ ولهذا السر جاء التعبير في سورة الفاتحة بصيغة الجمع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما ورد في دعاء القنوت بصيغة الجمع أيضاً «اللهم اهدنا فيمن هديتَ، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت...»الخ. وتخصيص العبادة والاستعانة بالله عزَّ وجلّ أصلٌ من أصول الإسلام. لقد كان المسلمون الأولون يعبدون الله تعالىٰ مخلصين له الدين، ويستعينون به، ففازوا بما أدهش العالم، فخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة، ولم يحسنوا العبادة والاستعانة، فضعفوا وذلُّوا، وذهبت ريحهم.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الهداية: دلالةٌ بلطف على ما يوصل إلى البغية وقيل: هي الدلالة الموصلة إليها، لأنه لا يقال مهدي إلاّ لمن اهتدى إلى المطلوب وهي تستعمل في الخير، وقوله تعالىٰ: ﴿فَاهْدُوهُمْ إلى صِراط الجَحيم﴾[1] على نهج التهكم، والأصل أن يعدى باللام أو إلى كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكم من يَهْدِي إلَى الحَقِّ؟ قُلِ الله

(١) سورة الصافات، آية: ٢٣.

يَهْدِي لِلْحَقّ﴾[1]، وهدايةُ الله تعالىٰ لا تكاد تنحصر، منها أنفسية، ومنها آفاقية، وهي الأدلة المودعة في كل فرد من أفراد العالم، وإما تنزيلية بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾ وفي قوله جلَّ وعلا: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾.

ومنها الهداية الخاصة، وهي كشف الأستار عن قلب العبد المهدي، بالوحي وهو خاصٌّ بالأنبياء صلوات الله عليهم، أو بالإلهام والمنامات الصادقة، وهو يشمل الأنبياء، والأولياء، والصالحين، فقد ألهم الله أم موسى أن تلقي ولدها في اليمِّ ﴿فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليمِّ﴾ أي البحر وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الملهمين، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه»[2].

## أقسام الهداية

وقد منح الله سبحانه وتعالى الإنسان أربع هدايات:

١ ـ **هداية الفطرة**: فإن الطفل عندما يصل الثدي إلى فمه يُلهم امتصاصه.

٢ ـ **هداية الحواس**: وهي متممةٌ للأولى، ويشارك الحيوانُ فيها الإنسان، فبالحواس يهتدي إلى أسباب عيشه كلٌّ من الإنسان والحيوان ﴿أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هَدَىٰ﴾.

٣ ـ **هداية العقل**: وهي خاصة بالإنسان، وبالعقل يُصحَّح غلط الإنسان.

٤ ـ **هدايةُ الدين**: فقد يغلط العقل في إدراك المصلحة كما تغلط

---

(١) سورة يونس، آية: ٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٣٦٨٣ في مناقب عمر، وقال: حديث حسن.

الحواس، فيحتاج إلى هداية الدين، لترشد الناس - في ظلمات الأهواء - إلى الطريق المستقيم.

والمطلوب في الآية ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إما الزيادة كما قال سبحانه ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ وإما الثبات على الهداية، كما فسَّرها عليٌّ رضي الله عنه ﴿اهدنا﴾ أي ثبتنا، وكما ورد في الحديث الشريف: «اللهمَّ يا مقلِّب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك»[1].

والصراطُ المستقيم: هو الطريق الذي لا التواء فيه، ولا اعوجاج، وهو جسر بين العبد والرب، ممدود على متن الشهوات المغرية: الفسقُ، والجهلُ، والبدع، والرذائل الدنيئة، والهداية هي: الاستقامة على ما ورد به الشرع الشريف، علماً، وعملاً، وخُلُقاً. وللتذكير بذلك قيل: ﴿الصراط﴾ ولم يقل السبيل، ولا الطريق، وإن كان الكل واحداً، فمن قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أراد: أرشدنا إلى الاستقامة على امتثال أوامرك، واجتناب نواهيك، والسُنَّةُ الإلٓهية في هذا الكون أن يظهر الشيء مجملاً، ثم يتبعه التفصيل تدريجاً، وما مَثَلُ الهداية الإلهية إلاّ مثل البذرة، والشجرة تنبت شيئاً فشيئاً ثم تصبح شجرة باسقة.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بدل من الأول، وفائدتُه التنصيصُ على أن طريق المسلمين، هو المشهود عليه بالاستقامة، لأنه جُعل كالتفسير والبيان، بأن الصراط المستقيم هو طريق المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسولَ فأولئك معَ الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحين﴾ بشهادة ما قبله من قوله تعالى: ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾.

والإنعام: إيصالُ النعمة إلى الغير من العقلاء، فلا يقال أنعم على فرسه، ولذا قيل: النعمة نفع الإنسان من دونه بغير عوض، ونِعَمُ الله تعالى

(1) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٢٤ وأحمد في المسند ٤/ ١٨٢.

وإن كانت لا تُحصى كما قال الله تعالى: ﴿وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوهَا﴾[1] منقسم إلى قسمين: دنيوية، وأخروية، والأول قسمان: وهبي، وكسبيٌّ، والوهبي قسمان: روحاني كنفخ الروح فيه، وإشراقه بالعقل، وجسماني كتخليق البدن والقوى الحالة فيه من الصحة، وكمال الأعضاء، والكسبيُّ: تزكيةُ النفس من الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والمَلَكات الفاضلة، اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم، وفي بناء «أنعمتَ» للفاعل استعطافٌ، فكأن الداعي يقول: أطلبُ منك الهداية إذ سبق إنعامك، فاجعل من إنعامك إجابة دعائنا.

سبحان الله ما أكرمه، كيف يعلمنا الطلب، فيجود بالفضل على كل من طلب!!.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الذين جمعوا بين النعمة المطلقة، التي هي نعمة الإيمان، وبين نعمة السلامة من الغضب والضلال، والعدولُ من إسناد الغضب والإضلال إليه تعالىٰ كما أسند الإنعام، جرى على نهاية الآداب التنزيلية، في نسبة النعم والخيرات إليه تعالى، دون أضدادها.

والضلالُ: هو العدول عن الصراط السويِّ، ضلَّ الرجل: إذا انحرف عن الطريق المستقيم، أو أخطأ في سلوك الجادة. والمراد بالمغضوب عليهم: اليهودُ، وبالضالِّين: النصارى، لما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهودُ مغضوب عليهم، والنصارى ضُلَّال»[2] أخرجه الترمذي، ورواه أحمد في المسند، وحسَّنه ابن حبان، وصحَّحه ابن جرير، وقال ابن أبي حاتم: لا أعرف فيه خلافَ المفسرين.

فمن زعم أن الحمل على ذلك ضعيف ـ لأن منكري الخالق

---

(١) سورة النحل، آية: ١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في قصة إسلام عدي بن حاتم، في تفسير سورة الفاتحة رقم ٢٩٥٤.

والمشركين أخبث ديناً منهما ـ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، إن كان قد بلغه ما صحَّ عن رسول الله ﷺ فليس بعد كلام الرسول مقال لأحد «ولا عطر بعد عروس» وإلاَّ فقد تجاسر على تفسير كتاب الله، مع الجهل بأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام!!.

ولا مانع أن نعمِّم الحكم، فنقول الآية كما وضَّحها عليه الصلاة والسلام يراد بها «اليهود والنصارى» ولكنَّ حكمها عام يشمل كلَّ ضالٍ وكافر ومشرك، من أهل الكتاب، ومن المشركين عبدة الأوثان، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

(آمين): اسم فعل أمر بمعنى: استجب دعاءنا، وليست من القرآن بالاتفاق ولهذا لم تكتب في المصحف، ولكنْ يُسنُّ ختم السورة الكريمة بها، لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الإمام ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقولوا: آمين، فمن وافق قولُه قولَ الملائكة، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه»[1] وفي رواية أخرى «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإن من وافق تأمينُه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه».

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير رقم ٤٤٧٥.



مدنية وآياتها مئتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓ﴾ قيل: إنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سر الله في القرآن، فنأخذ من ظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وعن أبي بكر الصديق أنه قال: في كل كتاب سرٌّ، وسرُّ الله في القرآن أوائل السور، وعن علي: إن لكل كتاب صفوة، وصفوةُ هذا الكتاب حروفُ التهجي. وقيل هي أسماء السور، وقال قطرب: كان العرب ينفرون من استماع القرآن، فلما نزل ﴿المص﴾ قرأ النبي ﷺ هذه الحروف استنكروا هذا اللفظ، وتاقت نفوسهم إلى تعرُّف ما يتلوه من الكلام، فلما أنصتوا أقبل عليهم النبي ﷺ بالقرآن، أو إشارة إلى كلمات هي منها اقتصرت عليها كما رويت عن ابن عباس أنه قال: إن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، أي القرآن منزلٌ من الله بجبريل على محمد ﷺ.

## فصل

## الحكمة من افتتاح بعض السور بالحروف المقطَّعة

الحكيم إذا خاطب من كان محل الغفلة، أو مشغول البال، يقدّم على المقصود شيئاً غيره، ليلفت نظر المخاطب إلى كلامه، وذلك المقدَّم

قد يكون كلاماً «كاسمع» وقد يكون صوتاً كمن يصفر خلف إنسانٍ ليلتفت إليه، وقد يكون بالتصفيق بيده!!

وكلَّما كان المقصود أهم، والغفلة أتم، كان المقدَّم أكثر، ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال: «أزيدُ» والبعيد بيا فيقال «يا زيدُ» والغافل يُنبَّه بـ «ألاَ» فيقال: ألاَ يا قوم، ألاَ يا زيدُ، كما قال الشاعر:

أَلاَ يَا حَمْزُ لِلشُّرُفِ النّواءِ ... وَهُنَّ مُعَقّلاَتٍ بالفِنَاءِ

فيحسن من الحكيم أن يقدم على المقصود حروفاً هي كالمنبهات، ثم إنَّ تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يُفهم معناها، تكون أتمَّ في التنبيه، وإذا كان المقدَّم مفهوماً فالسامع يظن أنه كل المقصود، فيقطع الالتفات عنه؛ وهذا هو السرُّ في افتتاح بعض السور الكريمة، بهذه الحروف الهجائية المقطَّعة، مثل: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿المصٓ﴾ و﴿وحمعٓسق﴾ و﴿كهيٓعص﴾ و﴿وحمٓ﴾ و﴿الرٓ﴾ و﴿قٓ﴾ وأمثالها من الحروف المقطعة، التي وردت في تسع وعشرين سورة، وكلها مكية إلا البقرة، وآل عمران.

**قال قطرب**: كان العرب ينفرون من استماع القرآن، ويوصي بعضهم بعضاً بعدم استماعه، كما قال سبحانه: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن، والْغَوْا فيه لعلكم تغلبون﴾ فلما نزل ﴿المصٓ﴾ و﴿كهيعص﴾ وقرأها النبي ﷺ استنكروا هذا اللفظ، وتاقت نفوسهم إلى معرفة ما يتلوه من الكلام، فلما أنصتوا أقبل عليهم القرآن بآياته البينات، مما اضطَّرهم إلى سماعه، وهذا من أحد أسباب الحكمة في افتتاح السور بالحروف المقطعة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ «ذلك» إشارة إلى القرآن الموعود إنزاله. بقوله تعالىٰ: ﴿إنَّا سنلقي عليكَ قولاً ثقيلاً﴾[1] والإشارة به للتعظيم، والكاف

(١) سورة المزمل، آية: ٥.

للخطاب، وما فيه من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للتنويه بعلو شأنه.

والمعتبر في أسماء الإشارة هو الإشارة الحسيّة، فإن أشير بها إلى ما يستحيل إدراكه نحو ﴿ذلكم الله﴾ أو إلى محسوسة غير مشاهدة نحو ﴿تلك الجنة﴾ فلتصييره كالمشاهد، وتنزيلُ الإشارة العقلية منزلة الحسيّة، لا تخلو عن لُطْف ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ مصدرٌ سمي به المفعول مبالغة، كالخلق للمخلوق، من الكَتْب الذي هو ضم الحروف، وأصله الضم والجمع، ومنه الكتيبة للعسكر، ويطلق الكتاب على المنزل، وعلى المكتوب، وكتب أي حَكَم وأوجب، ومنه ﴿كتب عليكم الصيامُ﴾ وكتب القاضي النفقة أي قضى بها، والكتابُ في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام، وهو اسم من أسماء القرآن، فالمعنى: إنَّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، الحقيق بأن يخص باسم الكتاب، لغاية تفوقه على بقية الأفراد.

﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق أي لا ريب فيه أنه من عند الله تعالى، وحقيقة الريبة، قلق النفس واضطرابها، والشك سبب الريب ومبدأه، كما أن العلم مبدأ اليقين، والشك، تردد بين الشيئين، والريب استعمل في معنى الشك لأنه يزيل الطمأنينة. نَفَىٰ سبحانه وتعالى الريب مع كثرة المرتابين، على معنى أنه في علو الشأن، وسطوع البرهان، بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر، في كونه وحياً من الله تعالى، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلاً، ألا ترى كيف جوّز ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[1]!؟.

وقيل: إنه على الحذف، كأنه قيل لا فيه سببُ الريب، لأن الأسباب التي توجب الريبة في الكلام التلبيسُ، والتعقيد، والتناقضُ، والدعوى العارية عن البرهان، ونحو ذلك، وكلُّ ذلك منتفٍ عن كلام الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣.

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الهدى مصدر هدى، والمراد هنا اسم الفاعل أي هادٍ للمتقين، واختصاصُ الهداية بهم، لأنهم هم المنتفعون به، وإن كانت دلالة الكتاب عامة لكل ناظر، من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال الله تعالىٰ: ﴿هدى للناس﴾ والاتقاء من الوقاية، وهي فرط الصيانة من المكروه، والتقية والتقوى اسم منه، قال الشاعر:

خلِّ الذنوبَ كبيرها وصغيرها ذاك التقى
لا تحقرنَّ صغيرةً إن الجبالَ من الحصى

## مراتب التقوى

وللتقوى ثلاث مراتب:

**الأولى:** التبرؤ من الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وألزَمَهُمْ كلمةَ التقوى﴾[(١)].

**الثانية:** التجنب عن كل ما يؤثم به، وهو المتعارف في الشرع.

**الثالثة:** أن ينزه سرَّه عن كلّ ما يشغله عن الله تعالى، وهو المأمور به في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا الله حقَّ تُقَاتِهِ﴾[(٢)].

وهدايةُ الكتاب شاملة لأصحاب هذه المراتب جميعاً. وقوله تعالى: ﴿آلم﴾ جملةٌ برأسها ﴿وذلك الكتابُ﴾ جملةٌ ثانية ﴿ولا ريب فيه﴾ جملة ثالثة ﴿وهدى للمتقين﴾ جملةٌ رابعة، جيء بها متناسقة من غير حرف عطف، ومتآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، وهذا أرسخ قَدَماً في البلاغة.

فإن قيل: لو كان الكتاب هادياً لكان هدىً للكفار أيضاً؟ أجيب بأن عدم هدايته إياهم، لتمردهم ولعدم تدبرهم فيه، كرجلٍ يغمض عينيه

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

ويمشي في طريق لا يعرفها، فيسقط في حفرة وتتحطم عظامه، هل ينقص ذلك من قدر بصره؟ وكما قال القائل:

والنجـــم تستصغـــر الأبصـــارُ رؤيتَـــه

والـــذنـــبُ للطـــرف لا للنجـــم فـــي الصغـــر

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ تخصيصُ ما ذُكر من الإيمان، والصلاة، والإنفاق، لإظهار شرفها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات، ولفظ «الذي» يصح للعاقل وغيره، والذين لا يستعمل إلا للعقلاء خاصة، وليس «الذين» جمع الذي، بل فيه زيادة لزيادة المعنى، ولذا جاء بالياء أبداً في اللغة الفصيحة، التي عليها التنزيل ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ والإيمانُ من الأمن، ثم استعمل في التصديق، واستعماله بالباء لتضمنه معنى الاعتراف، وهو في الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورةً أنه من دين النبي ﷺ، كالتوحيد، والنبوة، والبعث، ونظائرها، وهل هو كافٍ في الإيمان أو لا بدَّ من الإقرار للمتمكن منه؟ الحقُّ هو الثاني، لأنه تعالى ذمَّ المعاند أكثر ممّا ذم به الجاهل المقصّر، والإيمان مجموع ثلاثة أمور: «التصديقُ، والإقرار، والعمل بموجبه» فمن أخلَّ بالاعتقاد فهو منافق، ومن أخلَّ بالإقرار فهو كافر، ومن أخلَّ بالعمل فهو فاسق و﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ مصدر وصف به للمبالغة، والمراد به الشيء الخفي الذي لا يدركه الحسُّ، ولا تقتضيه بديهة العقل، وهو قسمان: قسمٌ لا دليل عليه، وهو الذي أريد بقوله تعالى: ﴿وعنده مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ﴾[1] وقسمٌ نصب عليه دليلٌ، كالصانع وصفاته، والنبوة، واليوم الآخر، ونحو ذلك، وهو المراد

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

ههنا وإمّا بمعنى الغيبة أي يؤمنون بالله، والجنة، والنار، والملائكة، والصراط، والميزان، وإن لم يروها بمعنى أي غائبين عن الناس وعن المؤمنين، والفرق بين الغيب والغائب، فالغائب من لا يراك ولا تراه، والغيب من لا تراه وهو يراك، فالله تعالى غيب لا غائب.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلاةُ: أصلها الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيهم إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لهم﴾[1] أي ادع لهم، وقيل: من صَليتُ العود بالنار إذا لينته، وفي الشرعِ: اسم لأفعال مخصصة، من قيام، وركوع، وسجود، وقعود، وإنما سميت بها لاشتمالها على الدعاء، وإقامتها عبارة عن تعديل الأركان، وحفظها أن يقع زيغ في شيء من فرائضها، وسننها، وآدابها، من أقام العود إذا قوَّمه وعدَّله، وهو المروي عن ابن عباس[2]، وعنه ﷺ أنه قال: «الصلاةُ عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين»[3] والمراد هنا الصلاة المفروضة كما روي عن ابن عباس، أو الفرائض والنوافل، فمن راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال إلى الله تعالى، دخل في من مدحهم الله بقوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، وجُعلت عمادَ الدين، لأنها جامعة لأنواع العبادات، النفسانية، والبدنية، من الطّهارة، وستر العورة، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف على العبادة، والخشوْع بالجوارح، وإخلاص النية، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الرحمٰن، وقراءة القرآن، والتكلم بكلمة الشهادة، والصلوات على النبي ﷺ

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٢) قال ابن عباس: إقامتها الإتيانُ بها على الوجه الكامل، من الخشوع والاطمئنان، وأداء فرائضها، وسننها وآدابها، والمحافظة عليها في أوقاتها، رواه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) في سنن الترمذي ٥/ ١٣ «رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُه الصلاة، وذِروةُ سَنَامه الجهاد» وانظر الحديث في مسند أحمد ٥/ ٢٣١.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرزقُ: هو ما ينتفع به، ويستعمل بمعنى المرزوق، وهو ما ساقه الله تعالى إلى عباده، سواءً كان حلالاً أو حراماً، مأكولاً أو مشروباً، أو ملبوساً أو غير ذلك، وقال المعتزلة: الحرام ليس برزق، والظواهر تشهد بانقسام الرزق إلى الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلاَّ على الله رزقها﴾[1] ولو لم يكن الحرام رزقاً لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقاً، لحديث: «لقد رزقك الله طيباً، فاخترت ما حرَّم الله عليك من رزقه»[2] والحرام رزقٌ من الله تعالى، ولكن يُتأدب في نسبته إلى الله تعالى، والمراد هنا الرزق الحلال، لأنه في معرض وصف المتقين.

والإنفاقُ: صرفُ المال إلى وجوه المصالح والخيرات، ويروى عن ابن عباس أن المراد بها الزكاة، وعن ابن مسعود: نفقة العيال، وقيل: نفقة الجهاد، ورجح كونها للزكاة المفروضة، اقترانُها بالصلاة. وتقديم المفعول ﴿ومما رزقناهم﴾ للاهتمام، وإدخال «مِنْ» التبعيضية للكفّ عن التبذير، بأن ينفق ماله كلَّه، ويترك نفسه وأهله دون نفقة.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه، وفي ذلك ترغيب أهل الكتاب في الإيمان، والإنزالُ

---

(١) سورة هود، آية: ٦.

(٢) طرف من حديث أخرجه ابن ماجه في الحدود رقم ٢٦٤٢ في قصة عَمْرو بن قُرَّة، وفيه أنه أتى الرسولَ ﷺ فقال يا رسول الله: «إن الله قد كتب عليَّ الشِّقوةَ، فما أُراني أُرزق إلاَّ من دُفِّي بكفِّي، فَأْذنْ لي في الغناء؟ فقال له ﷺ: لا آذنُ لك، ولا كرامة، كذبتَ أي عدوَّ الله، لقد رَزَقَك الله طيِّباً حلالاً، فاخترتَ ما حرَّم الله عليك من رزقه..» الحديث.

والتنزيل في اللغة: نقل الشيء من مكان عالٍ إلى ما دونه، ويطلق العلو في الأمور المعنوية مجازاً كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد﴾ ومعنى إنزال القرآن أن جبريل عليه السلام سمع كلام الله تعالى ونزل به وأدّاه، ولا نعرف صفة تلقي النبي ﷺ الوحي من جبريل، لأنه من شأن النبوة ولسنا بأنبياء، ولكن الله تعالى أخبر عن تكليمه للبشر بقوله تعالى: ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمينُ. على قلبكَ لتكونَ منَ المُنْذرين﴾[2]، ووصفه لنا الرسول ﷺ في جوابه لمن سأل عنه فقال: «أحياناً يأتيني مثلَ صلصلةِ الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فينفصم عني، وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملَكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»[3].

وقال الحكماء: إن نفوس الأنبياء قدسية، فتقوى على الاتصال بالملأ الأعلى، فينتقش فيها من الصور ما ينتقل إلى الحسّ فيرى كالمشاهدة، وهو الوحيُ على رسل الله. ولا خلاف بين العلماء من أن المنزَّل هو اللفظُ والمعنى، لا مدخل للمخلوق في شيءٍ ممّا يتعلق بالقرآن الكريم، سِوى إيصال جبريل عليه السلام، يدل على ذلك، قوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لسَانَكَ لِتَعْجَلَ به. إنّ عَلينَا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ﴾[4].

﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ التوراةُ والإنجيل وسائر الكتب السالفة، والإيمان بها جملةً فرضٌ، وبالقرآن تفصيلاً فرضُ عين على كل مؤمن

(١) سورة الشورى، آية: ٥١.
(٢) سورة الشعراء، آية: ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي رقم ٢، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف كان يأتيك الوحي؟ الحديث.
(٤) سورة القيامة، آية: ١٦ ـ ١٧.

بحيث لا ينكر شيئاً من القرآن والمراد بالإيمان بالكتب السالفة أنها منزلة منه تعالى على رسله الكرام لإرشاد الأمم، لا أنَّ أحكام تلك الكتب باقية.

﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ والآخرة تأنيث الآخر، كما أن الدنيا تأنيث الأدنى، غلبتا على الدارين، فجرتا مجرى الأسماء، والإيقان: إتقان العلم بالشيء، بنفي الشك، والشبهة عنه، بالاستدلال، ولذلك لا يوصف به علم الباري تعالى، واليقينُ من صفة العلم، فوق المعرفة والدراية، وهو نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل، ولا يعتد بما دون اليقين في الإيمان، ويعرف اليقين بآثاره في الأعمال، ولم يقل «هم يؤمنون» دفعاً للتكرار، وفي تقديم الصلة تعريضٌ بأهل الكتاب، فإن اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزلٍ من الصحة، فضلاً عن الوصول إلى مرتبة اليقين.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ ﴾ إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة، من حيث اتصافهم بها، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد، للإشعار بعلوّ درجتهم في الصلاح ﴿على هدى﴾ في تنكير هدى إشارة إلى عظمته كأنه قيل: على هدىً لا يُبلغ كنهه، ولا يُقادر قدرُه، وإيراد كلمة «على» المفيدة للاستعلاء، بناءً على تمثيل حالهم في ملابستهم بالهدى، بحال من يعتلي الشيءَ ويستولي عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد، وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر، وإدامة النظر فيما نصب من الحجج، والمواظبة على محاسبة النفس في العمل، أي هم على هدى كائن من عند الله تعالى، وهو شامل لجميع أنواع هدايته وفنون توفيقه وإنما ذكر الرب، لما فيه من المناسبة الواضحة، لأنه تَعالى لمَّا كان ربَّهم، ناسب أن يهيىء لهم الأسباب لسعادة الدارين، فهو سبحانه الموفق لهم، والمفيض عليهم من بحار لطفه وكرمه، وإن توسطت هناك أسباب مادية، هي كلها من توفيق الله.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تكرير اسم الإشارة ﴿أولئِكَ﴾ لمزيد العناية بشأن المشار إليهم، وللتنبيه على أن اتصافهم بتِلك الصفات الجليلة، يقتضي كل واحدة من الفضيلتين: التمكن من الهدى، والفوز بالفلاح، والفلاح في أصل اللغة: الشقُّ والقطع، ومنه قولهم: «إن الحديد بالحديد يُفلح» أي يُقطع ويُشقُّ، فكأن العبد انفتح له الظفر، وشق أمامه الطريق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

لمَّا ذكر الله تعالى خاصة عباده، بصفاتهم التي أهَّلتهم للهدى والفلاح، عقَّبهم بأضدادهم العتاة، الذين لا ينفع فيهم الهدى، والتي لا تغني عنهم الآيات والنذر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي إن الذين جحدوا وحدانية الله، وكفروا بآياته، وكذبوا رسوله محمداً ﷺ يتساوى عندهم الإنذار وعدم الإنذار، ولهذا قال بعده ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي سواء أخوَّفتهم يا محمد من عذاب الله، أم لم تخوفهم فإنهم لا يؤمنون، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، والمراد بهم أناس بأعيانهم، كأبي لهب، وأبي جهل، وأُبيّ بن خلف، وأمثالهم، أو هي للجنس تتناول من صمَّم على الكفر ومات عليه، والكفر في اللغة: السترُ، ويسمى الزارع كافراً لأنه يستر الحب في الأرض، كقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي الزُّرَّاع، وسمي الكافر كافراً لأنه يستر نعمة الله ويخفيها، والكفر في الشرع: إنكار الضروريات من الدين مما اشتهر عند الخاصة والعامة، كإنكار الصلاة وتحريم الخمر ونحوهما، والكافرون أقسام: منهم من يعرف الحق وينكره عناداً، ومنهم من لا يعرف ولا يريد أن يعرف، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿إن شرَّ الدوابِّ عندَ الله الصُمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون﴾[1] فهؤلاء كلما صاح فيهم

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٢.

الحقُّ نفروا وأعرضوا، وسبب ذلك أنهم لم يستعملوا عقولهم في فهم الحق، ومنهم من مرضت نفسه، واعتلَّ وجدانه، فلا يذوق للحقِّ لذة، ولا تجد نفسه فيه رغبة، وهذا القسم كثير في كل زمان ومكان، لأنهم اتبعوا الهوى، واتباعُ الهوى يعمي الإنسان.

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان، والختمُ: الكتْمُ، سُمي به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه، كالختم على الكتب والأبواب، وليس المراد به القفل على قلوبهم، بل إحداث حالةٍ تجعلها ـ بسبب تماديهم في الغيّ وإعراضهم عن منهج النظر الصحيح ـ بحيث لا يؤثّر فيها الإنذار، ولا ينفذ فيها الحق كما قال تعالى: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾. ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ عطفٌ على ما قبله داخل في حكم الختم، أي ختم على قلوبهم وختم على سمعهم، بدليل قوله سبحانه ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾(1) والسمع يطلق على العضو الحامل للقوة السامعة، وهو المراد هنا إذ هو المختوم عليه ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ أي وجعل على أبصارهم غطاء، يحجب عنهم رؤية نور الحق، فلا يبصرون هدى، ولا يفقهون ولا يعقلون.

وللإنسان بصرٌ وبصيرة، فالبصرُ يُبصرُ بهِ الأضواءَ، والبصيرةُ هي القوةُ العاقلة التي يُدرك بها الحقائق، ويعرف بها المنافع من المضار، ونورُ البصيرة أكمل من نور البصر، ولهذا قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾(2) ثم ختم الآية بقوله سبحانه:

---

(1) سورة الجاثية، آية: ٢٣.

(2) سورة الحج، آية: ٤٦.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب دائم مستمر لا ينقطع، بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾.

لما ذكر تعالى صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر بعدها صفات المنافقين، وهم الصنف الثالث من البشر، أشرُّ خلق الله، لأنهم يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وهم أخبث الكفرة، لأنهم خلطوا بالكفر الاستهزاء والخداع، ولذا طوّل تعالى في بيان خبثهم وطغيانهم، وفجورهم واستهزائهم، وضرب لهم الأمثال، توضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من النفاق والضلال، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الناسُ، اسم جمع لإنسان، مأخوذ من الأنس ضد الوحشة، لأنسه بجنسه من البشر، كما قالَ الشاعر:

وما سُمِّي الإنسانُ إلاَّ لأُنسِهِ ولا القلبُ إلاَّ أنه يتقلَّب

أي ومن الناس فريق ضُلَّال، يقولون بألسنتهم آمنا بالله، وبما أُنزل على رسوله من الآيات البينات، وصدَّقنا بالجزاء والحساب، والبعث والنشور ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وليسوا بصادقين في دعوى الإيمان، لأنهم يقولون تمويهاً على المؤمنين واستهزاءً، والمراد باليوم الآخر يوم القيامة، الذي هو يوم البعث والجزاء.

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يعملون عمل المخادع لله وللمؤمنين، بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، والخِداعُ: أن يوهم صاحبه بخلاف ما يضمره له من المكروه، ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب، ونسبةُ الخداع إلى الله تعالى: ﴿يُخَادعونَ الله﴾ إما على طريق الاستعارة التمثيلية أي يعملون عمل المخادعين لله، شبَّه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان

وإخفاء الكفر، بحال رعيةٍ تخادع السلطان، والله سبحانه لا يُخدع لأنه لا تخفى عليه خافية، وإما أن يكون المراد خداعهم للرسول أي يخادعون رسول الله، ونُسب إلى الله إبانةً لمكانته عنده تعالى، فمخادعته كأنها مخادعة لله لأنه رسوله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[1] ولهذا سفَّه صنيعهم، وأزرى بعقولهم فقال: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وهم في الحقيقة إنما يخدعون أنفسهم، لأن وبال فعلهم راجع عليهم، يظنون ـ بجهلهم ـ أنهم يخدعون الله والمؤمنين، وما دروا أنهم يضحكون على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يحسُّون بذلك، ولا يفطنون له، لتمادي غفلتهم، وتكامل حماقتهم، لفقدان الشعور والإحساس، ونفيُ الشعور نهايةُ الذم، لأن من لا يشعر البديهي المحسوس، مرتبته أدنى من مرتبة الحيوان.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ أي في قلوبهم شكٌّ ونفاق، فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، والجملة وردت مورد الدعاء أو الخبر.

قال عبد الرحمن بن أسلم: هذا مرضٌ في الدين، وليس مرضاً في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام، وقرأ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2].

والمرضُ: أصله ما يعرض للبدن، فيخرجه عن حدِّ الاعتدال،

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.
(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٥.

ويوجب الخلل في أفعاله، ويطلق على مرض القلب، ممَّا يخلُّ بكمال الإنسان، كالحسد، والنفاق، وسوء الاعتقاد، وغير ذلك، ولا شك أن قلوب المنافقين ملأى من تلك الخبائث، ومرضُ القلب أخطر من مرض الجسد، لأن مرض البدن يُشفى بالدواء، ومرضُ القلب لا يشفيه إلاَّ نار الجحيم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع، يصل ألمه إلى قلوبهم.

قال ابن عباس: كلُّ شيء في القرآن أليم فهو بمعنى موجع[1]. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بسبب كذبهم على النبي والمؤمنين في قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهم غير مؤمنين، وترتيب العذاب على الكذب، للإشعار بنهاية قبحه، وللتنفير عنه، فإنه صفة غير المؤمنين كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾[2] والكذبُ: هو الإخبار بأمر على خلاف ما هو عليه، وهو حرام لأنه من الكبائر، وقد علَّل به سبحانه استحقاق العذاب، حيث ترتَّب عليه.

وكلُّ مقصودٍ محمود يمكن التوصلُ إليه بالصدق، فالكذب فيه حرامٌ، لعدم الحاجة إليه، ويباح في أمور صرَّح بها الحديث الشريف وذلك في ثلاث مواطن: «في الحرب، وإصلاح ذات البين، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها»[3] فينبغي أن يقابل المفسدة المترتبة على الصدق، فإن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥١.

(٢) سورة النحل، آية: ١٠٥.

(٣) أشار المصنف إلى الحديث الشريف الذي رواه الترمذي عن أسماء بنت يزيد في كتاب البر رقم ١٩٣٩ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ الكذبُ إلا في ثلاث: يُحدِّث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، فإن الحرب خدعة، والكذب ليصلح بين الناس» وفي البخاري ٥/ ٢٢٠ في الصلح «ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيراً، أو ينمي خيراً» ومعنى حديث الرجل امرأته لإرضائها، كأن يكون=

كانت المفسدة في الصدق أشد ضرراً فله الكذب، وإن كان عكسه أو شَكَّ حرم الكذب.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ شروع في تعديد بعض قبائحهم، وأعمالهم الشنيعة، و«إذا» ظرف زمان، وهي تدخل في الأمر المحقَّق، أو المرجح وقوعه، وإذا جاءت مع الماضي كان معناها المستقبل، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَىٰ﴾ وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ﴾ أي حين مجيء النصر في المستقبل، والمعنى: وإذا قال بعض المؤمنين لأولئك المنافقين: لا تسعوا في الأرض بالفساد، بإثارة الفتن، والصدِّ عن سبيل الله، والاستهزاء والسخرية بالمؤمنين، وإطلاع الكفار على الأسرار، وأمثال ذلك ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أي نحن مقصورون على الإصلاح، ليس شأننا الإفساد أبداً، وهذا إمَّا ناشىءٌ عن جهلٍ مركب، حيث اعتقدوا الفساد صلاحاً، فأصرُّوا واستكبروا، وإمَّا جارٍ على عادتهم في الكذب لما في قلوبهم من المرض، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[1] والصلاح يتناول جميع أقسام البِرّ، كما أن الفساد يتناول جميع أنواع الإثم، فمن عمل بغير أمر الله فهو مفسد، ولهذا ردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

---

= عند إنسان زوجتان، فتقول إحداهما: إنك تحبُّ ضرتي أكثر مني، فيقول لها: لا، بل أنت أغلى عندي منها، ويكون غير صادقٍ في هذا الكلام، فأباحه الشرع لاستدامة الحب بين الزوجين، لئلا تنقلب حياته إلى جحيم، إن أخبرها أنه يحبُّ فعلاً زوجته الأخرى أكثر منها، ولا يجوز أن يستعمل الكذب معها في جميع الأمور، فتنبه والله يرعاك.

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ والجملة دالة على سخطٍ عظيم، حيث صُدّرت بحرفَيْ التأكيد «ألاَ» المنبّهة، و«إنَّ» المؤكدة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل «هم» والاستدراك «ولكنْ» وكلُّ ذلك للردِّ عليهم أبلغ ردٍّ، أي ألا فانتبهوا أيها الناس، فإنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكن لا يفطنون ولا يُحسّون، لانطماس نور البصيرة فيهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾أي وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيماناً صادقاً، لا يشوبه نفاق ولا رياء، كما آمن أصحاب محمد ﷺ، وأخلصوا إيمانكم وطاعتكم لله.

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ﴾ أي قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة؟ يريدون بذلك الصحابة الكرام، وإنما نسبوهم إلى السفه، مع أنهم في الغاية القاصية من الرشد، والرزانة والوقار، لمنتهى غبائهم، حيث نسبوا قلة العقل إلى أولئك العقلاء أصحاب رسول الله ﷺ، وأرادوا بذلك تحقير شأنهم، فإن كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء[1].

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[2] ردَّ الله عزَّ وجلّ أبلغ ردٍّ،

---

(١) نسبوهم إلى السَّفه سخرية وتهكماً، لأنهم كانوا يعدُّون المؤمنين مجانين، لاتّباعهم لرسول ﷺ، وقد كان معظم أصحاب النبي ﷺ فقراء وضعفاء، وبعضهم كان من الموالي والعبيد، ومن غير العرب، كبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وكان المشركون والمنافقون يسخرون منهم ويهزؤون، وكان أبو جهل إذا رآهم قال لجماعته: أتاكم ملوك الدنيا، فلذلك كانوا يسمونهم سفهاء.

(٢) لننظر إلى روعة البيان في تعبير القرآن، فقد جاءت الجملة مؤكدة بأربعة تأكيدات «ألاَ» التي تفيد التنبيه والتحذير، و«إنَّ» التي تفيد التأكيد، وضمير الفصل «هم» ثم =

وجُهّلوا أشنع تجهيل، حيث جعلت الجهالة والسفاهة مقصورة عليهم، فإن الجاهل بجهله، الجازم بخلاف ما هو الواقع، أعظم ضلالة، وأتم جهالةً من المعترف بجهله، فإنه ربما يعذر، وتنفعه الآيات والنُّذُر، وإنما ختمت الآية بـ «لا يعلمون» والتي قبلها بـ «لا يشعرون» لأنه أكثر مطابقةً لذكر السفه، لأن الوقوف على أمر الدين، والتمييز بين الحق والباطل، مما يفتقر إلى نظرٍ وتفكر، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والعناد، فإنما يُدرك بأدنى تفطن وتأمل، فيما يشاهد من أقوالهم وأفعالهم.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ ليس هذا بتكرار، وإنما هو بيانٌ لطريقة المنافقين، حسب تباين المخاطبين، لأن معنى الآية الأولى: ومن الناس من يتفوّه بالإيمان، نفاقاً للخداع، وهنا عند ملاقاتهم للمؤمنين، لدفعهم عن أنفسهم، فقد ضمُّوا إلى الخداع الاستهزاءَ، ولهذا قيّده باللقاء هنا، أي إذا رأوا المؤمنين وصادفوهم، أظهروا لهم الإيمان والموالاة، نفاقاً ومصانعة. ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم في الكفر، المماثلين للشياطين في التمرد والعناد، قالوا لهم: نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ

---

= تعريف الخبر «السفهاء» ثم ختمت بالاستدراك «لكنْ» لتسجّل عليهم غاية السفه والجهالة في صنيعهم المنكر ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ ولما كان الفساد يدرك بالبديهة، دون جهد وتعب قال هناك ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ ولما كانت خفة العقل وسفه الرأي، يحتاج إلى نظر وتفكر قال هنا: ﴿ولكنْ لا يعلمون﴾ فما أدقّ التعبير القرآني المعجز!.

﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي إنما نسخر ونستهزىء بالمؤمنين، بإظهار الإيمان لهم، لنكسب وُدَّهم، قال تعالى ردّاً عليهم:

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم، بإمهالهم ثم بالنكال بهم، والاستهزاء في اللغة: السخريةُ والاستخفاف، وأصله من الخفة، لأن من كان خفيف العقل، سخر واستهزأ من غيره، سمَّى تعالى جزاءهم باسم الاستهزاء على سبيل المقابلة.

**قال الحافظ ابن كثير**: هذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم، وعقابه لهم، مخرج خبره عن فعلهم، الذي استحقوا العقاب عليه في اللفظ، وإن اختلف المعنيان، كما قال سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فالأول ظلمٌ، والثاني عدلٌ، فهما وإن اتفق لفظهما لكنَّ معناهما مختلف، وإلى هذا وجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر، فأخبر تعالى أنه يستهزىء بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، خلاف الذي لهم عنده في الآخرة من العذاب والنكال، وقد وجه ابن جرير هذا القول ونصره، لأن المكر، والخداع، والسخرية، على وجه اللعب والعبث، منتفٍ عن الله عزَّ وجلّ بالاجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة، فلا يمتنع ذلك[1].
﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَسْتَهزِىءُ بِهِمْ﴾ كالبيان له، أي يزيدهم ويقوّيهم، من مدَّ الجيش وأمدَّه: إذا زاده وقوَّاه، وقيل: لفظ مدَّ في الشرّ، كقوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدّاً﴾ وأمدَّ في الخير، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ والمراد به هنا الأول الذي هو معنى الشرّ، أي نزيدهم في ضلالهم وكفرهم، يتخبطون ويتردَّدون حيارى، لا يهتدون إلى طريق، ولا يعرفون الهدى، ولا يبصرون الرشد،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤.

لأن الله تعالى طبع على قلوبهم، وأعمى أبصارهم، ونسبةُ المدِّ إلى الله تعالى حقيقةٌ يقينية، لأن جميع الأشياء مستندةٌ من حيثُ الخلق إلى الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ والطغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ أي لمَّا جاوز الماء الحدَّ، وبلغ رؤوس الجبال، حملناكم في السفينة، وإنما أضيف الطغيان إليهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ لأنه فعلهم، ومعنى «يَعْمهون» أي يتردّدون في أمور آخرتهم، لا في كفرهم لأنهم مصرُّون عليه، ومعتقدون أنه الحق، وأصل العمه: التردُّدُ والتحيُّرُ، والعَمَهُ يكون في البصيرة، كما أن العمى يكون في البصر، كما قال سبحانه: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي أولئك الأشقياء السفهاء، هم الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، فنبذوا الهدى وأخذوا الضلالة، ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ أي فما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، بل خابوا وخسروا، وما كانوا راشدين في صنيعهم، لأن الغرض من التجارة الربح، فإذا ضيَّع الإنسان رأس المال مع الربح، فهذا أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء، بل هو أخسر الخاسرين، لأنه فقد جميع الثروة. شبَّه تعالى تركهم الإيمان وأخذهم الكفر، بإنسانٍ اشترى بضاعة، فدفع فيها ثمناً كبيراً، ثم ذهبت التجارة مع الربح، فعظمت خسارته، واشتد حزنه، كمن اشترى قطعة نحاس، ظنها جوهرة شريفة بكلِ ما يملك، فإذا عرضها على أهل الصنعة، وظهر زيفُها، خاب سعيُه، وفات أملُه، فأصبح من النادمين.

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ثم ضرب تعالى مثلاً للمنافقين، توضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق فقال جل شأنه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي حالتهم العجيبة، التي تشبه المثل في الغرابة، كمثل شخص أوقد ناراً، ليستضيء بها ويستدفيء، فما اشتعلت تلك النار حتى انطفأت، في وقتٍ هو أحوج ما يكون إليها ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله، فأبصر وأمِن، واستأنس بتلك النار المضيئة، أطفأها الله بالكلية، فخمدت النار، وعُدم النور ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ أي وتركهم في ظلماتٍ كثيفة، بعضُها فوق بعض، يتخبطون فلا يهتدون إلى الطريق، ولا يرون ما حولهم.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي هؤلاء المنافقون كالصُمِّ لا يسمعون خيراً، وكالبكم - أي الخُرس - لا يتكلمون بشيء ينفع، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، فهم لا يرجعون عن الضلال إلى الهدى، وفي الآية تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، أي هم كالصم والبكم والعمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس. وجمع الظلمات لتعددها في الواقع، ظلمةُ الكفر، وظلمةُ النفاق، وظلمةُ سَخَط الله تعالى، وظلمةُ عقابه السرمدي، أي وتركهم في ظلمات حالكة لا يبصرون ما حولهم، متحيرين، كالتائهين عن الطريق وهم خائفون[1].

---

(١) أشار تعالى إلى أن حال المنافقين العجيبة، وهي اشتراؤهم الضلالة - وهي عبارة عن ظلمة الكفر والنفاق - بالهدى الذي هو النور الفطري، المؤيد بما يشاهدونه من دلائل الحق، كحال من استوقد ناراً حتى كاد ينتفع بها، فأطفأ الله تعالى تلك النار، وتركهم في ظلمات يتخبطون، لا يعرفون طريق النجاة، والتشبيه في غاية الإبداع، لأنهم =

والصَّمَمُ: داءٌ في الأذن يمنع السمع، والبَكَمُ: داءٌ في اللسان يمنع الكلام، والعمى: عدمُ الرؤية لما من شأنه أن يُبصر، وُصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم، لما أنهم سدُّوا مسامعهم، عن الإصاخة لما يُتلى عليهم من الآيات، وأبوا أن يتلقوها بالقبول، ولم ينطقوا بألسنتهم بها، ولم يجتلوا بصائرهم بما شاهدوا من المعجزات، وأصرّوا على ذلك، فصاروا كفاقدي تلك المشاعر، وهذا من التمثيل البليغ[1]، ﴿فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ أي فهم لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه، متحيِّرون لا يدرون كيف يرجعون!؟.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

= بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة، لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.

قال ابن القيم رحمه الله: تأمل قوله تعالى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل: ذهب الله بنارهم، مع أنه مقتضىٰ السياق لمطابقة أول الآية ﴿استوقد ناراً﴾ فإنه النار فيها إشراقٌ وفيها إحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى ما فيها من الإحراق وهو النارية!! ثم تأمل كيف قال: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل: بضوئهم، لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل!! وتأمل كيف قال: ﴿وتركهم في ظلمات﴾ فجمعها ووحَّد النور، فإن الحق واحد، وطرق الباطل متشعبة ومتعددة، والحقُّ هو صراط الله المستقيم، الذي لا طريق يوصل سواه!!.

(١) لا يمكن حمل الآية على ظاهرها، فالمنافق والكافر له سمع وبصر، وقدرة على الكلام، ولكنَّ الآية على التشبيه، أي هم كالصمِّ لا يسمعون خيراً، وكالخرس لا يتكلمون بما ينفع، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، فالآية على التشبيه البليغ، وهذا معنى قول ابن عباس: لا يسمعون الهدى ولا يعقلونه، وانظر تفسير ابن كثير ١/٥٧.

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله للمنافقين أي كمثل أصحاب صيِّب أي أصحاب مطر، وهو تمثيل إثر تمثيل، ليعمَّ البيان، فإنَّ تفننهم في فنون الكفر والضلال، حقيق بأن يضرب في شأنهم الأمثال، والصيّبُ: من الصَّوْب، وهو شدةُ الانسكاب، وهو المطر النازل بشدة الذي له وقع وتأثير، يطلق على المطر والسحاب، وتنكيره لما أنه له وقع وتأثيرٌ شديد هائل، والسماء: ما نشاهده فوقنا كقبة زرقاء، محيطة بالأرض من الفضاء الواسع، ويطلق على كل ما علاك فأظلَّك كسقف البيت، وتعريفه باللام للإيذان بأن انبعاث الصيِّب، ليس من أفقٍ واحد، فإن كل أفق من آفاقها سماء، فالمعنى أنه صيِّبٌ عام، نازل من غمامٍ مطبق، آخذٍ بالآفاق ﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ ﴾ أي في الصيب يعني المطر ظلماتٌ، فظلماته تكاثفه بتتابع القطرات، وظلمة غمامه، مع ظلمة الليل وجَعَله محلاً لها مع المبالغة، لشدته تهويلاً لأمره، وإيذاناً بأنه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته، ظلمات الليل والغمام، والرعدُ: هو صوت يُسمع من السحاب عند اجتماعه أحياناً، والبرقُ: هو ما يلمع من السحاب، من بَرق الشيءُ بريقاً أي لَمَع، والتنوينُ للتفخيم والتهويل، كأنه قيل: ورعدٌ قاصف، وبرقٌ خاطف، وقيل: الرعد والبرق يحدث عند احتكاك أجرام الهواء، وهذا قول أهل الهيئة وجميع ما يظهر من الآثار العلوية والسفلية، من إرادة الإلّه الواحد القهار. قال الله تعالى: ﴿ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ وعن ابن عباس قال: سألوا النبي ﷺ عن الرعد فقال: «مَلَكٌ من الملائكة موكل بالسحاب»(١) الحديث والمراد به الإشارة إلى أن

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١١٧ ولفظه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أقبلت يهودُ إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرْنا عن الرعد ما هو؟ قال: مَلَك من الملائكة، موكَّلٌ بالسحاب، معه مخاريقُ - أي آلة - من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي نسمع؟ قال: زجرُه بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أُمر، قالوا: صدقتَ. . . وذكر تمام الحديث.

هذه المظاهر الكونية، تقع بفعل ملَكٍ موكّلٍ بالسحاب، وأما حقيقة الرعد والبرق والصاعقة، وأسباب حدوثها، فليس من مباحث القرآن الكريم، لأنه من العلوم الطبيعية، وحوادثُ الجو لا تتوقف على الوحي، وإنما تذكر الظواهر الطبيعية، لأجل الاعتبار والاستدلال ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾ الضمير لأصحاب الصيّب، وهو وإنْ حُذف لفظُه، وأقيم الصيّبُ مقامه، لكنَّ معناه باق، ويمكن أن يكون هذا إيماءً إلى فرط دهشتهم، وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح، على النهج المعتاد، وكذا الحال في عدم تعيين الأصابع ﴿ مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ ﴾ أي من أجل الصواعق، والصاعقة قصفة رعد هائل، تنقضُّ معها شقة نار، لا تمرُّ بشيء إلاّ أتت عليه، من الصَّعْق وهو شدة الصوت، وتطلق على كل هائل مسموع، صَعِقَ من باب تَعِب، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللهمَّ لا تقْتلنا بغضبك، ولا تُهلكنا بعذابك، وعافنا قبلَ ذلك»[1] . ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ الحَذَرُ: شدةُ الخوف والتوقي من الضر ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ ﴾ علماً وقدرة ﴿ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط، ولا يخلِّصهم الخداع والحيل. شبَّه شمول قدرته تعالى لهم بإحاطة المحيط في استحالة الفوت، والجملة منبهةٌ على أن ما صنعوا من سد الآذان لا يغني عنهم شيئاً، ووضعُ الكافرين موضع الضمير للإيذان بأن ما دَهَمهم بسبب كفرهم.

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ ﴾ يقرب، وكاد من أفعال المقاربة، يستعمل لتقريب الفعل يعني لمقاربة الخبر من الوجود، فقولنا كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعله لكنه ما فعله ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ أي يأخذها بسرعة، والخطفُ: الأخذُ بسرعة، واختطف وتخطَّف مثله ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾ كل: اسم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم ٣٤٤٦ باب ما يقول إذا سمع الرعد، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وأخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم من طرق متعددة، وانظر جامع الأصول ٤/ ٣٢٠.

موضوع لاستغراق الأفراد أو لعموم أجزاء الواحد، ولا يستعمل إلا مضافاً لفظاً أو تقديراً، وتفيد التكرار بلحوق «ما» المصدرية الظرفية، كلما أتاك زيد فأكرمه والمفعول محذوف بمعنى كلما نوَّر لهم ممشىً مشوا فيه، بخطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم، والمشي جنس الحركة فإذا اشتدَّ فهو السعي، فإذا زاد فهو العَدْوُ، وإيثار المشي على ما فوقه من السعي والعَدْو، للإشعار بعدم استطاعتهم له ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي خفي البرقُ واستتر، وإنما قال مع الإضاءة «كلما» ومع الإظلام «إذا» لأنهم حِراصٌ على المشي، فكلما صادفوا فرصة انتهزوها ﴿قَامُواْۚ﴾ أي وقفوا في أماكنهم، مترصدين لخفقة أخرى ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لو من حروف الشرط، وظاهرها الدلالة على انتفاء الأول لانتفاء الثاني، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه، وكلمة لو لتعليق حصول أمرٍ هو الجزاءُ، بحصول أمرٍ هو الشرطُ، لما بينهما من الدوران وفائدة هذا الشرط إبداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم، مع قيام ما يقتضيه، والتنبيه على أن تأثير الأسباب مشروط بميشئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته تعالى ﴿لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ أي لو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد، وأبصارهم بوميض البرق، لذهب بهما، ولكن لم يشأ لما تقتضيه الحكمة والمصلحة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليلٌ وتقريرٌ لمضمون الآية، الناطقة بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم، أي إن الله تعالى قادر على كل شيء، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، فإذا أراد أن يذهب بحواسهم، أو يهلكهم عن بكرة أبيهم، لا يقف في وجهه شيء، لأنه قادر على كل شيء. والمراد من قدرة الباري نفيُ العجز عنه، والقديرُ أبلغ من القادر، وهو الفاعل لما يشاء على ما تقتضيه الحكمةُ، والمقتدرُ يقاربُه لكنْ قد يوصف به البشر(١).

---

(١) شبَّه الله عزَّ وجلّ حال المنافقين في حيرتهم، وما خبطوا فيه من الضلالة، وما وصلوا إليه من الخزي والافتضاح، بحال من أخذته السماء في ليلةٍ مظلمةٍ، وكان في صحراء=

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

لمَّا عدَّد تعالى فرق البشر، من المؤمنين، والكفار، والمنافقين، وبيَّن صفاتهم وأحوالهم، وما تميَّزوا به من سعادة أو شقاوة، وضرب للمنافقين الأمثال، ووضَّح لهم طرق الضلال، أعقبه بذكر الأدلة والبراهين، على وحدانية رب العالمين، وعرَّفهم بنعمه الجليلة ليعبدوه ويشكروه، فأقبل عليهم بالخطاب بقوله ﴿يا أيها الناسُ﴾ وهو خطاب عام لجميع الفئات، هزّاً لهم إلى الإصغاء، وتنشيطاً لهم واهتماماً بأمر العبادة[1]، والنداء فيه تكريم وتشريف للبشر، حيث يخاطبهم ربُّ العزة والجلال، بما يسعدهم في الحال والمآل، ولهذا جاء الخطاب بهذه الصيغة الجليلة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي يا معشر

---

= مفزعة، وانهمر عليه المطر بشدة وغزارة، ومع المطر رعدٌ قاصف، وبرق خاطف، يكاد يذهب ببصره، من شدة ضوئه ولمعانه، وأصبح يكابد شدائد وأهوالاً، خوفاً من الصواعق المحرقة، والرعد الهائل، والبرق الخاطف، أضاعت هذه الأهوال رشده، فأصبح يضع أصابعه في أذنيه، لينجو من هذه الكوارث والبلايا، ولينجو من الموت الذي ينتظره، ولكن هيهات أن يدفع عنه هذا شبح الموت أو خطر الصواعق، ويا له من تمثيلٍ عجيب، رائع في الإبداع والتمثيل!!.

(١) قال البيضاوي في تفسيره ١٨/١: لمَّا عدد تعالى فِرَق المكلَّفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع، وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة، وتفخيماً لشأنها، وإنما كثر النداء في القرآن بقوله تعالى: ﴿يا أيها﴾ لاستقلاله بأوجه عديدة من التأكيد، لأن كل ما نادى الله به عباده، أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها، وأكثرهم عنها غافلون، حقيق أن يُنادى لها بالآكد الأبلغ. اهـ.

البشر، اعبدوا ربكم العظيم الجليل، الذي خلقكم من العدم، وربَّاكم بأنواع النعم، وخلق آباءكم وأجدادكم، ومن سبقكم من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي راجين أنتم بعبادتكم لربكم، أن تدخلوا في سلك المتقين، الفائزين بالهدى والرضوان في جنات النعيم. والآية تدلُّ على أنَّ الطريق إلى معرفة الله، واستحقاقه للعبادة، هو النظر في خلقه وصنعه، فإن كل ما في الكون ناطق بعظمة الله، شاهد على ألوهيته ووحدانيته، ويا شقاوة من أنكر وجود الله، وكل ما حوله من مخلوقات، شاهدة على وجوده ووحدانيته، كما قال القائل:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنه واحد

وبدأ تعالى بتذكيرهم بنعمة الخلق، ثم أعقبها بتذكيرهم بنعمة الرزق، فقال تقدست أسماؤه.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي جعل لكم الأرض مهاداً وقراراً، تفترشونها وتستقرون عليها كالبساط المفروش[1]، تنامون عليها وتبنون وتسكنون، ولو كانت نتوءات وارتفاعات كلها لما أمكن العيش ولا البناء عليها، فهي مع كرويتها فيها سهول واسعة، صالحة للزراعة والسكنى والاستقرار فوق سطحها، فسبحان من بسطها وكوَّرها!! والأرضُ مؤنثة جمعها أرضون، وأراضي، ولم يقع في القرآن جمعها لثقله، وكل ما أسفل فهو أرض، والفراشُ: ما يفرش أي ما يبسط لينام عليه

(١) جعلُ الأرض فراشاً من باب التشبيه أي جعلها كالفراش لكم، تنامون عليها وتزرعون وتسكنون، وليس في الآية ما يدلُّ على أنها مسطَّحة غير كروية، فإن كروية شكلها مع عظم حجمها، يجعلها كأنها مستوية منبسطة، ولنضرب مثلاً، القبةُ بالنسبة إلى النملة، ترى كل طرف منها مستوياً، فاتساع جرم الأرض يجعلها كأنها منبسطة، وهي كروية قطعاً، كما نبَّه علماؤنا السابقون على ذلك، وانظر كتابنا «حركة الأرض ودورانها» والأدلة الوافية فيها.

﴿والسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ البناء مصدر سمي به المبني بيتاً كان أو قبةً، وإرادة الفلك المخصوص غير بعيدة، نظراً إلى القدرة الإلّهية، وقدَّم سبحانه حال الأرض، لما أنَّ احتياجهم إليها، وانتفاعهم بها أكثر، وإذا تأملت في هذا العالم، وجدته كالبيت المعدِّ فيه كل ما يُحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مبسوطةٌ كالفراش، والنجوم منورة كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت، وما فيها من أنواع الحيوانات والنباتات مهيأة لمنافعه، فهذه جملة دالة على أن العالم مخلوق بتدبيرٍ كاملٍ، وحكمةٍ بالغة، دالة على خالقه وصانعه ﴿وأنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً ﴾ المراد من السماء جهة العلو، والسحاب، فالمطر ينزل من السحاب ومنه إلى الأرض[١] والمعروف أن الشمس إذا طلعت أثارت من البحار بخاراً رطباً فإذا صعد البخار إلى طبقة الهواء تكاثف، فإذا كان البرد لم يكن قوياً اجتمع وتقاطر، فالمجتمعُ سحابٌ والمتقاطر مطرٌ، فإن كان قوياً كان ثلجاً أو بَرَداً، وعلى هذا يراد بالنزول: نشأتُه من أسباب سماوية، وإنزالُه من السماء الحقيقية بعيدٌ، لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قمة جبلٍ عالٍ، ويرى السحاب أسفل منه، فإذا نزل من ذلك الجبل، رأى المطر نازلاً على البشر، وإذا كان هذا أمراً مشاهداً، كان النزاعُ فيه من باب العناد، على أنَّ من انجاب عن عين بصيرته سحابُ الجهل، رأى أنَّ كل ما في هذه الأرض، نازل من سماء القدرة الإلهية، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[٢] فالكلُّ فعلُ الله وتدبيرُه ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُم﴾ أي

(١) هذا أمرٌ قطعي بنص آيات القرآن ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلِّفُ بينه ثم يجعله ركاماً فترى الوَدْق ـ أي المطر ـ يخرج من خلاله﴾ وقال تعالى: ﴿أأنتم أنزلتموه من المزنِ أم نحن المنزلون﴾ والمزنُ جمع مُزنة وهي السحابة، وإنما قال سبحانه: ﴿من السماء﴾ لأن كل ما علاك فأظلّك فهو سماء.

(٢) سورة الحِجر، آية: ٢١.

فأخرج لكم ربكم بذلك المطر، أنواع النبات والثمر، وأخرج لكم الحبوب والفواكه والخضار، رزقاً منه تعالى لكم، وجعلها سبباً لحياتكم ومعاشكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فلا تعبدوا معه غيره، ولا تشركوا به شيئاً، من صنم، أو بشرٍ، أو حَجَر، وأنتم تعلمون أن هؤلاء الشركاء «الأنداد» الذين اتخذتموهم من دون الله، لا يخلقون ولا يرزقون، وأن الله وحده هو الرزَّاق ذو القوة المتين. والنِدُّ في اللغة: هو المثيلُ والنظيرُ، وسمَّى تعالى ما يعبدون من دون الله أنداداً، مع أنها لا تماثل الله عزَّ وجلَّ ولا تشابهه، سخريةً وتهكماً بهم، فإنهم لمَّا عبدوها من دون الله، وسمَّوْها آلهة، شابهت حالهم حال من يعتقد أنها قادرة على الخلق والرزق، فكأنها تماثل الله في الربوبية والألوهية، وهذا نهاية الذم والتقبيح لهم، وفي ذلك يقول موحِّد الجاهلية «زيد بن نُفَيل»:

أَرَبّـاً واحـداً أمْ ألـفَ ربٍّ ... أَدِيـنُ إذا تُقُسِّـمتِ الأُمُـورُ
تـركـتُ الـلاَّتَ والعُـزَّى جَميعَـاً ... كَـذَلـكَ يفعـلُ الـرجـلُ البَصِيـرُ

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر تعالى أدلة الإيمان والتوحيد، في مخلوقاته ومصنوعاته، أبرز لهم «معجزة القرآن» بأنصع بيان، وأوضح برهان، ليثبت لهم صدق رسالة محمد ﷺ، وليقتلع من قلوبهم جذور الشك والريب، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي إن كنتم أيها الناس في شك وارتياب، من أمر هذا القرآن، المعجز في نظمه وتشريعه وبيانه، الذي أنزلناه على خاتم الأنبياء، عبدنا ورسولنا محمد ﷺ، وهو رجل أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي فأتوا بسورةٍ واحدة

من مثل هذا القرآن، في حسن النظم، والفصاحة والبيان، والأمرُ هنا من باب التعجيز، كقول إبراهيم في محاجته للنمرود: ﴿فإنَّ الله يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ﴾ ومعنى «فأتوا» أي هاتوا وجيئوا، وإنما أضاف العبد إلى نفسه ﴿على عبدنا﴾ تشريفاً له وتعظيماً، وتنبيهاً على أنه عليه السلام هو الكامل في العبودية.

﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم من الإنس والجن، واستعينوا بمن شئتم غير الله تعالى، فإنه لا يقدر على الإتيان بمثله، إلاّ الله ربُّ العالمين، لأنه كلامه وهو الذي أنزله على خاتم المرسلين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم، أنه من نظم محمد، وأنه كلام مختلقٌ من عند البشر(١). كأنه قيل: إن كان الأمر كما زعمتم، كونه من كلام البشر، فأتوا بمثله، لأنكم تقدرون على ما يقدر عليه مصاقع الخطباء، من العرب أرباب الفصاحة والبيان، والسورةُ: طائفة من القرآن الكريم أقلها ثلاث آيات، والتنكير في «سورة» للتبكيت والتخجيل أي ائتوا بسورة أيّ سورة، والحكمة في تقطيع القرآن سوراً، تنشيطُ القارىء، وتسهيلُ الحفظ، والترغيبُ في تلاوته، إلى غير ذلك من

(١) لقد كان الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وما سافر إلى بلدةٍ لأجل التعلم، وما كانت بلدة مكة بلد العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم أتى عليه السلام بهذا القرآن المعجز من عند ربه، برهاناً على صدق نبوته، مشتملاً على أقاصيص الأولين، ومخبراً عن بعض الغيوب، كقوله سبحانه: ﴿الۤم غلبت الروم﴾، وقوله: ﴿لتدخلن المسجد الحرام﴾، وقوله: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ ونحو ذلك مما حدث ووقع كما أخبر، ثم إن القرآن قد اشتمل على كثير من العلوم الدينية والدنيوية، فمن أين لرسولِ الله ﷺ وهو أميٌّ أن يعرف هذا كلَّه، ثم إن هذه الآية ونحوها دلالة على إعجاز القرآن، لأنه عليه السلام تحدى مصاقع العرب، وفرسان البلاغة، على أن يأتوا بسورة واحدةٍ من مثله، فعجزوا وانقطعوا، فثبت بذلك إعجاز القرآن، ولا يزال القرآن يتحدى الأولين والآخرين، فكيف يكون من كلام أميٍّ من البشر، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، كما زعم المشركون؟!.

الفوائد ﴿من مثله﴾ أي بسورة كائنة من مثله، في علو الرتبة، وسمو الطبقة، والنظم الرائق، والبيان البديع، وحيازة سائر الإعجاز، وقد فارقت أساليب القرآن أساليبهم، ولذا عجزوا عنه، واعترفوا بفضله حتى قال الوليد في وصف القرآن: «والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطَلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإن أصله لمغدق، وما يستطيعه البشر»، ولأنه معجزٌ في نفسه قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرَاً﴾[1] أي معيناً وسنداً وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الدعاءُ: النداءُ والاستعانةُ، لأن الشخص إنما يُنادَىٰ ليستعان به، ومنه قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾[2]؟ أي استعينوا بمن شئتم من الإنس والجن غير الله تعالى.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ أي إذا عجزتم عن الإتيان بمثل سورةٍ منه، مع استعانتكم بالفصحاء والبلغاء، وعباقرة الأرض، ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على أن تأتوا بمثله، أو بمثل سورة منه ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ أي فاتقوا نار جهنم، التي وقودها وحطبها الذي تُشعل به، ليس كنار الدنيا من الفحم والحطب، وإنما وقودها البشرُ وحجارة الكبريت ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هيأها الله وأعدَّها لكل كافر فاجر، لا يؤمن برب العالمين[3].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٤٠.

(٣) قال الحافظ ابن كثير ١/٦٣: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم، بأن يأتوا بمثل سورةٍ من القرآن فعجزوا، تحداهم متفرقين ومجتمعين، وذلك أكمل في التحدي وأشمل، ثم أخبر خبراً قاطعاً جازماً، غير خائف ولا مشفق، أنهم لن يستطيعوا بقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾ و«لنْ» لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى حيث أخبر تعالى أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحدٍ، والقرآنُ كلام الله خالق كل شيء!؟ ومن تدبر القرآن وجد فيه من =

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعدَّه لأعدائه، الكفرةِ المكذبين، ذكر ما أعدَّه لأوليائه المؤمنين المتقين، على طريقة القرآن باقتران الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، فقال عزَّ سلطانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين المتقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، بشرهم بأن لهم حدائق وبساتين في جنان الخلد، تجري من تحتها قصورها ومساكنها أنهار الجنة، والبشارةُ هي الخبر السارُّ، الذي يظهر به أثر السرور في البشرة، والمأمور بالتبشير هو الرسول ﷺ، وتقديمُ الوعيد على الوعد، لأن الوعيد كالدواء، والوعدُ كالغذاء، فيقدَّم الدواء لينتفع بعده بالغذاء، وعطفُ العمل على الإيمان، للإشعار بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين، فإن الإيمان أساسٌ، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء لأساسٍ لا بناء عليه، والصالحات جمع صالحة، وهي من الأعمال ما سوَّغه الشرع وحسَّنه، وتأنيثها على تأويل الخصلة، ثم كون مناط البشارة مجموع الأمرين، لا يقتضي انتفاء البشارة بالإيمان المجرد كما رأى المعتزلة، على أن مفهوم المخالفة ظنيٌّ، لا يعارضُ النصوصَ الدالة على أن الجنة جزاء الإيمان، وفي الآية دليل على أن العمل خارجٌ عن مسمَّى الإيمان، لأن الأصل أنَّ الشيء لا يُعطف على نفسه، ولا على ما هو داخل فيه، والجنة مخلوقة لقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أنتَ وزَوجُكَ الجَنَّةَ﴾ وهي

---

= وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرةً وخفية، من حيث اللفظُ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح، في غاية نهايات الفصاحة والبيان، فثبت بذلك معجزة محمد عليه الصلاة والسلام.

مراتب شتى، ودرجات متفاوتة، على حسب تفاوت الأعمال، كما ورد في الحديث الشريف: «في الجنة مائةُ درجة، ما بين كلّ درجةٍ ودرجةٍ، كما بين السماء والأرض، والفردوسُ أعلاها درجة، فإن سألتم الله فاسألوه الفردوس»[1] ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي كلما أُعطوا عطاءً وأطعموا طعاماً من ثمار الجنة، وفواكهها الشهية، قالوا: هذا مثلُ الطعام الذي قُدِّم لنا قبل هذه المرة، قال الحسن: يُرزقون الثمرة، ثم يُرزقون بعدها مثل صورتها والطعم مختلف، فهم يتعجبون لذلك، فتقول له الملائكة: كلْ يا عبد الله، فاللونُ واحد والطعم مختلف. وقال ابن عباس: ليس في الجنة مما في الدنيا سوى الأسماء[2] ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أي جيء لهم بتلك الثمار، متشابهة في الشكل والمنظر، مختلفةً في الطعم والمخبر ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم في الجنة نساء من الحور العين، مطهرات من القذر والدنس، والحيض والنفاس، والبول والغائط، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً، عُرُباً أَتْرَاباً﴾، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي دائمون في الجنة، يعيشون في الجنة مع أزواجهم في هناءٍ خالد، دون زوال أو انقطاع. روى **مسلم في صحيحه** عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بالُ الطعام يا رسول الله؟ قال: جُشاءٌ ورشحٌ كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والتحميد، كما تُلهمون النَّفَس»[3] أي يُلهمون

---

(١) أخرجه الترمذي في باب صفة الجنة رقم ٢٥٣٣ وهو حديث صحيح.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿رُزقنا من قبلُ﴾ أي في الدنيا، وهذا قول مرجوح، لأن عامة أهل الجنة من الفقراء، وهم لم يشبعوا من الطعام في الدنيا، فكيف يشبعون من الفواكه والثمار؟.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٠.

التسبيح بدون تعب ولا جهد، لأن الجنة ليس فيها تكليف، فيصبح حال المؤمن في الجنة كالملائكة، وتكون العبادة طبعه وذوقه.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٦) ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٢٧) ﴾.

لمَّا مثَّل الله حال المنافقين وعُبَّاد الأصنام، في الوهن والضعف ببيت العنكبوت، وأخس قدراً من الذباب، قالت الجهلة من الكفار: الله تعالى أعلى وأجلُّ من أن يضرب الأمثال، ويذكر الذباب والعنكبوت(١)، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ترك من يستحي أن يمثّل بها لحقارتها، ولا يخفى على أحد أن التمثيل ليس إلا إبرازاً للمعنى المقصود، في معرض الأمر المشهود، لإدراك الحقائق الخفية، ولذا شاعت الأمثال في الكتب السماوية، كما مثّل في الإنجيل غلَّ الصدر بالنخالة، والقلوب القاسية بالحصاة، ومخاطبة السفهاء، بإثارة الزنابير، وجاء في كلام العرب: أسمعُ من قُراد، وأطيشُ من فراشة، وأعز من مخ البعوض، فيمثَّل الحقير بالحقير، كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان الممثِّل أعظم من كل عظيم، والحياءُ: تغيير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم، بين الوقاحة، التي هي الجرأة على

(١) في قوله تعالى: ﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ سورة الحج، وفي قوله في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أنداداً كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً. . .﴾ الآية.

القبائح، وبين الخجل الذي هو انحصار النفس عن الفعل مطلقاً؛ واشتقاق الحياء من الحياة، فإنه انكسارٌ يعتري القوة البشرية، فيردُّها عن أفعالها، وإذا وصف الباري تعالى كما جاء في الحديث: «إنَّ ربكم حَيِيٌّ كريمٌ، يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردَّهما صِفْراً»(١) فالمراد به أنه تعالى يستحيي أن لا يجيب دعاءه، ويردّه خائباً دون عطاء.

**قال ابن كثير**: أخبر تعالى أنه لا يستنكف عن ضرب الأمثال أيَّ مثلٍ كان، بأيّ شيءٍ كان، صغيراً كان أو كبيراً، لاشتمالها على الحكمة وإيضاح الحق، و«ما» هنا للتقليل فيصدق بأدنى شيء ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أي فما دونها في الصغر والحقارة، قاله الكسائي وأكثر المحققين، أو فما هو أكبر منها كالذباب والعنكبوت، لأنه لا شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة واختيار ابن جرير، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها(٢)، وفي الحديث الشريف «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، لما سقى كافراً منها شربة ماء»(٣).

والبعوضُ: صغارُ البقّ من عجيب خلق الله، فإنه في غاية الصغر، وله خرطوم مجوّف يغوصُ في جلد الفيل، والجاموس، والإنسان، وقرصته مؤلمة فقد ينقل مرض «الملاريا» من إنسان إلى إنسان ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾أي فأمَّا المؤمنون الصادقون فيعلمون أن هذا المثل حقٌّ، لأن الله حقٌّ لا يقول إلا الحق، فيتفكرون في هذا المثل العجيب، ويوقنون أن الله خالق الصغير والكبير، وأنه تعالى يضرب الأمثال بما شاء من المخلوقات فيؤمنون به ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾؟ أي وأما الكافرون الجاحدون،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٥٦ وحسَّنه الترمذي، وأخرجه أبو داود في باب الدعاء رقم ١٤٨٨ وزاد الترمذي: صُفْراً خائبتين.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٦٧.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد رقم ٢٣٢١ وابن ماجه رقم ٤١٠ ٢.

فيهزؤون ويسخرون، ويقولون: ماذا أراد الله بضرب المثل بهذه الأشياء الحقيرة؟ فيزدادون كفراً وضلالاً بإنكار أن يكون هذا المثل من عند الله، والاستفهامُ إمَّا لعدم العلم، أو للإنكار، وكلٌّ منهما يدل على الجهل دلالة واضحة كما قال القائل:

ومَـنْ قَـالَ للمِسْـك أَيـنَ الشَّـذَا      يُكَـــذِّبُـــه ريحُـــهُ الطَّيِّـــبُ

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أي يضل بهذا المثل الكفار الذين يَعْمون به، فينكرون أنه من عند الله، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحقُّ، لأن الغرض من ضرب المثل هو: التذكُّر والاعتبارُ، كما قال سبحانه ﴿وتلكَ الأمثالُ نضرِبُها للنَّاسِ لعلَّهمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيزداد المؤمنون هدى، والكافرون ضلالاً، وفي الآية ردٌّ على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي وما يُضل بهذا المثل الوارد في القرآن، إلا الفاسقين الخارجين عن طاعة الرحمن، وهم أهل الزيغ والضلال، من الكفرة والمنافقين. وأصلُ الفِسق: الخروجُ عن الشيء من قولهم: فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت، والفاسقُ في الشرع: الخارجُ عن طاعة الله عزَّ وجلّ، فيشمل الكفر وما هو دونه، وله درجات:

**الأولى**: السفه والخفة وهو أن يرتكب المعصية، معتقداً قبحها، لغلبة الشهوة على قلبه.

**الثانية**: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكاب المعصية، غير مبالٍ بها ولا مكترث.

**الثالثة**: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إيَّاها، مستحلاً لها، فإذا شارفَ هذا المقام، خلع ربقة الإيمان من عنقه، كمن يشرب الخمر معتقداً حلَّها أو يستحلُّ الربا، وما دام في الأوليين لا يُسلب عنه اسم المؤمن.

ثم فصَّل تعالى صفات هؤلاء الفاسقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾ النقضُ: فسخُ التركيب من الأمور الحسية، من بناءٍ، أو

حبلٍ، أو عهد، أي ينقضون كل عهدٍ وميثاق، من الإيمان بالله، والتصديق برسله، والعمل بشرائعه، من بعد ما وثّقوه على أنفسهم، من الالتزام والقبول، كاليهود والنصارى جحدوا صفات محمد، المذكورة عندهم في التوراة والإنجيل، وكتموا بيان الحق حسداً وبغضاً ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي قطعوا ما أمرهم الله به من عبادة الله، وإقامة شرائعه، وحفظ حدوده، وصلة الأرحام ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بأنواع البغي والفساد، وإثارة الفتن، وإشعال نار الحروب كما حكى تعالى عن اليهود: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ وأمثال ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي خسروا سعادتهم في الآخرة، حيث عرّضوا أنفسهم لعذاب جهنم المؤبّد، ولا خسارة أعظم ممن خسر دنياه وآخرته، وقصرُ الخسران عليهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم بإهمالهم للعقل، خسروا الحياة الأبدية.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ الأسلوب هنا أسلوب تقريع وتوبيخ ورد بطريق التعجيب، و«كيف» اسم استفهام، وهي هنا للاستخبار، منضماً إليه الإنكار والتعجيب، والمعنى: أخبروني على أيِّ حالٍ تكفرون بالله؟ ونِعَمُه عليكم لا تتناهى، وقدرته في خلقكم عجيبة؟ ثم فصَّل ذلك بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ أي وقد كنتم في العدم، نُطفاً وأخلاطاً في أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، لا حياة لكم ولا وجود، فأخرجكم إلى الدنيا أحياء، بنفخ الأرواح فيكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثم يحييكم بالبعث من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله وحده، للحساب والجزاء، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ، وكونُ الإماتة من دلائل القدرة

ظاهر، وأما كونها من النعم على البشر، فلكونها وسيلة إلى الحياة الثانية الأبدية، التي هي النعمة العظمى.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ثم ذكر تعالى برهاناً على الفضل والإنعام فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أي خلق لكم ومن أجلكم، جميع ما في الأرض، من بحار وأنهار، ونباتٍ وأشجار، ومعادن ومناجم، لتنتفعوا بها في أمور دنياكم، ولتعتبروا بها على أنه سبحانه هو الخالق الرازق، وهذه النعم المشاهدة تذكِّر بالمنعم جلَّ وعلا، وتشوّق النفوس، وتبعث الهمم على البحث والنظر، في كل ما خلق الله في هذا الكون، من مخلوقات وعجائب، ليشكر الإنسان ربه، ويستفيد بما أودعه الله فيها من منافع، تحقق له العيش الكريم على ظهر هذه الأرض، والمسلمون في العصور الأخيرة، صاروا وراء الأمم في العلوم الكونية، فجهلوا الأرض التي هم عليها، وضعفوا عن استخراج منافعها، فجاء الأجنبي يتخطفها من أيديهم وهم ينظرون، وكتابهم يصيح بهم منبهاً ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً﴾ ولكنهم صمٌّ عميٌ لا يعقلون، إلاَّ من رحم الله تعالى، فمتى يستيقظون؟! ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي قصد إليها بإرادته قصداً سوياً أي قصد إلى خلقها بعد خلق الأرض ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ أي صيَّرهنَّ وخلقهنَّ سبع سموات، محكمة البناء، واسعة الأرجاء، من غير عوج ولا فطور ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي وهو سبحانه عالم بكل ما خلق وأوجد، لا تخفى عليه خافية، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك، قادر على إعادتكم بعد الموت؟ ورد لفظ الاستواء في القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

**الأول**: بمعنى التمام والكمال، كما في قوله تعالى عن موسى: ﴿ولمَّا بلغ أشدَّه واستوى﴾ أي كمل ورشد.

**الثاني**: بمعنى العلوّ والارتفاع، وذلك إذا عُدّيت بـ«على» كقوله سبحانه: ﴿الرحمنُ على العرشِ استوَىٰ﴾ وقوله سبحانه ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهورِهِ ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي علوتم على ظهورها.

**الثالث**: بمعنى القصد إذا عُدّيت بـ«إلى» كما في هذه الآية ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي قصد إليها.

قال ابن كثير رحمه الله ١/ ٧١: ﴿ثم اسْتَوىٰ إلى السَّمَاءِ﴾ أي قصد إلى السماء، والاستواء هنا متضمن معنى القصد والإقبال، لأنه عُدّي بإلى، فسوَّاهن أي خلق السماء سبعاً، وتفصيلُ هذه الآية في سورة السجدة، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لتكفُرونَ بالَّذِي خَلَقَ الأَرضَ في يَوْمَيْنِ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فَقَالَ لها وللأرضِ ائتيَا طَوْعَاً أو كَرْهَاً قَالَتَا أَتَيْنا طَائِعِينَ﴾[1].

ودلالة خلق السموات على قدرة الله عزَّ وجلّ من وجوه:

**أولاً**: أنها واقفة معلَّقة بقدرة الله بدون عمد.

**ثانياً**: أنه ليس فيها صدوع ولا شقوق.

**ثالثاً**: أنها طبقات بعضها فوق بعض.

**رابعاً**: أنها واسعة محكمة البناء كما قال سبحانه: ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. والمراد من السموات هذه الأجرام العلوية، وهي سموات سبعٌ، بعضها فوق بعض، محكمة البناء، ممتدة الأرجاء، وليست سديماً أو دخاناً كما يقول علماء الهيئة، قال تعالى عنها: ﴿وَبَنَيْنَا فوقكُمْ سَبْعَاً شِدَادَاً﴾ وقال تعالى: ﴿أفلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّمَاءِ فَوقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وزَيَّنَّاهَا وَمَالَها من فُرُوجٍ﴾[2]؟ فسبحان من رفعها بقدرته، وخلقها بحكمته، وجعلها سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها غافلون!!

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٧١.
(٢) سورة ق، آية: ٦.

## «ذكرُ قصة بدء الخليقة»

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

تعدادٌ لنعمة ثالثة تعمُّ الناس كلَّهم، فإنَّ خلق آدم وتكريمه، وتفضيله على الملائكة، بأن أمرهم بالسجود له، إنعامٌ يعمُّ ذريته جميعاً، فالإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ذكر تعالى هنا قصة آدم ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ الخليفةُ من يخلف غيره وينوبُ منابه[1]، والمراد به هنا آدم عليه السلام، والمعنى: اذكر حين قال ربك لملائكته: إني متخذ في الأرض وخالق فيها خليفةً من البشر، في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعني بذلك آدم، وهذا قول ابن مسعود، وقيل: المراد آدم وذريته أي قوماً يخلف بعضُهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وفائدةُ قوله تعالى ذلك للملائكة، أربعةُ أمور:

**الأول**: تعليم المشاورة للعباد في أمورهم، وقد قيل: أعقلُ الرجال لا يستغني عن مشاورة أولي الألباب.

**الثاني**: تعظيم شأن آدم، فقد بشَّر بوجوده سكان ملكوته، ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه.

**الثالث**: إظهار فضله الراجح كما أشار إليه بقوله: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

**الرابع**: بيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره على شره كما في قصة خلق آدم وذريته.

(١) كما قال موسى لأخيه هارون ﴿اخلفني في قومي﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ أي قالت الملائكة على سبيل الاستعلام والاستفسار عن الحكمة: يا ربنا كيف تخلق من يفسد في الأرض بالمعاصي، ويريق الدماء بالبغي والاعتداء؟! ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ أي ونحن ننزّهك عما لا يليق بك من صفات النقص، ونحمدك في جميع الأحوال، ونعظِّم أمرك، ولا نعصيك في حالٍ من الأحوال ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي قال الله تعالى: إني أعلم ما لا تعلمونه، من الحكمة في خلقه وخلق ذريته، ففيهم أنبياء وفضلاء يُصلحون في الأرض ولا يفسدون، وهنالك مصالح لا تعرفونها.

فإن قيل: كيف عرفت الملائكة أن ذرية آدم يفسدون في الأرض، حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟.

فالجواب: أن الملائكة رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن، وسفكهم الدماء في الأرض، لأن الجنَّ خلقوا قبل البشر، فقاسوا الإنس على الجن، في العصيان والفساد. وروي عن ابن عباس أن الله عزَّ وجلّ أخبرهم بما تفعله ذرية آدم، من التحاسد والتباغض، وقتل بعضهم بعضاً، وإفسادهم في الأرض، فقالوا على سبيل الاستفسار عن الحكمة، لا على سبيل الاعتراض على حكم الله: ﴿أتجعلُ فِيها مَنْ يُفسِدُ فيهَا ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي علَّمه الله أسماء الأشياء كلها، ما كان منها وما سيكون، وخواصّ هذه المسميات، وعلَّمه أصول العلوم، وقوانين

الصناعات، وأسماء آلاتها مما يحتاج إليها ذرية آدم بطريق الإلهام، هذا فرس، وهذا بعير، وهذه سيارة، وهذه طيارة الخ مما لم يكن في علم الملائكة.

**قال ابن عباس:** علَّمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة، وأسماء الأشياء كلها.

**وقال مجاهد:** علَّمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء من أسماء الأشياء، كما علَّمه أسماء الملائكة والذرية. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ثم عرض هذه المسميات على الملائكة، وقال لهم: أخبروني بأسماء هذه الأشياء التي ترونها، إن كنتم صادقين في أنكم أحقاء بالخلافة من آدم وذريته؟

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي قالت الملائكة: ننزهك يا ربنا عما لا يليق بك من صفات النقص، ونقرُّ ونعترف بعجزنا وضعفنا، فليس عندنا من العلم، إلاَّ ما علمتنا إياه، إنك أنت العليم بكل أمر، الحكيم في خلقك وتدبيرك، والحكيمُ هو: المحكم لمصنوعاته حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة. والحاصلُ إن الله تعالى أظهر فضل آدم، بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصَّه بالمعرفة التامة دونهم، من معرفة الأسماء، والأشياء، والأجناس، واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور، وأسندوا العلم إلى علام الغيوب.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ﴾ أي قال الله لآدم: أعلمهم يا آدم وأخبرهم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بقصورهم عن إدراكها ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي فلما أخبرهم آدم بكل الأسماء، وخصائصها، ومنافعها، والحكمة منها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي قال تعالى للملائكة: ألم أخبركم بأني أعلم ما غاب عنكم في السموات والأرض، وأعلم ما تظهرونه وما تخفونه في نفوسكم؟.

روي أنه تعالى لمَّا خلق آدم عليه السلام، ورأت الملائكة خلقته العجيبة، قالوا: لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منَّا. وهذه الآيات تدلُّ على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله، وأنه شرط في الخلافة في الأرض، وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ هذا من باب عطف القصة على القصة، أي واذكر حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، سجود تحيةٍ وتكريم، لا سجود عبادةٍ وتذلُّل، فإن العبادة لا تكون إلاَّ لله عزَّ وجلَّ، وهذه هي النعمة الرابعة العامة لجميع البشر، فإن سجود الملائكة لآدم، فيه تعظيم له وتكريمٌ لذريته، فإن آدم عليه السلام لمَّا أنبأهم بالأسماء، وعلَّمهم ما لم يعلموا، أمرهم الله بالسجود له، اعترافاً بفضله، وأداءً لحقه، واعتذاراً عما قالوا فيه، وكان السجود ـ في الحقيقة ـ لله تعالى، وجُعل آدم كالقبلة للملائكة، تفخيماً لشأنه، حين رأوا فيه من بدائع العلم ما لم يعرفوه، ومن الاستعداد الروحي ما يؤهِّله للخلافة في الأرض ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي سجدت الملائكة له جميعاً غير إبليس، امتنع عن السجود، وتكبَّر عن امتثال أمر الله، حسداً لآدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وكان في علم الله من القديم من الكافرين، والاستثناء هنا منقطعٌ، لأن إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجنِّ بالنصِّ الصريح الواضح في سورة الكهف ﴿وإذْ قُلْنَا للملاَئِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عن طاعة الله بامتناعه عن السجود لآدم، وإنما كُلِّف بالسجود بأمرٍ خاصٍ من الله تعالى ﴿قَالَ مَامَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ﴾ وهذا قول الحسن وقتادة أنه من الجن ولم يكن من الملائكة، حتى قال الحسن البصري: والله ما كان إبليس من

الملائكة طرفة عين، ولأنه خلق من نار، والملائكةُ خلقوا من النور، ولأنه أبى واستكبر، والملائكةُ لا يعصون الله ما أمرهم ولا يستكبرون، والملائكةُ لا نسل لهم، ولا يتناكحون ولا يتناسلون، بل يخلقهم الله خلقاً استقلالاً، بخلاف الجن فإنَّ لهم ذرية ونسلاً، قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ من دُوني وهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؟ فكل هذه الدلائل تشير إلى أن إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن[1].

سُئل الإمام الشعبي: «هل لإبليس زوجة؟ فقال: ذاك عرسٌ لم أشهده، قال ثم أخذت أقرأ القرآن بإمعان، حتى قرأتُ قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ فعلمت أنه لا يكون لإبليس ذرية، إلا إذا كان له زوجة، فقلت: نعم له زوجة». وهذا استدلال لطيف.

والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره، والاستكبارُ طلبُ ذلك بالغطرسة والإباء، وقد أُدمج في معصية إبليس أربع معاصٍ:

١ ـ مخالفة أمر الله.
٢ ـ والاستكبار عن التنفيذ.
٣ ـ وتحقير آدم عليه السلام.
٤ ـ ومفارقة الجماعة.

وأول معصيةٍ وقعت كانت بسبب الكبر والتكبر.

ومثل المتكبر كمثل رجل فوق قمة الجبل، يرى الناس صغاراً وهم يرونه صغيراً، كما قال الشاعر:

مَثَلُ المُعْجَبِ في خُيلاَئِهِ ... مَثَلُ الوَاقِفِ في أعلَىٰ جَبَلْ
يُبْصِرُ النَّاسَ صِغَاراً وهو في ... أَعْيُنِ النَّاسِ صغيرٌ لم يَزَلْ

(١) انظر تفصيل الأدلة في كتابنا «النبوة والأنبياء»، ص: ١٦٨.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ هذا تذكير لنعمةٍ أخرى، موجبة للشكر، مانعةٍ من الكفر، وفي قوله تعالى: ﴿اسكن أنتَ وَزوجُكَ﴾ ولم يقل: إنَّ لكما الجنة، لأن في علمه تعالى أنهما يُخرجان منها، بسبب المخالفة، وقال للمؤمنين: إن لهم الجنة لمَّا لم يكن لهم خروج، والسكنى من السكون وهو اللبثُ والإقامةُ، دون السكون الذي هو ضد الحركة، وتخصيصُ الخطاب بآدم عليه السلام، لأن المرأة تابعةٌ للرجل في السكنى والمعيشة بمنطق الفطرة، والمراد بالزوج «حواء» عليها السلام، وإن لم يتقدم لها ذكر، وهذه الآية تدل على خلقها قبل دخول الجنة، والجنةُ هي دار الثواب، لأن اللام للعهد، ولا عهد لغيرها، وفي مكانها ثلاثة أقوال:

١ ـ **أنها في الأرض**: وهو ما ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني، واحتج بأن خلقه عليه السلام كان في الأرض.

٢ ـ **أنها بستان في السماء**: وهو قول الجبائي بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾.

٣ ـ **أنها جنة الخلد**: وهو قول الجمهور، بدليل أنها المعهودَة عند الذكر، فمتى سمع الإنسان الجنة، تبادر إلى ذهنه جنة الخلد، التي وُعد بها المتقون، وهذا هو الحقُّ الذي لا مناص عنه[1].

(١) القول الفصل في هذا أنها جنة الخلد، كما ذهب إليه الجمهور، حيث وصفها تبارك وتعالى في سورة طه بأوصاف، لا تصدق إلا عليها، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ =

وقال أبو منصور الماتريدي في التأويلات: نعتقد أن هذه الجنة بستان، كان آدم وزوجته منعَّمين فيها، وليس علينا تعيينها.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي كلا من ثمارها ونِعَمها أكلاً واسعاً رافهاً، من غير جهد، ولا تعب، يُقال: هو في رَغَدٍ من العيش، أي في سعةٍ من الرزق، وفي سعادة ورفاهية ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أيْ من أيِّ مكانٍ أردتما منها، وإنما وجَّه الخطاب لهما تعميماً للتشريف والتكريم، وإيذاناً بتساويهما في التنعم، فإن «حواء» أسوة له في الأكل، بخلاف السكنى فهي له تبع.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي لا تأكلا منها، وإنما علَّق النهي بالقرب منها، مبالغةً في تحريم الأكل، ووجوب الاجتناب بالكلية، كقوله سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ أي احترسوا من الزنى ودواعيه، من الخلوة، والنظر، والمصافحة، والاختلاط إلى غير ما هنالك، فإن القرب من الشيء، يورث ميلاً نحوه، يأخذ بمجامع القلب، كما ورد «حبّك الشيء يُعمي ويُصِمُّ»[1] فينبغي ألاَّ يحوم العاقل حول ما حرَّم الله، مخافة أن يقع فيه، واختلف في الشجرة فقيل: هي الكرمةُ ـ أي العنب ـ وقيل: هي شجرة التين، والأولى عدمُ التعيين، فإن الله تعالى لم يعينها لنا، ولا جزم لأحدٍ بدون دليل ساطع، من كتاب أو سنة. ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي من الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المنهي عنه، الذي يكون سبباً للظلم. والظلمُ المخلُّ بالعصمة،

---

= تجوعَ فيها ولا تَعْرَىٰ. وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَىٰ﴾ ومهما كان الإنسان منعماً في الدنيا، لا بدَّ له أن يجوع، ويعطش، ويَعْرَىٰ، ويصيبه حر الشمس، ولا يصدق ذلك الوصف إلا على جنة الخلد دار المتقين، فهي التي لا جوع فيها ولا عطش، ولا حرَّ ولا نصب، لأنها دار السرور والحبور.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب في الهوى رقم ٥١٣٠ وأحمد في المسند ٥/ ١٩٤ عن أبي الدرداء مرفوعاً، وروي موقوفاً، والموقوف أشبه كما قاله المحققون، ومعنى الحديث أن من الحب ما يعمي الإنسان عن طريق الرشاد، ويصمُّه عن استماع الحق، وأن الرجل إذا غلب الحبُّ على قلبه، أعمىٰ بصرَه وبصيرتَه، ومن الحبِّ ما قتَلَ!!.

هو ما لا يكون مصحوباً بعذرٍ كالنسيان، وآدمُ إنما أكل من الشجرة ناسياً للأمر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾(١) وهذا بالنسبة إلى مقام آدم يعتبر معصيةً وتقصيراً، وهو من باب «حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرّبين» ولا حاجة إلى القول، بأن ما وقع من آدم، كان قبل النبوة كما يدعيه المعتزلة، فإن منصب النبوة يستدعي عدم الغفلة أو التقصير، والظلمُ في اللغة: وضعُ الشيء في غير موضعه، فإذا وُضع في غير موضعه كان صاحبه ظالماً، وإن وُضع في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه، كان الشخص أظلم، كمن يمنع ابنته من العفاف والحشمة، ويأمرها بالسفور والفجور، كما قال سبحانه: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتكمْ عَلَى البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾(٢).

ثم قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي أوقعهما في الزلّة، وحملهما على الزلّة، وهي مخالفة الأمر حيث أكلا من الشجرة، والزلَّةُ: من الزَّلل وهو عثور القدم، يُقال: زلَّتْ قدمُه أي زَلِقتْ، ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة، زلَّ الرجل إذا أتى ما ليس له إتيانه، وأزلّه غيرُه: سبَّب له ذلك، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عنها﴾ وإزلالهما قوله لهما على ما حكى القرآن: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾(٣) وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلىٰ﴾(٤)؟

واختُلف في كيفية توصل إبليس إليهما على أقوال:

١ ـ أنه دخل عليهما ابتلاءً من الله تعالى بطريق الوسوسة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ١١٥.
(٢) سورة النور، آية: ٣٣.
(٣) سورة الأعراف، آية: ٢٠.
(٤) سورة طه، آية: ١٢٠.

٢ ـ أن إبليس أغواهما مباشرةً بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ والمقاسمة تدل على المشافهة.

٣ ـ أنه قام عند باب الجنة، وتمثَّل لهما بصورة مَلَكٍ ناصح فناداهما، فأغوى حواء، ثم أغوى آدم.

**وقالت طائفة من العلماء:** إن إبليس لم يدخل الجنة بعد أن أُخرج منها، وإنما أغوى آدم بالوسواس.

**قال في التأويلات:** لا نقطع القول بلا دليل، والعلمُ عند الله، فالله تعالى طرد إبليس من مكان قدسه لكفره، ولكن لم ينزع عنه قوة الإغواء لحكمة الابتلاء، والوسوسةُ: القولُ الخفي، وهو حديث النفس والشيطانِ، فيقال لما يقع في النفس من عمل الشر: وسواسٌ، ولما يقع من عَمل الخير: إلهامٌ.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الكرامة والنعيم، والتعبيرُ يؤذن بالفخامة أي بالمكان العظيم الذي كانا فيه. ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض، والخطابُ لآدم وحواء وإبليس، اهبطوا حال كونكم أعداء، الشيطان عدو لكم، فكونوا أعداء له، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لكمْ عدو فَاتَّخِذُوه عَدُوّاً إنَّما يدعُو حِزْبَه ليكونُوا من أَصْحَابِ السَّعِير﴾[١] ولفظ عدوٌّ يُطلق على الواحد والجميع، والهبوطُ: النزولُ والانحدار من أعلى إلى أسفل، كما في هبوط الحَجَر، وإذا استعمل في الإنسان فهو على سبيل الاستخفاف، ولم يشترط بعضهم فيه سوى الانتقال من شريف إلى ما دونه كقوله سبحانه: ﴿اهبطوا مصراً﴾. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي ولكم في الأرض موضعُ استقرارٍ، وتمتع بالعيش، وانتفاعٍ بنعيم الحياة، إلى وقت انتهاء آجالكم، والحينُ: مقدارٌ من الزمن قصيراً كان أو طويلاً، والمراد به هنا زمن الموت، والله تعالى خلق الأرض وما فيها للبشر، والإسكانُ في الجنة إنما كان موقتاً

(١) سورة فاطر، آية: ٦.

لآدم وحواء، ومقدمةً للنزول إلى الأرض، وفي هذه الآية تحذير عظيم عن المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يَرْنو بعيْنَيْ راقدِ ومشاهداً للأمرِ غيرِ مكابدِ
تَصِلُ الذُّنوبَ إلى الذنوبِ وتَرْتَجي دَرَجَ الجِنانِ ونيلَ فَوْزِ العَابدِ
أنَسِيتَ أنَّ الله أخرجَ آدَمَاً منها إلى الدُّنْيا بذنْبٍ واحدِ؟

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أي استقبل آدم دعواتٍ من ربه، ألهمه إيَّاها، فتلقَّاها بالأخذ والقبول والعمل بها، وهذه الكلمات التي أُلهمها هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ وهذا مرويٌّ عن ابن عباس، وقيل: هي «سبحانك اللهمَّ لا إله إلا أنتَ، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» وهذا مرويٌّ عن مجاهد وابن مسعود.

والتلقّي هو القبول عن فِطنةٍ وفهم، ومعناه الإقبال على الأمر، والقبول له، وأصله من استقبال الناس بعض الأحبة، إذا قدم بعد غياب طويل ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي قبل ربه توبته، ورجع عليه بالرحمة والتوفيق، لأنه تعالى واسع الرحمة للعباد، كثير التوبة على من تاب وأناب. وفي الجمع بين الوصفين «التواب» و«الرحيم» وعد بليغ بالقبول والإحسان، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ منكُمْ سُوءً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) وإنما اكتفى بذكر آدم، لأن حواء تَبَعٌ له في الحكم، ولذلك طوى ذكر النساء، في أكثر مواقع الكتاب والسنة، واعلم أن التوبة أصلُها الرجوع، وإذا أُسندت إلى العبد، كانت عبارةً عن مجموع أمورٍ ثلاثة:

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

١ ـ العلمُ بالخطأ أي معرفة ضرر الذنب.
٢ ـ النَّدمُ على ما فعل وهو تألُّمُ القلبِ.
٣ ـ العزمُ على عدم العودة إلى المعصية.

وإذا أُسندت إلى الله تعالى، كان معناها القبول، والرجوع على العبد بالعفو والغفران، وذكرُ «الرحيم» إشارة إلى أن قبول التوبة، ليس بواجب على الله تعالى، بل هو بمحض الفضل والإحسان.

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ ﴾ كرَّر الأمر بالهبوط للتأكيد، ولبيان أن إقامة آدم وذريته تكون في الأرض لا في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتَاعٌ إلى حِينٍ﴾.

وقيل: ليس هناك تكرار، لاختلاف المقصود، لأن الأول دلَّ على أن هبوطهم إلى دار البلاء للعداوة «بعضكم لبعضٍ عدوٌّ» والثاني أشعر بأنهم اهبطوا للتكليف، فمن اهتدى نجا، ومن ضلَّ هلك. ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ «إمَّا» مركَّبة من «إنْ» الشرطية، و«ما» المزيدة للتأكيد، والمعنى: إن يأتكم مني هدىً بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، للهداية والسعادة، فمن تبع الهدى منكم نجا وفاز، ولا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة، لأن مقصدهم ليس إلاّ طاعة الله، ونيل رضوانه، وذلك مما لا ريب في حصوله بمقتضى الوعد الكريم، وأمَّا في الدنيا فقد يصيب المؤمن خوف أو حزن، لأنها دار الابتلاء، والآخرة هي دار التشريف والجزاء.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ هذا

قسيم الأول ومقابلٌ له، كأنه قيل: ومن لم يتَّبع الهدى، بل كفر وكذَّب، فهو مخلَّد في الجحيم. والآيةُ في الأصل: العلامةُ، ويُقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى آياتٌ، كما قال سبحانه: ﴿إنَّ في السَّمَواتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ للمؤمنينَ. وَفي خلقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقنُونَ﴾[1] والمراد بالآيات هنا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الكتب المنزَّلة، أو القرآن الكريم. والمراد بأصحاب النار أهلها، ولفظُ الصحبة يدلُّ على الاقتران والملازمة، فكأنَّ الكفار مُلاَّكٌ لها، هي مقرُّهم وهي سكناهم، لا يخرجون منها أبداً، وكلُّ ما كان في القرآن الكريم من «أصحاب النار» فالمراد به أهلها، إلا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلاَّ مَلاَئِكَةً﴾[2] فالمراد به خزنتُها.

وفي الآية دلالةٌ على أن الجنة مخلوقة، وأنها في جهةٍ عالية، والتوبة عند الله مقبولة، وأن متَّبع الهدى مأمونُ العاقبة، وأن عذاب النار دائم، والكفار فيه مخلدون، وأن غير الكافر لا يُخلَّد، والإخبارُ بهذه الأحوال، من خلق آدم، ومناظرته مع الملائكة، وما حدث من إبليس اللعين، في هذه القصة العجيبة، معجزةٌ تدلُّ على صدق نبوة محمد ﷺ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْم بالمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إلاَّ أنَّمَا أنَا نَذِيرٌ مُبينٌ﴾[3].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

(١) سورة الجاثية، آية: ٣ ـ ٤.
(٢) سورة المدثر، آية: ٣١.
(٣) سورة ص، آية: ٦٧ ـ ٧٠.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ «يا» حرف نداء متضمن معنى التنبيه، و«بني» جمع ابن وهو مخصوص بالذكور، وإذا أُضيف عمَّ الذكور والإناث، فيكون بمعنى الأولاد، وهو المراد هنا، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يعني يا أولاد ويا ذرية آدم، و«إسرائيل» لقب «يعقوب» عليه السلام، ومعناه بالعبرية صفوة الله، أضافهم تعالى إلى هذا اللقب، حثاً لهم وتحريكاً على الطاعة كقولك: يا ابن الرجل الصالح أطع الله تعالى، لأن الطبائع تميل إلى اقتفاء أثر الآباء، بناءً على أن الحسنة في نفسها حسنة، ومن بيت النبوة أحسن، والسيئة سيئة ومن بيت النبوة أسوأ. ومعنى الآية: يا أولاد النبي الصالح يعقوب، اذكروا ما أنعمتُ به عليكم وعلى آبائكم، من نعم جليلة لا تُعدُّ ولا تحصىٰ، والمراد بالذكر هنا: هو التفكر في هذه النعم، والقيام بشكرها وحقوقها، لا مجرد التفوه بها باللسان، فهو من ذكر القلب والفكر، الذي هو ضدُّ النسيان. وتقييد النعمة بهم ﴿الَّتِي أَنْعَمتُ عَلَيكُم﴾ لأن الإنسان غيورٌ وحسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله تعالى به على غيره، حملته الغيرةُ والحسدُ على الكفرانِ والسخط، وإن نظر إلى ما أنعم الله تعالى عليه، حمله حبُّ النعمة على الرضى والشكر، وقيل: أراد ما أنعم الله به على آبائهم من إنجائهم من الغرق، ومن طغيان فرعون وجبروته، ومن المنِّ والسلوى، وتفجير الماء من الحجر، إلى آخر ما هنالك من النعم، ولكنَّ العموم في اللفظ أحسن، كما يقول ابن عطية لتشمل الأجداد والأحفاد.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أي أدُّوا عهدي وافياً تاماً، ذلك العهد الذي عهدته إليكم، من الإيمان بمحمد ﷺ، وطاعة الله، وطاعة رسوله، أوفِ لكم بما عاهدتكم عليه، من حسن الثواب، ودخول الجنة.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي خافونِ دون غيري من الخلق، في جميع الأمور والأحوال، وخافون في ترك الوفاء دون غيري، ومعنى الرهبة: المخافةُ الشديدة مع تحرز واضطراب. والآية متضمنةٌ للوعد والوعيد، دالةٌ على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي ألاَّ يخافَ إلاَّ الله عزَّ

وجلّ، كما قال سبحانه: ﴿الَّذينَ يُبَلِّغونَ رسالاتِ الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاَّ الله﴾[1].

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي وصدِّقوا يا بني إسرائيل، بهذا القرآن الذي أنزلته على محمد، مصدِّقاً لما معكم في التوراة، من أمور التوحيد والنبوة، فالقرآن العظيم مطابق للكتب الإلَهية في الدعاء إلى التوحيد، والأمر بالعبادة، والعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش، وهو الكتاب الخاتم. ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي لا تكونوا أول جاحد ومكذّب بالقرآن، ولا تسارعوا إلى الكفر به، فإن وظيفتكم أن تكونوا أول مؤمن به، والخطابُ للموجودين في عصر النبي ﷺ من علماء أهل الكتاب، فإنهم كانوا أهل النظر في معجزاته، والعالمين بشأنه، والمبشّرين بزمانه كما قال تعالى: ﴿الَّذينَ آتيناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفونَهُ كما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وإنَّ فَريقاً منهُمْ ليكتمُونَ الحَقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2]. ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي البينات، التي في كتابكم من أوصافه ﷺ بتغييرها أو تحريفها، عوضاً يسيراً من حطام الدنيا الفانية ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ بالإيمان واتباع الحق. بيّن تعالى لهم أن حظوظ الدنيا ـ وإن عَظُمت ـ فإنها قليلةٌ مسترذلة، بالنسبة لما يفوتهم من حظوظ الآخرة.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اللَّبسُ: الخَلْطُ، يُقال: لَبَسْتُ الأمرَ أي خلطته حتى يشتبه بغيره، والمعنى: لا تخلطوا الحقَّ المنزل من الله، بالباطل الذي تخترعونه، حتى يشتبه أحدهما بالآخر، ولا

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٩.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٦.

تكتموا صفات محمد ﷺ الموجودة في كتابكم التوراة، وأنتم تعلمون عاقبة جريمة الكتمان[١].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي أدوا ما افترض الله عليكم، من أداء الصلاة، ودفع الزكاة للمستحقين، وصلوا مع المصلين من أمة محمد، وعبَّر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود، لأنه لا ركوع في صلاتهم. والمراد بالصلاة في الآية صلاة المسلمين وزكاتهم، فإن غيرهما كأنَّها لا صلاة ولا زكاة. والزَّكاةُ: من زكا الزرعُ إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركةً في المال، وينمّي في النفس فضيلة الكرم، وتُطَهِّر المالَ من الخُبْث، والنَّفسَ من البُخل[٢]، كما قال سبحانه: ﴿خُذْ من أموالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[٣] واستدل بعض العلماء من الآية: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ على وجوب الجماعة، وكذا الأحكام الشرعية تدلُّ عليه، من أن تاركها لغير عذرٍ تُرَدُّ شهادتُه، ويرى بعضهم أنها سنة مؤكدة، وأقوى السنن المؤكدة هي سنةُ الفجر، ومع ذلك رُخِّص في تركها لإدراك الجماعة، لأن ثواب الجماعة أعظم من فضيلة ركعتَيْ الفجر، لأنها تفضل الفرض منفرداً بسبع وعشرين ضعفاً، لا تبلغ ركعتا الفجر ضعفاً واحداً منها[٤].

---

(١) لَبَس الأمر من باب ضرب خَلَطه، وفي البخاري عن عائشة مرفوعاً «المتشبع بما لم يُعط كلابسِ ثوبَيْ زُورٍ» والمتشبع هو الذي يظهر أنه شبعان وليس كذلك، شبَّهه بلابس ثوبيَ زور، وهو المرائي الذي يلبس ثياب الزهاد، وباطنه مملوء بالضلال.

(٢) قرن الله سبحانه الزكاة بالصلاة في اثنين وثمانين موضعاً من القرآن، وهذا دليل على كمال الاتصال بينهما، فالصلاة حقُّ الله عزَّ وجلّ، والزكاة حقُّ العباد، ولا يكمل الإيمان إلا بأداء حق الله تعالى وحق عباده، وقد فرضت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة قبل فرض الصيام مما يوحي بأهميتها.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٤) انظر إعلاء السنن ٧/ ٤.

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الخطابُ هنا لأحبار اليهود ورؤسائهم، يقول لهم سبحانه على سبيل التوبيخ والتعجيب من حالهم: أتَدْعون النَّاسَ يا معشر اليهود إلى فعل الخير، وعمل الصالحات، وتتركون أنفسكم فلا تذكِّرونها بطاعة الله، والإيمان برسوله!؟ والحال أنكم تتلون التوراة وتقرؤونها، وفيها الوعيد لمن ترك البِرَّ، وخالف قولُه عملَه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تفطنون وتدركون، أن ذلك قبيح فترجعون عنه، أم أنكم لا عقل لكم؟ والبِرُّ بكسر الباء: اسمٌ جامعٌ لكل الطاعات، والأعمال الصالحة، الموجبة للثواب، وضدُّه الإثم، وفي الحديث الشريف: «البرُّ حُسْنُ الخُلق، والإثمُ ما حَاكَ في صدركَ، وكرهتَ أن يَطَّلع عليه النَّاسُ[(١)]». عن ابن عباس: أنها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرون سراً من نصحوه باتباع الرسول ﷺ ولا يتبعونه. ثم هذا التوبيخ وإن كان خطاباً لبني إسرائيل، إلاَّ أنه معروف من حيث المعنى، أنه لكل واعظٍ يأمر ولا يأتمر، فهو كالشمعة تحرق نفسها لتضيء للناس.

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ لمَّا أُمروا بما شقَّ عليهم من ترك الرياسة، والإعراض عن المال، بيَّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ أي استعينوا على قضاء حوائجكم بالصبر على المكاره، وانتظار الفَرَج، توكلاً على الله، وبالصلاة

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٥٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٩٠.

التي هي عماد الدين، والتوسل بالصلاة لأنها جامعة لأنواع العبادات النفسية والبدنية، من الطهارة، وستر العورة، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، والخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومناجاة الرحمن، وقراءة القرآن، وقد روي أنه ﷺ كان إذا حَزَبه - أي أهمَّه - أمرٌ فَزِع إلى الصلاة[1] وإنما خصَّ الصبر والصلاة بالذكر، لأن بالصبر تُنال كل فضيلة، والصلاةُ تنهى عن كل رذيلة. ﴿وإنَّها لَكَبِيرَةٌ﴾ أي وإن الصلاة لشاقةٌ وثقيلة ﴿إلاَّ عَلَى الخَشِعِينَ﴾ أي المتواضعين المخبتين، الذين صفت نفوسهم لله، وإنما لم تثقل عليهم، لأنهم يتوقعون ما أعدَّ الله لهم من الأجر بمقابلتها فتهون عليهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم سيلقون ربهم يوم البعث، فيحاسبهم على أعمالهم، وأن معادهم إلى ربهم يوم الدين. والظنُّ في الأصل: الحُسْبانُ، ويأتي بمعنى اليقين كقوله سبحانه: ﴿وَرَأَى المجْرِمُونَ النَّارَ فظنّوا أَنَّهم مُوَاقِعُوها﴾[2] أي أيقنوا بدخولها والوقوع فيها وإنما فُسِّر الظنُّ هنا بمعنى اليقين، لأن قوله: ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ معطوف على قوله ﴿يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ والشكُّ في الآخرة كفرٌ، فلا ينفع الظنُّ بل يجب فيه القطع، ولذا فُسِّر باليقين. وكأنَّ النكتةَ في استعمال الظنِّ المبالغةُ، في أنَّ من ظنَّ لقاءَ الله لا يشقُّ عليه، فكيف بمن يتيقَّنه؟

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ . . .﴾ الآية، كرَّر تبارك وتعالى التذكير للتأكيد، ولربط ما بعده من الوعيد، والمعنى: يا أولاد النبيِّ الصالح «يعقوب» عليه

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/١ والنسائي في المواقيت باب ٤٦.
(٢) سورة الكهف، آية: ٥٣.

السلام: اذكروا فضلي وإنعامي عليكم بصنوف النعم، حيث نجَّيْتُ آباءكم من طغيان فرعون وجبروته، وفضَّلتهم على العالمين في زمانهم، وفي تفضيل الآباء شرفٌ للأبناء! وهذا التفضيل لمؤمنيهم الصالحين، أما العصاة والفجرة فقد مسخوا قردةً وخنازير. ولا يصح أن يُفهم أن تفضيلهم كان على جميع الخلق، لأن الله تعالى يقول عن أمة محمد ﷺ ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس﴾[1] فذلك التفضيل يختص بعالم زمانهم، كما نقول: شوقي أشعر الشعراء أي في زمانه، وليس معناه أنه أشعر من حسان والبحتري، وجرير.

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا ﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب «يوم القيامة» وما فيه من الحساب والعذاب، إن لم تؤمنوا وتتوبوا اليوم، وقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ أي لا تقضي نفسٌ عن نفس شيئاً من الحقوق، وتنكيرُ النفس للتعميم، فهو يوم عصيب، يفرُّ فيه المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ أي لا تُقبل شفاعةُ أحدٍ من البشر في نفسٍ كافرةٍ بالله أبداً لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[2] فالمرادُ بالشفاعة هنا الشفاعةُ في الكفار، وتمسَّكَ المعتزلةُ بالآية في نفي الشفاعة للعصاة، وهو مردودٌ، لأن المنفي الشفاعة في الكفار، وقد قال ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[3] ونقول أيضاً: إن النفي مخصوص بما قبل الإذن لقوله تعالى: ﴿ولا تَنفعُ الشَّفاعَةُ عندَهُ إلاَّ لمنْ أَذِنَ لهُ﴾[4].

كان اليهود يزعمون أن آباءهم يشفعون لهم يوم القيامة، فيأَّسهم الله

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) سورة المدثر، آية: ٤٨.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٣٧ وأبو داود في باب الشفاعة رقم ٤٧٣٩ وهو حديث صحيح.

(٤) سورة سبأ، آية: ٢٣.

وقنَّطهم من تلك الشفاعة بقوله: ﴿ولا يُقْبَلُ منْهَا شَفَاعَةٌ﴾ فهي إذاً خاصة بمن كفر بالله ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يُقبل من نفسٍ كافرةٍ فديةٌ، كما قال سبحانه: ﴿إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْ أنَّ لهمْ ما في الأَرْضِ جَمِيعَاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ منهمْ﴾[1] ثم قال تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم ناصرٌ ينجيهم ويخلّصهم من عذاب الله.. وفي الآية أعظم تحذيرٍ عن المعاصي، لأن اللفظ جاء بلفظ العموم، فهي مخاطبةٌ للكل، يعمُّ كل من يحضر في ذلك اليوم، وفيها إبطال أصل من أصول الكفرة وهو تقديم الفدية وشفاعة الشافعين.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، حين نجَّيْتُ آباءكم من بطش فرعون وأشياعه العتاة، وعدُّوها نعمةً لأنكم نجوتم بنجاة آبائكم، وأصل «آل»: أهل، لأن تصغيرها «أُهَيْل» ولا يستعمل لفظ «آل» إلاَّ فيما فيه شرف وخطر، كالملوك والعظماء، فلا يقال: آلُ الحجَّام وآل الإسكاف. ومعنى ﴿يَسُومُونَكُم﴾: يذيقونكم، من سَامَهُ إذا أذاقه، أي ينكّلون بكم، ويذيقونكم أشد أنواع العذاب وأفظعه وأسوأه، ثم فسَّر هذا العذاب بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد، ويستبقون الإناث على قيد الحياة، لاستعمالهن في الخدمة، وسبب هذا الذبح أن فرعون خاف على ذهاب ملكه من بني إسرائيل ـ لرؤيا رآها في منامه ـ فأمر بذبح الذكور، وترك الإناث على قيد الحياة، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾[2]. وقوله

(١) سورة المائدة، آية: ٣٦.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ١/ ٩٣: إن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ـ أي أفزعته =

تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البلاءُ: الاختبارُ والمحنةُ أي وفيما حلَّ بآبائكم من العذاب المهين، من التسليط والذبح، محنةٌ واختبار عظيم من جهته تعالى، ليتميَّز البَرُّ من الفاجر، والبلاءُ يطلق على الخير، والشر، كما قال سبحانه: ﴿ونَبْلُوكم بالشرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلينا تُرْجَعُون﴾(١) فالله يختبر عباده تارة بالمحنة، وتارةً بالمنحة ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ﴾ والكلُّ فعلُه جلَّ وعلا. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبدَ من خيرٍ أو شر، اختبارٌ من الله تعالى، فعليه أن يشكر الله على مَسَارِّه، وأن يصبر على مضاره، ليكون من الناجحين في الاختبار.

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ تذكير بنعمةٍ أخرى أي واذكروا يا بني إسرائيل أيضاً حين فلقنا لكم البحر، وفصلنا بين بعضه وبعض، حتى صارت فيه طرقٌ ومسالك لتمشوا عليها، اثنا عشر طريقاً، بعدد الأسباط، لكل سبطٍ طريق ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى، والتقدير: فرقنا بكم البحر، وتبعكم فرعون وجنوده، فأنجيناكم من الغرق، وأغرقنا فرعون وقومه، وأنتم تشاهدون ذلك، وكان ذلك الغرق يوم عاشوراء، كما دل على ذلك الحديث الصحيح أنه ﷺ لمَّا هاجر إلى المدينة المنورة رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يومٌ عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرَّق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً لله، فنحن نصومه!! فقال رسول الله ﷺ: «نحن أحقُّ وأولى بموسى منكم، فصامه رسول الله وأمر بصيامه»(٢).

---

= رأى ناراً خرجت من بيت المقدس، فدخلت بيوت القبط في مصر، إلاَّ بيوت بني إسرائيل، ومضمون هذه الرؤيا أن زوال ملك فرعون يكون على يدي رجلٍ من بني إسرائيل، فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكرٍ يولد من بني إسرائيل.

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم رقم ٢٤٤٤ ورواه البخاري ٤/ ٢١٤ ومسلم رقم ١١٣٠ بنحو رواية أبي داود.

## فائدة التذكير بالنِّعَم

وفائدة هذا أن هلاك العدو نعمةٌ، ومشاهدة هلاكه نعمة أخرى، فذكَّرهم تعالى بذلك ليشكروه. روي أن جبريل عليه السلام نزل بالعشيِّ، وقال لموسى: أَخرجْ قومك ليلاً، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إنكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾(١) فخرج بهم، فلحقهم فرعون وجنوده بعد طلوع الشمس، وهو قوله تعالى: ﴿فأتّبعوهم مُشْرِقِينَ. فلمَّا تَرَاءَىٰ الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ موسَىٰ إنَّا لمدركُونَ. قال كلاَّ إن معيَ ربِّي سَيَهْدِين﴾(٢) فلما أتى البحر، أوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه، فانفلق فصار لهم طريقاً يابساً فسلكوه، فلما وصل فرعون رآه منفلقاً، فقال لجنده: انظروا كيف أن البحر انفلق بأمري، وجمد هيبةً مني!! فاقتحمه هو وجنوده، فغشيهم ما غشيهم من الغرق والبلاء في لجة البحر. وهذه من الآيات الملجئة إلى معرفة الخالق جلَّ وعلا، وتصديق موسى عليه السلام، ثم إن بني إسرائيل بعد ذلك قالوا لنبيهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إلَهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(٣) وعبدوا العجل في غيبة موسى، وقالوا لرسولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حَتَّى نَرَىٰ الله جَهْرَةً﴾ ونحو ذلك، فهم على درجةٍ من الغباء لا يحسدون عليها، وهم في معزل عن الفطنة والذكاء، ولذلك مسخهم الله إلى قردة وخنازير ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة التالية:

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

(١) سورة الدخان، آية: ٢٣.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٦٠ ـ ٦٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٣٨.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ هذا تذكيرٌ لهم ثالث، بنعمة العفو بعد عبادة العجل، أي واذكروا حين وعدنا نبيكم موسى أن نعطيه التوراة، بعد أربعين ليلة ـ وهو الميقات الذي حدَّده الله له ـ وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون وقومه ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ من بعدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم، حين ذهب لميقات ربه، وأنتم معتدون في تلك العبادة، ظالمون لأنفسكم بارتكاب تلك الجريمة الشنيعة.

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي عفونا عنكم حين تبتم، ولم نستأصلكم على ذلك العمل القبيح، لكي تشكروا ربكم على ذلك الصفح والإنعام، وتستمروا بعد ذلك على الطاعة والعبادة، ولكنْ هيهات أن يرجع المجرم عن ضلاله، فإن الطبع يغلب التطبع!!.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ تذكير لهم بنعمة إنزال التوراة وهي النعمة الرابعة، أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي أيضاً عليكم، حين أعطيت نبيكم موسى التوراة، الفارقة بين الحق والباطل، الجامعة بين كونها كتاباً منزلاً، وحجة واضحة، تفرق بين الهدى والضلال، لكي تهتدوا بتدبر الكتاب، والعمل بأحكامه، والتفكر في آياته.. سمَّى تعالى الكتاب «فرقاناً» لأنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ هذا توضيح وبيان لطريقة وكيفية العفو عنهم، بعد عبادتهم للعجل، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين قال موسى لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي لقد ظلمتم

أنفسكم حقاً بعبادتكم للعجل، وعرضتموها لعذاب الله ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي فاعزموا على التوبة، والرجوع إلى خالقكم العظيم، الذي خلقكم بريئاً من التفاوت، والعيب والنقصان، ومعنى «البارىء» الخالق المبدع للخلق ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي ليقتلْ البريءُ منكم المجرم، وفي هذا بيانٌ لحكمٍ من شريعة موسى، بأنه لا تُقبل توبةُ المرتد حتى يُقْتل، كما أن القاتل عمداً، لا تُقبل توبتُه إلا بتسليم نفسِهِ، إلى أولياء القتيل ليقتلوه، وجاءت شريعتنا الإسلامية بالعفو أو القصاص. وذكرُ «البارىء» في الآية، وهي بمعنى الخالق المبدع الحكيم، للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها، حيثُ تركوا عبادة خالقهم العليم الحكيم، إلى عبادة البقر، الذي هو مَثَلٌ في الغَبَاوة، فلذا أُمروا بالقتل. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي نزولكم عند أمر الله، ورضاكم بحكم الله، في تنفيذ حكم القتل بمن عبد العجل، خير لكم عند الخالق العظيم، فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، ثم إنه طُهرة من الشرك، ووصلةٌ إلى الحياة الأبدية التي أعدَّها الله للمؤمنين الصادقين. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في الآية حذفٌ تقديره: ففعلتم ما أُمرتم به من القتل، فتاب عليكم ربكم وقَبِل توبتكم، لأنه سبحانه عظيم المغفرة، واسع التوبة. وإنما لم يقل «فتاب عليهم» مع أنَّ الضمير للقوم الذين كانوا في زمن موسى وعبدوا العجل، وإنما قال ﴿فتاب عليكم﴾ لأنه هذه النعمة أُريد بها التذكيرُ للمخَاطَبين لا لأسلافهم، فإن النعمة على الآباء نعمةٌ على الأبناء، وفي الآية التفاتٌ من ضمير الغائب إلى المخاطب، وهو من المحسنات البديعة، كقوله سبحانه: ﴿حَتَّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهمْ بريح طَيِّبَةٍ﴾[1] فتدبر روائع القرآن.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٢.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ بعد أن ذكَّرهم تعالى بالنِّعَم التي أفاضها عليهم، بيَّن لوناً من ألوان طغيان اليهود وجحودهم، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يُعاملون باللطف والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم، حين طلبوا من نبيهم رؤية الله علانية وجهاراً!!.

**قال الطبري**: «لمَّا تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل، أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً، يعتذرون إلى ربهم من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم، كما قال سبحانه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾[1] وقالَ لهم: صوموا وتطهَّروا، وطهِّروا ثيابكم، ففعلوا، وخرج بهم إلى «طور سيناء» فقالوا لموسى: اطلبْ لنا أن نسمع كلام ربنا!! فقال: أفعلُ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغَمَامُ، حتى تغشَّىٰ الجبلَ كلَّه، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: «اُدنوا ـ وكان موسى إذا كلَّمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحدٌ من بني آدم أن ينظر إليه، فضُرب دونه بالحجاب ـ ودنا القومُ حتى إذا دخلوا في الغَمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام، أقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فماتوا جميعاً...»[2] ومعنى ﴿جهرةً﴾ أي علانيةً، وأصلُ الجهر: الظهورُ، ومنه الجهرُ بالقراءة في الصلاة، تقول: رأيت الأميرَ جهرةً وجهاراً أي رأيته معاينةً غير مستتر بشيء، قال ابن عباس: ﴿جهرةً﴾ أي عياناً، **ومعنى الآية**: اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى، لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل، فقلتم لنبيكم موسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ أي لن

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٥.
(٢) نقلاً عن تفسير ابن كثير ٩٧/١ مع شيء من الاختصار.

نصدِّقك يا موسى بأنَّ ما نسمعه كلام الله، حتى نرى الله علانية، قال هذا خيارُكم لفرطِ العناد والتعنت ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم صاعقةٌ من السماء ـ وهي نار محرقةٌ كالصواعق الرعدية ـ حتى احترقوا وماتوا، وهمدت أجسامهم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى ما حلَّ بكم من العذاب، حيث لم يموتوا دفعة واحدة، وإنما يسقط الواحد ميتاً، ثم يتلوه الآخر وهو يراه، وكانت مدة الموت أو الصعقة يوماً وليلةً كما ذكر المفسرون. مات هؤلاء السبعون ـ وهم خيار بني إسرائيل ـ لأنهم تمردُّوا على نبيهم، فطلبوا رؤية الباري جلَّ وعلا عياناً، فأهلكهم الله تعالى، وأما موسى عليه السلام فإنه لم يمت، وإنما غُشي عليه بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيكَ وَأَنَا أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ﴾[1] فلما ماتوا قام موسى يبكي، ويناشد ربه ويدعوه ويقول: ربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكتَ خيارهم!! كما قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ موسَىٰ قومَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقَاتِنَا فَلمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفةُ قَالَ ربِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ منْ قَبْلُ وإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بما فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنّا...﴾[2]؟ فمازال يدعو ربه ويتضرَّع إليه، حتى أحياهم الله له، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ثم أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة، لتشكروا ربكم على نعمة الإحياء بعد الموت، والحياة بعد الفناء، وإنما قيَّد تعالى البعثَ بعد الموت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِنّ بَعْدِ مَوتِكُم﴾ لزيادة التوضيح والتأكيد، على أنه موتٌ حقيقي، ولدفع ما عساه يُتوهَّمُ أن بعثهم كان بعد إغماء، أو بعد نوم، كما ذهب إليه بعضهم أنه أصابهم إغماء، ثم أفاقوا بعد الرجفة، فإنَّ هذا القول ضعيفٌ، يردُّه النصُّ الواضح «مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ»[3] فالصحيح أنهم ماتوا ثم أحياهم الله عزَّ وجلّ بدعوة الكليم موسى عليه السلام، واستغاثته بربه.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٥.

(٣) ذكر تبارك وتعالى أمثلةً على إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع: =

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

هذا تذكير لهم بنعمة أخرى، في طيِّها نِعَمٌ عديدة، من تظليل الغمام، وإكرامهم بالشراب الحلو السائغ «المنّ» والإنعام عليهم بالطعام اللذيذ الشهي، لحم الطير، المسمَّى بالسَّلوى، بدون جهد منهم ولا تعب، حين وقعوا في أرض التّيه، في الصحراء الشاسعة المحرقة، بسبب معصيتهم لنبيّهم، وقولتهم الشنيعة، حين أمرهم أن يدخلوا أرض الجبارين، ويقاتلوا قومها فقالوا: ﴿يا مُوسَىٰ إنَّا لَنْ ندخُلَهَا أبَداً مَا دَامُوا فيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1] فكان جزاؤهم أن عوقبوا بالضياع أربعين سنة، يتيهون في الأرض، مشرَّدين كما قال سبحانه: ﴿قَالَ فإنَّهَا مُحَرَّمةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُون في الأَرْضِ، فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾[2] .

يقول تعالى مذكِّراً لهم بنعمته: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ أي سترناكم يا بني إسرائيل بالسحاب من حرّ الشمس، وجعلناه لكم كالظُّلَّة، يقيكم لفح الشمس المحرقة، حين كنتم في أرض التّيه، ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ أي وأكرمناكم بأنواعٍ من الشراب والطعام، من غير كدّ

---

= **الأول**: في هذه الآية التي معنا ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾. **الثاني**: في قصة البقرة ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾. **الثالث**: في قصة الألوف المؤلفة الذين خرجوا فراراً من الموت ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾. **الرابع**: في قصة عزير ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾. **الخامس**: في قصة إبراهيم لما طلب من ربه أن يطلعه على كيفية الإحياء للخلقِ ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾؟ وكلها آيات باهرة على قدرة رب العالمين في الإحياء للخلقِ بعد الموت.

(١) سورة المائدة، آية: ٢٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٦.

ولا تعب، **والمنُّ**: هو ممَّا منَّ الله به عليهم، كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، **والسَّلوىٰ**: هو طير يشبه السُّمَّاني لذيذ الطعم، وقد عدَّ رسول الله ﷺ الكمأة من المنِّ، فقال ﷺ فيما رواه عنه البخاري: «الكَمْأَةُ من المَنِّ، وماؤها شفاءٌ للعين»(١) ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ أي وقلنا لهم حين كانوا في أرض التيه: كلوا من لذائذ نعم الله، ممَّا هيأه لكم من أنواع الطيبات، من الحلال اللذيذ ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ في الكلام حذفٌ واختصار، وهذا من ضروب الإبداع البياني، على حدّ قول البلغاء: «البلاغةُ الإيجازُ» والمحذوف أصلُه: فظلموا بأن كفروا هذه النعم، وما ظلمونا بالكفر ولكنْ ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم، والظلمُ قاصرٌ عليهم، وهذا ما أفادته صيغة القصر ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

**قال الحافظ ابن كثير**: ومعنى الآية: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم، وأن يعبدوا ربهم ويشكروه، فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات.. ومن هنا تتبيَّنُ فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء، في صبرهم وثباتهم، وعدم تعنُّتهم، مع ما كانوا معه من الشدَّة في أسفاره وغزواته، منها «عام تبوك» في ذلك القيظ، والحر الشديد، والجهد المضني، لم يسألوا خرق عادة، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ، ولكنْ لما أجهدهم الجوعُ، سألوه في تكثير طعامهم، فجمعوا ما عندهم، فجاء قدر مبرك الشاة ـ أي قليلاً لا يجاوز حجم قعود الشاة ـ فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كلَّ وعاء كان معهم، وكذلك لما احتاجوا إلى الماء، سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ١٠/١٣٧ ومسلم في الأشربة رقم ٢٠٤٩ والترمذي في الطب رقم ٢٠٦٨ باب الكمأة والعجوة.

الإبل، وملؤوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم تتجاوز العسكر، فهذا هو الأكمل في متابعة الرسول ﷺ[1].

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم وقت قولنا لآبائكم: ادخلوا بلدة بيت المقدس - بعد خروجكم من التيه - ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي كلوا من طعام القرية وثمارها، أكلاً واسعاً هنيئاً، والرَّغَدُ في اللغة: سَعةُ العيش، يقال: القومُ في رَغَد العيش، إذا كانوا في رزق واسع ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب البلدة ساجدين لله، شكراً على خلاصكم من التيه، ادخلوه خاشعين تائبين متواضعين لله عزَّ وجلّ ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي وقولوا: رجاؤنا يا ربِّ أن تحطَّ عنا ذنوبنا، وحِطَّة: كلمة استغفار، مثل قول المسلم: استغفر الله، بدليل قوله بعده: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي نمحو عنكم ذنوبكم، ونكفِّر سيئاتكم ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيد المحسنين ثواباً، وندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، والمراد بالقرية هي بيت المقدس في قول الجمهور، ويدل عليه قول الله تعالى في سورة المائدة على لسان موسى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ الله لكُمْ ولا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[2].

**قال الحافظ ابن كثير**: لمَّا خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع «يوشع بن نون» أُمروا أن يدخلوا باب البلد سُجَّداً، شكراً لله تعالى، على

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٠١.
(٢) سورة المائدة، آية: ٢١.

ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردِّ بلدهم عليهم، وإنقاذهم من التّيه والضلال، وأن يقولوا عند دخولهم «حِطَّةٌ» أي احطط عنا خطايانا، فبدَّلوا أمر الله لهم، ودخلوا يزحفون على أستاههم - أي مقاعدهم - رافعي رؤوسهم، واستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعيرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه، بفسقهم وهو خروجهم عن طاعة الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي عذاباً بسبب فسقهم، قال ابن عباس: «كلُّ شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب»[١] ولم يقل: فأنزلنا عليهم، وإنما قال ﴿على الذين ظلموا﴾ زيادة في التقبيح، ومبالغة في الذمّ والتقريع، وتنكير ﴿رجزا﴾ للتهويل والتفخيم.

**روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:** «قيل لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِر لكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبةٌ في شعرة»[٢].

**وفي رواية الترمذي:** «حنطةٌ في شعيرة» وكلُّ هذا منهم على سبيل السخرية والاستهزاء - لعنهم الله - فاستحقوا غضب الله ولعنته، وقد روي أنه مات منهم بالطاعون سبعون ألفاً في ساعة واحدة.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٠١، أقول: الأستاه جمع سَتِه: مقعدُ الرجل، قال في الصحاح: الاستُ: العَجُزُ، وقد يراد به حلقةُ الدُّبر، وأصلها سَتَهٌ جمعه أستاهٌ، كجملٍ وأجمال، ورجلٌ أستَه إذا كان كبير العجز. اهـ.
فاليهود اللعناء بدل أن يدخلوا خاضعين ساجدين، دخلوا يزحفون على أدبارهم سخرية واستهزاءً ويقولون: حبة في شعيرة، فبدلوا السجود بالزحف، وقالوا: حنطة بدل حطة، وزادوا بقولهم: حبة في شعيرة.
(٢) البخاري ٦/ ٣١٢ في الأنبياء.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

هذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم ويسقيهم، فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فضربه وتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة، فجرى لكلٍ منهم عين ماء خاص، يأخذون منه حاجتهم لئلا يختصموا ويقتتلوا، وكان موضوع السقيا آية باهرة، ومعجزةً ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام، ومع ذلك كفروا وجحدوا!!.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ فيه تذكير لهم بنعمة أخرى جليلة، غير التظليل والإطعام، «استسقى» أي طلب السقيا لقومه، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب لكم نبيكم موسى السقيا من الله عزَّ وجلّ، لمَّا عطشتم في أرض التيه ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ أي قلنا له: اضربْ بالعصا التي معك أيَّ حجرٍ كان[1]، تتفجر منه بقدرتنا عيون الماء، فضربه: ﴿ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ أي فانشقَّتْ وسالت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد الأسباط لئلا يتنازعوا. ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي علمت كل قبيلة وكل جماعة مكان شربهم، فلا يشركهم فيه غيرهم، وإنما قال: ﴿مشربهم﴾ ولم يقل: عينهم، للإشارة إلى معجزة

(١) حكى المفسرون أقوالاً كثيرة، في الحجر الذي ضربه موسى فتفجرت منه العيونُ ما هو؟ وكيف وصفُه؟ وقد ضربنا صفحاً عن هذه الأقوال، والذي يكفي في فهم معنى الآية، أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه المعجزة، وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصمّ، الذي ليس من شأنه الانفجار بعيون الماء، وبهذا تكون الآية أوضح، والبرهان أسطع، وتتحقق المعجزة، حتى قال الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، وهذا أظهر في الحجة، وأبينُ في القدرة.

أخرى، حيث حدث مع انفجار الماء جداول جرت بالماء كالعيون التي تجري على سطح الأرض، وقلنا لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي كلوا مما رزقكم الله تعالى من المنِّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء العذب الذي فجَّره لكم ربكم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تعتدوا وتطغوا في الأرض بأنواع البغي والإفساد، يُقال: عَثِيَ يَعْثَىٰ، ويعثو[1] إذا أفسد في الأرض، وأصل العثو: شدّةُ الإفساد، فيكون قوله تعالى ﴿مفسدين﴾ تأكيداً للنهي، أي لا تفسدوا في الأرض إفساداً بأنواع البغي والعدوان.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

هذا تذكير لليهود بجناية أخرى لأسلافهم، وكفرانهم نعمة الله عزَّ وجلّ، واليهود هم اليهود، جهلاء مكابرون معاندون، سواء في ذلك السلف «الآباء» أو الخَلَف من الأبناء، فالحية لا تلد إلاَّ حية، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى، وأنتم في الصحراء في أرض التيه، تأكلون من المنِّ والسلوى ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي على نوعٍ واحدٍ من الطعام، وهو المنُّ والسلوى، وكنَّىٰ عنهما بطعام واحد وهما

(١) انظر الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور.

طعامان، لأنهم أرادوا أنه لا يختلف ولا يتبدل، فهو غذاؤهم في كل يوم، وقد كانوا أصحاب مزاج فاسد، كرهوا «المنَّ» وهو طعام حلو يشبه العسل، وكرهوا «السلوى» وهو أطيب أنواع لحوم الطير، وطلبوا بدلهما العدس، والثوم، والبصل، ولا غرابة في ذلك، فإنَّ من فسد عقلُه فسد مزاجُه، فالبصلُ عندهم أطيب من العسل، والعدس أطيب من اللحم، ولهذا طلبوا من نبيهم ما يوافق مزاجهم حين قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمناه وكرهناه، ونريد ما تخرجه لنا الأرض من أنواع البقول، ثم وضَّحه وبيَّنه بقوله: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

**أما البقل:** فهو كل ما تنبته الأرض من الخضرة كالجرجير، والكُرَّاث، والنَّعنع، والنبتة الحمقاء «الرِّجلة».

**وأمَّا القثاء:** فيعني بها القثَّة التي هي من فصيلة الخيار، وقيل: هو الخيارُ.

**وأمَّا الفوم:** ففسره بعضهم بالحنطة، وفسَّره بعضهم بـ«الثوم» وهو أشبه بما بعده، فإن الثُّوم يشاكل البصل، وبدليل قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، قال الرازي: الثومُ أوفقُ للعدس والبصل من الحنطة، واستدل الإمام القرطبي ببيت شعرٍ لحسان، يهجو به أعداء الإسلام حيث يقول:

وأنْتُم أُناسٌ لِئَامُ الأُصُولِ طَعَامُكُم الفُومُ والحَوْقَلُ(١)

أي طعامكم الثومُ، والبصلُ.

**وأما العدس:** فهو معروف ومشهور، وهو من أنواع الحبوب التي تطبخ، ومنه «شوربة العدس».

**وأما البصل:** فهو البصل المعروف، ذو الرائحة الكريهة، الذي قال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٤٤٥.

فيه النبي الكريم «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة، فلا يقربَّن مسجدنا، فإنَّ الملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه الإنسُ»[1].

يا لهم من حمقى جهلاء!! فضَّلوا الثوم والبصل، على اللحم والحلوى التي تشبه العسل، ولهذا قال لهم نبيُّهم منكراً عليهم هذا الانحراف في الذَّوق: ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾؟ أي أتستبدلون الخسيسَ بالنفيس، وتؤثرون البصل والثوم على المنِّ والسلوى؟ ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أي ادخلوا أيَّ بلدٍ من البلدان، لتروا فيه ما تحبون وتشتهون!! والمراد بقوله ﴿مصراً﴾ أي بلداً من البلاد أيَّ بلدٍ كان، لأنها جاءت بالتنوين، ولو كان المراد بها «مصر» المعروفة التي هي مسكن فرعون لجاءت بغير تنوين، كما قال سبحانه: ﴿ونَادَىٰ فرعونُ في قومِهِ قالَ يا قومِ أليسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وهذهِ الأَنْهارُ تَجْرِي من تَحْتِي..﴾[2]؟

قال ابن كثير: والحقُّ أن المراد بقوله تعالى: ﴿اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ماسألتم﴾ مصرٌ من الأمصار ـ أي بلد من البلاد ـ كما رُوي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك، لأن موسى عليه السلام يقول لهم: «هذا الذي سألتم ليس بأمرٍ عزيز ـ أي نادر ـ بل هو كثير، ففي أيِّ بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار، أن أسأل الله فيه»[3] وبعد أن حكى سبحانه كثيراً عن سفاهات اليهود وجرائمهم، وعن تعنتهم وطغيانهم، أخبر عمَّا أذاقهم إياه من أنواع الذل والهوان، وما حكم به عليهم من السخط والغضب فقال سبحانه: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ أي لزمهم الذل والهوان، وضُرب عليهم الصَّغار

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الأطعمة رقم ١٨٠٧ والنسائي في المساجد ٢/ ٤٣ ورواه البخاري بلفظ «من أكل ثوماً وبصلاً فليعتزل مسجدنا» ٩/ ٤٩٨ في الأطعمة.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٥١.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٠٥.

والخزي، وأحاط بهم ذلك، كإحاطة القُبَّة بمن ضُربت عليه، مجازاةً لهم على كفران النعمة. واليهود في غالب الأزمان أذلاء، من فقر النفس وشُحّها، فلا ترى ملّةً من المِلَل أحرص منهم على المال، ولا على الحياة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾(١) والمسكنةُ: الفاقةُ والخشوعُ، وهذا وصف ملازم لهم، لا ينفك عنهم أبداً، كما أن الذلَّ لا يفارقهم، إلا في بعض فترات، وهي التي عبَّر عنها القرآن بقوله سبحانه: ﴿إلاَّ بحَبْلٍ من الله وحَبْلٍ منَ النَّاسِ﴾(٢). وإنما أورد اللفظ بضمير الغائب ﴿وضُرِبَتْ عَليهِمُ﴾ للإشارة إلى أن ذلك الذل والهوان والصغار، راجعٌ إلى جميع اليهود إلى يوم القيامة وليس في أسلافهم فحسب ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي ذلك الذلُّ والغضب والسَّخطُ، بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة، من كفرهم بآيات الله التنزيلية والتكوينية ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي وقتلهم أنبياء الله ورسله، ظلماً وعدواناً، كقتلهم لزكريا ويحيى، وغيرهما من أنبياء الله، وإنما حملهم على ذلك حبُّ الدنيا، واتباع الهوى، والغلوُّ في العصيان.

**قال ابن مسعود:** «كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبيٍّ، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار»(٣) ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ أي ذلك الجزاء والعقوبة، بسبب عصيانهم وطغيانهم، وتمردهم على أحكام الله.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٢، ونصُّها ﴿ضُربت عليهم الذلةُ أينما ثقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس﴾ أي بعهد من الله وعهدٍ من الناس، كما تفعل أمريكا اليوم في احتضان هؤلاء الخنازير، والدفاع عنهم بشتى الوسائل، وستزول أمريكا بإذن الله كما زالت روسيا، لأن نهاية الطغيان والجبروت لا تدوم، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٠٦.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ هم المؤمنون الذين صدَّقوا برسالة محمد ﷺ، وتمسكوا بشريعته ودينه. ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ هم اليهود أتباع موسى عليه السلام، وسموا «هوداً» لأنهم تابوا بعد عبادة العجل، و«هاد» في اللغة بمعنى تاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[1] أي تبنا ورجعنا. ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ جمع نَصْران كسكارى جمع سكران، بمعنى نصراني، سمّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح، وهم أتباع عيسى عليه السلام. ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ هم قوم على الفطرة، لا دين لهم يتبعونه ويقتفونه، يقولون: لا إله إلا الله، وقيل: هم قوم تركوا اليهودية والنصرانية ووحَّدوا الله، والصابئُ في اللغة: من ترك دينه إلى دين آخر، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: قد صبأ، وبعضُ الصابئين عبد الملائكة. ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾أي من آمن منهم في زمانه، إيماناً صادقاً خالصاً، دون أن يشوبه شيء من الشرك، وعمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي لا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا كقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ التي كُنْتمْ تُوعَدُونَ﴾[2].

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.
(٢) سورة فصلت، آية: ٣١.

## توضيح وبيان للآية الكريمة

أخبر تبارك وتعالى أن أهل الملل والأديان، كلٌّ من آمن منهم بنبيه، وبكتابه في زمانه، إيماناً صادقاً، وعمل صالحاً دون أن يشرك بالله شيئاً، فإن أجره لا يضيع عند الله، وهو يوم القيامة ناج من عذاب الله، وأنه يدخل الجنة مع المؤمنين، فاليهودي الذي تمسك بشريعة موسى في زمانه، والنصراني الذي تمسك بشريعة عيسى في زمانه، والذي مات على الفطرة وهو يؤمن بالله، كلُّ هؤلاء يدخلون الجنة، لأنهم في زمانهم كانوا مؤمنين موحّدين، وأما بعد بعثة محمد ﷺ فلا يُقبل من اليهودي أو النصراني أن يتمسك أحدهم بدينه، بل من شروط دخول الجنة الإيمانُ بمحمد ﷺ، والدخول في دين الإسلام، لأن كل دين قبله نُسخ، وانتهى العمل به، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ من الخَاسِرِينَ﴾[1] نعم من آمن من أهل الأديان بنبيه في زمانه، فهو من أهل الجنة، لا يضيع من عمله شيء، وأما بعد مجيء الإسلام فلا يقبل الله من أحدٍ إلاّ الإسلام، وإلاّ الإيمان برسالة محمد عليه السلام، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلاّ كان من أصحاب النار»[2].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

بعد أن ذكّر تعالى بني إسرائيل بالنعم الجليلة التي أنعم بها عليهم،

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٢٤٠.

أخبر ببيان ما حلَّ بهم من نقم ونكبات، جزاءً لهم على كفرهم وعصيانهم، وتمردهم على أوامر الله عزَّ وجلّ!! ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل، حين أخذنا منكم العهد المؤكّد، الموثّق بأنواع المواثيق، على العمل بما في التوراة، فلما جاءكم موسى بالكتاب المنير، رفضتم العمل به ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي رفعناه حتى صار كالمظلّة فوقكم، وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي اعملوا بما في الكتاب بجدٍ وعزيمة، وادرسوه ولا تنسوه، ولا تغفلوا عنه، فهو الكتاب الذي به سعادتكم، ونجاتكم من شقاء الدارين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لكي تتقوا المعاصي وما يسخط الله، ولتكونوا في زمرة المتقين. روي أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة، ورأوا ما فيها من التكاليف، ثقلت عليهم، وأبوا قبولها، فأمر الله جبريل بقلع جبل الطور، فاقتلعه ورفعه فوق رؤوسهم، حتى أصبح كالظلة عليهم، وقيل لهم: إمَّا أن تطبّقوا أحكام التوراة، وإما أن نسحقكم بهذا الجبل[1]، فأذعنوا ورضخوا، ثم عادوا ونكسوا، فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

أي ثم نكثتم وأعرضتم عن الميثاق بعد قبوله، فلولا فضل الله عليكم بتوفيقكم للتوبة، ورحمته بقبولها والعفو عن الزلة، لكنتم من الهالكين الخاسرين في الدنيا والآخرة، وهذه هي الجناية الأولى التي تحدثت عنها الآيات، ثم أخبر تعالى عما حلَّ بهم من مسخ وتشويه في الصورة والشكل، إلى قردة بسبب ما فعلوا من جرائم وعصيان، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

---

(١) وهذا ما أشارت إليه سورة الأعراف: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنهم ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ آية: ١٧١.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ أي ولقد عرفتم يا بني إسرائيل، ما فعلنا بمن عصى أمرنا من أسلافكم، حين خالفوا أمر الله، واصطادوا يوم السبت، وكان محرَّماً ذلك عليهم، فمسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً، مع الذلة والهوان ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي فجعلنا هذا المسخ عقوبة زاجرة، لمن شهدها وعاينها، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي وعظةً وذكرى لكل عبد صالح، صادق الإيمان، متّقٍ للرحمن.

إلـى الله يُـدعى بـالبَـرَاهِيـنِ مَـنْ أبَـى
فَـإنْ لـم يُجِـبْ نَـادَتْـهُ بِيـضُ الصَّـوَارِمِ[1]

## المسخ حقيقيٌ لا معنويٌّ

لقد كان مسخهم قردةً مسخاً حقيقياً، تغيَّرت صورهم من صورة بشر، إلى صورة قردة وخنازير، وقد فصَّلتْ سورةُ الأعراف، قصة هؤلاء المعتدين في السبت، وذكرت أنهم مسخوا إلى قردة حقيقةً، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عنهُ قلْنَا لهمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُلْ هلْ أنَبِّئكُمْ بِشَرٍّ من ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله؟ مَنْ لَعَنَه الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ منهُم القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ﴾[3] فهذه النصوص صريحة على أنهم مسخوا إلى قردة وخنازير، وعلى ذلك جمهور المفسرين، وهو الصحيح، وما روي عن بعض المفسرين أن المسخ كان معنوياً لا صورياً مردود، كما

---

(١) الصوارم جمع صارم وهو السيف، أي من لم تنفعه الموعظة والبرهان، فليس له علاج إلا بالسيف الصارم.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٦٦.
(٣) سورة المائدة، آية: ٦٠.

قال الحافظ ابن كثير والصحيح أنه كان للصورة، ورروي عن قتادة أن القوم لما اصطادوا وخالفوا أمر الله، صاروا قردةً تتعاوى، لها أذنابٌ، بعد ما كانوا رجالاً ونساءً، وروي عن ابن عباس أن الله عزَّ وجلّ مسخهم قردةً بمعصيتهم، ثم هلكوا، ولم يعش مسخٌ قطُّ فوق ثلاثة أيام، ولم يكن لهم نسل. ويؤيد هذا القول ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله: القِرَدةُ والخنازيرُ أهي ممَّا مُسخ؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ لم يُهْلِك قوماً، أو يعذب قوماً، فيجعلَ لهم نسلاً!! وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»[1] أي كانوا قبل مسخ بني إسرائيل، فدلَّ ذلك على أن الذين مُسخوا ليس لهم نسل، وأن القردة الموجودين ليسوا من المسخ[2].

## قصة أصحاب البقرة

ثم ذكر تبارك وتعالى قصة أصحاب البقرة، كنموذج عن تمرد بني إسرائيل على أنبيائهم، ومعاندتهم وعصيانهم ومخالفتهم لأوامر الرسل، وكبيانٍ على قدرة الله عزَّ وجلّ في إحياء الموتى، وأن الله يبعث من في القبور. وخلاصة القصة أن بني إسرائيل كان فيهم شيخ موسر، قَتَله ابن أخيه طمعاً في ميراثه، ثم احتمله فطرحه على باب المدينة ليلاً، ولما أصبح الصباح جاء يطالب بدمه، ويزعم أن أهل البلدة قتلوه، حتى كاد يقع بينهم قتال بسبب القتيل، ثم أمرهم الله أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها، حتى يحيا ويخبر عن قاتله وإلى هذه القصة العجيبة تشير الآيات الكريمة، وهي قوله تعالى:

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب القدر رقم ٣٣.
(٢) انظر البحث مفصلاً في تفسير ابن كثير ١/ ١١٠.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل، حين قال لكم نبيكم موسى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ وذلك بعد أن قُتل بينكم قتيل، ولم تعرفوا قاتله ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؟ أي أتهزأُ وتسخرُ منا يا موسى؟ نسألك عن القاتل، فتقول لنا: اذبحوا بقرة؟ ما دخلُ البقرة بالقتيل؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي أستجير بالله أن أكون في زمرة الساخرين، المستهزئين بالناس، فإن السخرية بالناس جهل وسفهٌ!! وعبَّر بالاستعاذة ﴿أعوذ بالله﴾ استعظاماً لما أقدموا عليه، من رميه عليه السلام بهذه العظيمة المنكرة، فإن الهزؤ في أثناء تبليغ أمر الله، وفي مقام الإرشاد يكاد يكون كفراً، فكيف يليق ذلك بنبيٍّ من الأنبياء الكرام؟! ولو كانوا أذكياءَ لفهموا مغزى كلامه عليه السلام، فإنه وضَّح لهم أن هذا ليس من عنده، وإنما هو أمر الله ﴿إنَّ الله يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ولم يقل لهم: إنني آمركم أن تذبحوا بقرة، ولكنهم أناس جهلاء، مشاغبون معاندون، لا يعرفون قدر الرسل!!.

ولمَّا تحقق لهم أنه عليه السلام جادٌّ في كلامه، غير ساخر ولا عابث.

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾؟ أي ادع لنا يا موسى ربك، حتى يبين لنا ما هي هذه البقرة؟ ما سِنُّها؟ ما صفتها المميزة لها عن غيرها؟ وهذا تعنّتٌ منهم وعناد، ولو امتثلوا الأمر فذبحوا أي بقرةٍ لأجزأتهم، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد الله عليهم كما قال ابن عباس[1] ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي قال لهم موسى: إن هذه البقرة التي أمركم الله بذبحها ﴿لا فَارِضٌ﴾ أي ليست كبيرة مسنة هرمة، ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي وليست صغيرة فتية ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي فنفِّذوا أمر الله، ولا تكثروا الجدل، ولا تتعنَّتوا وتتشدَّدوا، فيشدّد الله عليكم.

قال ابن كثير: الفارضُ: الهرمةُ التي لا تُولد، والبِكرُ: التي لم تلد إلاَّ ولداً واحداً، والعَوَانُ: النَّصَفُ ـ أي الوسط ـ التي بين ذلك، التي قد وَلَدت، ووَلَد ولَدُها[2].

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾؟ لم يمتثلوا الأمر، وعادوا إلى الجدل والتعنت، فطلبوا من موسى أن يدعو ربه، حتى يخبرهم عن لونها، بعد أن أخبرهم عن سنّها!! أي هل لونها أبيض، أم أسود، أم أصفر؟ نريد أن تخبرنا عن لونها بقولٍ قاطع. ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ أي قال لهم موسى: إن ربي يقول إن هذه البقرة صفراء اللون، شديدة الصفرة، حسنة المنظر، تسرُّ كلَّ من رآها، ولفظ «فاقع» من صفات الألوان، وهو وصف خاصٌ بالصُّفرة، كما نقول: أسود حالكٌ، وأبيض ناصع، وأصفر فاقع أي شديد الصُّفرة، قال الطبري: وهو نظير النصوع في البياض[3]. وكان يكفي هذا البيان لهم، ولكنهم كانوا مغرمين بالتعنت والجدل، والمعاندة لأوامر الله، فرجعوا يطلبون من نبيهم أن يسأل ربه، عن علامةٍ خاصة تعرف بها، لأن هذه الأوصاف عندهم غير كافية.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/١١٢.
(٢) تفسير ابن كثير ١/١١٣.
(٣) مختصر الطبري ١/٩٧.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي يوضح لنا وصفاً خاصاً بها يميّزها من غيرها، وكأنهم أحسُّوا بمقت المعصية، فاعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً، وبالصفرة الفاقعة كثيرٌ، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي تشابه علينا البقر، والتبس أمره علينا، فلم ندر ما هي البقرة المأمور بذبحها، وسنهتدي إن شاء الله إلى معرفتها، وفي الحديث «إنما أُمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لمَّا شدَّدوا شدَّد الله عليهم، وايمُ الله لو أنهم لم يستثنوا - أي يقولوا إن شاء الله - لما بُيّنت لهم آخر الأبد»[1] وما تشابه عليهم البقر، إلاَّ لأنهم أغبياء من جنس البقر!!.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض، وجملة ﴿تثير الأرض﴾ صفة لذلول داخلة في النفي، ومعنى إثارة الأرض حراثتها لإلقاء البذر فيها ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي وليست لسقاية الزرع، وإنما هي للدرِّ والنسل، لا للحراثة والسقاية ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب، ليس فيها لون آخر يخالف لون جلدها، فهي صفراء كلُّها حتى قرنها وظلفها ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي في هذا الوقت جئتَ بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكالٌ في أمرها، وفي قولهم: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ إساءة أدبٍ مع رسولهم، كأنه ما كان يخبرهم بالحقِّ قبل ذلك، والآن قال لهم الحقَّ، أي الآن صدقتَ، وكان يكفيهم أن يقولوا: الآن عرفناها تمام المعرفة، ولكنهم كانوا غير راشدين في تعبيرهم، قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ فيه اختصار، والتقدير: فحصَّلوا البقرة الجامعة لكل الأوصاف، فاشتروها بثمنٍ غالٍ جداً، فذبحوها وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة، أو ضنّاً بذبح البقرة، فإنهم كانوا يعبدون البقر، كما قال سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/١١٤.

العِجْلَ﴾ أي امتزج بدمائهم حبُّ عبادة العجل، وهو الذَّكرُ من البقر، فمن أجل ذلك ما كادوا يقدمون على ذبحها، وفي هذا ذمٌّ لهم، لأن غرضهم لم يكن إلا التعنت، والشغب على نبيِّ الله موسى الكليم عليه السلام[1].

## قصة البقرة

وقصة هذه البقرة على ما رُوي أن رجلاً من بني إسرائيل، كان صالحاً، ووُلد له ابن، وكانت له عجلة ـ بقرة فتية ـ فأرسلها لترعى في الحقل، وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فلما كبر الصبيُّ قالت له أمه: إن أباك كان قد استودعَ الله لك عجلة، فاذهب فخذها، فذهب فلما رأته البقرة حنَّت إليه حتى أخذ بقرنيها ـ وكانت مستوحشة ـ فجعل يقودها نحو أمه، فلقيه بنو إسرائيل، ووجدوا بقرته على الصفة التي أُمروا بها، فاشتروها بثمن غالٍ[2].

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

هذه أول القصة، وهي من المؤخر لفظاً، المقدَّم معنى، لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة، للكشف عن القاتل[3]، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ

(١) اختار الطبري أنهم ما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة، ورجح ابن كثير رواية الضحاك عن ابن عباس، أنهم أرادوا ألاَّ يذبحوها، لأنهم ما كانوا يريدون إلا التعنت، ومع هذا البيان وهذه الأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وانظر ابن كثير ١/ ١١٥.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٤٨.

(٣) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ١/ ٧٣، وهذه الواقعة «قتل النفس» جرت قبل =

﴿نَفْسًا﴾ بداية ذكر القصة أي واذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم شخصاً، والخطاب لليهود المعاصرين لزمن النبي ﷺ، يذكّرهم بفعل أسلافهم، وأضيف القتل إليهم لرضاهم بفعل أولئك، وهذا على طريقة العرب في إسناد الأشياء إلى القبيلة، إذا وُجد من بعضهم سكوت أو رضى بما حدث ﴿فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم في شأنها، إذ كلُّ واحد من الخصماء صار يدفع التهمة عن نفسه، وينسبها لغيره، والدَّرءُ: معناه الدفعُ، ومنه قوله تعالى ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ﴾[1] أي يدفع عنها الحدَّ ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهرٌ لا محالة ما تكتمونه من أمر القتل، لا يتركه مستوراً مكتوماً، لا يُعرف من هو القاتل؟

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي فقلنا لكم على لسان نبينا: اضربوا القتيل ببعض البقرة، أيَّ بعضٍ كان، يحيا القتيلُ ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ في الآية شيء محذوف، تقديره: فضربوه فحيي، فحذف ذلك لدلالة السياق ﴿كذلك يحيى﴾ أي كما أحيا الله هذا القتيل أمام أبصاركم، كذلك يحيي الموتى من قبورهم، روي أنهم لمّا ضربوه ببعضها، قام بإذن الله، وأوداجه تشخب دماً، وقال: قتلني فلان لابن عمه، ثم سقط ميتاً فأُخذ وقُتل، ولم يُورَّث قاتل بعد ذلك. ثم إن موسى عليه السلام أمرهم بضربه ببعضها، وما ضربه بنفسه نفياً للتهمة، كيلا يُنسب إلى السحر أو الحيلة ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ويريكم دلائله على كمال قدرته، لكي تعقلوا وتتبصَّروا، وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس بعد موتها، قادرٌ على إحياء الأنفس كلها. وفي هذه القصة تعليم من الله

---

= أمرهم بذبح البقرة ـ كما بيّنا ـ وإن وردت في الذكر بعده، والسرُّ في ذلك التشويقُ إلى معرفة السبب في ذبح البقرة، والتكرير في التوبيخ والتقريع، لأن كل واحد من قتل النفس، والاستهزاء بموسى عليه السلام، والاعتراض على أمر الله، جناية عظيمة تستحق كمال التوبيخ.

(١) سورة النور، آية: ٨.

لعباده، بترك التشديد في الأمور، والمسارعة إلى امتثال أوامر الله، والتحذير من كثرة السؤال، والاعتبار بما يرى الإنسان من دلائل كمال القدرة.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ خطابٌ لأهل عصر النبي ﷺ من أحبار اليهود، والقسوةُ: عبارةٌ عن الغِلَظ مع الصلابة كما في الحجر الصَّلد، و«ثم» لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها، كقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(١) والمعنى: ثم صلبت قلوبكم يا معشر اليهود وغلظت، فلا يؤثّر فيها وعظٌ ولا تذكير ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد رؤية تلك المعجزات الباهرات، ومنها معجزة إحياء القتيل ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي فهي في قساوتها مثل الحجارة، بل أشدُّ منها قسوة، كقسوة الحديد ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي إن من الأحجار ما تتدفَّق منها الأنهار بالماء الزلال، الذي به حياة الناس والنبات، ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ﴾ أي ومن الحجارة لما يتصدَّع إشفاقاً من عظمة الله، فينبع منه الماء ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ أي ومن الحجارة ما يتصدَّع ويتردَّى من أعالي الجبال، خوفاً من الله عزَّ وجلّ، فالحجارة تلينُ وقلوبكم لا تخشع ولا تلين ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي هو تعالى رقيب على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، وهو وعيد شديد على ما هم عليه من قساوة القلب، وجفاء الطبع.

ترقَّىٰ سبحانه في بيان التفضيل على الحجارة، التي تتأثر تأثراً بليغاً، بما يترتب عليه منفعة عظيمة من تفجُّر الأنهار.. ثم على الحجارة المتأثرة

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١.

تأثراً ضعيفاً، يترتب عليه منفعة قليلة من خروج الماء، يعني بها العيون دون الأنهار، ثم على الحجارة المتأثرة بنفسها من غير منفعة الناس، وهي التي تتفتّت وتهبط خشية من عظمة الله، كما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعَاً مُتَصَدِّعَاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[1] فالحجارة تتأثر وقلوب هؤلاء لا تتأثر أصلاً، فهي أشدُّ قسوة من الحجارة!!

**فإن قلت:** إن الحجارة جماد فكيف تخشى وتتأثر؟

**فالجواب:** أن مذهب أهل السنة أن الله تعالى أودع في الحيوانات والجمادات حسّاً لا يعرفه الناس، فلها تسبيح وخشية لا ندركه نحن، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[2]. والخشيةُ: خوفٌ يشوبه تعظيمٌ وإكرام، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن جابر بن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعثَ، إني لأعرفه الآن»[3].

ثم بعد أن ذكر تعالى عناد اليهود، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان لأوامر الرحمن، نبّه تعالى المؤمنين إلى بعض جرائمهم وقبائحهم، لئلا يطمعوا في إيمانهم وهدايتهم فقال سبحانه:

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ .

---

(١) سورة الحشر، آية: ٢٢.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل رقم ٢٢٧٧ والترمذي في المناقب رقم ٣٦٢٤.

الخطابُ لرسول الله ﷺ والمؤمنين، والاستفهام للاستبعاد وإنكار الواقع، كما في قولك: أتضرب أباك؟ لا لإنكار الوقوع، فقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾؟ أي أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فترجون وتطمعون أن يؤمن اليهود لأجل دعوتكم، وضمير الغيبة ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ لليهود المعاصرين له ﷺ لأنهم هم المطموع في إيمانهم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي والحال أنه كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي يسمعونه بيّناً جلياً ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي ثم يغيّرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل الباطل، من بعد ما فهموه وضبطوه، كتحريفهم نعت النبي ﷺ وآية الرجم، والتحريفُ يصدق على تحريف الألفاظ، والمعاني، بالحذف، والزيادة، والنقصان، وهي واقعة في كتب اليهود والنصارى كما قال سبحانه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[1] وممَّا يؤيد وقوع التغيير، وأنها لم تبق كيوم نزلت، وقوع التناقض في الأناجيل، وتعارضها وتكاذبها، ومصادمة بعضها ببعض، فإنها في زماننا أربعة أناجيل، وقد تضمَّن كل إنجيل من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر، واشتمل على أمور وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها أو ما يخالفها، وفيها ما يدركه الإنسان بداهة أنه ليس من كلام الله تعالى مطلقاً، فهل أنزل الله على عيسى إنجيلاً واحداً أم أربعة أناجيل؟ وكذلك التوراة التحريف فيها أشد وأفظع، وصيغة المضارع ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار، فالتحريف عندهم مستمر، على حسب الأزمان والأهواء، لأن الله تعالى ما تكفَّل بحفظ كتاب، إلاَّ هذا القرآن العظيم!! ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهموه بعقولهم، ولم يبق لهم فيه ريبة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون مبطلون، والمراد أن أحبار هؤلاء وعلماءهم، كانوا على هذه الحالة، فما طمعكم بِجُهَّالهم؟ وقيل: المرادُ بكلام الله:

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤١.

الوحيُ المنزَّلُ على رسول الله ﷺ، وقد كان جماعة من اليهود يسمعونه فيحرّفونه قصداً، ليدخلوا في الدين ما ليس منه، ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره، والقول الأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي وإذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود: آمنا بأنكم على الحقِّ، وأن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي وإذا اختلى بعضهم ببعض، وانفردوا عن المؤمنين ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؟ أي قال بعض أحبارهم توبيخاً لهم عاتبين على من نافق: أتخبرون أصحاب محمد بما بيَّن الله لكم في التوراة، من نعت رسول الله وصفته ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم، في ترك اتباع الرسول، مع العلم بصدقه؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفليست لكم عقول تدركون بها هذا الخطأ الفاحش؟ وهذا من تمام الحكاية عنهم. وإنما عبَّروا عن الحديث بالفتح ﴿بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ﴾ للإيذان بأنه سرٌّ مكنون، لا يقف عليه أحد، وهم وحدهم يعرفون ذلك من أخبار التوراة.

قال تعالى ردًّا عليهم، وتوبيخاً لهم على إجرامهم ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؟ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود، المحرّفون لكلام الله، والكاتمون لأوصاف رسول الله، أن الله جلَّ وعلا، عالمٌ بما يخفونه وما يعلنونه، ومطَّلعٌ على أحوالهم، لا تخفى عليه من أحوالهم خافية؟ فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان!.

وقدَّم السرَّ على العلانية، لأن مرتبة السرِّ مقدمةٌ على مرتبة العلن، إذْ ما من شيءٍ يُعلن، إلاَّ وهو قبل ذلك مضمرٌ في القلب.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

لمَّا ذكر تعالى علماء السوء، من اليهود الذين حرَّفوا وبدَّلوا كلام

الله، ذكر العوام الذين قلّدوهم بدون عقل، ونبّه أنهم في الكفر والضلال سواء، العامة والعلماء فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي من اليهود جماعة عوام جهلاء، جمع أمي وهو الذي لا يعرف القراءة والكتابة ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أي لا يعرفون التوراة ليطالعوها، ويتحققوا بأنفسهم بما فيها، ولذلك يقلّدون الأحبار، ويصدّقونهم بما يقولون، بدون عقل ولا فهم ﴿إلاّ أَمَانيَّ﴾ جمع أمنية وهي في الأصل ما يقدّره الإنسان في نفسه والمروي عن ابن عباس أن الأماني: المواعيد التي سمعوها من أحبارهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً، والتمني: هو الكلام المتمنى به بقوله ليت لي كذا ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا قومٌ قُصارى أمرهم الظنُّ والتقليد، فأنى يرجى لهم الإيمان على قواعد اليقين!؟.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَوَيْلٌ﴾ شدَّةُ عذاب، وهي كلمة تحسُّرٍ وهَلَكة، وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «الويلُ وادٍ في جهنم»[1] ومعناه أن في جهنم موضعاً يتبوأ فيها من جُعل له الويلُ[2] وهو في الأصل مصدرٌ لا فعل له، وإنما ساغ

(١) أخرجه الترمذي ولفظه: «ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره».

(٢) لا يراد أنه في اللغة موضوع لاسم وادٍ في جهنم، وإنما يُراد أن من قال الله تعالى فيه «ويلٌ» فقد استحق مقراً من النار، وثبت له ذلك، مثل قوله: ﴿ويل للمطففين﴾ و﴿ويلٌ لكل هُمَزة لُمَزة﴾ و﴿فويلٌ للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾.

الابتداء به نكرة، لأنه دعاء، كأمثالِهِ من وَيْح، وَوَيْس[1]، فإذا أضيف نصب نحو ويلَكَ، ووَيحَك، وإذا فصل رُفع «ويلٌ له» وهذا دعاء عليهم بالهلاك ﴿ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ يعني المحرَّف، ولعله أراد به ما كتبوه من التأويلات الزائغة ﴿ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾ تأكيد كقولك كتبته بيميني ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ إعظاماً لشأنه، وتمكيناً في قلوب أتباعهم، و«ثم» للتراخي الرتبي، فإن نسبة المحرَّف إلى الله عزَّ وجلَّ أشدُّ شناعة من نفس التحريف، روي أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مكانتهم حين قدم النبي ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق أسافل اليهود عن الإيمان به ﷺ فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ فغيّروها ﴿ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ﴾ أي يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ ثَمَنٗا ﴾ كي يحصلوا به عرضاً من أعراض الدنيا ﴿ قَلِيلٗاۖ ﴾ فإنه وإن جلَّ قليل، بالنسبة إلى ما استوجبوه من العقاب الدائم ﴿ فَوَيۡلٞ لَّهُم ﴾ تكرير لما سبق للتأكيد وتصريح لتعليله ﴿ مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ من المختلق ﴿ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ من السُّحْت وهذا يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف للديانه، بل إنما فعلوه طلباً للمال، ويدل أيضاً على أن أخذ المال على الباطل وإن كان بالتراضي فهو محرم، واليهود جنوا ثلاث جنايات:

١ ـ تغيير صفة النبي ﷺ.

٢ ـ الافتراء على الله تعالى.

٣ ـ وأخذ الرشوة، فهدّدوا بكل هذه الجنايات بالويل والثبور.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾ أي قال اليهود لن ندخل النار إلا أياماً

(١) وَيْسٌ: كلمة تستعمل في موضع رأفة واستملاح، يقال: وَيْسَه ما أملحه، وَوَيْساً له. اهـ المعجم الوسيط.

قلائل، هي مدة عبادتنا للعجل، ولا نخلّد في نار جهنم، ومرادهم بقولهم: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي محصورة قليلة، روي أنهم قالوا إنما نُعذَّب بعدد أيام عبادة العجل، أربعين يوماً[1]، وكنّى بالمعدودة عن القليلة، لأن العرب ـ لعدم علمهم بالحساب ـ تصوّروا القليلة ميسّرة العدد، والكثيرة متعسرة، فقالوا: شيء معدودٌ أي قليل ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ وعداً بما تزعمون، فإنَّ ما تدَّعون لا يكون إلا بناءً على وعدٍ قويّ، ولذلك عبر عنه بالعهد ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ جواب شرط مقدر، أي إن اتخذتم عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده، وفيه دليل على أن الخُلْف في خبره محالٌ، وإظهار الاسم الجليل، للإشعار بعلة الحكم، فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه، وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه ما لا يعلمون للمبالغة في التوبيخ، وقولهم المحكي وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه، لكنه مستلزم له ﴿أم تقولون﴾ «أم» منقطعة بمعنى «بل» أي بل أتقولون على التقرير والتقريع ثم قال تعالى:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

(١) روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لمّا فتح خيبر، أهديت له شاة فيها سمٌّ، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود، فجُمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم: من أبوكم؟ قالوا: فلان، فقال: كذبتم بل أبوكم فلان، قالوا: صدقتَ، قال: فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفتَ كذبنا كما عرفته في أبينا!! فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً...» الحديث وانظر تمامه في فتح الباري على البخاري ٦/ ٢٧٢.

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من مساس النار لهم زماناً مديداً، ودهراً طويلاً، على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم، ويختص «بلى» بجواب النفي لأنها تقع تصديقاً للنفي، ولا يقع للمثبت أصلاً، ولهذا قيل بلى في جواب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ لأنه في قوة بلى أنت ربنا، ولو قالوا، نعم لكفروا، لأنه في قوة نعم لستَ ربنا، فإنَّ «نعم» يقع تصديقاً للإيجاب والنفي، في الخبر والاستفهام، ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ قبيحة، والكسب استجلاب النفع، وتعليقُه بالسيئة للتهكُّم على طريق فبشرهم بعذاب ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي استولت عليه، وشملت جميع أحواله، وهذا إنما يصح في شأن الكافر، ولذا فسرها السلف بالكفر، وتحقيقُ ذلك، أن من أذنب ذنباً ولم يُقلعْ عنه، استجرَّه إلى معاودة مثله، وانهماكه فيه، حتى تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه، فيصير بطبعه مائلاً إليها مستحسناً لها، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي غشَّاها وغطَّاها الإجرام والضلال ﴿فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾أي فهم في نار جهنم دائمون فيها أبداً، فأنى لهم الخروج منها بعد أربعين كما زعموا؟[1]

---

(١) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «لمَّا فُتحت خيبر أهديت للرسول ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود!! فجُمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم: من أبوكم؟ قالوا: فلانٌ، قال: كذبتم بل أبوكم فلان!! قالوا صدقتَ وبررت، فقال: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفتَ كذبنا كما عرفته في أبينا!! فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً!! ثم قال لهم رسول الله ﷺ: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ قالوا: نعم، قال: ما حملكم على هذا؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت صادقاً لم يضرّك!!» أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ١٩٥.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وضع تعالى الإيمان في مقابلة السيئة، والعمل الصالح في مقابلة الخطيئة، للمقارنة بين جزاء الأبرار، وجزاء الفجار، أي وأمَّا المؤمنون الصادقون، الذين قدّموا الأعمال الصالحة، فهؤلاء لا تمسهم النار، بل هم مخلَّدون في رياض الجنة، يُسرُّون فيها ويحبرون.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾.

شروع في تعداد بعض آخر، من جرائم وقبائح اليهود، حيث نقضوا الميثاق، وأزهقوا الأرواح، وطغوا في الأرض بالإفساد، واعتدوا على حرمات إخوانهم المؤمنين بالبغي والعدوان ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي اذكروا يا معشر اليهود، حين أخذنا على أسلافكم العهد الموثّق المؤكّد غاية التأكيد، وقلنا لهم ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ على إرادة القول أي قلنا لهم: لا تعبدون إلا الله ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ إخبارٌ في معنى النهي، كقوله تعالى: ﴿لا يُضارَّ كاتب﴾ وهو أبلغ من صريح النهي، لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء، فهو يخبر عنه، وهو متعلق بمضمر تقديره وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، والإحسانُ: الإتيان بالعمل على الوجه اللائق، وفسره ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) والوالدان تثنية والد، يطلق على الأب، والأم. ودلت الآية على

---

(١) هذا طرف من حديث جبريل المشهور، وفيه: فسأله جبريل: قال: «فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..» الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، وانظره بتمامه رقم ٨.

الحث على برّ الوالدين، والآياتُ والأحاديث في ذلك كثيرة، وناهيكَ احتفالاً بهما أن الله تعالى قرن ذلك بعبادته، لأن أعظم أنواع النعم نعمة الوجود، وهي نعمة الحفظ في وقت الصغر ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عطفٌ على الوالدين، والقربى مصدر كالرُّجْعىٰ، وهو قرابة الرحم والصلب، أي أحسنوا إلى ذي القربى، وقال الله تعالى: ﴿وآتِ ذا القُرْبىٰ حَقَّهُ﴾ يريد المحاويج منهم، قدَّمهم لأنهم أحق بالمعروف، عن سلمان بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقةٌ، وعلى ذي الرحم صدقةٌ، وَصِلة»(١) وفيه ذليل على وجوب النفقة على المحارم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، ومعناه في الأصل الانفراد، ومنه الدُرَّةُ اليتيمة، وهو الذي مات أبوه وهو صغير حتى يبلغ الحلم، وفي الحديث الشريف: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى»(٢). ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ والمسكين من السكون، كأنَّ الفقر أسكنه من الحراك، وأثخنه من التقلب وهو أشد فقراً من الفقير، فالفقير الذي له بلغةٌ من العيش، والمسكين الذي لا شيء له أصلاً عند أكثر أهل اللغة، وهو قول أبي حنيفة، واحتج بقوله تعالى: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ وعند الشافعي الفقير أسوأ حالاً، واحتج بقوله: ﴿أمَّا السفينة فكانت لمساكين﴾، ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً حَسَناً، وسمَّاهُ حُسْناً للمبالغة، والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد، والظاهر أن هذا الأمر من جملة الميثاق، والقول الحسن مع المؤمنين والكفار لأن موسى أمر بالرفق مع فرعون، وكذا الرسول ﷺ أُمر بالرفق والموعظة الحسنة، فإذا أمكن التوصل إلى الغرض باللُّطْف، لم يحسن سواه مع الجميع

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة ٥/ ٩٢ والترمذي رقم ٦٥٨ وقال: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/ ٤٣ في الأدب، وأبو داود رقم ٥١٥٠ وزاد البخاري: وفرَّج بينهما شيئاً.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يريد بهما ما فُرض عليهم في ملتهم، لأنه حكاية لما وقع في زمان موسى، ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ على طريقة الالتفات، ولعلَّ الخطاب مع الموجودين في عهد رسول الله ﷺ على التغليب، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتم وثمَّ للاستبعاد، فيكون توبيخاً لهم بالارتذاذ بعد الانقياد، وهو أشنع في العصيان من الأول ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ يريد من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي أنتم قوم عادتكم الإعراض عن الوفاء، والطاعة، وأصل الإعراض الذهاب والانصراف عن الشيء، احتقاراً له.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ نعى عليهم إخلالهم بموجب الميثاق، المأخوذ منهم في حقوق العباد، إثر بيان ما فعلوا بالميثاق، المأخوذ منهم في حقوق الله تعالى أي اذكروا وقت أخذنا ميثاقكم في التوراة، وقلنا ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي تريقونها بقتل بعضكم بعضاً، وإنما جعل قتل الرجل نفسه، لأنه يوجب القصاص، وقيل معناه: لا ترتكبوا ما يبيح سفك دمائكم، أو لا تفعلوا ما يُرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي لا يخرج بعضُكم بعضاً من داره، ولا يتعرض بالإجلاء عن الوطن، والتعبير عن ذلك للمبالغة في الحمل على مراعاة حقوق الميثاق ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي قبلتم ذلك الميثاق، واعترفتم بلزومه، خلفاً بعد سلف، والإقرارُ: ضد الجحود ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ توكيد كقولك: أقرَّ فلانٌ شاهداً على نفسه، وهو أبلغ في بيان قبيح صنيعهم، أي ثم اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون على أنفسكم بلزومه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

نزلت هذه الآيات في يهود بني قريظة، ويهود بني النضير، فقد كانوا فريقين، حَالفت بنو قريظة الأوسَ، وحالفت بنو النضير الخزرج ـ والأوسُ والخزرجُ سكان المدينة من العرب ـ فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كلُّ فريق من اليهود مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من المتاع والأثاث والمال، وذلك حرام عليهم بنص التوراة، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، افتكُّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، فذلك قوله تعالى موبخاً لهم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي ثم أنتم يا معشر اليهود، بعد إقراركم بالميثاق، تقتلون إخوانكم في الدين، وتطردونهم من ديارهم، من غير التزام بالميثاق ومن غير مراعاةٍ لأوامر الله في التوراة ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي تتعاونون على قتلهم وطردهم من أوطانهم بالبغي والظلم، والإثمُ: الذنبُ الذي يستحق فاعله الذمَّ واللوم، وفي الحديث الشريف «الإثمُ ما حاك في صدركَ وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس»[1] والعدوانُ: الظلمُ، ومجاوزة الحد

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٥٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٩٠ ولفظه عن =

في المعاصي ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ﴾ أي وإن وقعوا في الأسر في أيدي حلفائكم، استنقذتموهم بدفع المال لتخليصهم من الأسر ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي وإخراجهم من أوطانهم حرام عليكم، فكيف تستبيحون القتل والإخراج، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي الأعداء؟ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؟ بفداء الأسارى ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بالقتال، والإجلاء، والمظاهرة، مع أن من قضية الإيمان ببعضه، الإيمان بالباقي، لكون الكلّ من عند الله تعالى، فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب، أو إلى ما فعلوه من القتل والإجلاء ﴿مِنكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ فضيحة وهوانٌ يقال: خَزِيَ خِزياً: ذلَّ وهان ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي خزيٌ كائن في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ هو الخلود في جهنم، كما أن معصيتهم أشدُّ المعاصي، ولعل بيان جزائهم بطريق القصر، لقطع أطماعهم من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب، وإظهار بأنه لا أثر له أصلاً ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد للوعيد أي والله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد، لا يغفل عن أفعالهم من القبائح، التي من جملتها هذا المنكر.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ آثروا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ واستبدلوها ﴿بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها، وإن ما ذكر من الكفر ببعض الكتاب، إنما كان لمراعاة جانب حلفائهم، لما يعود منهم من بعض المنافع الدنيوية ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ دنيوياً كان أو أخروياً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفعهما عنهم، والأكثرون حملوه على نفي النصرة في الآخرة، لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ﴾ أي المعهود وهذا في الآخرة، ولأنهم قد يصيرون غالبين للمؤمنين في بعض الأوقات.

---

= النوّاس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البِرّ والإثم؟ فقال: «البِرُّ حُسْن الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك . .» الحديث.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا ﴾ شروع لبعضٍ آخر من جناياتهم، وهذا من النعم التي أفاض الله تعالى عليهم فقابلوها بالكفر، واللام في «لقد» جواب قسم محذوف، أي والله لقد أعطينا موسى الكتاب، ولا تكاد اللام ترتبط إلاَّ مع «قد» لأنها مظنة التوقع، والمخاطب إذا سمعها توقَّع وقوع ما صُدِّر بها من الخبر، ﴿ مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ المراد من الإتيان إنزال التوراة عليه، ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعناه وأردفناه، يقال: قَفَاه إذا اتبعه، وقَفَّاه به: إذا أتبعه إياه ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد موسى ﴿ بِٱلرُّسُلِ ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلَنا تَتْرَى﴾[1] وهم داود وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ عيسى بالعبرية معناه المبارك، ومريم في لغتهم العابدة، وقال القرطبي: معناه خادم الرب ﴿ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ المعجزات، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه، أو الحجج الواضحات، الدالة على نبوته، وأفرده عن الرسل لأنه من أولي العزم، وصاحب كتاب، وإضافته إلى أمه، رداً على اليهود زعموا أن له أباً ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ قويناه ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي بالروح المقدسة الطاهرة، أراد به «جبريل» عليه السلام، ووصفها به لطهارته عن مسِّ الشيطان، أو لكرامته على الله تعالى، وإطلاق «روح القدس» على جبريل شايع[2]، والقُدُس:

---

(١) سورة المؤمنون، آية ٤٤.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: والدليل على أن «روح القدس» هو جبريل عليه السلام قول الله تعالى: ﴿قل نزَّله روح القُدُس من ربك بالحقِّ﴾ وقوله ﷺ: «اللهمَّ أيِّدْ حسان بروح القُدس كما نافح عن نبيك» وحديث «إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها...» الحديث.

الطهارةُ والبركةُ، والتقديسُ التطهير، قال مجاهد والربيع: القُدُس من أسماء الله تعالى، كالقدُّوس، وخصَّ عيسى بذكر التأييد، لأنه تعالى خصه به من وقت صباه، إلى حال كبره، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾[1] ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من أولئك الرسل ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ بما لا تحبُّه من الحق الذي لا يحيد عنه، والهوى مقصور من هويته إذا أحببته، ثم أطلق على ميل النفس إلى شيء مذموم، فيقال: اتَّبع هواه، وهو من أهل الهوى، وقال الشعبي: «ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن إلاَّ وذمَّه» ولم يوضع إلاَّ موضع الشر، فلا يقال: فلانٌ يهوى الخير، بل يقال يحب الخير، وعبَّر عن المحبة بالهوى، للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم، هو المخالفة لأهوائهم، فإذا أتاهم الرسول بخلاف ما يَهْوَون كذَّبوه، أو قتلوه، والرسولُ فعول بمعنى مفعول جمعه رسل بضمتين، وهو من بعث بشريعة جديدة يدعو الناس إليها والنبيُّ: من بعث لتقرير شريعة سالفة ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبّرتم عن اتباعه، والمراد التوبيخ، ومتعلق «استكبرتم» محذوفٌ أي عن الإيمان بما جاء به من عند الله ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ونحوه ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى ونحوهما، وإيثار صيغة المستقبل في القتل لاستحضار صورته الهائلة، أو للإيماء إلى أنهم بعدُ على تلك النية الخبيثة، حيث همُّوا بما لم ينالوه من جهته ﷺ وسحروه وأرادوا سمّه. وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر، ونسب القتل إليهم لرضائهم به وقيل: إنه ﷺ قُتل حقيقةً بالسمِّ الذي وضعوه في الشاة، على ما جاء في الصحيح بلفظ «وهذا أوانُ وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السم»[2].

---

(١) سورة المائدة، آية ١١٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/٢١٩ وحديث السمّ أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ٦/١٩٥ ولفظه: لمَّا فُتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ.. الحديث، وفي رواية للبخاري في كتاب الهبة: «فما زلتُ أعرفها في لَهَوات رسول الله ﷺ» أي أثر هذه الأكلة في أقصى فم النبي ﷺ جمع لَهَاة وهي أقصى الفم.

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ﴾ للنبي ﷺ استهزاء، بيانٌ لفنٍ آخر من قبائحهم، على طريق الالتفات إلى الغيبة، إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب، والقائلون هم الموجودون في عصره ﷺ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف أي هي مغشّاة بأغطية، لا يصل إليها ما جاء به ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[(١)] قال تعالى تكذيباً لهم: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ردٌّ لما قالوا، والمعنى: أنها خُلقت على الفطرة، والتمكن من قبول الحق، ولكنَّ الله تعالى خذلهم بكفرهم، فأبطل استعدادهم، كما قال الله ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم﴾[(٢)] واللعنُ: أشد ما يعبر الله به عن غضبه، فالملعون هو المحروم من لطفه وقد يكون بمعنى الإبعاد عن درجة الأبرار، وهو المراد في حديث الاحتكار، والمراد للمحلِّل، والمحلَّل الخساسةُ لا حقيقة اللعن، لأن النبي ﷺ قال «إني لم أُبعث لعَّاناً»[(٣)] واللعنُ لا يكون إلا لكافر، وعلى غير معيَّن كالظالمين ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ «ما» مزيدة للمبالغة في التقليل، أي فإيماناً قليلاً يؤمنون، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، وقيل: أراد بالقلة العدم قاله الزمخشري.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

---

(١) سورة فصلت، آية: ٥.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٩ في البرّ، ولفظه: «قيل يا رسول الله: ادع على المشركين، قال: إني لم أُبعث لعَّاناً، وإنما بعثتُ رحمة».

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي اليهود ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي القرآن الكريم، وتنكيره للتفخيم ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي الكائن من عند الله ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي من التوراة، أي مصدق فيما يختص بالنبوة وصفاته عليه السلام المذكورة في التوراة وصارت تلك الأوصاف كالمؤكدة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي مِن قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي يستنصرون ويسألون اللهَ الفتح والنصرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، المنعوت في التوراة، وقيل: يستفتحون بمعنى يستخبرون عنه ﷺ هل ولد مولود صفته كذا وكذا!؟ نقله الراغب وغيره[1] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ تكرير للأول ﴿مَّا عَرَفُوا۟﴾ من الحق ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ حسداً وخوفاً على زوال الرياسة، لأنهم يظنون أن المبعوث يكون من بني إسرائيل، فلما بعثه الله تعالى من العرب، عظم ذلك عليهم، وحسدوه وكفروا به ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اللام للعهد، أي عليهم، ووضعُ المظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فاليهود لما بالغوا في الكفر والعناد، وكتمان أمر الرسول ﷺ صار الكفر كأنه صفة غير مفارقة لذكرهم.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

(١) عن ابن عباس قال: كان اليهود يستفتحون ـ أي يطلبون النصر ـ على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ، قبل مبعثه، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا في التوراة، حتى نعذب المشركين ونقتلهم، فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من العرب، وليس منهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ انظر تفسير ابن كثير ١/١٢٩.

﴿ بِئْسَمَا ﴾ ما نكرة بمعنى شيء أي بئس شيئاً ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ ﴾ باعوا به ﴿ أَنفُسَهُمْ ﴾ بمنزلة المثمن ﴿ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ بمنزلة الثمن، وهو المخصوص بالذم، لأن أنفسهم الخبيثة لا تشترى أي أنهم اختاروا الكفر على الإيمان، وبذلوا أنفسهم فيه ﴿ بَغْيًا ﴾ حسداً، وهو علة لأن يكفروا والمعنى: بئس شيئاً باعوا به أنفسهم كفرهم بسبب البغي الكائن ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الذي هو الوحي ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ ويصطفيه ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة، والبغيُ في الأصل: الظلمُ والفساد، وقد يراد به الخروج على السلطان، بغى أي سعى بالفساد والمراد هنا: الحسدُ، يدلُّ عليه أنّ كفرهم كان لمجرد العناد، وهو نتيجة الحسد لا للجهل ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ مترادف ومتكاثر، للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق ﷺ ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العصاة فإنه طُهرةٌ لذنوبهم، وسبب إذلالهم لما أن كفرهم كان مبنياً على الحسد والاستهانة بمن أنزل عليه.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ من جانب المؤمنين لليهود ﴿ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ يعني الكتب المنزلة بأسرها ﴿ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أي بالتوراة يعنون بها ما نزل على بني إسرائيل، ويدسُّون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم، وفيه إيماء أن عدم إيمانهم بالقرآن، لبغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ والتعبير بالمضارع لحكاية الحال، استغراباً للكفر بالشيء بعد العلم بحقيته، وقوله تعالى ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ المراد به بما سواه من الكتب الإلهية، والمقصود به هنا القرآن الكريم خاتمة

الكتب السماوية ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي مع أن القرآن هو الحقُّ، الموافق لما معهم في التوراة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي مصدِّقاً لما معهم من كلام الله، لأن كتب الله المنزلة، يُصدِّق بعضها بعضاً في الأصول، كالتوحيد، والإيمان بالآخرة، والبعث والجزاء ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي قل لهم توبيخاً وتقريعاً: إن كنتم حقاً مؤمنين بما في التوراة، فلم كنتم تقتلون رسل الله، مع أن قتلهم من أعظم الجرائم عند الله؟ وهل يقدم مؤمن على قتل نبيٍّ من أنبياء الله؟

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ولقد جاءكم نبيكم موسى بالحجج الباهرات، والمعجزات الساطعات، الدالة على صدقه ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي ثم عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع، والآية إبطال لقولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وللتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول ﷺ هي طريقة أسلافهم مع موسى عليه السلام، عادتهم في ذلك الكذبُ والعدوان، والظلم والطغيان «ومَنْ يُشابهْ أَبَهُ فما ظَلَم»!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا على أسلافكم، العهد المؤكَّد الموثَّق بالأيمان، على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوقهم جبل الطور قائلين ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي خذوا هذه الأحكام بعزمٍ وحزم، واسمعوا سماع قبولٍ وطاعة، وإلاَّ طرحنا عليكم الجبل فسحقناكم به ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك، فإذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب

المؤكَّد، مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزات، بمثل هذه العظيمة، فكيف يتصور من أخلافهم الإيمان بما فيها؟ ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي خالط حب العجل قلوبهم، وامتزج بدمائهم، لفرط شغفهم به ومحبتهم له كما يدخل الصِّبْغُ في الثوب، والماء في البدن ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم، وتعلق قلوبهم بالوثنية ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم: بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل!! والأسلوب ورد بصيغة التهكم، فالإيمان يدعو إلى التقوى، لا إلى الكفر وعبادة البقر، والغرض من الآية القدح في صحة دعواهم الإيمان، ولهذا قال بعده ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان، فبئس هذا العمل والصنيع، فمن ادَّعى أنه مؤمن، ينبغي أن يكون فعلُه مصدِّقاً لقوله، وإلاَّ لم يكن مؤمناً!!.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

الآية توبيخ لليهود، على دعواهم الكاذبة، أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لهم دون سائر الخلق، فأمر الله رسوله أن يدعوهم إلى تمني الموت، إن كانوا صادقين في تلك الدعوى، فأحجموا وظهر كذبُ دعواهم، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن كانت لكم الجنة خاصة، لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي خاصة بكم دون سائر الخلق، كما قلتم ﴿لن يَدْخُلَ الجنة إلاَّ من كان هوداً﴾[1]

(١) سورة البقرة، آية: ١١١.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي فاطلبوا من الله أن يميتكم، واشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة، فإن من أيقن بدخول الجنة، اشتاق إلى التخلص إليها من دار البوار.

قال تعالى ردّاً على كذبهم وافترائهم ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا، ولن يطلبوا ذلك بحالٍ من الأحوال ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي والله عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك. وهذه الآية الكريمة من المعجزات، لأنها إخبار بالغيب، وكان الأمر كما أخبر، فلم يقع من أحد من اليهود، الذين كانوا في عصره عليه السلام، أنه تمنى الموت، ولو تمناه لمات، كما جاء في الحديث الصحيح «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار»[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ أي ولتجدنَّ يا محمد اليهود، أشدّ الناس حرصاً على الحياة، لمعرفتهم بذنوبهم وإجرامهم، فلا تكاد تجد يهودياً يحبُّ الموت ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي ولتجدنهم أحرص من المشركين على الحياة، لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار، والمراد بالمشركين هنا مشركو العرب كفار مكة ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي يتمنى الواحد من اليهود أن يعيش ألف سنة، والمراد بالألف هنا الكثرة أي يتمنى أن لا يموت، وأن يعيش في الدنيا خالداً مخلَّداً ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي ومهما عمَّر وطالت حياته، فليس ذلك بمبعده ولا منجيه من عذاب الله ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ البصيرُ: العالمُ بكنه الشيء، أي واللهُ عالم بخفيات أعمالهم، وهو مجازيهم بها لا محالة، وفيه وعيد شديد لليهود، مع القطع بخلودهم في النار.

---

(١) أخرجه ابن جرير عن النبي ﷺ مرفوعاً، ورواه أحمد في المسند وانظر كمال الحديث في تفسير ابن كثير ١/ ١٣١ قال ابن كثير: ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلاّ مات.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾.

أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود، من كان عدواً لجبريل فإنه عدوٌّ لله، لأن الله أرسله بالوحي على رسله، فمن عاداه فقد عادى الله، والعدوُّ ضدُّ الصديق، يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث، والمثنَّى والجمع، و «جبريل» اسم مَلَك كان ينزل بالوحي على رسل الله المقربين، فهو الأمين على وحي السماء كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[1] روي أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ يمتحنونه، فقالوا: يا محمد نسألك عن أربعة أشياء، فإن عرفتها وأجبتنا عنها اتَّبعناك!! فأخذ عليهم العهد على ذلك، وقال لهم: سَلُوا عمَّا شئتم!! فسألوه عمَّا حرَّم إسرائيل على نفسه، فقال: لحوم الإبل وألبانها، وسألوه كيف يأتي الولد له شَبَهٌ بأبيه أو بأمه؟ فقال: إذا علا ـ أي سبق ـ ماء الرجل ماءَ المرأة كان له شَبَهٌ بأبيه وكان ذكراً، وإذا علا ماء المرأة كان له شبه بأمه وجاءت به أنثى، وقالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه، ولا ينام قلبه، قالوا: بقيت واحدة إن أجبتنا عنها اتبعناك، أخبرنا من يجيئك بالوحي من الملائكة؟ قال: جبريل عليه السلام، قالوا: جبريل؟ ذاك عدُوُّنا، لأنه ينزل بالحرب، والقتال، والعذاب، ولو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والخصب والمطر لاتبعناك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿قل من كان عدواً لجبريل...﴾[2] الآية. وهناك روايات أخرى، اتفقت كلُّها أن الآية نزلت بسبب قول اليهود:

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٩٣.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي، وقال: الترمذي: حسن غريب، وانظر الروايات في تفسير ابن كثير ١/ ١٣٤.

«جبريل عدونا، وميكائيل صديقنا» فأنزل الله الآيةَ ردّاً عليهم ذلك الضلال والبهتان، ثم قال تعالى ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي فإن جبريل الأمين، نزَّل هذا القرآن على قلبك يا محمد، بأمر الله تعالى وإذنه وتيسيره، وخصَّ القلب بالذكر، لأنه موضع العقل، وموطن العلم، ومحل الفهم والحفظ، كما أنه عليه السلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلذلك قال ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لأنه ﷺ كان يعتمد على حفظ القرآن عن ظهر قلب، والقلب هو محل الثبات والحفظ. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدِّقاً لما سبقه من الكتب الإلهية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وفيه الهداية والإرشاد، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم، والبشرى أكثر ما تستعمل في الخير، ولا تجيء في الشرِّ إلاَّ مقيَّدة، كقوله سبحانه: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[1] وقوله: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾[2] ومقصدُ هذه الآية تشريف جبريل عليه السلام، وذمُّ من عاداه.

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي من عادى الله عزَّ وجل، وملائكته الأبرار، ورسله الأطهار، فهو كافر عدوٌّ لله ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ أي ومن كان عدواً على وجه الخصوص لجبريل وميكائيل، خصَّهما بالذكر مع دخولهما في لفظ ﴿وملائكته﴾ تشريفاً لهما، وتفخيماً لشأنهما[3]، فإنهما من سادة الملائكة؛ ومن الرؤساء الكبراء كمحمد وإبراهيم في الأنبياء، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ دفعٌ لليهود بالكفر، فإن معاداة أحد الملائكة، أو أحد الأنبياء، كفر بجميع الملائكة والرسل، لأنهم جميعاً مرسلون من عند الله، فمن كذَّب واحداً منهم فقد كذَّب الجميع، وكذلك من عادى بعضهم عادى الجميع.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣٨.

(٣) هذا كما يقوله أهل البيان من باب «ذكر الخاص بعد العام» للتعظيم والتشريف.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ المراد بالبينات: الواضحات الدلالة على معانيها، والمعنى: لقد أنزلنا إليك يا محمد آياتٍ واضحات، دالات على صدق نبوتك، فإنك أميٌّ وهذا الكتاب الذي جئتهم به معجز، فنبوتك واضحة صادقة، لا تحتاج إلى برهان آخر غير القرآن ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي ما يجحد بها وينكرها إلاّ المتمرّدون من الكفرة، الخارجون عن الطاعة، الممعنون في الضلال.

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر محذوف، تقديره: أكذَّبوا بالآيات وهي في غاية الوضوح؟ وكلّما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ وهم الذين كانوا يقولون قبل مبعثه عليه السلام: لئن خرج النبيُّ لنؤمننَّ به، ولنخرجنَّ المشركين من ديارهم وأوطانهم، وأصلُ النَّبذِ: الطَّرحُ والإلقاء، ثم استعمل فيما يُنسى ويُهمل، من أمور الدين الهامة. كقول الشاعر:

إنَّ الـذيـنَ أمـرتَهـم أن يَعْـدِلـوا    نَبَـذُوا كتـابَـكَ واستَحلُّـوا المَحْـرمـا

والمراد أن اليهود أخلفوا العهود، ولم يلتزموا بها، مع أنها موثَّقةٌ بالأيمان المغلَّظة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بل أكثر اليهود لا يصدّق بالتوراة التي أنزلت عليهم، فضلاً عن الإيمان بالقرآن العظيم، فلذلك

ينقضون العهود، ولا يفون بالمواثيق، وهذا في غاية الذمِّ لهم، والتشنيع عليهم، لأنهم لا يعدُّون نقض المواثيق ذنباً يؤاخذون عليه!!.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾.

ذمَّهم تعالى على نقض العهود، التي أُمروا في التوراة بالوفاء بها، ثم ذكر طرفاً آخر من إجرامهم، وهو تكذيبهم لخاتم الرسل ﷺ، المذكور صفته في كتبهم، وقد أُمروا باتباعه، ومؤازرته، ونصرته، وكانوا ينتظرون بعثته بفارغ الصبر.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي ولمَّا جاءهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وهو الرسول الأمين المرسل من عند الله عزَّ وجلَّ بالكتاب المعجز ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أي مصدِّقاً للتوراة، وموافقاً لها في أصول الدين، ومقرِّراً لنبوة موسى عليه السلام وإنما ذكر في الآية ﴿مِنْ عِنْدِ الله﴾ أي مرسل من عند الله، لإفادة مزيد تعظيمه، إذ قدرُ الرسول على قدر المرسِل وهو الله رب العالمين جلَّ جلاله ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ أي طرح علماؤهم وأحبارهم التوراة، والمراد بهم اليهود الذين كانوا في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، طرحوا التوراة لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ، فجحدوا وأصرُّوا على إنكار نبوته ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ هذا مثلٌ يضربُ لمن يستخفُّ بالشيء فلا يعمل به، أي جعلوه نسياً منسياً، والعرب تقول: جعل هذا الأمر وراء ظهره، ودَبْر أذنه، إذا لم يلتفت إليه أصلاً ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي كأنهم لا يعلمون من صفات ودلائل نبوته شيئاً، شبَّههم بمن لا يعلم، إذ فعلوا فعل

الجاهل الغبيِّ، فهم يتجاهلون عناداً، فقد كفروا على علمٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وهذا أقبح الكفر، وأعظم الضلال.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٢﴾.

أخبر تعالى عن اليهود أنهم قوم مجرمون، يهجرون كتاب الله، ويلقونه وراء ظهورهم، ويتَّبعون ما تلقي إليهم الشياطين، من كتب السحر والشعوذة، وهذا حالهم مع رسالات الله وأنبيائه.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ معنى «تتلو» أي تحدّث وتروي، من التلاوة بمعنى القراءة، أي سلكوا طرق السحر والشعوذة، التي كانت تحدثهم بها الشياطين، في عهد ولاية سليمان عليه السلام ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي وما كان نبيُّ الله سليمان عليه السلام ساحراً، ولا كفر بتعلمه السحر، ولكنَّ الشياطين هم الذين علَّموا الناس طرق السحر، حتى فشا أمره بينهم، فنسبه اليهود إلى السحر. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ تبرئةٌ من الله تعالى لسليمان، والمراد بالكفر هنا: «السحر» فإن اليهود ـ لعنهم الله ـ نسبوه إلى السحر، والسحرُ والعمل به كفرٌ، أو مؤدٍّ إلى الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ﴾ أي ما سحر ولا كان

ساحراً، إنما هو رسول، فعبَّر عن السحر بالكفر، لينبه على أنه كفر، وأن من كان نبياً فهو معصوم عنه.

روي أن رسول الله ﷺ لما ذكر «سليمان» في الأنبياء، قال بعض اليهود: ألا تعجبون لأمر محمد؟ يزعم أن «سليمان» كان نبياً!! واللهِ ما كان إلاَّ ساحراً، فأنزل الله ﴿وما كفر سليمان﴾[1] الآية.

## فصل في السحر

واعلم أن السحر من قبيل التمويه والخداع، كما قال سبحانه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[2] وهو في عُرف الشرع: كلُّ أمرٍ خفي سببه، وجرى على غير حقيقته، كما أخبر سبحانه عن سحرة فرعون أنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾[3] يعني موَّهوا عليهم، حتى ظنوا أن الحبال والعصيَّ تسعى، والساحر لا تقبل توبتُه ولا يستتاب، بسعيه في الأرض بالفساد، وقد عدَّه رسول الله ﷺ من الكبائر فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات: قالوا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي - أي الهرب - يوم الزحف، وقذف المحصنات، المؤمنات الغافلات»[4].

والسحر ليس من الخوارق، لأنه مما يترتب على الأسباب، كالإسهال

---

(١) زاد المسير تفسير ابن الجوزي ١/ ١٢٠.

(٢) سورة طه، آية: ٦٦.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١١٦.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في الوصايا ٥/ ٢٩٤ ومسلم في الإيمان رقم ٨٩.

بعد شرب المسهل، وكالشفاء بعد تناول الدواء، ولم تجر سُنَّةُ الله تعالى بتمكين الساحر من فلْقِ البحر، وإحياء الموتى، وشفاء الأعمى، وغيرها من معجزات الرسل، صوناً لمنصب النبوة الجليل، وإنما السحر له ضرر وتأثير بإرادة الله عزَّ وجلّ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ و«حدُّ الساحر ضربةٌ بالسيف»(١) كما ورد في الحديث الشريف.

﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ «هاروت» و «ماروت» اسم لملكَيْن من ملائكة الله، أنزلهما الله إلى الأرض بصورة البشر، ابتلاءً منه سبحانه للناس، وتمييزاً بين السحر والمعجزة، لئلا يغتر بالسحر الناس، إذ السحرة كثرت في ذلك الزمان، فأرسلهما الله ليعلّما الناس خطر السحر، وطريق التخلص من السحر، ومعنى الآية: وكما اتبع رؤساء اليهود السحر، كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكَيْن بمملكة «بابل» من أرض الكوفة بالعراق ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ أي إنَّ الملكَيْن لا يعلّمان أحداً من الناس السحر، حتى يبذلا له النصيحة ويقولا له: إن هذا الذي نصفه لك، إنما هو امتحانٌ من الله وابتلاء، فلا تستعمله للإضرار بعباد الله، ولا تكفر بسببه والعمل به، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس نجا، ومن تعلَّمه ليؤذي به العباد هلك وضلَّ، قال تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ أي يتعلمون منهما من السحر، ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، بأن يحدث الله بينهما التباغض والنشوز، بعد أن كانت المودة والمحبة بينهما، وهذا على حسب جري العادة الإلهية، من خلق المسببات عقب حصول الأسباب ابتلاء، ولهذا قال بعده ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي وما يستطيع هؤلاء السحرة، الإضرار بأحد من الخلق، إلا بمشيئته تبارك وتعالى، وبإرادته وتمكينه، فقد يحدث الضرر وقد لا يحدث، ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ أي والحال أنهم بتعلمهم السحر، إنما يحصلون على الضرر

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود رقم ١٤٦٠ والحديث روي مرفوعاً وموقوفاً.

لا على النفع، لأن تعلم ما لا ينفع سفهٌ وجهالة، وهو غير نافع في الدارين، لأنه لا تعلق له بانتظام المعاش أو المعاد ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله، واستبدلوا به السحر، أن من آثر السحر على كتاب الله، ليس له حظٌّ ولا نصيب من رحمة الله ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم، لو كان لهم عقل وفهم، لما عرَّضوا أنفسهم للهلكة، ولما باعوها بما لا يزيدهم إلاَّ تباراً. أما الحكمة من تعليم الملكين للناس السحر، فهو أن السحرة كثروا في ذلك الوقت، واخترعوا فنوناً غريبة من السحر، وربما زعم بعضهم أنهم أنبياء يوحى إليهم، فبعث الله الملكَيْن ليعلّما الناس وجوه السحر، حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة، ويعرفوا أن هؤلاء المدعين للنبوة سحرة لا أنبياء، وكل هذا من ابتلاء الله للعباد كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

بعد أن ذكر تعالى الوعيد لليهود، أتبعه بالوعد، على عادة القرآن الكريم، في الجمع بين عنصري الترهيب والترغيب.

فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ أي لو أن هؤلاء اليهود، الذين تعلموا السحر ليفتنوا به الناس، آمنوا إيماناً صادقاً بالرسول والكتاب، وخافوا عذاب الله فكفُّوا عن الغي والضلال ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، ولأكرمهم الله بأنواع الكرامة، والمثوبة، والمثابةُ، والثواب بمعنى واحد،

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

وهو الأجر والجزاء الحسن ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان لهم فهم وإدراك، وهذه الجملة جارية على الأسلوب المعروف في فنون البيان، من أن العالم بالشيء إذا لم ينتفع بعلمه، يُنزَّل منزلة الجاهل به، ويُنفى عنه العلم كما يُنفى عن المتعامي البصر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصُّوا به من ضروب السحر والشعوذة، أعقبه ببيان نوع آخر، من ضروب خبثهم وشرهم، وهو ما يضمرونه للنبي والمؤمنين من الحسد والحقد والبغضاء، وتمني زوال النعمة، وما كانوا يقولونه من كلمات السبِّ والشتيمة، يتظاهرون بأنهم يريدون بها الخير والتكريم، كقولهم «راعنا» يقصدون بها الرعونة، التي هي الجهلُ والحمقُ، فنهى الله المؤمنين عن أمثال هذه الكلمة سداً للذريعة، بقوله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾ أي يا أيها المؤمنون لا تقولوا في خطابكم للرسول: راعنا ﴿ وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ أي قولوا عوضاً عنها: انتظرنا ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ أي واسمعوا سماع قبول، فأطيعوا أمر الله وأمر رسوله، ولا تكونوا كاليهود الذين قالوا: سمعنا وعصينا ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي ولليهود الكفار، الذين توصلوا بقولهم المذكور «راعنا» إلى شتم الرسول ﷺ عذابٌ وجيع، يصلُ وجعُه إلى قلوبهم!.

وكلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ في معناها الأساسي أصلها من «الرعاية» وهي النظر في مصالح الإنسان، وقد حرَّفها اليهود اللعناء فجعلوها كلمة مسبَّة من

«الرعونة» وهي الجهل والحمق، يظهرون أنهم يريدون المراعاة، ويبطنون إرادة الرعونة، فلذلك نهي عنها المسلمون. روي أن «سعد بن عبادة» رضي الله عنه سمعها منهم، فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتُها من رجلٍ منكم، يقولها لرسول الله عليه الصلاة والسلام، لأضربنَّ عنقه!! قالوا: أولستم تقولونها لنبيكم؟ فنزلت الآية ﴿لَاتَقُولُوا رَاعِنَا﴾ ونُهي عنها المؤمنون، قطعاً لتدليس اليهود الخبثاء.

ثم قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ما يحبُّ الكافرون من اليهود والنصارى، ولا المشركون الوثنيون من العرب «عبدةِ الأوثان» أن يتنزَّل عليكم يا معشر المؤمنين شيء من الخير، لشدة بغضهم وحسدهم لكم ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي والله سبحانه يمنح فضله ونعمته - ومنها النبوة والرسالة - لمن شاء من عباده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان، فلا يظن اليهود والنصارى أنهم أحقُّ بالنبوة من العرب لأنهم أهل كتاب، ولا يظن المشركون أنهم أحقُّ بالوحي من محمد ﷺ لأنهم أغنياء وهو فقير، كما كانوا يقولون: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(1) وقولهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(2).

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

(1) سورة الزخرف، آية: ٣١.

(2) سورة سبأ، آية: ٣٥.

روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد، يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه؟ ما يقول ذلك إلاّ من تلقاء نفسه، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلاّ من كلام محمد!؟ فأنزل الله عزَّ وجل الآية مبيناً الحكمة من النسخ بقوله:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ أي ما نبدِّل حكمَ آيةٍ فنغيّره بآخر، على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي أو نمحها من قلبك يا محمد ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي نأت بما هو أصلح وأنفع لكم أيها المؤمنون، في العاجل أو الآجل، إمَّا برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم.

ونسخُ الآية بيانُ انتهاء التعبد بقراءتها، أو نسخُ الحكم المستفاد منها، وكلٌّ ذلك مبنيٌّ على علم وحكمة، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؟ أي ألم تعلم أيها المؤمن العاقل، أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسانٍ للعباد؟.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ألم تعلم أن الله تعالى هو المالك المتصرف في شؤون الخلق، له ملك كل ما في السمٰوات والأرض، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؟ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي وما لكم أيها المؤمنون وليٌّ يرعى شؤونكم، ولا ناصر ينصركم غير الله تعالى، فهو نعم الناصر والمعين، والمقصود من الآية التسكينُ لقلوب المؤمنين، بأنَّ الله وليُّهم وناصرهم دون غيره، فلا يجوز الاعتماد إلاَّ عليه، ولا يصحُّ الالتجاء إلاَّ إليه، ولا ينبغي للمؤمن أن يصغي إلى أقاويل أهل الكفر والضلال، في أمر نسخ الآيات والأحكام، فإن مقتضى الإيمان بعلم الله، وقدرة الله، وحكمة الله، الإيقان والجزم بأنه تعالى لا يفعل بهم إلا ما هو خير لهم. ثم حذَّر تعالى المؤمنين، من مجاراة اليهود في تعنتهم واقتراحاتهم على أنبيائهم ورسلهم فقال سبحانه: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي بل أتريدون

يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم، كما سأل قوم موسى نبيَّهم من قبل، ويكون مثلكم مثل اليهود، الذين قالوا لرسولهم موسى: «أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً» فتضلُّوا كما ضلُّوا؟ ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي ومن يختر الكفر بدل الإيمان، ويستبدل الضلال بالهدى ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي فقد عدل وجار عن الطريق المستقيم، وضلَّ طريق الهدى الموصل إلى جنات النعيم. والغرضُ من الآية توصية المسلمين بالثقة برسول الله ﷺ وترك الاقتراح عليه بشيء من الأمور، فالأصل في المسلم الإذعان والتسليم.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ثم أخبر تعالى عمَّا يضمره أهل الكتاب للنبيّ والمؤمنين، من ضروب الكيد، والحسد، والبغضاء، وتمني زوال النعمة عن المسلمين، وذلك ليحذروهم ويجتنبوا طريقهم، فليس عند أعداء الله «اليهود والنصارى» إلاَّ كل خبث وسوء وكيد للمؤمنين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي أحبَّ وتمنى كثير من اليهود والنصارى، أن يصرفوكم عن الإيمان والتوحيد، وأن يجعلوكم من بعد إيمانكم كفاراً، مرتدين عن دينكم، بعد أن هداكم الله للدين الحق ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي حسداً منهم لكم، منبعثاً من نفوسهم الخبيثة التي تكرهكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة، أنكم على هدى، وأن دين الإسلام هو الحق، والحسدُ: تمني زوال النعمة عن المحسود، وهو مرض قلبي

خطير، يعصف بدين المرء، كما قـال المصطفى ﷺ: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسدُ، والبَغضاءُ، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشَّعَر، ولكنْ تحلقَ الدِّينَ»[١] ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ العفوُ: تركُ عقوبة المذنب، والصفـحُ: تركُ تأنيبـه، والمراد ترك المقابلـة، والإعراض عنهم، لأن ذلك أقرب إلى تسكين الثائرة في الوقت، لا العفوِ على وجه الرضا، ولذلك لـم يأمر سبحانـه بذلك على الدوام، بل علَّقـه بغايـة، فقال: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ الذي هو الإذن في قتالهم، وفيه إشعارٌ بالانتقام من الكفار، ووعدٌ للمؤمنين بالنصرة، وتهديد لمن يخالف أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم، إذا حان حينه، فهو تعليلٌ لما قبله.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ عطف على ﴿فاعفوا﴾ كأنه أمرهم بالصبر، والمخالفة، واللجوء إلى الله تعالى بالعبادة، لأنها تدفع عنهم ما يكرهـون ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ كصلاة، وصدقة، وغيرهما. أيْ أيَّ شيءٍ من الخيراتِ تقدمون لأنفسكم ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ أي ثوابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لا يضيع عنـده عملٌ، وهـو وعد للمؤمنين، وعبّر عن «علمه» تعالى بالبصر، لأن أعمال البشر كلها كالمبصرات، بالنسبة إلى علمه سبحانه وتعالى، حيث يعلم الصغير والكبير، والفتيل والقطمير.

ثم أخبر تعالى عن عقائد اليهود والنصارى، وتكفير بعضهم لبعض، فـاليهـود يعتقـدون بكفـر النصـارى وضـلالهـم، والنصـارى يعتقـدون بكفـر اليهود، وكلٌّ منهم يلعن الآخر، وفي ذلك يقول سبحانه:

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٥١٢.

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، جمع الله بين قولَيْ الفريقين ثقةً بفهم السامع، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارىٰ عَلَى شَيْءٍ﴾ فكلٌّ منهما يكفِّر الآخر، ولمّا كانت أقوالهم كلها كاذبة باطلة، في ادعائهم أن الجنة خاصة بهم، جمع الله أقوالهم، وردَّ عليهم جميعاً، فقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ أي تلك مزاعمهم، ورغباتهم الفاسدة، وشهواتهم التي يتمنونها، وليس لها في الواقع ظلٌّ من الحقيقة ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي قل لهم تسفيهاً وتكذيباً لما زعموه: أَحضِرُوا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة، إن كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة لليهود، أو للنصارى؟! وفي هذا تسفيهٌ للفريقين في مزاعمهم الباطلة.

ثم قال تعالى تكذيباً لهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي بلى يدخل الجنة، من استسلم وخضع لله، وأخلص نفسه لرب العالمين، لا يشرك به شيئاً، وليس الأمر كما تزعمون، أن الجنة لا يدخلها إلا اليهودي أو النصراني!! والوجه يُطلق ويراد به ذات الإنسان، كقوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وإنما عبَّر بالوجه لأنه أشرف الأعضاء، ومجمع المشاعر والحواس، وموضع السجود، وبه يحصل التوجه إلى كل شيء،

والمراد بإسلام الوجه: الإقبال على عبادة الله، وجعل توجهه إليه سبحانه بجملته وبالكلية، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مع تسليم نفسه، وإخلاصه لربه، مؤمنٌ مصدِّقٌ متَّبعٌ لرسول الله ﷺ، فلا بدَّ في كل عبادةٍ صادقة من أمرين هامين: الإخلاص لله، وأن يكون عمله موافقاً لطريقة رسول الله ﷺ ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي فله ثواب عمله عند ربه، لا يضيع منه شيء، والعندية للتشريف، وإظهار مزيد اللطف بالعبد ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ولا خوف عليهم في الآخرة، ولا يعتريهم حزن ولا كدر، لأنهم في نعيم مقيم، في دار الخلد والكرامة.

ثم أخبر تعالى عن ضلال اليهود والنصارى، وتكفير بعضهم لبعض في الدنيا، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي قال اليهود عن النصارى: ليسوا على دين صحيح معتدٍّ به، مقبولٍ عند الله، فدينهم باطل، ونهايتهم إلى نار الجحيم ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل مقالتهم: ليس اليهود على دين صحيح، مقبول عند الله، فدينهم باطل، ونهايتهم إلى نار الجحيم ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي والحال أن كلاً من الفريقين، يقرأ التوراة والإنجيل، ويعلم أن الإيمان بجميع كتب الله ورسله، من لوازم الإيمان، فقد كفَّر بعضهم بعضاً عن علم، لا عن جهل ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي كذلك قال الوثنيون الجهلة «مشركو العرب» مثل قول أهل الكتاب، قالوا: إن دين الإسلام باطل، ومحمد ليس برسولهم، فقد اجتمعت آراء أهل الضلال على مذهب واحدٍ، يقولون لأهل كل دين: ليسوا على شيء ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فالله يحكم بين العباد، ويفصل بينهم بقضائه العادل، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويُظهر الحقَّ ويُزهق الباطل. روي في سبب نزول هذه الآية، ما رواه ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: «لمَّا قدم أهلُ نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار اليهود - أي أكابر علمائهم - فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم يا معشر النصارى على شيء من الدين، وكفر

بعيسى وبالإنجيل، وقال قسيس من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفر بموسى وبالتوراة، فأنزل الله عزَّ وجلّ ﴿وقالتِ اليهودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلَى شَيْءٍ..﴾ الآية[1].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ عام لكل من فعل ذلك، في أي مسجد كان، وإن كان سبب النزول في مسجد مخصوص، ومما يدلُّ على أنه عام في سائر المساجد، إطلاقه ذلك، واختلف في سبب النزول، فقال الحسن وقتادة: نزلت في بختنصَّر المجوسي، خرَّب بيت المقدس، وبقي خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر رضي الله عنه، وعن ابن عباس أنها نزلت في مشركي العرب، لأنهم منعوا المسلمين، عن ذكر الله في المسجد الحرام، وظاهرُ الآية العمومُ، وخصوصُ السبب لا يمنعه ﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ كنَّى بذكر الله تعالى، عما يحصل في المساجد من الصلاة، ومجالس العلم المأذون بفعلها، ومدارسة القرآن، واليهود كانوا سبباً لتخريب بيت المقدس، بعصيانهم، وقتلهم الأنبياء عليهم السلام، ولا يراد بالاستفهام حقيقته وإنما هو بمعنى النفي، فيؤول إلى الخبر، أي لا أحد أظلم من ذلك، واستشكل بأن هذا اللفظ ﴿ومن أظلم﴾ قد تكرَّر في القرآن والكلام خرج مخرج المبالغة، في التهديد والزجر ﴿ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ أي عمل في خرابها بالهدم، أو بتعطيلها من العبادة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ المانعون ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ أي ما كان ينبغي

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٠.

لهم أن يدخلوها إلاَّ بخشيةٍ، وخشوع، فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو إلاَّ خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، وفيه وعد للمؤمنين بالنصرة، وتخليص المساجد من الكفار، وقد أنجز الله وعده، ونصر عبده ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي هوان وذلة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بكفرهم وظلمهم، أشد ممّا لهم في الدنيا.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي له سبحانه الأرض كلُّها، لا يختص به مكان دون مكان، فإنْ مُنِعْتم أن تصلُّوا في المسجد الحرام، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ ففي أيِّ مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي هناك جهته التي أمركم بها، ورضيها لعباده، وفي هذا تسلية للمؤمنين بجعل الذكر، والصلاة في جميع الأرض، وفي الحديث الصحيح «وجعلت ليّ الأرضُ مسجداً وطهورا»[1]. و﴿ثمَّ﴾ بالفتح اسم إشارة إلى مكان مبني على الفتح، ولا يتصرف سوى الجر بمن فيقال: مِنْ ثَمَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ بإحاطته بالأشياء، أو برحمته، يريد التوسعة على عباده، فلذا وسَّع عليكم القبلة ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها. عن ابن عمر قال كان ﷺ يصلي وهو مقبلٌ من مكة إلى المدينة على راحلته، حيث كان وجهه، وفيه نزلت ﴿فأينما تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾[2].

---

(١) هذا طرفٌ من حديث أخرجه البخاري ١/ ٣٧٠ في التيمم، ومسلم في المساجد رقم ٥٢١ ولفظه: «أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً. .» إلى آخر الحديث.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ٧٠٠ ورواه البخاري رقم ١١٠٥ وليس فيه جملة «وفيه نزلت ﴿فأينما تولوا فثمَّ وجهُ الله﴾ وروى الترمذي روايةً أخرى في سبب نزول هذه الآية، فأخرج عن عامر بن ربيعة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفره، في ليلةٍ مظلمة، فلم ندر أين القبلة؟ فصلَّى كلُّ رجل منا على حِياله ـ أي تلقاء وجهه ـ فلمَّا أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿فأينما تُولُّوا فثمَّ وجهُ الله﴾» سنن الترمذي ٥/ ١٨٨.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾ نزلت لمّا قالت اليهود: «عزير ابنُ الله» والنصارى «المسيحُ ابنُ الله» ومشركو العرب «الملائكة بناتُ الله» ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيه، والحاجة، وسرعة الفناء، والسببُ في ضلالهم أن أرباب الشرائع المتقدمة، كانوا يطلقون الأب على الله تعالى، باعتبار أنه هو السبب الأول، ثم ظنَّتِ الجهلةُ منهم أن المراد منه معنى الولادة، فاعتقدوا ذلك تقليداً ولذلك كُفِّر قائله، ومُنع منه مطلقاً، حسماً لمادة الفساد.

والنصارى في التسمية فريقان ١ ـ منهم من قال: عيسى حقيقةً ولدُ الله ٢ ـ ومنهم من قال: اتخذه ولداً، كإبراهيم خليل الله، فنفى الله تعالى الأول بقوله ﴿لم يلد﴾ والثاني بقوله ﴿ولم يتخذ ولداً﴾ ولهذا قال بعد ذلك ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ردٌّ لما قالوه، واستدلال على فساده والمعنى: تقدَّس اللهُ وتنزَّه عمَّا قاله أولئك السفهاء تنزهاً بليغاً، فإنه تعالى خالق جميع ما في السموات والأرض، التي من جملتها: الملائكةُ، وعزيرٌ، والمسيح ابن مريم، فكيف يكون له ولد، وكلُّ ما في الكون خلقه وعبيده؟ ثم إن الولد يكون عن حاجة، ولا بدَّ أن يشبه أباه، وكل ذلك ممتنع على الله عزَّ وجلّ، فإنه الغنيُّ المطلق، المنزَّه عن مماثلة المخلوقات، ولمَّا كانت الدعوى خطيرة، بدأ الآية بقوله: ﴿سُبۡحَانَهُ﴾ أي تنزَّه الله كلَّ التنزه، عن مثل تلك المزاعم الباطلة الكاذبة، وقوله تعالى: ﴿ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي كلُّ ما في السموات والأرض، منقادٌ لأمر الله، لا يستعصي شيء منهم، على مشيئته وتكوينه.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي خالقها ومبدعها على غير مثالٍ سابق، وهذه حجةٌ ثانية لإبطال مقالتهم الشنيعة، فإذا كان الله مبدع الأشياء كلها،

وليس له مثيل ولا شبيه من مخلوقاته، وقد خلق السموات والأرض ـ وهي أعظم من خلق الإنسان ـ فكيف لا يقدر على خلق عيسى، من أم بدون أب؟ ولهذا قال بعده ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي وإذا أراد إيجاد شيء من الأشياء، حصل من غير امتناع ولا مهلة، لأنه سبحانه يقول له كن فيكون، أي أُحدثْ فيحدثُ، من غير تأخر ولا تباطؤ، وفي الآية تقرير لمعنى الإبداع، وتلويح لحجةٍ أخرى، وهي أنه تعالى لو أراد الولد ـ وتنزَّه الباري عن ذلك ـ لما احتاج إلى ما زعموه من اتخاذ زوجة!!.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي وقال جهلة المشركين وهم كفار مكة ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ لولا بمعنى هلاَّ، أي هلاَّ يكلمنا الله مشافهة، أو تأتينا بحجة ساطعة على صدق نبوتك؟! والأول منهم استكبار، والثاني جحود وعناد، فقد بلغوا من العتوّ، أن يطلبوا مرتبة المفاوضة الإلهية، دون وساطة مَلَك أو رسول، ومن الجحود والعناد أن يعتبروا جميع ما جاءهم به الرسول ﷺ من المعجزات الساطعات، والآيات البينات، من قبيل الأساطير، ولهذا يطلبون معجزات أخرى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك القول الباطل الشنيع ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ من الأمم الماضية، كقولهم ﴿اجْعَلْ لنَا إلَهاً كَمَا لهمْ آلِهَةٌ﴾[1] و﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أنْ ينزِّلَ عَلَيْنَا مائِدَةً﴾[2]؟ ﴿مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ﴾ أي مثل هذا البهتان ﴿تَشَٰبَهَتۡ

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٨.
(٢) سورة المائدة، آية: ١١٢.

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم، في العَمَى والعناد، والتشابُه: أن يُشبَّه كل واحد من الشيئين بالآخر، كقول الشاعر:

رقَّ الـزُّجـاجُ وَرَقَّـتِ الخَمْـرُ ... فَتَشَـابهـا فَتَشَـاكَـلَ الأمـرُ
فكـأنـه خمـرٌ ولا قَـدَحٌ ... وَكـأنَّـه قَـدَحٌ ولا خَمْـرُ

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي وضَّحناها لقومٍ يطلبون اليقين الصادق، لا يعتريهم شبهة ولا عناد، وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك، الخفاء في الآيات، وإنما قالوه عُتُوّاً أو عناداً، والمراد من الآيات، الآيات القرآنية، الدالة على نبوته ﷺ، وما جاءهم به من المعجزات الباهرات، وفي تعريف الآيات وجمعها، وإيراد التبيين مكان الإتيان، ما لا يخفى من الجزالة، والمعنى: إنهم اقترحوا آيةً فذَّة، ونحن قد بيَّنَّا الآيات العظام، لقوم يطلبون الحقَّ واليقين، وإنما لم يتعرض لرد قولهم ﴿لَولاَ يُكلِمُنَا الله﴾ إيذاناً بأنه منهم أشبهُ بكلام الأحمق، وجوابُ الأحمق السكوت.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً ومؤيداً به، وفُسِّر الحقُّ بالقرآن، وبالإسلام، وبقاؤه على عمومه أولى، والمعنى: نحن يا محمد أرسلناك بالشريعة النيِّرة، والدين القويم، وبالهدى الساطع، والحق المبين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي تبشر المؤمنين بجنات النعيم، وتنذر الكافرين بعذاب الجحيم، وأكثر ما يستعمل الإنذار في التخويف، والبشارة بالخبر السارّ ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي ولست يا محمد مسؤولاً عن أصحاب النار إن لم يؤمنوا، بعد أن أدَّيت الأمانة، وبلغت الرسالة!! والجحيمُ: المتأجِّجُ من النار، وفي التعبير عنهم «بأصحاب الجحيم» دون قوله عن الكفار والمشركين، للإيذان بأنهم مطبوع على قلوبهم، لا يُرجى منهم خير ولا إيمان، وفي الآية وعيد شديد لأولئك المجرمين.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

بعد أن بيَّن تعالى ضلالات أهل الكتاب والمشركين، نبّه رسوله ﷺ إلى أن اليهود والنصارى أعداء ألداء لدين الإسلام، لن يرضوا عن أحدٍ من المسلمين، حتى ينسلخ عن دينه، ويتبع دينهم الأعوج.

فقال سبحانه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ أي ولن يرضى عنك اليهود والنصارى، مهما تودَّدت لهم، حتى تترك الإسلام الواضح النيِّر، وتتبع دينهم الباطل المحرَّف، وفي الآية مبالغةٌ في إقناط الرسول عليه الصلاة والسلام من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتَّبع ملَّتهم وهذا أمر مستحيل، فكيف يتَّبعون هم ملَّته؟ قال الله عزَّ شأنه ذلك له، لأنه عليه السلام كان شديد الحرص على إيمانهم، حيث كان يتلطف معهم ليسلموا، فأخبره تعالى أنهم لن يرضوا عنه، ما دام مستمسكاً بالإسلام، حتى يدخل في دينهم، ويترك دينه الحنيف، وإنما وحَّد الملَّة، مع أن ملَّة اليهود، غير ملّة النصارى، فكان السياق يقتضي أن يقال: حتى تتَّبع ملَّتهما، للتنبيه على أن الكفر ملَّةٌ واحدة، ومعنى الملَّةِ: الدينُ، وهي خاص لا تُستعمل إلا في الشرائع، فلا يقال: ملة العصر، ولا ملَّة الدهر ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وهذا صريح في أن ما وقع كان جواباً لما قالوه: ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارىَ تَهْتَدُوا﴾ أي قل رداً عليهم: إنَّ هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى الحقُّ، ليس وراءه هدى، وما تدعون إليه ليس بهدى، بل هو هوىً، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي آراءهم الزائفة، الصادرة عنهم بشهوات أنفسهم، وأمَّا ما شرع الله لهم، على لسان الأنبياء، فقد غيّروه وبدَّلوه، وفي صيغة الجمع ﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾

إشارة إلى كثرة الاختلاف بينهم ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي الوحي، أو الدين المعلوم صحتُه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ جواب القسم، أي من جهته العزيزة ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يلي أمرك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عِقابه، وهذا من باب التَّهييج والإلهاب، وإلاَّ فأنى يتوهم إمكان اتباعه ﷺ لملَّتهم؟ وقيل: الخطابُ للرسول والمراد به أمته[1]، لأن من عادات الناس أن يوجّهوا أمرهم ونهيهم إلى من هو أعظم درجةً بينهم.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام، وقيل هم أصحاب النبي ﷺ والكتابُ: القرآنُ، وقيل المؤمنون عامة ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ بمراعاةِ اللفظ، عن التحريف، والتدبر في معناه، والعمل بمقتضاه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب، وتلاوته ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي بكتَابهم، دون الأشرار المحرفين لكتاب الله، فإنهم بمعزلٍ عن الإيمان ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي ومن يكفر بالكتاب المنزَّل، الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، فخسروا سعادة الدارين.

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

تقدَّم تفسير هذه الآيات، ومعنى تفضيلهم على العالمين، أن بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى، وتمسكوا بالتوراة، هم أفضل عالمي زمانهم،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ١٦٨/١: وفي الآية تهديدٌ ووعيد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة ـ عياذاً بالله من ذلك ـ فإن الخطاب مع الرسول، والأمرُ لأمته، وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله تعالى ﴿حتى تتَّبع ملَّتهم﴾ حيث أفرد الملة، على أن الكفر كلَّه ملَّةٌ واحدة.

لا أنّهم أفضل العالمين على الإطلاق، لقوله تعالى في أمة محمد ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ﴾ وإنما كرَّر النداء لبني إسرائيل، وأمرهم بذكر النعم، مبالغة في النصح والتذكير، وإيذاناً بأنه مضمون القضية، والمقصود من القصة، حتى لا يغفلوا عن طاعة الله.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

الابتلاء في الأصل: التكليفُ بالأمر الشاق، ومعناه: الامتحان والاختبار، مشتق من البلاء كما قال سبحانه: ﴿ونَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ ﴾ فيه تقديم المفعول على الفاعل، للاهتمام بشأن المبتلَىٰ أي المختبر، وهو إبراهيم أبو الأنبياء، الذي يقرُّ جميع أهل الأديان بفضله، والمعنى: اذكر يا محمد حين اختبر اللهُ عبده ورسوله إبراهيم الخليل، وامتحنه بأنواع من الامتحان الشاق، والمراد بالكلمات هنا ما ابتلاه به من وجوه المحن، وكلَّفه من أنواع التكاليف الشرعية، منها: فراق قومه في الله حين أُمر بمفارقتهم، وصبره على قذفهم له بالنار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أُمر بالخروج عنهم، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه، ومحاجة نمرود في الله، فهذا أصحُّ ما نُقل عن ابن عباس، في الكلمات التي امتحنه الله بها، كما ذكره السيوطي في الدُّر المنثور(١) ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أتى بهن على وجه الكمال والتمام، وقام بهنَّ حقَّ القيام. قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ والابتلاء إنما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الأمور، وأمَّا من العليم الخبير، فإنه لإظهار الطائع من العاصي. حكى الله سبحانه عن

(١) الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٢٥.

إبراهيم أموراً، فإنَّ إبراهيم عليه السلام شخصٌ يعترف بفضله جميع أهل الملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله، ومتشرفين بأنهم من أولاده، وأهل الكتاب أيضاً مقرون بفضله ومتشرفون بأنهم من أولاده، ويدَّعون أنهم على دينه وملته، فبيَّن اللهُ عزَّ وجلّ أن هدى الله هو ما عليه الرسول ﷺ من التوحيد، والإسلام، الذي هو مِلة إبراهيم، وأن ما يدَّعيه أهل الكتابين أهواءٌ زائفة، ودعاوى كاذبة، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والجعل بمعنى التصيير، أي إني جاعلك قدوة للناس، ومناراً يهتدي بك البشر، والإمام اسم لمن يؤتم به، وإمامته عامة مؤبدة، إذ لم يُبعث بعده نبيٌّ، إلا كان من ذريته، مأموراً باتّباعه ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ خبرٌ في معنى الطلب، وكان أصله: واجعل يا رب بعض ذريتي أئمة، عدل عن صيغة الأمر مراعاةً للأدب، والذرية نسلِ الرجل، من الذر بمعنى التفريق، والمرادُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الآباءُ والأولاد، أصلها الأولاد الصغار، ثم عمت الكبار. قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إجابة إلى ملتمسه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة، وأنهم لا ينالون الإمامة، لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وفيه دليل على عصمة الأنبياء، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة، والمتبادر من العهد الإمامة، وليست هي هنا إلاّ النبوة، وعبَّر عنها به، للإشارة إلى أنها أمانة الله تعالى، لا يقوم بها إلا من شاء الله من عباده، والمتبادر من «الظالم» الكفر، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَالكَافِرونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١).

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٤.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي الكعبة، غلب عليها كالنجم على الثريا وليس المراد نفس الكعبة، لأنه تعالى وصفه بكونه أمناً، وهذا صفة جميع الحرم، كما في قوله تعالى: ﴿هَدْيَاً بالِغَ الكَعْبَةِ﴾ والمراد الحرم، لأنه لا يُذبح في الكعبة ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي مرجعاً يثوب إليه الزوّار ويرجعون، من ثاب يثوب إذا رجع، وقال ابن عباس: ﴿مَثَابَةً﴾ ملجأً، والتاء فيه للمبالغة كالعلاّمة ﴿وَأَمْنًا﴾ موضع أمن، لا يتعرض لأهله كقوله تعالى: ﴿حَرَمَاً آمِناً﴾ أو يأمن حاجُّه من عذاب الآخرة من حيث إن الحجَّ يهدم ما قبله، ولا يؤخذ الجاني، الملتجىء إليه، حتى يخرج وهذا مذهب أبي حنيفة، كمن قتل أو سرق في الحل، ثم دخل الحرم فإنه لا يؤذى حتى يخرج، فيؤخذ، ويجوز إرادة العموم بالأمن في الدنيا والآخرة ولم يذكر للناس هنا إشارة إلى العموم، حتىٰ الحيوانات والنباتات، ولا يمكن أن يكون المراد، الإخبار عن عدم وقوع القتل في الحرم، لأنا نشاهد أن القتل الحرام قد يقع فيه، وأيضاً قد يوجد القتل المباح، قال الله تعالى ﴿وَلاَ تُقَاتِلوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتّى يُقاتِلُوكُم فيه فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ عن ابن عباس قال: قال ﷺ يوم فتح مكة «إنَّ هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله تعالى، إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلاَّ ساعةً من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكُه، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا تُلتقط لقطته إلاَّ لمَنْ عرَّفها، ولا يُختلى خلاه[1]، فقال العباس يا رسول الله إلاّ الإذخر، فإنه لِقَيْنِهِمْ ولبيوتهم، فقال: «إلاّ الإذخِر»[2] ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ

(١) لا يُختلى خلاه: الخَلَىٰ: الرطب من المرعىٰ، أي لا يُقطع نباته الرطب.
(٢) أخرجه البخاري في الحج ٤/ ٤٠ ومسلم برقم ١٣٥٣ في الحج أيضاً باب تحريم مكة وصيدها، والقيْنُ: الحدَّادُ والصائغ، أي يحتاج إليه الحداد، ويحتاج إليه الناس لسقوف البيوت.

﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ على إرادة القول، أي وقلنا اتخذوا مصلّى عند مقام إبراهيم أي صلُّوا فيه، والخطابُ لأمة محمد ﷺ و«من» للتبعيض، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدميه، الذي وقف عليه حين رفع قواعد البيت، وفي فتح الباري: المقامُ من عهد إبراهيم لزيق البيت إلى أن أخَّره عمر رضي الله عنه إلى المكان الذي هو فيه[1] وقيل: «مقام إبراهيم الحرم كلُّه»، والقول الأول أولى، لحديث جابر رضي الله عنه، فقد روى جابر أنه ﷺ لمّا فرغ من طوافه، عمد إلى مقام إبراهيم، فصّلى خلفه ركعتين، وقرأ ﴿وَاتَّخِذوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلّى﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ أي أمرناهما ووصيناهما وقلنا لهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ بأن طهِّرا، يريد طهِّراه من الأوثان، والأنجاس، وما لا يليق به، وإضافةُ البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف، كناقة الله، وتوجيه الأمر ههنا إليهما لا ينافي ما في سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم عليه السلام، فإن ذلك قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لإِبْراهِيمَ مَكانَ البيت﴾[3] وكان إسماعيل عليه السلام صغيراً، بمعزل من مقام الخطاب، والظاهر أن هذا بعد بلوغه وتمام البناء ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله، والمراد كل من يطوف من حاضر وباد، وقال ابن جبير: المراد الغرباء ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين عنده، والمعتكفين فيه، وفي سورة الحج ﴿والقَائِمينَ﴾ والمراد المقيمون، وغاير بينهما جرياً على عادة العرب، من تفننهم في الكلام ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي المصلين جمع راكع، وساجد أي أخلصاه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند قوي.

(٢) هذا طرف من حديث جابر بن عبد الله في بيان حجة النبي ﷺ رواه مسلم في كتاب الحج رقم ١٢١٨ وفيه: فجعل المقام بينه وبين البيت، أي صلى خلف مقام إبراهيم، وكان يقرأ في الركعتين ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه. . » الحديث.

(٣) سورة الحج، آية: ٢٦.

فإنَّ عبادة غير المؤمنين، من قبيل تلويثه وتدنيسه، كما قال سبحانه: ﴿وما كانَ صلاتهم عند البيتِ إلاَّ مُكاءً وتصْدِيةً﴾[1].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ يريد البلد أو المكان، وهو إشارة إلى الوادي المذكور في قوله تعالى: ﴿ربَّنا إني أسكنتُ من ذُرِّيتي بَوادٍ﴾[2] أي اجعل هذا المكان القفر ﴿ بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي أهله، أي اجعل أهله آمنين، طلب من الله نعمة الأمان، لأنها أعظم أنواع النعم، وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلاَّ بها، وهل الأمن من الجبابرة، أو من الخسف، أو من القحط، فيه أقوال للعلماء، واختلف في أن مكة هل كانت آمنة قبل دعوة إبراهيم، أو صارت بدعوته آمنة؟ فقيل إنها كذلك أبداً لقوله ﷺ: «إن الله حرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض»[3] الحديث، وقال آخرون: إنها صارت أمناً بدعاء إبراهيم عليه السلام بدليل قوله ﷺ: «اللهم إنَّ إبراهيم حرَّم مكة، وإني حرَّمتُ المدينة»[4]. ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ خصهم بالدعاء إظهاراً لشرف الإيمان، ومراعاةً لحسن الأدب، وفيه ترغيب لقومه بالإيمان، كما أن حكايته ترغيبٌ وترهيبٌ لقريش وغيرهم وقولُه ﴿من الثمرات﴾ أي من أنواعها، بأن تجعل بقربِ منه قُرىً، يحصل فيها ذلك كالطائف، أو يجيء من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية،

---

(١) سورة الأنفال آية: ٣٥.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

(٣) الحديث تقدَّم بكماله وهو في الصحيحين، وانظر صفحة ١٥٢ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٣٦٢ في كتاب الحج باب فضل المدينة.

في يوم واحد. قال الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ أيضاً ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي متاعاً قليلاً، وزماناً قليلاً، فأرزقه في الدنيا، إلى منتهى أجله، وذلك قليل بالنسبة للآخرة، لأنه ينقطع، ونعمةُ المؤمن في الدنيا، موصولةٌ بالنعمة في الآخرة ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أي أُلْجِئُهُ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ لكفره، وتضييعه ما متعه به من النعم، والاضطرار: ضدُّ الاختيار، وهو أن يُكْره على الشيء من غير اختياره، كمن اضطر لأكل الميتة أو لحم الخنزير، والمضطر هو الذي لا يملك الامتناع عمَّا اضطُر إليه، والمراد به هنا الإلجاء إلى دخول النار الموقدة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر نارُ الجحيم. قاس إبراهيم الخليل الرزق على الإمامة، فنبَّهه تعالى على أن الرزق رحمةٌ دنيوية، شاملة للمؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، بخلاف النبوة والإمامة فإنها نعمة خاصة لا تكون إلاَّ لمن آمن بالله، واستقام على شرعه المبين.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ أي اذكر يا محمد ذلك الحدث العجيب، وقت رفع إبراهيم، وولده إسماعيل، قواعد البيت العتيق، ورفعُ القواعد كنايةٌ عن البناء، وأتى بصيغة المضارع ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ حكايةً عن الماضي، وهو وجه معروف في أساليب البيان، لاستحضار الصورة الماضية، وكأنها مشاهدة بالعيان، فكأن السامع ينظر ويرى إبراهيم وإسماعيل وهما يقومان الآن بالبناء، وهما يدعوان الله عزَّ وجلّ بهذه الدعوات المباركات ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي تقبل منا عملنا هذا، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، فإنك أنت يا رب السميع لدعاء من

دعاك، العليم بأحوالنا ونيّاتنا. وشرفُ البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إيّاه بيته، لا لفضل أحجاره عن سائر الأحجار، وقد أفصح عن هذا المعنى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه حين قال عند استلامه للحجر الأسود، وتقبيله له: «والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يقبّلكَ ما قبّلتُك»[1]!! وهذا غاية ما يقصده المخلصون.

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ مخلصَيْنِ لك، من أسلم وجهه أي أخلص القصد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص، والثبات عليه ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصا الذرية بالدعاء، لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أي عرِّفنا وعلِّمنا مواضع نسكنا، وشرائع متعبداتنا في الحج، والنسك في الأصل: غايةُ العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة، والبعد عن العادة، ومناسكُ الحج عباداته، وقيل: مواضعُ العبادات، كمنى، وعرفات، ومزدلفة، والمعنى: علّمنا كيف نعبدك؟ وأين نعبدك؟ وبماذا نتقرب إليك؟ أجاب الله دعاءهما، وبعث جبريل عليه السلام، فأراهما المناسك، فقال أعرفت يا إبراهيم؟ فقال نعم، فسمي ذلك عرفة، والموضع عرفات ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أي وتب علينا يا رب، واعف عمّا فرط منا، فإنك عظيم المغفرة، واسع الرحمة، لا يخيب من دعاك، و «تَوَّابٌ» من صيغ المبالغة، أُطلق عليه تعالى لكثرة توبته على عباده، وكثرة قبوله توبة المذنبين، وهو تعليلٌ للتوبة، ومزيد استدعاء للإجابة، وإذا أراد العبد أن يُستجاب له، فلْيدعُ اللهَ عزَّ وجلّ بما يناسبه من أسمائه وصفاته، كما جاء في دعاء إبراهيم الخليل.

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ أي ربنا وابعث في هذه الأمة المسلمة،

---

(١) انظر تمام الحديث في صحيح مسلم في كتاب الحج رقم ١٢٧٠.

رسولاً من أنفسهم من العرب ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن المجيد ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي ويعلم الأمة الإسلامية ـ وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة ـ القرآن العظيم، والسُنّة النبوية المطهرة، فالمراد بالحكمة السنة المطهَّرة، لأن بها تكميل نفوس المؤمنين، وإذا قرنت الحكمة بالقرآن، أريد بها سنته ﷺ المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك وعبادة الأوثان ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ «العزيزُ» أي الغالبُ الذي لا يُقهر ولا يُغلب «الحكيمُ» أي الذي لا يفعل إلاّ ما تقتضيه المصلحة والحكمة. وقد استجاب الله دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فبعث محمداً ﷺ من ذريتهما، وختم به الرسالات السماوية، فلم يبعث من ذريتهما غير النبي عليه السلام، ولهذا قال صلوات الله وسلامه عليه «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمّي التي رأت حين وضعت بي، أنه قد خرج منها نور ساطع، أضاءت له قصور الشام»[1].

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم ، وقصة بنائه للبيت العتيق، منار الإيمان والتوحيد، ذكر بعده سفه من خالف دينه وشرعه، وهو أبو الأنبياء وإمام الموحدين.

فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم، وملته الحنيفية السمحة، إلاّ من استخفَّ نفسه،

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة مرفوعاً، ١٢٨/٤.

فأهانها وامتهنها ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي اخترناه بالنبوة والحكمة والإمامة في الدنيا ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات العالية. والآية بيانٌ لخطأ رأي من يرغب عن ملّته، فإنَّ من كان خليلَ الرحمٰن، ومشهوداً له بالتقى والصلاح في الدارين، كان حقيقاً بالاتّباع، لا يرغب عنه إلاّ سفيهٌ ومتسفهٌ. والتأكيد باللاّم في قوله «لَمِنَ» لأن أمور الآخرة خفيَّةٌ عند المخاطبين، ولذا أكَّد الجملة بمؤكدين «إنَّ» و «اللام» لينبه تعالى على تحقُّق خلوصه في الصلاح في الآخرة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي استسلم لأمر ربك، وأخلصْ دينكَ لله واستقم، ومعنى الإسلام: الانقيادُ والخضوع، ولا يراد به إحداث الإسلام والإيمان، لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون قبل النبوة وبعدها، فهم مسلمون قبل أن يتنزَّل عليهم الوحي، يدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿ولَقَدْ آتَيْنَا إبراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[1] أي آتيناه هداه وصلاحه من الصغر، وإنما المراد به الخضوع والانقياد ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قال: استسلمتُ لأمر الله، وخضعتُ لحكمه، وأيقنتُ وأخلصتُ لوجهه، وإضافةُ الرب للعالمين لا لنفسه، للإيذان بكمال قوة إسلامه، حيث أيقن بشمول ربوبيته تعالى لجميع الخلق، لا لنفسه وحده.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي وصَّى الخليلُ أبناءه باتباع ملة الإسلام، وكذلك وصَّى يعقوب بنيه بها أيضاً، والتوصيةُ: هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاحٌ وقربة، وتتضمن هنا معنى الأمر، أي أمر إبراهيم بنيه بالاستمساك بالإسلام. فإن قيل: لمَ وصَّىٰ ولم يأمرهم؟ فالجواب أنَّ الوصية أوكد، لأنها أكثر ما يكون عند خوف الموت، وفي ذلك الوقت يكون قبولها أقرب، وإنما خصَّ بنيه لأنهم كانوا أئمة يُقتدى بهم. ثم فصل الوصية التي أوصى بها فقال: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي أعطاكم

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٥١.

الدين الذي هو صفوة الأديان، وهو دينُ الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ والمراد من الأمر الثبات على الإسلام[1] ، لأن الإسلام كان حاصلاً لهم، وإنما أدخل حرف النفي ﴿فلا تموتُنَّ﴾ للدلالة على أنَّ موتهم على غير الإسلام موتٌ لا خير فيه، يجب أن يحذروه غاية الحذر، وما مزجَ بهذه الوصية وصيةً أخرى، لشدة الاهتمام بها.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

روي أن اليهود قالوا لرسول الله ألستَ تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات؟ فنزلت ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ وهذا انتقالٌ عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام، إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية، والمراد بحضور الموت حضور أسبابه[2]، أي ما كنتم حاضرين حين احتضاره عليه السلام، فلم تدّعون ما تدّعون؟! ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؟ أيْ أيَّ شيءٍ تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على

---

(١) هذا النهي ﴿فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ إنما ورد بصيغة الحصر، للمبالغة في التحذير من الموت على غير الإسلام، والمراد به الثبات على الإسلام، أي اثبتوا على الإسلام، ولا تفارقوه أبداً، حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل، وقد تكرر هذا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إذ حضرَ يعقوبَ الموتُ﴾ كنايةٌ غريبة لطيفة، فقد شبَّه الموت بمسافر غائب، لا بدَّ أن يرجع إلى أهله، ويقدم على ذويه، فإذا رجع من السفر، حضر عندهم، ولذا يقال في الدعاء: «واجعل الموتَ خير غائبٍ ننتظره».

الثبات عليهما، وكان هذا بعد أن دخل مصر، ورأى فيها من يعبد النار، فخاف على ولده، فحثّهم على ما حثّهم عليه، ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ أُعيد ذكر الإِله لئلا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجارّ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لآبائك، وعد إسماعيل من آبائه لأنه كالأب لقوله ﷺ «عم الرجل صِنْوُ أبيه»[1] والمعنى: قالوا نعبد إلّهك، وإله آبائِك المتفقة على وجوده تعالى وألوهيته، ووجوب عبادته ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدل من إلّه آبائك، وفائدتُه التصريحُ بالتوحيد ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون في العبودية، ومنقادون لأمره ونهيه.

ثم بيَّن تعالى أنَّ كلَّ أمةٍ تُجزى بعملها، ولا تحمل وزر غيرها، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم، ويعقوب، وما بينهما من الأمم الموحّدة، ومعنى ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضتْ، وأصله صارت إلى الخلاء، وهي الأرض التي لا أنيس بها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي لكلٍّ أجرُ عمله، والمعنى: إنَّ انتسابكم إليهم، لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي ولا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تُثابون بحسناتهم، فالمراد تخييب المخاطبين، وقطع أطماعهم عن الانتفاع بحسنات الأمة، وما قيل أي «لا تؤاخذون بسيئاتهم» ممَّا لا يليق بشأن الأنبياء. كيف وهم منزهون من كسب السيئات، فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم؟.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٧٦٢ وهو طرف من حديث طويل وله قصة، فقد روى الترمذي أن العباس دخل على رسول الله ﷺ مغضباً، فقال له رسول الله ﷺ: ما أغضبك؟ فقال: يا رسول الله أرى قوماً من قريش يتلاقون بينهم بوجوه مسفرة ـ أي فيها بشاشة ـ وإذا لقونا لقونا بغير ذلك!! فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرَّ وجهه، وقال: والذي نفسي بيده لا يدخل قلبَ رجلٍ إيمانٌ، حتى يحبَّكم للهِ ورسوله، ثم قال: «يا أيها الناس، من آذى عمي فقد آذاني، إنما عمُّ الرجل صنوُ أبيه» ومعنى الصنْو المثيلُ والشبيه، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ شروعٌ في بيان إضلال أهل الكتاب، إثر بيان ضلالهم في أنفسهم، أي قالوا للمؤمنين ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ أو للتنويع لا للتخيير، ومعني الآية قالت اليهود كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ جواب للأمر، أي إن تكونوا كذلك تهتدوا ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ خطاب للرسول ﷺ أي قل لهم على سبيل الردّ، وبيان ما هو الحق، لا نكون كما تقولون، بل نكون على ملة إبراهيم عليه السلام، أي نحن أهل ملته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الباطل إلى الحق، والحنيفُ: المائل عن كل دين باطل، إلى الدين الحق، مأخوذ من الحنَف وهو الميلُ عن الضلال، وضدُّه الجَنَفُ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريضٌ بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدَّعون اتباعه وهم مشركون.

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

﴿ قُولُوٓا۟﴾ هذا خطاب للمؤمنين أي قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقاً وإرشاداً لهم. ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي القرآن، قدَّم ذكره لأنه الكتاب المحفوظ الذي جاء مصدقاً لغيره ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ من الصحف المنزلة من عند الله كما أنَّ القرآن، منزَّل إلينا، والأسباط جمع سِبْط وهو الحافد، يريد بها حفدة يعقوب، وأبناءه، وذريتهم،

واختلف الناس في أولاد يعقوب أخوة يوسف، هل كانوا أنبياء أم لا؟ والصحيح الثاني، أنهم غير أنبياء، وإليه ذهب الإمام السيوطي، وألَّف فيه، لأن ما وقع منهم مع يوسف عليه السلام، ينافي النبوة قطعاً، وليس في القرآن ما يدلُّ على نبوتهم[1] ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة، والإنجيل، أفردهما بالذكر، لما أن الكلام مع اليهود والنصارى، ولكون أهل الكتاب حرَّفوا، وادَّعوا أَنهما نزلا كذلك، ، اهتمَّ بشأنهما فأفردهما، بالذكر ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ من الآيات والمعجزات، وهو تعميم بعد التخصيص ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي لا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ﴾ للهِ تعالى ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ مذعنون مخلصون، أي إسلامنا لأجل طاعة الله، لا لأجل اليهود والنصارى.

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾ أي فإن آمن اليهود والنصارى ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي آمنوا إيماناً مثل إيمانكم به، من الإذعان، والإخلاص، وعدم التفريق بين الرسل الكرام، بأن يؤمن الإنسان بالبعض ويكفر بالبعض ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ إلى الحق، وإن لمجرد الفرض، والكلام من باب الاستدراج مع الخصم، حيث يراد تبكيته، يعني نحن لا نقول إننا على الحق، وأنتم على الباطل، ولكن إن حصلتم شيئاً مساوياً لما نحن عليه من الإيمان، فقد اهتديتم، ومقصودنا هدايتكم ليس إلاَّ، والخصم إذا نظر بعين الإنصاف في هذا الكلام، علم أن الحق ما عليه المسلمون لا غير ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي أعرضوا عن الإيمان، أو عمّا تقولون لهم، بأن أخلُّوا بشيء من ذلك ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ أي فما هم إلا في خلاف وعداوة، فإن كل واحد من المتخالفين في شَقٍّ غير شقٍّ

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٤٨٧: ولم يقم دليل على نبوة أخوة يوسف، ومن الناس من يزعم أنه أوحي إليهم، لهذه الآية ﴿والأسباط﴾ وهذا لا يدل عليه، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يُقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، فالله عزَّ وجلّ أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، وكل سبطٍ من نسل رجلٍ من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان بني إسرائيل، وما فعلوه مع يوسف من الحسد، وإلقائه في الجب، وكذبهم على أبيهم، يدل على أنهم ليسوا أنبياء!!.

الآخر، والتنوين للتفخيم، أي هم مستقرون في خلاف عظيم، والجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم في ذلك، ولما دلَّ الشقاق على العداوة العظيمة، عقَّب ذلك بتسلية النبي ﷺ وتفريح المؤمنين بالنصر، فقال ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وعدٌ لهم بالحفظ، والنصر على من ناوأهم، وهو ضمانٌ من الله تعالى، لإظهار دين الإسلام، لأنه تعالى إذا تكفل بشيء أنجز وعده، وهو إخبار بالغيب وقد أنجز وعده، ونصر عبده، والمراد سيكفيك كيدهم لأن الكفاية لا تتعلق بالأعيان، بل بالأفعال ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي أنه تعالى يسمع ما يبدون، ويعلم ما يخفون، وهو معاقب لهم على ما يضمرونه من الشر.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الصبغة من الصبغ وهو ما يلوَّن به الثياب، أي صَبَغنا اللهُ صبغة، وهي «فطرة الله التي فطر الناس عليها» فإنها حِلْيةُ المؤمن، كما أن الصبغ حلية المصبوغ، وسماه صبغة لأنه تداخل قلوبهم، تداخل الصبغ بالثوب، وإضافته إلى الله تعالى للتشريف، والإيذان بأنها عطية منه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي لا أحد أحسن من الله صبغة وديناً، فهو استفهام بمعنى النفي ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي للهِ الذي أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿عَٰبِدُونَ﴾ شكراً لها ولسائر نعمه.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

أتجادلوننا في دين الله؟ وتدَّعون أن دينه الحقُّ، هو اليهودية والنصرانية؟ والمحاجة: المجادلةُ والمغالبة في إقامة الحجة، والهمزة للإنكار.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي في شأن الله، وفي أمر دينه، فتزعمون أن دينكم هو الحقُّ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه؟! وهذه الآية ردٌّ على اليهود، حيث قالوا: الأنبياء كلهم من بني إسرائيل، فلو كنت يا محمد نبياً لكنت منَّا، وما هو إلا من باب الحسد، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحسُدونَ النَّاسَ عَلَى ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؟ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاص له تعالى بقومٍ دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده. أي والحالُ أنه لاوجه للمجادلة أصلاً، لأنه تعالى ربُّنا وربكم، نشترك جميعاً في كوننا عباده تعالى ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا، ولكم جزاء أعمالكم، لا يحتمل أحد وزر غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي موحّدون، نخلصه بالإيمان والطاعة دونكم، والإخلاص جعلُ الشيء خالصاً لله، والمخلص هو الذي يأتي بالعمل الصالح لا يريد بـه رياءً ولا سمعة ويقـابل الإخلاص الرياءُ، وعلاماته الكسلُ عند العبادة وحب الثناء على العمل.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾؟ يعني أتزعمون أن إبراهيم وبنيه كانوا على دينكم الأعوج ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ أي هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ وقد نفى الله الأمرين عن إبراهيم بقوله ﴿مَا كَانَ إبراهيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرانِياً﴾ واحتج عليهم بقوله: ﴿مَآ أُنْزِلَتِ التَّوراةُ والإنجيلُ إلاّ مِنْ بعدِهِ﴾ وهؤلاء الرسل المذكورون أتباعه في الدين، فكيف تدَّعون له ولهم، ما نفى الله تعالى عنهم، فما ذلك إلاّ جهلٍ وضلال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾ ثابتة ﴿عِندَهُۥ﴾ كائنة ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفيَّةِ، والبراءة من اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيدٌ لهم أي هو محيط بجميع ما تأتون وما تذرون، فيعاقبكم بذلك.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ مرَّ تفسيرهُ، وهو تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع، من الافتخار بالآباء، والاتكال عليهم.

وقيل: الخطابُ فيما سبق لهم، وفي الآية هُنَا لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم.

﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾.

﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين، واليهود، والمشركين، وإنما قال المنافقون لمجرد الطعن في الإسلام والاستهزاء، لا لاعتقادهم حقية القبلة، والمشركون كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها، وليرجعنَّ إلى دينهم أيضاً، واليهود كانوا يظنون أن موافقته لهم في القبلة ربما تدعوه إلى أن يصير موافقاً لهم بالدِّين، فلما تحوَّل يئسوا، وقالوا قد عاد إلى طريقة آبائه وذلك القول المحكي، لم يصدر عن كل فردٍ من تلك الطوائف، بل عن سفهائهم وأشقيائهم، المعتادين للخوض في الفساد، وفائدة الإخبار به توطين النفس، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه، أقطع للخصم، والعلم به قبل الوقوع يكون معجزة، وقال القفَّال: هذه الآية نزلت بعد تحويل القبلة، ويؤيده ما رواه البخاري عن البراء بن عازب قال: «لمَّا قدم النبي ﷺ المدينة، صلى نحو بيت المقدس، ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً،

وكان ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل اللهِ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فقال السفهاء وهم اليهود ﴿مَا وَلَّـٰهُمْ﴾ أيْ أيُّ شيء صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾[1] والقبلة من الاستقبال والمراد بها ههنا «بيت المقدس» ووصفها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾ أي مستمرُّون على التوجه إليها، لتأكيد الإنكار، ومدارُ هذا الإنكار بالنسبة إلى اليهود، زعمهم استحالة النسخ، وكراهتهم مخالفته ﷺ لهم ﴿قُل﴾ يا رسول الله ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾ لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية، وإنما العبرة بامتثال أمره، لا بخصوص المكان، لأن الأماكن كلها لله، فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء، لا اعتراض عليه لأنه المالك وحده ولا يمنع اختلاف المصالح، بحسب اختلاف الجهات، وقد بيّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عَلَيْهَا، إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يتبع الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ الآية، فأمر الله تعالى المؤمنين حين كانوا بمكة، أن يتوجهوا إلى بيت المقدس، ليتميَّزوا من المشركين، فلَّما هاجروا إلى المدينة، أُمروا بالتوجه إلى الكعبة، ليتميَّزوا من اليهود ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو ما توجبه الحكمة، وتقتضيه المصلحة والتوليةُ هدايةٌ يخصُّ الله تعالى بها من يشاء من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة، أي كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلتكم أفضل القبل، كذلك الجعل البديع ﴿جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً وعدولاً، والوسطُ في الأصل اسم المكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة، لوقوعها بين طرفي إفراطٍ وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، ولما كان العباد لا يحيطون إلاَّ بالظاهر، أقام الفقهاء الاجتناب عن الكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر، مقياس الأفضلية، وسمَّوه عدالةً في إحياء الحقوق أي جعلناكم أمةً وسطاً بين الأمم،

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ١/ ٥٠٢.

لتمسُّككم بالخصال الحميدة ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب الله لكم من الحجج، وما أنزل عليكم من الكتاب، أنه تعالى أوضح السبل، وأرسل الرسل، فبلَّغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وتشهدوا بذلك يوم القيامة على الأمم.

## طريقة أداء الشهادة

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق، على لسان نبيه الصادق. أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح وأمته يوم القيامة، فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير!! فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾» والوسط: العدل[1]. ثم يُسأل الرسول ﷺ عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وهذه الشهادةُ وإن كانت لهم، لكنْ لما كان الرسول كالرقيب، المهيمن على أمته، عُدِّي بعلى ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي وما شرعنا ﴿الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ وهي الكعبة المشرفة فإنه ﷺ كان يصلي إليها بمكة، ثم لمَّا هاجر أُمر بالصلاة إلى بيت المقدس، وقال ابن عباس: كانت قبلته بمكة «بيت المقدس» إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه، والمعنى: إن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة،

---

(1) الحديث أخرجه البخاري في التفسير رقم ٤٤٨٧ والترمذي رقم ٢٩٦١ ولفظ البخاري «يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبَّيْك وسعدَيْك يا رب، فيقول: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير!! فيقول من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ، فذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ والوسطُ: العدلُ الذي تُقبل شهادتهُ، اهـ.

وما جعلنا قبلتك بيت المقدس، لشيء من الأشياء ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ أي إلاَّ لنمتحنَ النَّاسَ، فنعلم من يتَّبعك في الصلاة إليها، ممن يرتدُّ عن دينك؟ فإن قيل: كيف قال ﴿إلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ وهو لم يزل عالما؟ أجيب عن هذا ونحوه أنه باعتبار التعلق أي ليتعلق علمنا به موجوداً، أو ليعلم رسولنا والمؤمنون، فالتغيير على المعلوم لا على العلم، ونبين هذا بمثال، وهو أن المِرآة الصافية، إذا عُلّقت في موضع، ثم عبر عليها زيد لابساً ثوبه الأبيض، ظهر فيها في ثوبه الأبيض، ثم إذا عبر عليها عمروٌ في ثوب أسود يظهر فيها كذلك، فهل يقع في ذهن أحدٍ أنَّ المرآة تغيَّرت؟ فعلمُ الله تعالى أعلى، لأن المرآة ممكنة التغير، وعلمُ الله لا يتغيّر[1] ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إنْ هي المخفَّفة من الثقيلة، واللام هي الفاصلة، أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً فمعنى كبيرة أي شاقّة وثقيلة ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ أي هداهم إلى معرفة سر أحكامه الشرعية، المبنية على الحِكم والمصالح، وهم المهديُّون الثابتون على الإيمان ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ أي ثباتكم على الإيمان، أو صلاتكم إليها، لما روي في الصحيح أنه ﷺ لمَّا توجه إلى الكعبة، قالوا: كيف من مات قبل التحويل من إخواننا[2] ؟ فنزلت الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فلا يضيع أجورهم، ولا أعمالهم الصالحة التي فعلوها، وهو تقريرٌ للحكم، وتعليل له، فإن اتصافه عزَّ وجلّ بهما، يقتضي أن لا يضيع عملهم، والرأفةُ: عبارةٌ عن إيصال النعم الصافية من الآلام، والرحمة أعم منه.

---

(١) خلاصة هذا أن علم الله تعالى لا يتبدل ولا يتغير، فهو سبحانه عالم بما كان، وما سيكون، وما هو كائن، فقوله تعالى: ﴿إلاَّ لنعلم﴾ أي لنظهر علمنا لعبادنا المؤمنين، فيعرفوا الحقيقة وينكشف لهم ما كان خفياً عنهم، وإنما أسنده إليه تعالى تشريفاً لرسوله والمؤمنين، وهذا الأسلوب شائع في لسان العرب يقولون: فتح عمرُ العراقَ، وجبىٰ خراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٢٩٦٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي قد رأينا يا محمد تردُّد وتصرّف نظرك جهة السماء، انتظاراً للوحي، وكان ﷺ يتوقع من ربه أن تُحول القبلة إلى الكعبة، لأنها قبلة آبائه، وأقدم القبلتين، وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل، عن وجهه إلى وجه آخر ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ فلنمكننَّكَ من استقبالها ولنجعلنك تلي جهتها، وهذا الوعد كان قبل الأمر، لفرح النفس بالإجابة، ثم بإنجاز الوعد، ﴿ تَرْضَىٰهَا ﴾ أي تحبها وتتشوق إليها، وليس في اللفظ ما يدل على أنه ﷺ كان يطلب قبلةً معيَّنة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم، وتخصيص التولية بالوجه لأنه أشرف الأعضاء وبه يتميز الإنسان، والتولية إذا كانت متعدية إلى واحد فمعناه الصرف أي اصرفْ وجهك ﴿ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ نحوه، والشطرُ جزءُ الشيء، وهو في الأصل لما انفصل عن الشيء، ويأتي بمعنى الجهة، والحرامُ أي المحرَّم فيه القتالُ، أو الممنوع عن الظَّلَمة أن يتعرضوه، وإنما ذكر المسجد دون الكعبة، لأنه ﷺ كان في المدينة، والبعيدُ يكفيه الجهةُ، بخلاف القريب، عن ابن عمر قال: «بينما الناسُ بقباء في صلاةِ الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن النبي ﷺ قد أُنزل عليه قرآنٌ، وقد أُمر أن يستقبل القبلة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة»[1]، وخص الرسول ﷺ بالخطاب، تعظيماً له، وإيجاباً لرغبته، ثم عمَّم الحكم

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ١/٤٢٤ ومسلم في المساجد رقم ٥٢٦ والترمذي رقم ٣٤١ في باب ما جاء في ابتداء القبلة.

فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أي من برّ أو بحر، من شرقٍ أو غرب، وأردتم الصلاة ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي توجهوا نحو البيت الحرام وفائدة تعميم الأمكنة على ما ذهب إليهِ البعض، دفع توهم أن هذه القبلة مختصة بأهل المدينة ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أحبار اليهود، وعلماء النصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي التحويل ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لعلمهم بأن الرسول ﷺ لا يأمر بالباطل، إذْ هو المبشر به في كتبهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي عالم بجميع ما يعمله العباد، وسيجازيهم عليه، وفيه وعدٌ ووعيد للفريقين.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ أي ولئن جئتهم بكل حجة قاطعة، والآية برهان وحجة على أن الكعبة قبلة، وأن التوجه إليها هو الحق ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ وهذا تسلية للنبي ﷺ، والمعنى: إنهم ما تركوا قبلتك، لشبهةٍ تزيلها الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ مسوقة لقطع أطماعهم، أي ولست يا محمد متبعاً قبلتهم أبداً، قيل إن قبلة الطائفتين في الأصل بيت المقدس، وعيسى عليه السلام لم يصلِّ جهة الشرق حتى رفع، وإنما كانت قبلته بيت المقدس، ثم بعد رفعه شرع أشياخ النصارى لهم الاستقبال إلى الشرق، واعتذروا بأن المسيح فوض إليهم تشريع الأحكام، وذكروا أن في الشرق أسراراً ليست في غيره، وأن المسيح حين صُلب استقبل الشرق، وقال ابن القيم: إنَّ قبلة الطائفتين الآن، لم تكن قبلةً بوحيٍ بل بمشورة، وليس في التوراة الأمر بذلك، والسَّامرة منهم يصلُّون إلى طورهم بالشام قرب بلدة نابلس، وهذان القولان ـ إن صحّا ـ لأشكل القول بأنه تعالى لم يخصص كل شريعة بقبلة ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة، والنصارى مطلع

الشمس، ولا يُرجى توافُقهم كما لا يُرجى موافقتهم لك، لتصلبهم في الهوى وعنادهم ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ مرَّ تفسيره، أي لئن اتَّبعتَ أهواءهم فَرَضاً ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه تحذير عن متابعة الهوى، ولقد بولغ في التأكيد، أولاً بالقسم، وإنَّ التحقيقية ﴿إِنَّكَ﴾ واللام في خبرها، وتعريف الظالمين، والجملة الاسمية، وفي هذه المبالغة تعظيمُ أمر الحق، والتحريض على اقتفائه، والتحذير عن متابعة الهوى، واستعظام لصدور الذنب عن الأنبياء، وقيل: الخطاب في الظاهر للرسول ﷺ والمراد أمته.

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ علماءهم، إذ هم العمدة في إيتائه، وقيل: أراد بهم مؤمني أهل الكتاب ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أي الرسول ﷺ وإن لم يسبق ذكره، لدلالة الكلام عليه ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم، يروى أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم والله وأكثر، نزل أمينُ السماء جبريل، على أمين الأرض محمد بنعته، فعرفته كما وصفه تعالى بالتوراة، وأمَّا ابني فلا أدري ما كان من أمه، فقد تكون قد خانتني فيه!! فقال له عمر: وفَّقَك الله، ولهذا قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[1] ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ أي وإن جماعة من رؤسائهم وأحبارهم، ليخفون الحقَّ ولا يعلنونه، ويكتمون صفة محمد المذكورة عندهم في التوراة ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي وهم يعلمون حقيقة الأمر، ولكنهم فجرة يكابرون ويعاندون، وفي الآية تنبيه على كمال شناعة من يكتم الحقَّ، وأنه لا يليق بالعلماء الكتمان.

---

(١) ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٠٠ نقلاً عن القرطبي.

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد، من أمر القبلة، ومن خبر الأحبار والرهبان، الذين يعرفون محمداً بصفته في التوراة والإنجيل، هو الحقُّ القاطع، واليقين الساطع، فلا تكوننَّ من الشاكِّين فيما أخبرناك عنه. والخطابُ للرسول ﷺ والمراد أمته، يقال: امترى في الشيء أي شكَّ فيه.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ أي ولكل أمة من الأمم، قبلةٌ ومنهاج يسير عليها أصحاب الملل، يتوجهون بها إلى الله ـ على زعمهم ـ فتوجهوا يا معشر المؤمنين إلى ما أرشدكم إليه ربكم، من أمر القبلة والدين ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي سارعوا إلى فعل الخيرات ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي في أي مكانٍ أو موضع، تكونون فيه بعد موتكم، من أغوار الأرض، أو قُلَل الجبال، أو أعماق البحار، يجمعكم الله للحساب، وإن تفرَّقت أجسادكم وأبدانكم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر على كل شيء، لا يعجزه أمر من الأمور مهما كان، فلا تشكُّوا في قدرة الرحمٰن.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ أي من أيّ مكانٍ خرجتَ للسفر، تأكيد لحكم التحويل، وتصريح بعدم تفاوت الأمر، في حالتَيْ السفر

والحَضَر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إذا صلّيتَ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ هذا الأمر ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بذلك.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته؛ وجريُ العادة الإلهية على أن يُولّى كلُّ أهل ملة وجهةً يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين، فإن القبلة لها شأن عظيم، والنسخ من مظان الفتنة، فبالحري. أن يؤكد أمرها، ويعاد ذكرها مرة بعد أخرى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ متعلق بمحذوف كأنه قيل: فعلنا ذلك لئلا يبقى لأحد عليكم حجة، كاحتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وأنه يتبعنا في قبلتنا، والمشركين بأنه يدَّعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي لئلا يكون لأحد من الناس حجة، إلا المعاندين منهم، فإنهم يقولون: ما تحوّل إلى الكعبة إلاّ ميلاً إلى دين قومه، وحباً لبلده، والحجةُ: الدليلُ والبرهان، كأن من أقامها يقصد إثبات الحكم بها، فتقسم إلى حجة ناهضة يثبت بها الحق، وحجة داحضة[1]، يُموَّه بها الباطل ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، لأنهم لا يقدرون على نفع ولا ضُرّ ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ أي وخافوني فلا تخالفوا أمري ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ بهدايتي إياكم إلى الكعبة المشرفة قبلة أبيكم إبراهيم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولإرادتي اهتداءكم إلى الصراط المستقيم، وعن علي: تمامُ النعمة الموت على الإسلام.

> ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

---

(١) الحجة الداحضة يعني الباطلة كما قال تعالى في سورة الشورى ﴿وَالَّذينَ يُحَاجُّونَ في الله مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجيبَ له، حُجَّتُهمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ متصل بما قبله أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، كما أتممتها بإرسال رسولٍ منكم، فإنَّ إرسال الرسول، نعمة لا تكافئها نعمة، لما فيه من الشرف لهم، فإنَّ البعثة منهم وفيهم، أقرب إلى قبول قوله، والانقياد له فيما كان سبباً لسعادة الدين والدنيا ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ صفة ثانية للرسول، كاشفة لكمال النعمة، يعني القرآن، وذلك من أعظم النعم، وفيه إشارة إلى إثبات نبوته ﷺ لأن تلاوة الأميّ، الآيات الخارجة عن طوق البشر، واشتمالها على المصالح التي ينتظم بها أمر المعاش والمعاد، أقوى دليل على نبوته ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يحملكم على ما تصيرون به مطهّرين من دنس الشرك وقبيح الأعمال ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ صفة أخرى مترتبة في الوجود على التلاوة، وإنما وسَّط بينهما التزكية، للإيذان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمة جليلة بانفرادها مستوجبة للشكر، وهو السر في التعبير عن القرآن تارةً بالآيات، وأخرى بالكتاب، وثالثاً بالحكمة، رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما لا سبيل لكم إلى معرفته إلاَّ بالوحي، وهو تخصيصٌ بعد التعميم، مبين لكون إرساله ﷺ نعمة عظيمة، ولولاه لكان الخلق متحيرين في أمر دينهم، لا يدرون ماذا يصنعون.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بالطاعة والعبادة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمغفرة والثواب، واذكروني في النعمة والرخاء، أذكركم في الشدة والبلاء، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، كمثل الحيِّ والميت»[1] فالمعنى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ أي أجازيكم بها، وعبَّر بالذكر للمشاكلة، ولأنه نتيجته، والذكرُ يكون باللسان، وهو أن يسبّحه، ويحمده،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/١٧٥ في الدعوات، ومسلم في صلاة المسافرين رقم ٧٧٩.

ونحو ذلك، ويكون بالقلب، وهو أن يتفكر في عظمة الله، وفي الدلائل الدالة على وحدانيته، ويكون بالجوارح مثل الطاعات والصلاة ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ ما أنعمت به عليكم من النعم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بجحد النعم، وعصيان الأمر، فمن أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصفهم بالإيمان إثر تعداد ما يوجبه، تنشيطاً لهم، وحثاً على مراعاة ما يعقبه من الأمر ﴿ٱسْتَعِينُوا۟﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وحظوظ النفس، وعلى الأمور الشاقة على النفس، التي من جملتها معاداة الكفرة، المؤدية إلى مقاتلتهم ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي وبأداء الصلاة التي هي أهم أركان الإسلام، فبالصبر تنالون كلَّ فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ بالنُّصرة، وإجابة الدعوة، ومعنى المعيَّة: الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ عطف على استعينوا ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقتل في سبيل نصرة دين الله ويموت شهيداً، وسبيلُ الله: كلُّ ما أمر الله تعالى به من الخير فهو سبيله، كالجهاد، والحج، وطلب العلم ﴿أَمْوَٰتٌۢ﴾ أي هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ بل هم أحياء ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ ما حالهم؟ وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد، ولا من جنس ما يحسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يُدرك بالعقل بل بالوحي، وعن الحسن البصري أن الشهداء أحياء عند ربهم، تُعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الروح والفرح بالنعيم، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون، غدُوّاً وعشيّاً، فيدخل إليها الألم والوجع، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها، تبقى بعد الموت درَّاكة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء، لاختصاصهم بالقرب من الله، ومزيد البهجة والكرامة، قال أبو السعود رحمه الله: رأيت

في المنام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة، أني أزور قبور شهداء أُحُد رضي الله عنهم وأنا أتلو هذه الآية، متفكراً في أمرهم، وفي نفسي أن حياتهم روحانية، فبينما أنا على ذلك، إذْ رأيتُ شاباً منهم قاعداً في قبره تام الجسد في أحسن ما يكون من الهيئة، فنظرتُ إلى وجهه فرأيته ينظر إليَّ مبتسماً، كأنه ينبهني على أن الأمر بخلاف رأيي!! فسبحان من علت كلمته، وجلَّت حكمته[1] واختلف في هذه الحياة، فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد، ولكنا لا ندركها في هذه النشأة، واستدلوا بسياق قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وبأن الحياة الروحانية ليست من خواصهم، فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم، وذهب البعض إلى أنها روحانية، وكونهم يرزقون لا ينافي ذلك، وأنها من خصائص الشهداء.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ ولنصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم، هل تصبرون على البلاء، وتستسلمون للقضاء؟ وهل تشكرون فيما تحبونه وتصبرون فيما تكرهونه؟ وفيه إيماء إلى أنَّ المقصود من هذه الحياة الابتلاء، واللام جواب القسم، تقديره والله لنبلونكم، والخطاب للمؤمنين أي لنعاملنكم معاملة المختبر ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلَّله بالإضافة إلى ما وقاهم منه، ليخفّف عليهم، ويريهم أن رحمته لا تفارقهم، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه، ليوطّنوا عليه نفوسهم، ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له، وليعلموا أنه شيء يسير، له عاقبة حميدة،

---

(١) انظر هذه الرؤيا في إرشاد العقل السليم «تفسير أبي السعود» ١/ ١٨٠.

والجوعُ: القحطُ وعدم حصول القوت ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ أي وشيء من نقص الأموال بموت المواشي ونحوه، ونقص الأنفس كموت الأصحاب والأحباب، ونحو ذلك، ونقص الثمرات أي ثمرات الحرث والأشجار، بحيث لا تغلُّ الحدائق والمزارع ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى منه البشارة.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ المصيبة ما يصيب الإنسانَ من مكروه، في النفس، أو في الأهل، أو في المال، قليلاً كان أو كثيراً طفىء سراج رسول الله ﷺ فقال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» فقيل أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: نعم، كلُّ شيء يؤذي المؤمن فهو مصيبة» وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرِدِ الله به خيراً يُصِبْ منه»[1] يعني يبتليه بالمصائب، حتى يأجره على ذلك، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ تصيبه مصيبةٌ فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهمَّ أْؤُجُرْني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها، إلاَّ آجَرَه الله في مصيبته، وأخلفَ له خيراً منها»[2] وليس الصبر والاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب، والمصيبةُ إذا كانت من قبل الله، يجب الصبر عليها كالأمراض، ووفاة بعض الأولاد، وأما إذا جاءت من الظلمة، فالصبر عليها غير واجب، بل إن أمكن أن يدفع ذلك ولو بالمقاتلة، والمبشَّر به محذوفٌ، دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ﴾ «أولئك» إشارة إلى الصابرين، والأجر لمن صبر عليها وقت إصابتها، كما في الحديث: «إنما الصبرُ عند الصَّدْمة الأولى»[3] والصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التَّزكيةُ

(١) الحديث أخرجه البخاري في المرضى ١٠/ ٩٣ ومالك في الموطأ ٢/ ٩٤١.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنائز رقم ٩١٨ وفيه قالت: أم سلمة فلما توفي أبو سلمة قلتُ كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ.

(٣) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان، من رواية أنس قال: مرَّ النبي ﷺ على امرأة =

والمغفرةُ، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ أي هم المهتدون للحق والصواب، والفائزون بمطالبهم الدينية والدنيوية، فإن من نال رأفة الله ورحمته، لم يفته مطلب.

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ ﴾ هما جبلان بمقربةٍ من البيت الحرام، لهما مكانة جليلة في شريعة الإسلام، ولهذا قال: ﴿ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أي من أعلام دينه، ومناسك حجه، التي تعبَّدنا الله بها، والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة، وكلُّ ما تعبَّدنا الله به من أمور الدين فهو من الشعائر، كالطَّواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والأذان، والإقامة، وغير ذلك ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ﴾ أي فمن قصد بيت الله، للحج أو للعمرة، فلا إثم عليه أن يسعى بينهما، أي بين الصفا والمروة ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي ومن فعل خيراً، سواءً كان فرضاً أو نفلاً، فإن الله شاكر له طاعته، ومجازيه عليها أفضل الجزاء، فإنه سبحانه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال، فلا يُنقص من أجورهم شيئاً. وظاهر الآية: ﴿فلا جُناحَ عَلَيهِ أنْ يَطوَّفَ بهِمَا﴾ يشير إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة، مع أنه من أركان الحج أو واجباته، ولهذا أشكل على عروة بن الزبير فهمُ الآية، حتى سأل خالته «عائشة» أم المؤمنين رضي الله عنها فقال: يا خالة، ما أرى بأساً على من ترك السعي بين الصفا والمروة!! فقالت له: بئسما قلتَ يا ابن أختي، لو كان الأمر كما ذكرتَ، لقال الله تعالى: فلا جناح عليه أن لا يطَّوف بهما،

= تبكي عند قبرٍ على صبيٍّ لها فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني فإنك لم تُصب بمصيبتي - ولم تعرفه - فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأتت النبي تعتذر إليه وقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبرُ عند الصدمة الأولى.

ولكنَّ أهل الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة لصَنَمَيْنِ: أحدهما على الصفا يسمى «إسافاً» والثاني على المروة يسمى «نائلة» فلما دخلوا في الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لأنه فعل الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة تدفع عنهم الإثم والحرج، وتخبر أنهما من شعائر الله، وأنه ينبغي أن يكون السعي بينهما للرحمن لا للأوثان، قالت عائشة: وقد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحدٍ أن يترك الطواف بينهما[1]. وعن عاصم بن سليمان قال: قلت لأنس: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ فقال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية!! فهذا هو السرُّ في نفي الحرج.

**أما الحكمة من السعي بين الصفا والمروة،** فهي لإحياء ذكرى قصة «هاجر» أم إسماعيل عليهما السلام، فإنه لمَّا تركها إبراهيم عليه السلام مع طفلها الرضيع في الصحراء ـ قبل بناء البيت العتيق ـ وعطشت وعطش ابنها، أغاثها الله بماء زمزم، بعد أن سعت بين جبل الصفا، وجبل المروة عدة مرات، وهي تبحث عن الماء، لتنقذ حياتها وحياة وليدها، فبعث الله إليها «جبريل» عليه السلام، فضرب برجله الأرض، ونبع منه ماء زمزم، وقال لها: إن لله ههنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه، فجعل الله أفعالها وسعيها طاعةً لجميع المكلفين، ليعلم الناس أن الله تعالى لا يضيع أجر الصابرين، وهذا هو السرُّ في مشروعية الطواف بين الصفا والمروة.

| |
|---|
| ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾. |

---

(١) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري ٣/٣٩٨ وصحيح مسلم كتاب الحج رقم ١٢٧٧.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ ﴾ نزلت في أحبار اليهود الخائنين، وهي عامة في كل من كتم شيئاً من أحكام الدين، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، والمعنى: إن الذين يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الساطعات الواضحات، التي تدل على صدق محمد ﷺ في أمر النبوة والوحي ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي من بعدما أوضحناه لكل الناس، في كتب الله المنزَّلة على رسله، كالتوراة والإنجيل والزبور، كما قال سبحانه: ﴿الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾[1] فالمراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ أي أولئك المجرمون، الكاتمون لأوصاف الرسول عليه السلام، المحرِّفون لأحكام التوراة والإنجيل ﴿يَلْعَنُهُمُ الله﴾ أي يطردهم ويُبعدهم من رحمته، ويذيقهم أليم نقمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي يلعنهم أهل السماء والأرض، الملائكة، والمؤمنون، وجميع الخلائق من الإنس والجن، حتى البهائم والدواب، فكما أن العالم المبلغ لشريعة الله، يستغفر له كل شيء، حتى الطير في الهواء، والحيتان في الماء، كما ورد به الحديث الشريف، فكذلك الكاتمون لوحي الله، يلعنهم كل شيء في السمٰوات والأرض.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ أي إلا الذين تابوا عن الكتمان، وندموا على ما صنعوا من العصيان ﴿ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ أي وأصلحوا ما أفسدوه بالتدارك، ببيان حقوق الحقّ والخلق، ومن ذلك أن يصلحوا قومهم بالإرشاد إلى الدين الحق «دين الإسلام» ﴿ وَبَيَّنُواْ﴾ أي أظهروا للناس حقيقة ما أنزل الله في كتبه المقدَّسة، لتتمَّ توبتهم من التحريف والكتمان ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي فأولئك التائبون الصادقون، أقبل توبتهم، وأشملهم برحمتي الواسعة، فأنا الرب الجليل، واسع التوبة، عظيم الرحمة.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

قال ابن كثير: والآية وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل، من الدلالات البيّنة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب، من بعدما بينه الله تعالى لعباده، في كتبه التي أنزلها على رسله[1]، ولهذا جاء في الحديث «من سئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[2].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ أي إن الذين كفروا بالله، وماتوا ولم يتوبوا كأمثالِ هؤلاء الكاتمين، واستمروا على الكفر، حتى داهمهم الموت، وهم على تلك الحالة الشنيعة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي استقرَّ عليهم اللعن والطرد، من الله والملائكة وأهل الأرض جميعاً، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً، ومعنى اللعن: الطردُ والإبعادُ من رحمة الله عزَّ وجلّ، فالكافر يلعنه أهل السماء والأرض، لأنه مفسدٌ مخرّبٌ لنظام الله، حائد عن الصراط المستقيم.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي خالدين في نار الجحيم، وفي إضمارها تفخيم لشأنها ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع، لا يخفُّ عنهم طرفة عين، كما قال سبحانه: ﴿لاَ يُفَتَّر عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[3] ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي ولا يُمهلون أو يُؤجّلون،

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٦/١.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٥١ وأبو داود رقم ٣٦٥٨ وفي رواية أبي داود «ألجمه الله بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامة».

(٣) سورة الزخرف، آية: ٧٥.

بل يلاقيهم العذاب من حين مفارقة الروح للجسد، فهم في سكرات الموت معذبون، وفي القبر يرون أشد العذاب، وفي الآخرة لهم نار الجحيم، وهذه الصفات الثلاثة للعقاب: الخلود، وعدم الإمهال، وعدم التخفيف، تشير إلى يأس الكفار من الخروج من نار الجحيم، كما قال سبحانه: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾[1].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لنعم الله، وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بذكر أدلة الوحدانية، وأتى بالبراهين الساطعة الدالة على وجود الإله الخالق، المدبر الحكيم فقال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة أيها الناسُ إله واحد، لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ أي لا معبود بحقّ إلا هو جلَّ وعلا، المتصف بالرحمة التامة، المفيض أنواع النعم على العباد، وفي الآية تقرير للتوحيد، فإنه تعالى حيث كان المولي لجميع النعم، صغيرها وكبيرها، وكان كلُّ ما سواه مفتقراً إليه في وجوده وإمداده، تحققت وحدانيته بلا ريب، وانحصر استحقاق العبادة فيه وحده جلَّ وعلا.

عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ. الله لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[2].

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ١٤٩٦ والترمذي في الدعوات رقم ٣٤٧٢ وقال: حديث حسن.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

روي عن عطاء أنه قال: أُنزل على النبي ﷺ بالمدينة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية، فقال الكفار بمكة: كيف يَسَعُ الناسَ إلهٌ واحد؟ أي كيف يكفيهم إله واحد؟ حيث كان عندهم حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ـ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١) الآية. أي إن في إبداع السمٰوات والأرض، بما فيهما من عجائب الصنعة، ودلائل القدرة، بما يعجز عن فهمها عقول البشر، وإنما جمع السمٰوات لأنها طبقات منفصل بعضها عن بعض، بخلاف الأرض، والآيةُ في السماء هي: ارتفاعها بغير عمد، وما يرى فيها من الشمس، والقمر، والنجوم، والمجرات، وحركة هذه الكواكب ودورانها، كما قال سبحانه ﴿كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والآية في الأرض ما يرى فيها من الجبال، والبحار، والمعادن، والأنهار، والنباتات، والثمار، والأشجار ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه النهار، ويمضي النهار فيعقبه الليل، ويأخذ هذا من هذا، فأحياناً يطول الليل ويقصر النهار، وأحياناً يقصر الليل ويطول النهار، حسب الأمكنة والأوقات، وحسب قرب البلاد وبعدها عن القطب الشمالي، أو خط الاستواء، فالبلاد القريبة من القطب الشمالي، أيامُها الصيفية أطول، وليلُها أقصر، من أيام البلاد البعيدة عنه، وهكذا يتعاقب الليل والنهار، لتحصل مصالح العباد، لأن انتظام أحوال البشر، بسبب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب الراحة والنوم يكون في الليل

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٥.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي والسفن الضخمة الكبيرة، التي تسير في البحر، وتجري على سطح الماء، وهي موقرة بالأثقال والرجال، بما فيه تحصيل مصالح الناس، من أنواع البضائع والسِّلع التجارية، والآيةُ في هذه السفن، هي تسخيرها وجريانها على وجه الماء، مع ضخامتها وما تحمله على ظهرها من أثقال، والماء خفيف لطيف، فكيف حمل هذه السفن الضخمة على سطحه ولم تغص فيه، مع أن الحصاة الصغيرة لو طرحناها في الماء لنزلت إلى قعره؟ فسبحان من سيَّرها بقدرته، وأجراها برحمته، لتنقل ذرية بني آدم، من قطر إلى قطر ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ في الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾[1] ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي وما أنزله الله من المطر، من السحاب الذي يعلو في السماء، فينزل قطراتٍ قطرات، به حياة البلاد والعباد، وبه إنعاش البشر، وإخراج النبات والأرزاق، والآية في إنزال المطر، أن الله تعالى جعله سبباً لإحياء الجميع، من حيوانٍ، ونباتٍ، وشجرٍ، وثمر، ولولاه لما عاش إنسان ولا حيوان ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2] ثم نزوله عند وقت الحاجة بمقدار المنفعة كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾[3] فلو زاد على القدر المطلوب، لأهلك الحرث والنسل، وخرَّب ودمَّر، كما يحدث في بعض الأوقات من السيول المدمرة وسمَّى تعالى السحاب سماءً، لأن كلَّ ما علاك فأظلَّك فهو سماء كما قال أهل اللغة، والمطر إنما ينزل من السحاب، بنص القرآن العظيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَابَاً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامَاً فَتَرَىٰ الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[4] والودقُ: هو المطر

(١) سورة يس، آية: ٤١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.

(٣) سورة المؤمنون آية ١٧.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١٨.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ عطفٌ على «أنزل» أي وما نشر وفرّق في الأرض، من كل ما يدبُّ عليها من إنسان، وحيوان، وهوام، وزواحف، المختلفة في أشكالها، وألوانها، وأحجامها، والدابة تجمع الحيوان كلّه «الفيل، والبعير، والغزال، والشاة، والزواحف» وغيرها مما لا يحصى من أنواع الدواب، وكلها من مخلوقات الله، كما قال سبحانه: ﴿والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ الله مَا يَشَاءُ، إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(1) والآية فيها اختلافُ الأصوات، والأشكال، والألوان، والأحجام، فمنها المنتصب القامة كالإنسان، ومنها الذي يمشي على بطنه كالزواحف، ومنها الذي يمشي على أربع كالبعير وسائر الحيوانات ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها، جنوباً وشمالاً، حارة وباردة، ليّنةً وعاصفة، عقيماً وملقّحة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾(2) ومنها رياح تأتي بالخير والمطر وهي رياح الرحمة، ومنها ما يأتي بالعذاب والبلاء، كرياح الهلاك والتدمير ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾(3) وفي تصريف الرياح تربيةٌ للنباتات، وبقاء للحيوانات، ولو أمسك الله الرياح ساعة، لأنتن ما بين السماء والأرض، والريح جسم لطيف وهي مع ذلك في غاية الشدة والقوة، تقلع الأشجار والصخور، وتخرّب البنيان والدور ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي والسحاب المذلّل بين السماء والأرض بقدرة الله، يسير حيث شاء الله، وهو يحمل الأطنان من المياه العذبة، ثم يصبه على الأرض قطراتٍ قطرات، والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة، التي تسيل منها الأودية الواسعة، يبقى معلقاً بين

---

(١) سورة النور، آية: ٤٣.

(٢) سورة النور، آية: ٤٥.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٤١ ـ ٤٢.

السماء والأرض، فكيف حمل السحاب هذه الملايين من الأطنان من الماء؟ ثم قال تعالى: ﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة، دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة، وختم الآية بقوله: ﴿لقوم يعقلون﴾ أي يتفكرون بعقولهم في دلائل وجود الله ووحدانيته، ويدركون عظمة الله وجلاله، وقدرته وسلطانه، فيعرفون الخالق من آثار الخلق، والمبدع من بدائع الصنع.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة، من دلائل القدرة والوحدانية، ومن عجائب المخلوقات، التي بثَّها سبحانه في هذا الكون، ثمانية أنواع، تنبيهاً على ما فيها من العظات والعبر، فإن المتفكر في هذه الأمور، يقطع بأنها من صنع إله قادرٍ، مدبّر حكيم، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وفي الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة والحماقة، أن يعبد غير الله، من الأوثان والأصنام، ويجعلها أشباهاً ونظراء مع الله، كأنها تخلق وترزق، وهي حجارة صماء بكماء، لا تسمع ولا تنفع، ولا تدري من دعاها ممن دحاها ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي يعظّمونهم ويطيعونهم ويخضعون لهم، كحب المؤمن لله، فيسوُّون بين محبة الله ومحبة الأوثان، كأنهم في المنزلة سواء، وهذا عين الزيغ

والضلال، إذ كيف يُسوَّى بين الإله والحجر؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ أي وحب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد، لأن محبتهم لله لا تنقطع، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض موهومة فاسدة، ولذلك كان المشركون يعدلون عن آلهتهم إلى الله عند الشدائد، ويعبدون الصنم زمناً ثم يعبدون غيره ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ أي ولو رأى الظالمون الذين عبدوا غير الله، حين يشاهدون العذاب الأليم، المعدَّ لهم يوم القيامة، أن القدرة كلَّها لله وحده، لا ينفع ولا يضرُّ غيره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي وأن عذاب الله أليم شديد!! وجواب «لو» محذوف للتهويل أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة، ولاستعظم الإنسان ما حلَّ بهم من العذاب.

﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي حين تبرأ المتبوعون من الأتباع، والرؤساء المضلون من الأنصار الأشقياء الذين قلَّدوهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ أي وعاينوا عذاب الله الشديد، وتقطعت بينهم روابط المحبة والألفة، وانقلبت إلى عداء.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ أي وتمنى الأتباع لو أن لهم عودة ورجعة إلى الدنيا، ليتبرأوا من أولئك الزعماء الذين أضلوهم، كما تبرءوا هم منهم في ذلك الموقف العصيب، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي كما أراهم الله العذاب، فذاقوه وعاينوه، كذلك يريهم أعمالهم القبيحة، ندامات شديدة، وحسرات تتبعها زفرات، تتردَّد في صدورهم، وليس لهم سبيل إلى الخروج من النار، لأنهم في عذاب سرمدي في نار جهنم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ نزلت في المشركين الذين حرَّموا على أنفسهم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، والخطابُ عام يشمل جميع البشر. والمعنى: كلوا يا معشر الناس ممَّا أحلَّه الله لكم مما في الأرض ﴿حَلالاً طَيباً﴾ أي حال كونه حلالاً مستطاباً في نفسه، غير ضار للأبدان والعقول، والمراد بالطيب الحلال الذي أباحه الله لعباده ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي ولا تسلكوا طرق الشيطان، فيما يزيّنه لكم من المنكرات والفواحش، والخُطُواتُ جمع خُطْوة وهي ما بين قدمي الماشي، يقال: اتَّبع خُطُواته: إذا اقتدى به ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة.

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ ﴾ بيانٌ لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعته، والسوء والفحشاء ما أنكره العقلُ، واستقبحه الشرع، وقيل: السّوءُ يعمُّ القبائح، والفحشاء ما يجاوز الحد من الكبائر ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ كقولكم هذا حلالٌ، وهذا حرام بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز إسناده عليه ومعنى: ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ما لا تعلمون أن الله تعالى أمر به، والقول على الله تعالى بغير علم، من أعظم أصول المحرمات، فإنه أصل الأديان الباطلة، ومنشأ تحريف الأديان المحرَّفة، كما فعل اليهود والنصارى في شرائعهم، ومن عموم الجهل أن أكثر المسلمين لا يشعرون بهذا، فيقولون: هذا حرام، هذا حلال، هذا مندوبٌ أو مكروه من غير معرفة ولا دليل، والتحليل والتحريم حقُّ الله وحده، كما نبَّه سبحانه بقوله: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ وقد أمر الله بالتَّثَبُّتِ والرجوع إلى أهل العلم عند عدم المعرفة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا قيل للمشركين، على وجه النصيحة والإرشاد: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والإرشاد، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والفساد ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من العقائد والعبادات، أُمروا باتباع القرآن فجنحوا إلى التقليد الأعمى للآباء والأجداد، قال تعالى رداً عليهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ الاستفهامُ للإنكار والتوبيخ، أي أيتّبعون آباءهم ولو كانوا أغبياء سفهاء؟ ليس لهم عقل، يردعهم عن الغيّ والضلال، ولا بصيرة تنير لهم طريق الهدى والخير!؟.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ هذا مثلٌ ضربه للكفار، في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الواضحة، أي ومثل هؤلاء الكفار، العُمي عن هداية الله، كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي لا تفهم مراده، ولا تدرك غرضه، إنما تسمع النداء والصوت، دون أن تفهم الكلام والمراد، والمعنى: إنَّ الكفرة لانهماكهم في التقليد، لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلىٰ عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر، فهم في ذلك كالبهائم، التي يُنعق عليها، وهي لا تسمع إلاّ دويّ الصوت، ولا تفهم ما تحته(١)، يُقال: نعق الراعي: إذا صاح بغنمه

(١) ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الروعة والإبداع، فمثّل لهم في عدم انتفاعهم بالقرآن، وحججه الساطعة، بمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي تسمع الصوت، دون أن تفهم المراد والكلام، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة، لا تفهم ولا تعقل ما يُقال لها، يسمعون القرآن ويصمُّون عنه الآذان، فمثلهم كمثل من يصيح بالماشية، يمر النداء على آذانهم يسمعونه ولا يفقهونه.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً لأن طرق التعقل هو التدبر في مبادىء الأمور المعقولة، وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله، ومشاهدة حججه، فإذا كانوا صماً، بكماً، عمياً، فقد انسدَّ عليهم أبواب التعقل، وطرق الفهم بالكلية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لمَّا وسَّع الأمر على الناس كافة، وأباح لهم ما في الأرض، سوى ما حرَّم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا، وأمرهم أن يقوموا بحقوق النعم، فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي تخصونه بالعبادة، وتقرُّون أنه تعالى مُولي النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلاَّ بالشكر له، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله طيب لا يقبل إلاَّ طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء، يقول: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربُه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك»[1].

(١) أخرجه مسلم في الزكاة رقم ١٠١٥ والترمذي في التفسير رقم ٢٩٩٢.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي أكلها والانتفاع بها، وهي التي ماتت من غير ذكاة شرعية، وأُبيحَ من الميتة: السمكُ، والجراد، للحديث الشريف قال ﷺ: «أحلّت لنا ميتتان، ودمان: السمكُ والجراد، والكبدُ، والطحال»[1] وحكمةُ تحريم الميتة، أنَّ الدم يكون ضاراً، وإذا احتبس دمه فيفسد، وتفسد العضلات ويحصل منه ضرر عظيم ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي مسفوحاً لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ وكانت العرب في الجاهلية، تجعل الدم في مصارين ثم تشويه وتأكله، فحرَّم الله تعالى ذلك ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إنما خص اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان، وسائر أجزائه كالتابع له، وقد أجمعت الأمة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم، وحكمة تحريم الخنزير للضرر والاستقذار، لملازمته للقذارات، وأما كون لحم الخنزير ضاراً، فهو مما يثبته الطب الحديث ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي رفع به الصوتُ عند ذبحه للصنم، والإهلالُ: أصلهُ من رؤية الهلال، فقد جرت العادة أن يُرفع الصوتُ بالتكبير، إذا رؤي الهلالُ، لذلك سمي إهلالاً، أي وما ذبح للأصنام، وهذا حرام لسببٍ ديني محض، لا لأجل الصحة والنظافة، والمراد قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزّى، وكانوا يرفعون أصواتهم بذكرهما ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ ألجيء وأُحْوِجَ إلى أكل الميتة ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ متجاوزٍ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متعد مقدار الحاجة، والإباحةُ للاضطرار فيقدر بقدر ما تندفع الضرورة، واستدل بعموم الآية على جواز أكل المضطر ميتة الخنزير والآدمي خلافاً لمن منع ذلك ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأكل، بل يأثم بترك التناول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلذا أسقط الحرمة في تناوله، وقيل: الحرمةُ باقية إلا أنه يسقط الإثم لاضطراره، كما هو الظاهر من تقييد عدم الإثم، والمغفرةُ إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه تعالى ستر عيبه، ثم رآه مفلساً فرحمه، وإذا ذكرت بعد الرحمة، يكون معناها أنه تعالى رأى عجزه، فترك عقابه، وستر ذنبه.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الأطعمة من حديث ابن عمر مرفوعاً رقم ٣٣٥٧.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

نزلت في رؤساء اليهود، الذين كتموا ما أنزل الله تعالى من صفة الرسول ﷺ طمعاً في حطام الدنيا، وحفاظاً على رياستهم الموهومة التي كانوا يتسلطون بها على رقاب الناس، فيأكلون أموالهم بالباطل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي يخفون صفة النبي المذكورة في التوراة ﴿ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ أي يأخذون به عوضاً حقيراً من حطام الدنيا مقابل هذا الكتمان ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ أي أولئك الأشرار الفجار، إنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة، شبَّه تعالى المال الحرام الذي أكلوه، برضَفٍ من جهنم يأكلونه يوم القيامة، زيادة في التقبيح لهم والتشنيع عليهم، بتصويرهم بصورة من امتلأ بطنه من السُّحْتِ، فأردى به في نار جهنم، وسُمي مأكولهم ناراً لأنه يؤول بهم إلى النار، وهذا أسلوب معروف في لغة العرب، وجاء به القرآن، كقوله تعالى في آكل مال اليتيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾(١) وهكذا يلتقي الكاتمون مع آكلي أموال الأيتام في الإجرام ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي لا يكلمهم سبحانه كلام رضى كما يكلم المؤمنين، بل كلام سخط وغضب، كقوله سبحانه في الكفار ﴿اخْسَؤوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ فالمنفيُّ هنا هو كلام اللطف والرضا، لا كلام الغضب والسخط، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤولُونَ مَا

(١) سورة النساء، آية: ١٠.

لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾؟ وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم زاد تبارك وتعالى لهم في العقوبة والنكال فقال: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يطهّرهم من دنس الذنوب، يوم يتطهر المؤمنون من ذنوبهم بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم فوق ذلك عذاب مؤلم وجيع يصل ألمه إلى قلوبهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي استعاضوا عن الهدى بالضلالة، وأخذوا الكفر بدل الإيمان، والعذاب بدل المغفرة ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؟ أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم؟! وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الفجار، على اقتحام النار مع ما نالهم من غضب الله وسخطه.

ثم بيَّن تعالى سبب هذا السخط والعذاب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه، بسبب أن الله أنزل كتابه «التوراة» بالحقِّ، فكتموا وحرَّفوا ما فيه طمعاً في حطام الدنيا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي وإن اليهود والنصارى الذين اختلفوا في تأويل التوراة وتحريفها، وتحريف الإنجيل، لفي خلافٍ بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشد العذاب.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

الخطاب لأهل الكتاب «اليهود والنصارى» الذين اختلفوا في كتابهم اختلافاً كبيراً، صاروا بسببه في جدالٍ وشقاق، ومن أسباب شقاقهم خوضهم في أمر القبلة، حين حولت إلى الكعبة المشرفة، وادعت كل

طائفة أن البِرَّ هو التوجه إلى قبلته، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي ليس فعل الخير وعمل الصالحات، مقصوراً على أمر القبلة، أن تتوجهوا في صلاتكم جهة المشرق والمغرب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي ولكنَّ البرَّ الذي ينبغي أن يُهتم بشأنه، والذي ينال به الإنسان رضى ربه، هو بِرُّ من آمن بالله وحده، إيماناً بريئاً من شائبة الضلال والإشراك، وآمن باليوم الآخر، وبجميع الملائكة، والكتب، والرسل الكرام، من غير تفريق بين أحدٍ منهم ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ أي وأعطى المال على محبته له، وشحّه به، ذوي القرابة منه، فإنهم أولى بالمعروف، وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والمساكين المعدمين الذين لا مال لهم، وفي الحديث الشريف «أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال يا رسول الله: أيُّ الصدقة أعظم أجراً عند الله؟ قال: أن تَصدَّق وأنت صحيحٌ شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان»[1] ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي وأعطى المال أيضاً لابن السبيل وهو المسافر البعيد عن ماله، سُمّي به لملازمته للطريق، فكأنه ولد منه، وهو الغريب الذي فقد ماله، وللسائل المحتاج الذي يسأل المال بدافع الحاجة، وفي فكِّ الأسرى والأرقاء لتخليصهم من الرق، وهو الذي عناه تعالى بقوله: ﴿وفِي الرِّقَابِ﴾ أي فكِّ الرقاب، فهذا هو البرُّ ببذل الأموال على وفق مراد الله، في المصارف المذكورة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أدى الصلاة المفروضة عليه، التي هي أهمُّ أركان الإسلام، ودفع زكاة ماله إلى المحتاجين، فأدى حقَّ الله وحقَّ عباده ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ أي إذا وعدوا أنجزوا، وإذا نذروا أوفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، والعهد هنا عام يشمل حقوق الحق، وحقوق

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة من حديث أبي هريرة مرفوعاً رقم ١٠٣٢.

الخلق ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي والصابرين على الشدائد والمكاره، في الأنفس والأموال، وحين اشتداد القتال، وهو منصوب على المدح، لبيان فضل الصبر على سائر الأعمال، و﴿البأساء﴾ المراد بها: الفقرُ والفاقة، و﴿الضراء﴾ المراد بها: المرضُ ومصائب البدن ﴿وحِينَ البَأْسِ﴾ أي وقت اشتداد الحرب في المعركة، ومجاهدة العدو، ومنه حديث: «كنا والله إذا حمي الوطيس، واشتدَّ البأس، واحمرَّتِ الحَدَقُ نتقي برسول الله ﷺ»[1]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي أهل هذه الأوصاف، هم الصادقون في إيمانهم، والكاملون في خشيتهم لله، والفائزون بمرتبة التقوى. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالة عليها تصريحاً أو تلويحاً، فإنها ـ بكثرتها ـ منحصرة في ثلاثة أشياء: ١ ـ صحة الاعتقاد. ٢ ـ وحسن المعاشرة. ٣ ـ وتهذيب النفس، وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين﴾ وإلى الثاني بقوله: ﴿وآتى المالَ على حبه﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ إلى آخر الآية. ولذلك وُصِفَ المستجمعُ لها بالصدق نظراً إلى إيمانه، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق، ومعاملته مع الحق، ومن عمل بهذه الآية، فقد استكمل الإيمان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد رقم ١٧٧٦ ولفظه عند مسلم «قال البراءُ: كنَّا والله إذا احمرَّ البأس ـ أي اشتدت الحرب ـ نتَّقي برسول الله ﷺ، وإنَّ الشجاع منّا للذي يُحَاذي به».

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ شروع في بيان بعض الأحكام الشرعية التي يبتنى عليها أمر المعاش والمعاد ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي فُرض عليكم عند مطالبة صاحب الحق، والوجوب بالنسبة إلى الحكام، أو القاتلين، ﴿ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي بسبب قتلهم، عُدّي القصاصُ بفي لتضمنه معنى المساواة، إذ معناه أن يُفعل بالإنسان مثل ما فَعَل، والمعنى: فُرض عليكم اعتبار المساواة بين القتلى ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ مبتدأ وخبر، أي الحرُّ مقتولٌ بالحرِّ، ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي والعبد يُقتل بالعبد، ولا يُقتل به الحرُّ، والأنثى تُقتل بالأنثى ولا يُقتل بها الرجل، فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به، وإذا قتل العبدُ العبدَ فاقتلوه به، ولا تعتدوا بقتل غير القاتل، والآية نزلت رداً على عدوان أهل الجاهلية، فقد كانوا إذا كان لبعضهم قوة وفضل، وقُتل عبدٌ منهم قالوا: لا نقتل به إلاَّ حراً، وإذا قتلت أنثى قالوا: لا نقتل بها إلاَّ رجلاً، وإذا قُتل واحد قالوا لا نقتل به إلاَّ اثنين أو خمسة، فنزلت الآية تأمر بقتل الجاني فقط دون العدوان.

يروى أن واحداً قتل إنساناً من أشراف العرب، فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول، وقالوا: ماذا تريد؟ فقال: إحدى الثلاث، قالوا: ما هي؟ قال: إما تحيون ولدي، أو تملؤون داري من نجوم السماء، أو تدفعوا جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أني أخذت عوضاً، وظلموا بمثل ذلك، فلما بعث الله الرسول ﷺ أوجب رعاية العدل، وسوّى بين العباد ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ أيُّ شيءٍ من العفو، وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام، في إسقاط القصاص، والمراد من الأخ ولي المقتول، وفيه الإشارة إلى أن الأخوة الإسلامية لا تنقطع بالقتل ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي فليكن اتباع أو فالأمر اتباع والمراد به وصية العافي بأن يطالب الدية بالمعروف من غير تعنيف، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان، وهو أن لا يمطل ولا يبْخسْ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور من العفو وأَخْذِ الدية ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع،

فشرعة العفو تسهيل على القاتل، وشرعة الدية تنفيع لأولياء المقتول ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيف فتجاوز بأن قتل غير القاتل، أو بعد أخذ الدية ﴿فَلَهُۥ﴾ باعتدائه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إما في الدنيا بالاقتصاص بما قتله بغير حق، وإما في الآخرة بعذاب النار.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرَّف القصاص ونكَّر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة النفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتصَّ من القاتل، سلم الباقون ويصير ذلك سبباً لحياتهم ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي يا ذوي العقول الكاملة، ناداهم للتأمل في حكمة القصاص، فمن لا عقل له يهديه إلى هذا الفكر، لا يحصل له ذلك التأمل، فلهذا أخصَّ الله سبحانه بهذا الخطاب أولي الألباب[1]، واللبُّ: العقل الخالص من الشوائب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون محارم الله، وتزجرون عن العدوان وسفك الدماء.

---

(١) اتفق علماء البيان على أن الآية الكريمة: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ بالغة أعلى درجات الفصاحة والبيان، ونُقل عن العرب في هذا المعنى قولهم «القتلُ أنفى للقتل» وفضل الآية عليه من وجوه: ١ ـ قلة الحروف. ٢ ـ الاطراد في الآية، إذ في كل قصاص حياة، وليس كل قتل أنفى للقتل، فإن القتل ظلماً أدعى للقتل. ٣ ـ خلو الآية من التكرار اللفظي، بخلاف حكمة العرب. ٤ ـ عذوبة اللفظ في الآية. ٥ ـ الطباق بين لفظ «القصاص» و«الحياة» إلى غير ما هنالك من الفوارق التي تجدها في نفحات الإعجاز، حيث جعلت الآية القصاص سبباً للحياة، والمثل جعل القتل سبباً لنفي القتل، وهو لا يستلزم الحياة، وانظر بقية الوجوه البيانية، في كتاب الإتقان للسيوطي.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي حضر أسبابه، وظهرت أماراته ومعنى حضر الموت أي أشرف على الموت وصار في النزع ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالاً، وقيل: مالاً كثيراً، لما روي عن علي رضي الله عنه أن مولىً له أراد أن يوصي، وله سبعمائة درهم فمنعه، وقال: قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً﴾ والخيرُ المال الكثير[1]، وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أراد أن يوصي، فسألت كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف، فقالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ فإن هذا الشيء يسير، فاتركه لعيالك[2]، والظاهر أن الكثرة غير مقدرة، بل تختلف باختلاف حال الرجل، وكثرة عياله، وذهب الزهري أن الوصية مشروعة، قلَّ أو كثر المالُ ﴿ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ مرفوع بكُتب وكان هذا الحكم في بدء الإسلام، ثم نسخ عند نزول آية الموارث، بقوله ﷺ: «إن الله قد أعطى كلَّ ذي حقّ حقّه، ألاَ لا وصية لوارث»[3] والحديث تلقته الأمة بالقبول، فانتظم في سلك المتواتر، في صلاحية النسخ، على أن التحقيق أن الناسخ هي آية المواريث وهي مستحبة في حق الذين لا يرثون، وإليه ذهب الأكثرون ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي حق على المؤمنين الذين يتقون.

﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ ﴾ غيَّره من الأوصياء والشهود ﴿ بَعْدَمَا سَمِعَهُ ﴾ أي وصل إليه وتحقق عنده﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ ﴾ أي إثم التبديل ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ على

---

(١) رواه البيهقي وجماعة عن عروة بن الزبير.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أبي أمامة مرفوعاً.

مبدّله، لأنه هو الذي حاف وخالف الشرع وإيثار الجمع للإيذان بشمول الإثم لجميع الأفراد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمبدِّل بغير حق.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾ أي توقع وعلم، والمراد بالخوف الظنُّ الغالبُ الجاري مجرى العلم ﴿جَنَفًا﴾ أي ميلاً بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف في الوصية ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصي وبين الموصَى لهم، بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول، وقيل هذا في حياة الموصى أي فمن حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع فنهاه، وحمله على الصلاح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد للمصلح، وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت، فيضارَّان في الوصية فتجب لهما النار»[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الوصايا رقم ٢١١٧ وزاد في آخره ثم قرأ عليَّ أبو هريرة =

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بيان لحكم آخر، وتكرير النداء لإظهار الاعتناء بهم ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ الصيام لغةً: الإمساكُ، ومنه يقال للصمت: صومٌ، لأنه إمساك عن الكلام، وشرعاً: إمساك عن أشياء مخصوصة، على وجه مخصوص، والمراد به صيامُ شهر رمضان، خُصَّ هذا الشهر بهذه العبادة، لأن فيه إنزال القرآن، وأضيفت فيه هداية الرحمٰن، وحصل فيه الظفر ببدر بنصر العزيز المنَّان، وكان جبريل عليه السلام يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي فرض عليكم صومه كما فرض ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأنبياء والأمم، وعن ابن عباس ومجاهد أنهم أهل الكتاب، وفيه توكيد الحكم، وترغيب على الفعل، وتطييب للنفس، فإنَّ الأمور الشاقة إذا عمَّت طابت وسهل عملها، والمماثلة في أصل الوجوب، وقد كتب الصوم على أهل الملل السابقة، فكان ركناً من كل دين، لأنه من أقوى العبادة، وأعظم ذرائع التهذيب، وفي إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضه على الذين من قبلنا، إشعارٌ بوحدة الدين في أصوله ومقصده، ويروى أن صوم رمضان كان مكتوباً على اليهود والنصارى، ثم غيَّروه فتركه اليهود، إلاَّ صوم يوم من السنة، زعموا أنه اليوم الذي أُغرق فيه فرعون، وزاد النصارى فيه حتى بلغ خمسين، فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى زمن الربيع ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تنتظمون به في زمرة المتقين، فالصوم إنما فُرض لمنفعتنا، لأنه يعدُّنا للسعادة، وإعدادُ الصيام نفوسَ الصائمين بتقوى الله سبحانه من وجوه:

١ ـ أعظمها أن الصوم أمرٌ داخلي، موكول إلى نفس الصائم، لا رقيب لأحدٍ عليه، إلاَّ لله سبحانه وتعالى، وهو سرٌّ بين العبد وربه، فإذا ترك الصائم شهوته ولذته، مدة شهر، امتثالاً لأمر ربه، ملاحظاً عند

---

= ﴿من بعد وصيةٍ يُوصَىٰ بها أو دَيْنٍ غير مضار..﴾ الآية وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

عروض كل رغبة جسدية، من أكلٍ نفيس، وشراب لذيذ، وزوجة فاتنة، أنه لولا اطلاع الله عليها، لما صبر على ترك تلك الشهوات، لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة «ملكة المراقبة» لله تعالى، والحياء منه أن يراه حيث نهاه، وهذه المراقبة الدائمة من كمال الإيمان، كما جاء في الحديث القدسي: «يَدَع طعامَه وشهوتَه من أجلي» وهي أكبر وسيلة لسعادة الروح، فهل يُقدم من تُلابس هذه المراقبة قلبَه، على غشّ الناس ومخادعتهم؟ كلا!! إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي، لأن الصوم ربى نفسه.

٢ ـ ومن الوجوه الاجتماعية، أن الصائم عندما يجوع، يتذكر الفقير الذي لا يجد قوتاً، فيحثُّه التذكر على الرأفة والرحمة بعباد الله، فيمدُّ إليهم يد العون والإحسان.

٣ ـ ومن الوجوه أيضاً أن الصوم يُصفّي نفس الإنسان، ويهذّب لسانه وسلوكه، وينقل الإنسان من «حيوانية» الأرض، إلى «ملائكية» السماء، فيجعله كالملائكة الأبرار الأطهار، الذين ليس لديهم ميل إلى المخالفة والعصيان، ومن أجل ذلك شُرع الصيامُ.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي هذا الصيام أيامُه معدودات، وهي أيام قلائل، فلم يفرض الله على عباده صيام الدهر، حتى لا يشقَّ عليهم، وإنما جعله شهراً واحداً في السنة، رأفة ورحمة بهم، وأحد عشر شهراً يتقلبون في لذائذ الطعام، والشراب، والمتعة الجسدية، فما أرحم الله عزَّ وجلّ بعباده؟!.

## متى شُرع الصيام؟

عن عائشة قالت: «كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان

ترك عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه»[1] وكانت فريضة رمضان في السنة الثانية من الهجرة، قبل غزوة بدر، لسبع عشرة خلت من رمضان ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يضرُّه الصومُ، ويعسر معه، أو يخاف من الصوم زيادة المرض، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر، وفيه إيماء بأنَّ من سافر أثناء اليوم لم يُفطر، ولهذا أُوثر على قوله «أو مسافراً» فمعنى الآية: من كان عند دخول رمضان مريضاً، أو مشتغلاً بالسفر فعلاً، فأفطر فعدة من أيام أخر، وهذا يسمونه فحوى الخطاب، وأكثر العلماء على تقييده بما يلزمه العسر غالباً، وهو السفر إلى المسافة المقدرة في الشرع ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعليه صوم عدة أيام المرض، أو السفر، من أيام أخر، إن أفطر، فالمريض والمسافر إن شاءا صاما، وإن شاءا أفطرا، ومذهب الظاهرية وجوب الإفطار وهو غريب ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هي قدر ما يأكله كلَّ يوم، وهي نصف صاع من بر، أو صاع من غيره، وكان ذلك في بدء الإسلام، لما أنه قد فرض عليهم الصوم، وما كانوا متعودين له، فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية، ثم نُسخ، كما روي عن سلمة بن الأكوع قال: «لمَّا نزلت ﴿وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ كان من شاء منَّا صام، ومن شاء أفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فصارت هذه الآية ناسخةً للتخيير»[2] ومن الناس من لم يقل بالنسخ، وفسرها بأن المراد يصومونه على جهدهم، لأن الإطاقة أدنى درجة المكنة، والقدرة على الشيء، فلا تقول العرب: أطاق الشيءَ إلاّ إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف، بحيث يتحمل به مشقة شديدة، قالوا: والآية نزلت في الشيخ الكبير، والعجوز الهرمة، وقيل معناه: «لا يُطيقُونَهُ» فأضمر «لا» لقراءة حفصة كذلك ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية، قاله

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة رقم ٥٤٠٤ في كتاب التفسير.
(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير رقم ٤٥٠٧ ومسلم رقم ١١٤٥ في الصيام.

مجاهد، أو جمع بين الإطعام والصوم، قاله ابن شهاب ﴿فَهُوَ﴾ فالتطوع ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ عند ربه ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي والصوم خير لكم من الفدية، أو من التأخير إلى أيام أخر ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة والأجر العظيم!!.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي ابتُدىء فيه نزول القرآن الكريم، وإلاَّ فإنَّ القرآن نزل في جميع شهور السنة، في مدة ثلاث وعشرين سنة، وأمَّا ابتداء نزوله فكان في شهر رمضان، وفي ليلة القدر منه على وجه الخصوص لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقيل: نزل جميع القرآن من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم نزل مفرَّقاً في مدة ثلاث وعشرين سنة، وهو مروي عن ابن عباس ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي أنزله الله هداية للناس بما فيه من الإيجاز والإعجاز، وبما فيه من الآيات الواضحات، التي تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فهو كتاب فريد، معجز في بيانه، واضح في أحكامه، جمع الله فيه الحلال والحرام، والحِكَم والأحكام ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي فمن حضره الشهر[1]، ولم يكن مريضاً أو مسافراً، فليصم شهر رمضان، فإن الله ما فرض صيامه إلاَّ لتذكيرنا بنعمة القرآن، التي هي أجلُّ النعم بعد نعمة الإيمان ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي ومن كان مريضاً مرضاً يشقُّ عليه، أو مسافراً سفراً طويلاً شرعياً، فأفطر بسبب المرض أو السفر، فعليه صيام أيام أُخَر، بعدد الأيام التي أفطرها، ولا يشترط في السفر أن يكون على الدواب أو الأقدام، بل يحقُّ له

---

(١) المراد بقوله سبحانه: ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ هو حضور الشهر أي من حضره دخول الشهر، وهو حي غير ميت، ومقيم غير مسافر، فعليه أن يصومه، وليس معنى «شهد» أنه رأى الهلال وشاهده بنفسه، فإن الصوم يجب برؤية شاهد عدل لقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» فتنبَّه والله يرعاك. الصابوني.

الإفطار ولو كان بالسيارة أو الطائرة، بشرط أن تزيد المسافة على تسعين كيلو متراً، وهي مقدار ثلاثة أيام على الدواب مع الاستراحة، وهي المسافة التي تقصر فيها الصلاة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي يريد الله أن ييسّر عليكم ولا يُعسِّر، فلذلك أباح لكم الفطر في السفر والمرض ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي ولتكملوا عدة صيام الأيام التي أفطرتم فيها، بسبب السفر أو المرض ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي ولتحمدوا ربكم، على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا الله على فضله وإحسانه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ سببها أن قوماً من الأعراب قالوا يا رسول الله: أقريبٌ ربُّنا فنناجيه ـ أي ندعوه سراً ـ أم بعيدٌ فنناديه؟ فنزلت الآية، أي إنني مع عبادي، أسمع دعاءهم، وأعلم حالهم، وأعرف تضرعهم، وأقضي حوائج السائلين، فأنا قريب منهم، وفي الصحيح: «إنَّ الذي تدعونه أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته»[1] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي أجيب دعاء من دعاني، إذا كان عن إيمان، وصدق طلب.

قال ابن كثير: والمراد من هذا أنه تعالى لا يُخيِّب دعاء داعٍ، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه[2]، وفي الحديث الشريف: «ما على ظهر الأرض من رجلٍ مسلمٍ، يدعو الله عزَّ وجلّ بدعوةٍ، إلاَّ آتاه الله إيَّاها، أو كفَّ ـ أي صرف ـ عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»[3] ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي فليستجيبوا لي فيما دعوتهم إليه، من الإيمان والطاعة، كما أجيبهم إذا دعوني لمهمَّاتهم، ولْيثبتوا على إيمانهم،

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان، وانظره في جامع الأصول ٤/١٦١.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٢٢٤.
(٣) الحديث أخرجه أحمد في المسند، ورواه الترمذي رقم ٣٥٦٨ وقال: حديث حسن صحيح غريب وزاد فيه «فقال رجل من القوم: إذاً نُكثِرُ، قال اللهُ أكثر».

في أن ربهم سميع مجيب، راجين إصابة الرشد والسداد، وإنما وردت آية الدعاء ضمن آيات الصيام، للتنبيه على أن هناك أوقاتاً للإجابة، منها يوم الجمعة، ووقت السحر، وعند فطر الصائم، كما جاء في الحديث الشريف: «إن للصائم عند فطره لدعوةً ما تُردُّ»[1]!! فينبغي للداعي أن يحرص على الأوقات الفاضلة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر آيات الدعاء، شرع في بيان تتمة الأحكام التي تتعلق بالصيام، فقال سبحانه:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ أي أبيح لكم يا معشر الصائمين جماع النساء في ليالي رمضان، ولفظة «أُحِلَّ» تقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك، روي أن المسلمين كانوا إذا دخل المساء، أُحلَّ لهم الأكل والشربُ والجماع، إلى أن يصلُّوا العشاء أو يناموا، ثم إن جماعةً من المسلمين اختانوا أنفسهم، وأصابوا النساء بعد النوم، منهم «عمر بن الخطاب» جاء إلى امرأته فأرادها، فقالت له: قد نمتُ، فظنَّ أنها تعتلُّ فوقع بها، ثم تحقق أنها كانت قد نامت، فجاء إلى رسول الله ﷺ يشكو

(١) أخرجه البيهقي كما في الترغيب والترهيب للمنذري ٢/٨٩ ورواه الترمذي بلفظ: «ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم».

أمره، وجاء رجال كذلك فاعترفوا بما صنعوا واعتذروا، فأنزل الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي أبيح لكم طيلة الليل في رمضان، معاشرة النساء وجماعهن، والرَّفثُ: كنايةٌ عن الجماع، وأصله قول الفُحش وإنما ذكره هنا بلفظ الرفث، استقباحاً لما وُجد منهم قبل الإباحة، قال الزجَّاج: الرفثُ كل ما يأتيه الرجل مع المرأة من قُبلةٍ، ولمسٍ، وملاعبةٍ، وجماع؛ قال الشاعر:

ويُرينَ من أُنْسِ الحديث زوانياً ... وبهنَّ عن رَفَث الرجال نِفار

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ أي هنَّ سكنٌ لكم وسِترٌ، وأنتم سَكَنٌ لهنَّ وسِتْرٌ(١)، وهو استئنافٌ يبيّن سبب الإحلال، وهو قلة الصبر عنهن، وصعوبة اجتنابهن، لكثرة المخالطة وشدّة الملابسة، ولمّا كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه، شُبِّه باللباس، ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب والاختيان أبلغ من الخيانة، ويقال للعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لمَّا تبتم مما اقترفتموه ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ومحا عنكم أثره أي ما فعلتم قبل الرخصة، فكان ذلك مما نفع الله به الناس ورخص لهم

---

(١) قال ابن عباس: أراد الله به الجماع، ولكنَّ الله عزَّ وجلّ كريمٌ حليم يكني، فكلٌّ من الزوجين سكنٌ للآخر.

**أقول**: الآية جاءت في غاية الروعة والإبداع في تصوير «العلاقة الجنسية» وسلكت ـ بطريق الاستعارة ـ مسلكاً أفاض عليها البهاء والجمال، فقد شبَّه المرأة باللباس، الذي يزيّن الإنسان، ويستر قبحه، ولولا اللباس لبدت سوءة الرجل، فكان منظره قبيحاً تنفر منه الطباع، فالمرأة ستر للرجل وسكن له، تزيّنه وتكمّله وتجمّله، والرجل ستر للمرأة، يزيّنها ويجمّلها ويسترها، وهما حالة الجماع كأنهما روحان حلاَّ في جسد واحد، بثوب واحد، فستر كل منهما الآخر، فانظر إلى روعة البيان في تصوير القرآن ﴿هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال الشاعر:

إذا ما الضجيعُ ثنى جيدها ... تداعت فكانت عليه لباساً

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ أي بعد نسخ التحريم، آن يئين، كحان يحين وزناً ومعنىً ﴿باشِرُوهُنَّ﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم، وهو أمر إباحة وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة، كنى به عن الجماع لالتصاق بشرتهما ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدَّره الله لكم من الولد، فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرع النكاح. ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وما يبدو معه من غلس الليل، بخيطين: أبيضَ، وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله ﴿من الفجر﴾ عن بيان الخيط الأسود، لدلالته عليه، عن عدي بن حاتم قال: لمَّا نزلت ﴿حتى يَتَبَيَّنَ لكُمْ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسود﴾ عمدت إلى عقال أسود، وعقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي وجعلتُ أنظر في الليل، فغدوت على رسولِ الله ﷺ وذكرتُ له ذلك، فقال: إنما ذلك سواد الليل، وبياض النهار[1] وفي تجويز المباشرة إلى الفجر، دلالة على جواز تأخير الغسل إليه، وصحة صوم من أصبح جنباً ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ بيان آخر وقته، وإخراج الليل عنه ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ معتكفون فيها، والاعتكاف هو اللبث في المسجد بقصد القربة، والمراد بالمباشرة: الوطء، وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد، وأن الوطء فيه حرام ومفسد له، لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفّاه اللهُ عزَّ وجل»[2] ﴿تِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة، المشتملة على إيجابٍ، وتحريم، وإباحة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ حدود وضعها الله تعالى لعباده وقيل يجوز أن يراد بحدود الله محارمه لأن الأوامر تستلزم النواهي، والحدُّ بمعنى المنع والحاجز بين الشيئين ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نهى أن يُقرب الحدُّ الحاجز

(١) الحديث أخرجه البخاري ٤/ ١١٤ ومسلم رقم ١٠٩١ في الصوم.
(٢) أخرجه البخاري في التراويح ٤/ ٢٢٦ ومسلم في الاعتكاف رقم ١١٨٣.

بين الحق والباطل، لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه، وهو أبلغ من قوله ﴿لا تعتدوها﴾ وقال ﷺ «ألا وإنَّ لكلَ ملِكٍ حِمىً، ألاَ وإن حِمَى الله محارمُه»[1] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على أحكام الشرع ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ولما ذكر الله سبحانه الصيام: عقَّبه بالنهي عن أكل الحرام، المفضي إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه، والمرادُ من الأكل ما يعمُّ الأخذ والاستيلاء، والمراد بالباطل الحرام ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ الإدلاء: الإلقاءُ، أي لا تتوصلوا بالخصومة فيها إلى الحكام على وجه الرشوة ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ بالرفع إليهم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثماً، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح، وصاحبه بالتوبيخ أحق، عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع جَلَبَةَ خَصْمٍ بباب حُجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصمُ، فلعلَّ بعضهم أن يكون

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في الإيمان ١/١١٧ وأوله: إن الحلال بيِّنٌ وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات. .» الحديث ورواه مسلم رقم ١٥٩٩.

ألحنَ بحجته من بعض، فأقضي له على ما أسمع منه، فمن قضيتُ له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[1].

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ سأله معاذ وثعلبة فقالا، يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد، ثم ينقص فنزلت الآية، وكان هذا سؤالاً على وجه الفائدة، أي ما سبب اختلافها؟ ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ فأمر الله تعالى أن يجيب، بأن الحكمة الظاهرة في ذلك، أن تكون معالم للناس، يوقّتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات، والمواقيت جمع ميقات من الوقت، استعير للمكان، وكان الجواب مبنياً على الحكمة الظاهرة اللائقة بشأن التبليغ العام، المذكرة لنعمة الله تعالى، وهي أن يكون معالم للناس، يوقّتون أمورهم الدينية والدنيوية، ولو كان الهلال مدوراً كالشمس، لم يكد يتيسر التوقيت به، والحكمة الباطنة لم يذكرها لأنه لم يطلع عليه كل أحد، وهذا من الأسلوب الحكيم، وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله، فإن السؤال عن الحكمة لا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم[2] ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ رُوي عن البراء رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجُّوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَلِ أبواب البيوت، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قِبَل بَابه، فكأنه عُيِّر بذلك، فنزلت[3] ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ إذ ليس

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٥/ ٢١٢ ومسلم في الأقضية رقم ١٧١٣.

(٢) يسمى هذا في علم البديع «الأسلوب الحكيم» فالصحابة رضوان الله عليهم سألوا رسول الله عن الهلال يبدو صغيراً، ثم يكبر حتى يصبح بدراً منيراً، فَصَرفهم تعالى إلى ما هو أهمُّ من هذا الأمر الظاهر، وكأنه يقول لهم: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة، لا عن كيفية بدئه صغيراً دقيقاً ثم اكتماله في منتصف الشهر، فاعرفوا الحكمة من ذلك.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الحج ٣/ ٤٩٤ ومسلم في التفسير رقم ٣٠٢٦.

في العدول برٌ فباشروا الأمور من وجوهها[1] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تظفروا بالهدى والبر، فإن من اتقى الله تعالى، تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وانكشفت له دقائق الأسرار الإلهية حسب تقواه، وإتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193)﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا لإعلاء كلمته، وإعزاز دينه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سُئلَ رسولُ الله ﷺ عن الرجلِ يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتلَ لتكون كلمةُ الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[2] قيل كان ذلك قبل ما أمروا بقتال المشركين كافة ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وقيل معناه الذين يتوقع منهم القتال دون غيرهم من المشايخ والولدان والنساء ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهد، أو بالمُثْلة، أو نحو ذلك. وعن بُرَيْدة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيشٍ، أو سريةٍ،

---

(1) إنما كانوا يتحرجون من الدخول من الباب، حتى لا يحول سقف الباب بينهم وبين السماء، وهذا جهل منهم بحقائق الدين وتشريع الله.
(2) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ٢١ ومسلم في الإمارة رقم ١٩٠٤.

أوصاه بتقوى الله في خاصته، ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: «أُغزُوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا مَنْ كَفر بالله، أُغْزُوا ولا تغلّوا، ولا تَغْدِروا، ولا تُمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً»[1] الحديث، فلا يقتل الشيوخ والنساء منهم قياساً عليهم بتلك العلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ولا يريد بهم الخير، وهو تعليل للنهي، ونهيٌ عن العدوان.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم في حِلٍّ وحرم، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء، وهو يتضمن معنى الغلبة، ولذلك استعمل فيها. رُوي أنَّ المشركين صدُّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل، وخاف المسلمون أن لا يُوفُّوا لهم، ويقاتلوهم في الحرم والشهر الحرام، وكرهوا ذلك، فنزلت ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي من مكة وقد فعل ذلك من لم يسلم يوم الفتح ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يُفتن بها الإنسان، كالإخراج من الوطن، أصعب من القتل لدوام ألم النفس بها، وقيل: شركهم في الحرم أشد من قتلكم إياهم فيه، لأنهِ ارتكاب القبيح لدفع الأقبح ﴿وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تفاتحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ فإنهم هتكوا حِرمة المسجد، فاستحقوا أشد العذاب، فلا تبالوا بقتالهم، ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي مثل ذلك جزاؤهم، يُفعل بهم مثل ما فعلوا، لأنهم كَفرةٌ فَجَرة، لا يتورَّعون عن انتهاك محارم الله.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف، واستدل به بعض المفسّرين على قبول توبة القاتل العمد، لأن الكفر أعظمُ من القتل، والله يغفره لمن تاب وأناب.

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً له، ليس

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الجهاد رقم ١٧٣١ والترمذي في السير رقم ١٦١٧ وأبو داود في الجهاد رقم ٢٦١٢ وهو حديث طويل وفيه أحكام كثيرة.

للشيطان فيه نصيب، والمراد من الفتنة: الشركُ على ما هو المأثور، ويؤيده أن مشركي العرب ليس في حقهم إلاّ الإسلام، أو السيف، لقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أو يُسْلِمُونَ﴾ بخلاف الكتابي فأمهلهم الله بحرمة تلك الكتب من القتل ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الشرك ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فإن انتهوا وأسلموا فلا تعتدوا عليهم، إذ لا يحسن الظلم إلا لمن ظلم، وتسميةُ الجزاء بالعدوان للمشاكلة[1]، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2].

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجهم لعمرة القضاء فيه، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحرمته، فقيل لهم: هذا الشهر بذاك الشهر، وهتكه بهتكه، فلا تبالوا به ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ احتجاج عليه أي كل حرمة يجري فيها القصاص، فلما هتكوا حرمة شهركم بالصدّ فافعلوا بهم مثله، فادخلوا عليهم عنوة، واقتلوهم إن قاتلوكم ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ سمى مقابلته بأنه اعتداء لشبهها بالمقابل به في الصورة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الانتصار ولا تعتدوا إلى ما لم يُرخِّص لكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

---

(١) معنى المشاكلة: الاتفاق باللفظ مع الاختلاف في المعنى، فالعدوان ظلمٌ، وورد العدوان ليس بظلم بل هو عدل محض، وإنما جاء اللفظ ﴿فاعتدوا عليه﴾ بطريق المشاكلة، ومثله قوله تعالى: ﴿وجزاء سيّئةٍ سيّئةٌ مثلها﴾.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي في الجهاد، فإنه إذا قيّد الإنفاق بذكر «سبيل الله» فالمراد به في طريق الدين، لأن سبيلَ الله هو دينه، فكل ما أمر الله تعالى في دينه من الإنفاق، فهو داخل في الآية، سواءً كان إنفاقاً في حجة، أو عمرة، أو جهاد، أو في الزكاة، والكفارات، أو على العيال والأقارب وغير ذلك، إلاّ أن الأقرب في هذه الآية، أن يُراد بالإنفاق في الجهاد لتقدم ذكره ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ بالبخل عن الإنفاق في جهاد الأعداء، أو بالكفّ عن الغزوِ والإنفاق، فإن ذلك يُقوّي العدوَّ، ويسلطهم على إهلاككم، ويؤيده ما رُوي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: «لمَّا أعزَّ اللهُ الإسلام، وكثر أهله، رجعنا إلى أهلينا وأموالنا، فقال بعضنا لبعض سراً: إنَّ أموالنا قد ضاعت، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يرد علينا ما قلنا، فكانت التهلكةُ تركَ الغزو»[1]. والمراد لاتوقعوا أنفسكم في الهلاك، واستدل بالآية على تحريم

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٩٧٦ وأبو داود رقم ٢٥١٢ وله قصة بديعة ذكرها المحدِّثون، ونحن نذكرها لما فيها من العظة والعبرة، حيث كانت في غزوة هامة غزاها جماعة من سادات الصحابة، لبلاد الروم، ولنستمع للرواية كما في سنن الترمذي عن «أسلم أبي عمران قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا لنا صفاً عظيماً من الروم، فخرج لهم من المسلمين مثلُهم، فحمل رجل من المسلمين على صفِّ الروم، حتى اقتحم صفوفهم ودخل فيهم، فصاح الناس: سبحان الله! يلقي بيديه إلى التهلكة؟ فقام أبو أيوب الأنصاري، فقال: (يا أيها الناسُ، إنكم لتتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لمَّا أعزَّ الله الإسلام، وكثُر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرَّاً: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزَّ الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه يردُّ علينا ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ «فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً - أي مسافراً - في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم» يعني في القسطنطينيَّة، وهي التي تسمى اسطنبول)، وانظر جامع الأصول ٢/ ٣٢.

الإقدام على ما يخاف فيه تلفُ النفس ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضلوا على المحاويج بمساعدتهم ومعونتهم، وأمره بالإحسان مطلقاً، يدخل فيه الإعانة بالمال، وطلاقة الوجه، وحسن اللقاء، وحسن الذكر، والإحسان خلاف الإساءة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى المحتاجين فيثبتهم ويرضى عنهم.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ بيان لوجوب إتمام أفعالهما عند التصدي لأدائهما، وإرشاد للناس إلى تدارك ما عسى يعتريهم، من العوارض المخلة بذلك، من الإحصار ونحوه، والعمرة سنة على الراجح لقوله ﷺ: «الحجُّ جهادٌ، والعمرةُ تطوعٌ»[1] وإتمامهما أداؤهما بشرائطهما، بلا توانٍ ولا نقصان، فهو دليل على أن من شرع فيهما لزمه إتمامهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي منعتم، يُقال: حصره العدو، وأحصره، إذا حبسه ومنعه من المضي، وكل منع من عدوّ أو مرضٍ أو غيرهما فهو إحصار، لما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كُسِر، أو عَرِجَ، فقد حلَّ، وعليه حجةٌ أخرى»[2] قوله فقد

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك رقم ٣٠٢٣ وأخرج الترمذي عن جابر أن النبي ﷺ سئل عن العمرة أواجبة هي؟ قال: «لا، وأن تعتمروا هو أفضل» قال الترمذي: حديث حسن، وروي عن ابن عباس الوجوب.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الحج رقم ٩٤٠ وأبو داود في المناسك رقم ١٨٦٢ وحسّنه الترمذي.

حلَّ أي جاز له أن يحلَّ ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ أي فعليكم أو الواجب ما استيسر، والسينُ ليست للطلب، والمعنى: إن المحرم إذا أُحصر وأراد أن يتحلل، تحلل بذبح هدي يتيسر عليه، من بدنة، أو بقرةٍ، أو شاة، حيث أحصر عند الأكثر ولا يتحلل قبل الذبح، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ﴾ حَلْقُ الرأس كناية عن التحلُّلِ، والخطاب للمحصرين لأنه أقرب، وحمل الكثيرون بلوغ الهدي محله، على ذبحه حيث يُحصر ويتحلَّل فيه، لما روي عن ابن عمر قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر ﷺ وحلق رأسه»[1] ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق ﴿ أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ ﴾ كجراحةٍ أو قمل ﴿ فَفِدْيَةٌ ﴾ فعليه فدية إن حلق ﴿ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روى الشيخان عن كعب بنِ عُجْرة، قال: «أتى رسول الله ﷺ عليَّ، وأنا أوقد تحت قدر لي، والقمل يتناثر على وجهي، فقال: أيؤذيك هوامُّ رأسك؟ قال: قلت نعم، قال: فاحلقْ، وصمْ ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة، لا أدري بأيِّ ذلك بدأ» النسكُ واحدتها نسيكة أي ذبيحة، وأعلاها بدنة، وأوسطها بقرة، وأدناها شاة، ولم يبين محل الفدية، والظاهر العموم في المواضع كلها وهو مذهب الإمام مالك ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ ﴾ أي فإذا لم تُحصروا، وكنتم في حال أمن وسعة ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ ﴾ أي فمن انتفع بالتقرب إلى الله بالعمرة، قبل الانتفاع بتقربه بالحج في شهره، وقيل: من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ أي فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع، شكراً لله للجمع بين النسكين، فهو كالأُضحية ويذبح يوم النحر عند أبي حنيفة، وعند الشافعي دمُ جبر يذبحه إذا أحرم. ولا يأكل منه ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ الهدي ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الحج ٤/٨.

وثامنه وتاسعه، فلا يصح في النحر وأيام التشريق لكون الصوم منهياً فيها، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي نفرتم وفرغتم من أعمال الحج ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ أي هذه مجموع عشرة أيام، وفائدتها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى «أو» وأن المراد بالسبعة العدد دون الكثرة، فإنها يطلق لها ﴿كَامِلَةٌ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة، محافظة على العدد[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التمتع عند أبي حنيفة، إذ لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام، في حق أهل مكة، ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم أهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي من كان من الحرم مسافة القصر، وعند مالك أهل مكة، وللمسجد الحرام إطلاقان: أحدهما نفس المسجد، والثاني الحرم كله، وإرادة المعنى الأخير في الآية هنا هو قول أكثر أئمة الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه، وخصوصاً في الحج ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره، وتهاون بحدوده، وارتكب مناهيه، والعقابُ هو مجازاة المسيء على إساءته.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

---

(١) لمَّا جاز أن يتوهَّم متوهمٌ التخيير بين الثلاثة في الحج، والسبعة إذا رجع إلى وطنه، أزيل ذلك بالجملة بقوله سبحانه: ﴿تلك عشرة﴾ وأكَّد ذلك بقوله ﴿كاملة﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزىء عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ أي وقته، كقولك البرد شهران ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾ معروفات بين الناس، هي شوال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة عندنا، وهو المروي عن ابن عباس وابن مسعود وعند الشافعي تسعة بليلة النحر، لأن الحج يفوت بطلوع الفجر من يوم النحر، وعند مالك كل ذي الحجة، عملاً بظاهر لفظ الأشهر ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي أوجبه على نفسه بالإحرام والتلبية، أو بالإحرام والنية ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجماع أو ذكره عند النساء أو الكلام الفاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصي، أو السباب، لقوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق»[1] أو التنابز بالألقاب لقوله تعالى: ﴿بِئسَ الاسمُ الفسوقُ بَعْدَ الإيمَانِ﴾ وقال ابن عمر ما نهى الله تعالى عنه المحرم في حال الإحرام ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولامراء ولا خصومة مع الخدم والرفقة، يقال: جادل إذا اشتدت خصومته ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ في أيامه، حرَّم تعالى الرفث، والفسوق، والجدال، على قصد النهي للمبالغة، وللدلالة على أنها حقيقٌ بأن لا تكون، وما كانت منها مستقبحة في أنفسها ففي الحج أقبح فإن زيارة البيت المعظم، والقرب بها إلى الله تعالى، من موجبات ترك الأمور المذكورة، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حجَّ ولم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمُّه»[2] ثم حث على الخير عقيب النهي فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيجزي به خير الجزاء، فالخير أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن، ومكان الفسق البرَّ والتقوى، ومكان الجدال الوفاقَ وحسن الأخلاق ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي تزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت في أهل اليمن، كانوا يحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكلون، فيكونون كَلاًّ ـ أي

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ١٣/٢٢ ونصُّه الكامل «سباب المسلم فسوقٌ، وقتاله كفر» وأخرجه مسلم والنسائي والترمذي.

(٢) الحديث أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم.

عَالةً ـ على الناس، فأمروا أن يتزودوا، ويتّقوا الإبرام في السؤال»[1]. ﴿ وَٱتَّقُونِ ﴾ أي خافوا من عقابي أي أخلصوا في التقوى لله عزَّ وجلّ ﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ فإن قضية العاقل خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى، ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى، فلذلك خصَّ أولي الألباب بهذا الخطاب.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟﴾ أي في أن تبتغوا أي تطلبوا، والجناح: الإثم ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي عطاءً ورزقاً منه تعالى، يريد الربح بالتجارة لما روي عن ابن عباس قال: «كانت عُكاظُ، ومجنةُ، وذو المجاز، أسواقاً في الجاهلية، فلمّا كان الإسلام فكأنهم تأثموا بأن يتّجروا في المواسم، فنزلت[2]» ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ ﴾ أي دفعتم منها بكثرة، من أفضتُ الماء إذا صببته بكثرة، وإنما سمي الموقف «عرفة» لأنه نُعِتَ لإبراهيم عليه السلام، فلما أبصره عرفه، أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر، فلما أراه قال: عرفت، والناس يتعارفون فيها، وعرفات للمبالغة في ذلك، وهي من الأسماء المرتجلة ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بالتلبية، والتهليل، والدعاء ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ جبل يقف عليه الإمام ويسمى قزح، وقيل المشعر الحرام هو مزدلفة، وإنما سمي مشعراً لأنه معَلم العبادة، ومعنى عند المشعر الحرام ما يليه وما يقرب منه، فإنه أفضل، وإلا فمزدلفة كلها موقف، إلاّ وادي محسّر ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي كما علمكم وكما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي الهدي ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهلين،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٢٤٦ وأصله في صحيح البخاري، ٣/٣٠٣ بلفظ «كان أهل اليمن يحجُون فلا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فنزلت الآية».

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الحج ٣/٤٧٣ وأبو داود رقم ١٧٣٢ في الحج أيضاً.

لا تعرفون كيف تذكرونه، وتعبدونه، وتؤمنون به، عن ابن عباس قال: «إن أسامة بن زيد كان رديف النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة من ثم أردف الفضل من مزدلفة إلى منى، فكلاهما قالا: لم يزل النبي ﷺ يلبّي حتى رمى جمرة العقبة»[١].

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع ـ أي مزدلفة ـ وسائر الناس، يقفون بعرفة، ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأمروا بأن يساووهم، وأن يفيضوا من عرفات ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنب المستغفر، وينعم عليه، عن ابن عباس أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «يا أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البرَّ ليس بالإيضاع[٢] أي بالسير السريع الشديد.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ عباداتكم المتعلقة بالحج، وفرغتم منها ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ فأكثروا ذكره، وبالغوا فيه، كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخر، وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم، وقفوا

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ٣/ ٥٣٢ باب التلبية والتكبير غداة النحر.
(٢) أخرجه البخاري في الحج ٣/ ٥٢٢ وأحمد في المسند ١/ ٢١١.

بمنى، بين المسجد والجبل، يذكرون مفاخر آبائهم، ومحاسن أيامهم، فيقول بعضهم: أبي كبير الجفنة، رحب الفناء، كان يقري الضيف، وكان كذا وكذا، يعُدُّ مفاخره، ويتناشدون الأشعار في ذلك، وغرضهم الشهرةُ والسمعةُ ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ بل أكثر ذكراً من ذكر آبائكم، لأنه هو المنعم عليكم وعلى آبائكم، اذكروه بالتسبيحات والدعوات ﴿فَمِنَ النَّاسِ﴾ تفصيلٌ للذاكرين أي من الناس من لا يطلب بذكر الله إلا الدنيا ولا يريد شيئاً سواها، وهو المراد بقوله ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي اجعل إيتاءنا في الدنيا خاصة، يعني الجاه والغنى، والمشركون كانوا يقولون: اللهم أعطنا إبلاً، وغنماً، وعبيداً، ولم يطلبوا نعيم الآخرة، لأنهم ينكرون البعث ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ من نصيب، فهو بيان لحاله في الآخرة، أنه ما كان يبتغي بحجّه ثوابَ الله، وإنما همُّه في نيل حطام الدنيا، ولذلك فَقَد نصيبه من نعيم الآخرة.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني الإيمان والأعمال الصالحة، والصحة، والكفاف، وتوفيق الخير، والعلم، والنصر، والعافية ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ المغفرة، والرحمة، والثواب، والجنة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بالعفو والمغفرة، وعن الحسن معناه احفظنا من الذنوب المؤدية إلى النار، وعن علي: الحسنة في الدنيا: المرأة الصالحة.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي لكل منهم نوع نصيب، من جنس ما كسبوا، أو مما دعوا به، نعطيهم منه ما قدرناه، وتسمية الدعاء كسباً لما أنه من الأعمال ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم، وكثرة أعمالهم، في مقدار لمحة بصر.

﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ أي كبِّروه أدبار الصلوات، وعند ذبح القرابين، ورمي الجمار، وغيرها في أيام التشريع، روي عن ابن عمر: «أنه كان يكبّر بمنى تلك الأيام جميعاً، فيسمعه أهل المسجد، فيكبِّرون ويكبِّر أهل الأسواق، حتى ترتجَّ منى»[1] ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ أي استعجل النَّفر ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ في تمام يومين، أي بعد النحر، والمراد فمن نفر في ثاني أيام التشريق قبل الغروب بعد رمي الجمار ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ باستعجاله ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ أي النفر حتى رمى في اليوم الثالث ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ﴾ والمراد التخيير بين التعجل والتأخر، ولا يقدح في أفضلية الثاني، وإنما ورد بنفي الإثم تصريحاً، لرد أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فيه ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ لمن اتقى المحظورات أو اتقى فيما بقي من عمره، ولم يرتكب ما يستوجب به العذاب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مجامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات، أو احذروا الإخلال بما ذكر من الأحكام وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ للجزاء والحساب، وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق، وهو تأكيد للأمر بالتقوى، وموجب للامتثال به، فإن من علم الحشر والمحاسبة والجزاء، كان ذلك من أقوى الدواعي عنده إلى ملازمة التقوى والمراد بقوله ﴿إِلَيۡهِ﴾ أنه حيث لا مالك سواه، ولا ملجأ إلا إياه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾.

(١) أخرجه البخاري في العيدين ٢/ ٤٦١ من فتح الباري ولفظه: «كان عمر يكبِّر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبّرون، ويكبِّر أهل الأسواق، حتى ترتجَّ مِنى تكبيراً».

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس في شأن التقوى إلى حزبين، وفيه تحذير من الاغترار بظاهر القول، أي ومنهم من يروقك كلامه، ويعظم موقعه في نفسك، لما تشاهد فيه من لطف الأداء، وحلاوة اللسان، ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي في هذه الدنيا فقط، أما الآخرة فالحاكم فيها علاَّم الغيوب، الذي لا يخفى عليه سريرة ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ يحلف، ويقول: اللهُ يعلم أن ما في قلبي موافق لما في لساني، من محبتك ومن محبة الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أي شديد العداوة والجدل للمسلمين في الباطن، وفي الآية إشارة إلى أن شدة الخصومة مذمومة، وهي من صفات المنافقين، لأنهم يحبون الدنيا فيكثرون الخصومة عليها وفي الحديث الشريف: «تجدون من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[1] والآية نزلت في الأخنس بن شُرَيق الثقفي، كان حلو الكلام والمنظر، أقبل إلى النبي ﷺ في المدينة فأظهر له الإسلام، وأعجب النبي ﷺ منه، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ فمرَّ بزرعٍ من المسلمين، وحُمُر، فأحرق الزرع، وعَقَر الحُمُرَ، وارتد عن الإسلام، وهذه الآية عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات، ونزولها في الأخنس لا يمنع من العموم[2].

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أدبر وانصرف عنك ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أسرع جاهداً ﴿لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف بالظلم، حتى يخرِّب الزرع والبهائم، والنسلُ: كل ذات روح، والمراد به نتاج الحيوان ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ لا يرتضيه ويكره ويبغض كل مفسد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ١٠/ ٣٩٥ ومسلم في البر والصلة رقم ٢٥٢٦.
(٢) نزلت في الأخنس، كان منافقاً كذاباً، يخدع الناس بحلاوة لسانه، وحسن بيانه، وهي عامة في كل منافق، كما قال القائل:

يُعطيك من طَرَف اللِّسانِ حَلاَوةً ... ويَروغ فيك كما يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم والتكبر عن قبول الحق ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أي كافيه جهنم، جزاءً وعذاباً ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المهادُ: الفراشُ أي بئس الفراش نار الجحيم، والتعبير به للتهكم، وفي الآية ذم لمن يغضب إذا قيل له: اتق الله، روي عن ابن مسعود أنه قال: إن من أكبر الذنب، أن يقول الرجل لأخيه: اتّق الله، فيقول: عليكَ بِنفسك.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ يبيعها ويبذلها في الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى يقتل في سبيل الله، فصار كالبائع، والله تعالى كالمشتري، والثمن ثواب الله ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ طلباً لرضاه، وهذا كمال التقوى ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء، وكلَّفهم بالجهاد، فعرَّضهم لثواب الشهداء، ومن رأفته أن النفس والمال له، ثم يشتري ملكه بملكه فضلاً منه[1].

---

(١) نزلت هذه الآية في قصة صُهَيْب الرومي رضي الله عنه، فإنه لمّا هاجر إلى المدينة المنورة، لحقه رجال من قريش يريدون منعه، فنزل عن راحلته، ونَثَر ما في كنانته من السهام، وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش تعلمون أني من أرماكم رجلاً ـ أي لا أخطىء الرمي ـ والله لا تصلون إليَّ، حتى أرمي بما عندي من السهام، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي حتى ينكسر، ثم افعلوا بي ما شئتم!؟ قالوا: جئتنا صعلوكاً ـ أي فقيراً ـ لا تملكُ شيئاً من المال، وأنت الآن ذو مالٍ وفير!! قال: أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلَّهم على ماله بمكة فذهبوا فأخذوه، ثم انطلق مهاجراً في سبيل الله، فلما وصل المدينة كان الوحي قد سبقه بالخبر، فدخل على رسول الله ﷺ فقال له الرسول: ربح البيع يا صهيب، ربح البيع، فنزلت الآية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ السِلم بالكسر الإسلام، والاستسلام، والطَّاعة، وكافة بمعنى جميعاً، والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملةً، ظاهراً وباطناً، ورُوي عن ابن عباس أنها نزلت في أهل الكتاب، لمَّا أسلموا أقاموا على تعظيم شرائع موسى فعظموا السبت، وكرهوا لحوم الإبل وألبانها، وقالوا: إن ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام، وواجب في التوراة، فأنزل الله هذه الآية، وأمرهم أن يدخلوا في شرائع الإسلام، ولا يتمسكوا بالتوراة المنسوخة ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ بمخالفة ما أُمرتم به وبوساوسه فيما زيَّن لكم ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ ظاهر العداوة، فإن قلتَ: إنا لا نرى هذه العداوة! قلت إن الله تعالى بيَّن عداوته لنا، وأنه أغشُّ عباد الله لعبيد الله، وأنه كيف خدع آدم حتى أكل من الشجرة.

﴿ فَإِن زَلَلۡتُم ﴾ أي انحرفتم عن الدخول في الإسلام أي ملتم وضللتم، وأصل الزلة: السقوط ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ الآيات والحجج، الشاهدة على أنه الحق، الموجبة للدخول في الإسلام ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره، لا يعجزه الانتقام منكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين، ولا ينتقم إلا بالحق.

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي، أي ما ينتظر هؤلاء المتبعون خطوات الشيطان ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بالمعنى اللائق به، منزَّهاً

عن مشابهة المحدثات، وإيراد الانتظار للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة، كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظُلَّة كقلل جمع قُلَّة، وهي ما أظلك[1] ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ أي السحاب الأبيض، وإنما أتاهم العذاب فيه لما أنه مظنة الرحمة، فإذا أتى منه العذاب كان أفظع وأوجع ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي وتأتيهم الملائكة الذين وكّلوا بتعذيبهم ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي وتمَّ أمر إهلاكهم وفرغ منه، وضع الماضي موضع المستقبل لتيقنِ وقوعه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى الله تصير أمور العباد، في الدنيا والآخرة، فيجازيهم عليها بالثواب أو بالعقاب، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ أو لكل أحد من أهل الخطاب، والمراد بالسؤال تبكيتهم بذلك، وتقريرٌ لمجيء البينات، لا أن يجيبوا فيعلم من جوابهم، كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد، يقول لمن حضر: سله كم أنعمتُ عليه؟ وليس المراد بهذا السؤال العلم بالآيات، لأنه كان ﷺ قد علمها بإعلام الله تعالى: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ معجزة ظاهرة شاهدة على الحق، دالة على صدق رسول الله ﷺ وأهل الكتاب أعرف بالمعجزات، وكيفية دلالتها على الصدق، ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي آيات الله، فإنها سبب الهدى، الذي هو أجلُّ النعم، وتبديلها بالتحريف،

---

(١) الظُلَلُ جمع ظُلَّة وهي ما أظلَّك من فوقك كالسحاب والغمام، والتنكير فيها للتهويل فإنها في غاية المهابة والهول، لما لها من الكثافة التي تغمُّ النفس.

والتأويل الزائغ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ من بعد ما وصلت إليه، وتمكّن من معرفتها، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلمُونَ﴾(١) ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي حُسّنت في أعينهم، وأشربت محبتها في قلوبهم، حتى تهالكوا عليها، وأعرضوا عن غيرها، والمزيِّنُ على الحقيقة هو الله تعالى، أو الشيطان بالأشياء الشهية، والوسوسة الخفية. ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلالٍ، وعمّار، وصهيب، أي يسترذلونهُمْ، ويستهزئون بهم، على رفضهم الدنيا، وإقبالهم على الآخرة، والآيةُ نزلت في أبي جهل وأضرابه، وهو مروي عن ابن عباس، وقيل: في رؤساء اليهود ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ هم الذين آمنوا، وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيذان بأنهم أعرضوا عن الدنيا زهداً فيها، لكونها مخلة بتوجههم إلى جناب القدس، ﴿فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ لأنهم في أعلى العلّيين وأولئك في أسفل السافلين، ولأنهم في كرامة، وأولئك في مذلة ومهانة ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ في الدارين ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ بغير تقدير، فيوسع في الدنيا استدراجاً تارة، وابتلاءً أخرى، أو يرزق أولياءه المؤمنين في الآخرة، رزقاً واسعاً رَغَداً، لا زوال له ولا انقطاع.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي كان الناس على الفطرة وعلى

(١) سورة البقرة، آية: ٧٥.

الإيمان، فاختلفوا وتنازعوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي فاختلفوا فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يريد به الجنس، ولا يريد به أنزل مع كل واحدٍ كتاباً يخصه، فإن أكثرهم لم يكن معهم كتاب، فالمعنى أنزل جنس الكتاب مقدار مصاحبته للنبيين حيث كان كل واحد منهم يأخذ الأحكام إما من كتاب يخصه أو من كتاب من قبله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبساً بالحق شاهداً به ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ علة للإنزال المذكور، أي ليحكم الله بما أنزله في كتابه بين عباده ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التَبَسَ عليهم ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الكتاب المنزل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الخلاف، أي عكسوا الأمر، فجعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف، سبباً لاستحكامه، والمراد من الذين أوتوه «اليهود والنصارى» واختلافهم هو تكفير بعضهم بعضاً ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ أي الدلالات الواضحة على صدق الكتاب ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم، لحرصهم على الدنيا والرياسة، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالكتاب ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي للحق الذي اختلف فيه ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه، وفي إبهامه أولاً وتفسيره ثانياً ما لا يخفى من التفخيم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره وبإرادته ولطفه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو طريق الحق، الذي لا يضلُّ سالكه، ويصل به إلى طريق السعادة والنجاة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ نزلت في غزوة الخندق، حين أصاب

المسلمين ما أصابهم، من الشدة والخوف، والبرد وسوء العيش، وأنواع الأذى، حتى بلغت القلوبُ الحناجر، والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي والحال لم يأتكم مثلهم بعد، ولم تبتلوا بما ابتلوا به، من الأحوال الهائلة التي هي مَثَلٌ في الفظاعة والشدة، وهو متوقع ومنتظر ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ أي أصابتهم الشدة، من الخوف والفاقة ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي الآلام والأمراضُ ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بما دهمهم من الأهوال والأفزاع[1] ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي انتهى أمرهم من الشدة، إلى حيث اضطرهم إلى أن يقول الرسول ـ وهو أعلم الناس بشؤون الله تعالى ـ والمؤمنون المقتدون بآثاره ﴿مَتَىٰ﴾ أي متى يأتي ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ طلباً وتمنياً له، واستطالة لمدة الشدة، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ على تقدير القول أي فقيل لهم: إن نصر الله قريب، فكونوا يا معشر المؤمنين كذلك، فإن نصر الله قريب، فلا تيأسوا من الفرج[2]، وفي الآية إشارة إلى أن الوصول إلى نصرة الله، والفوز بالكرامة، برفض الهوى واللذات، ومكابدة الشدائد والأهوال.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ شروع في بيان الأحكام، لأن من عادة القرآن الكريم أن يكون بيان التوحيد، والوعظ، والأحكام مختلطاً، ليكون كل واحد مقوياً للآخر، ومؤكداً له. روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في

---

(١) هذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة، فإذا كان الرسل ـ مع علو منزلتهم في الصبر والثبات ـ قد استبطأوا نزول النصر، كان ذلك دليلاً على أن الشدة قد بلغت منتهاها، وأن الأمر في غاية الهول.

(٢) روى البخاري عن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة: فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض حفرة، فيجعل فيها، ثم يجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه ـ أي ما يصرفه ـ والله ليتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

«عمرو بن الجموح» وكان شيخا كبيراً وله مال كثير، فقال يا رسول الله: ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ فنزلت الآية ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من أصناف أموالهم ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أيَّ خيرٍ كان، ففيه تجويز الإنفاق من جميع أنواع المال ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ للإيذان بأن الأهمَّ بيان المصارف، وليس في السؤال ما يقتضيه، لأن السؤال للتعلم، وحق المعلِّم فيه أن يكون كطبيب رفيق، يتحرى الشفاء، طَلَبه المريضُ أم لم يطلبه، ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عَليه، بيَّن الأمرين وهذا من الأسلوب الحكيم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي المحتاجين منهم ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ولم يتعرض للسائلين وفي الرقاب، إما اكتفاءً بما ذكر في مواضع أخر، وإمَّا بناءً على دخولهم تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ فإنه شامل لكل خير، وفي أي مصرفٍ كان، فمن أحب التقرب إلى الله تعالى بالإنفاق، فالأولى به أن ينفق في الوجوه المذكورة في الآية، فيقدِّم الأول والأول ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي فإنَّ الله يعلم ما تفعلونه من الخير، ويوفي ثوابه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي فرض عليكم جهاد الكفار، ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي والقتال شاق عليكم، مكروه طبعاً، وهذا الكره من حيث نفور

الطبع، لما فيه من مؤنة المال، ومشقة النفس، وخطر الروح، لا أنهم كرهوا أمر الله تعالى، لأن هذا ينافي الإيمان، وذلك ككراهة الشارب للدواء البشع ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما كلفوا به فإن الطبع يكرهه، وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم، ولفظة «عسى» توهم الشك مثل لعلَّ، وهو من الله يقين، والمعنى: إن الغزو فيه إحدى الحسنتين: إما الظفر والغنيمة، وإمَّا الشهادة والجنة، وربما كان الشيءُ الشاق سبباً للمنافع الجليلة، كشرب الدواء المر ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما نُهُوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه، وهو يُفِضي بها إلى الردى، ومن ذلك ترك الجهاد مع الأعداء، فإن فيه الذل، وضعف الأمر، وسبي الذراري، ونهب الأموال، وخروج الوطن من اليد، وإنما ذكر «عسى» الدال على عدم القطع، لأنه لمَّا كانت النفس قابلة لعكس ما تهوى، لم يقطع بأنها تكره ما هو خير لها وتحب ما هو شر لها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم وما هو شر لكم، وحُذِفَ المفعولُ للإيجاز ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فبادروا إلى ما يأمركم، به، لأنه تعالى لا يأمركم إلا بما علم أن فيه خيراً لكم، وانتهوا عما نهاكم عنه، لأنه تعالى لا ينهاكم إلاَّ عما هو شرٌّ لكم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش في سرية في جمادى الآخرة، ليترصدوا عيراً لقريش فيهم «عمرو الحضرمي» وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين، واستاقوا العير وكان ذلك غِرَّة رجب، وهم يظنونه من جمادى الآخرة، فقالت قريش: قد استحلَّ محمد الشهرَ الحرام، وعيّر بذلك أهلُ مكة من كان بها من المسلمين، وعنَّف المسلمون عبد الله وأصحابه فيما صنعوا، فعظم ذلك على أصحاب السريَّة، وقالوا يا رسول الله: لا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام، أهو حلال

أم حرام؟ ﴿قُلْ﴾ في جوابهم ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي إثم كبير، وفيه تقريرٌ لحرمة القتال في الشهر الحرام، والأكثرون أن هذا الحكم منسوخ، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ﴾ فإن المراد من الأشهر الحرم أشهر معينة، أبيح للمشركين السياحة فيها ﴿وَصَدٌّ﴾ صرفٌ ومنع ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام وما يوصل العبد إلى الله تعالى من الطاعات ﴿وَكُفْرٌ بِهِۦ﴾ أي بالله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي وصدٌّ عن المسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ وهو النبي ﷺ والمؤمنون ﴿مِنْهُ﴾ أي من المسجد الحرام ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مما فعلته السرية خطأً وبناءً على الظن، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ أي ما فعلوه من الإخراج، والصدّ عن الإسلام، وما يعذبون به المسلمين ليكفروا ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي من قتل الحضرمي ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ بيان لاستحكام عداوتهم، وإصرارهم على الفتنة في الدين ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ الحقّ إلى دينهم الباطل، إخبار عن دوام عدواة الكفار لهم، وأنهم لا ينفكون عنها تحذيراً للمؤمنين عنهم ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم ذلك ، وإشارة إلى تصلّب المؤمنين في الدين، كأنه قيل: أنّى لهم ذلك؟! ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الحق، تحذير من الارتداد أي ومن يفعل ذلك بإضلالهم، أو الخوف من عداوتهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام، وفيه ترغيب إلى الرجوع إلى الإسلام ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، باعتبار اتصافه بالارتداد، والموت عليه ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي أعمالهم الحسنة التي كانوا عملوها في حالة الإسلام ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بحيث لم يبق لها حكم من الأحكام الدنيوية والأخروية، لبطلان ما تخيّلوه من الفوائد، يقال: أحبط الله عمله أي أبطله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كسائر الكفرة لا يخرجون من النار أبداً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ نزلت في أصحاب السرية، لمَّا ظُنَّ بهم أنهم إنْ سَلِموا من الإثم، فليس لهم أجر ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ كرَّر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، فكأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء، إشعاراً بأن العمل غير موجب، ولا قاطع لدخول الجنة، سيما والعبرة بالخواتيم، والهجرة هي الخروجُ من أرض إلى أرض، والمجاهدة أصلها من الجهد وهو المشقة لنصرة الدين ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لما فعلوه خطأ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بإجزال الأجر والثواب لهم.

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾.

روي أن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل مع نفر من الأنصار، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: أفتِنَا يا رسول الله في الخمر، والميسر؟ فإنهما مذهبةٌ للعقل، ومسلبةٌ للمال؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ الخمر مصدر خَمَره أي سَتَره، سمي به لتغطيتها العقل، والتمييز والخمر النيء من ماء العنب، إذا غلى واشتد وقذف بالزبد، وهو حقيقةٌ في كل مسكر، لما في الصحيحين «كلُّ مسكر خمرٌ»(١) ومن أنكر حرمة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة ١٠/ ٣٥ ومسلم رقم ٢٠٠٣ في الأشربة أيضاً ولفظه «كل مسكرٍ خمرٌ، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها، لم يتب منها، لم يشربها في الآخرة» وانظر الروايات في جامع الأصول ٥/ ٩٨.

الخمر، فقد كفر لجحوده الكتاب، إذْ سمَّاه الله، رجساً، والرجسُ محرم العين فيحرم ولو قطرة والحق الذي لا ينبغي العدول عنه، أن الشراب المتخذ من العنب وغيره كيفما كان، وبأي اسم سُمّي، متى كان بحيث يسكر حرامٌ، وقليله ككثيره، ونجاسته غليظة، ويحد شاربه لما ورد في الصحيح «كل شراب أسكر فهو حرام»[1] والأحاديث فيه متضافرة، والميسر من اليُسْر سمّي به، لأنه أخذ المال بيُسر، من غير كدٍّ ولا تعب وقد كان لأهل الجاهلية عشرة أزلام أي أقداح: الفذُّ، والتوأمُ، والرقيب، والحِلْس، والنافس، والمسبل، والمعلى، والمنيح، والسفيح، والوغد، فلكل منها نصيب من جَزُور ينحرونها، ويجزئونها ثمانية وعشرين جزءاً؛ فللفذِّ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحِلْس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة، ولا سهم للمنيح، والسفيح، والوغد، ويجعلونها في خريطة، ويضعونها على عدل عندهم، ثم يجلجلها ـ أي يخلطها ـ ويدخل يده فيخرج باسم رجل زلماً ـ قدحاً ـ فمن خرج له نصيب من ذوات الأنصباء، أخذ نصيبه، ومن خرج له من تلك الثلاثة التي لا نصيب لها، غرم ثمن الجزور، مع حرمانهم، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بها، وفي حكمه أنواع القمار، من النرد، والشطرنج وغيرهما[2] ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لأن الخمر مسلبة للعقول، التي هي قطب الدين والدنيا، مع كون كل منهما متلفة للأموال، ومسببة للتخاصم والتشاتم، وقول الزور، والمقاتلة،

---

(١) أخرجه البخاري في الأشربة ١٠/٤١ ولفظه: عن عائشة قالت: سُئل رسول الله ﷺ عن ـ البِتْع ـ وهو نبيذُ العسل، وكان أهل اليمن يشربونه ـ فقال رسول الله ﷺ «كلُّ شرابٍ أسكَرَ فهو حرامٌ».

(٢) ومن القمار المحرَّم، ما انتشر في هذا الزمان باسم «أوراق اليانصيب» ولو كان القصد منها جمع المال للمؤسسات الخيرية، كالمستشفيات، والمدارس، وصندوق الإعانات الخيرية، فالشأن فيها جميعاً شأن الجزور في الجاهلية فهو حرام، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

والانتحار، وترك المأمور، وفعل المحظور، وفي تقديم إثمه ووصفه بالكبير، وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الأول ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهي كسب الطرب واللذة، وتشجيع الجبان، وتسخية البخيل، وأخذ المال باليسر في الميسر[1]، ونصَّ على غلبة الأول بقوله ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي المفاسد التي تنشأ منهما، أعظم من المنافع المتوقعة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي يسألونك ماذا ينفقون من أموالهم، وماذا يتركون؟ ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي أنفقوا ما تيسَّر من أموالكم، وما فضل عن حاجتكم، وكان التصدق في أول الإسلام بالفضل فرضاً، فإذا كان الرجل صاحب زرع، أمسك قوت سنة، وتصدق بالفضل، فنسخت بآية الزكاة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنَىً، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[2] وقيل: هو في صدقة التطوع، إذ لو كان المراد بهذا الإنفاق الواجب لتبين قدره ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على الأحكام الشرعية، وتبيين الآيات تنزيلها مبينة الفحوى، واضحة المدلول، لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لكي تتفكروا فيها، وتقفوا على مقاصدها، وتستنبطوا الأحكام، وتفهموا المصالح المنوطة بها.

---

(١) المنافع في الخمر مادية، وليست منافع صحيّة أو روحية، فقد كانوا يبيعون الخمر بأثمانٍ غالية، فيربحون منها مرابح خيالية، وليس في الخمر أي منافع بدنية، اللهم إلاّ تلك التصورات والأوهام، التي عبَّر عنها شعراء الجاهلية:

وَنَشْربُها فتتركنا مُلُوكاً وأُسْداً لا يُنَهْنِهُنا اللّقاءُ

أي تجعلهم الخمرة كأنهم ملوكٌ وشجعان لا يغلبهم أحد، والجنون فنون.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الزكاة ٣/ ٢٩٤ ومسلم رقم ١٠٣٤.

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ في أمور الدارين، فتأخذوا بالأصلح والأنفع منهما، وتجتنبوا ما يضرُّكم ولا ينفعكم، أو لتتفكروا في الدنيا وزوالها، والآخرة وبقائها، وهو المروي عن ابن عباس والحسن ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ روي أنه لما نزلت ﴿إن الذين يأكلونَ أموالَ اليَتَامى ظُلماً﴾ الآية، تحرَّج المسلمون تحرجاً شديداً، حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم، وتركوا مخالطتهم، فاشتد ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي مداخلتهم لإصلاحهم وإصلاح أموالهم، خير من مجانبتهم[1] ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم على وجهٍ ينفعهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين، الذي هو أقوى من العلاقة النسبية، ومن حقوق الأخوة، وموجبها، المخالطةُ بالإصلاح والنفع أي أن تخالطوهم في الطعام والمسكن، وفي الآية دليل خلط مال الولي بمال اليتيم، والتصرف فيه بالبيع والشراء، إذا وافق الإصلاح، وعلى أنه لا بأس بتأديب اليتيم، وفيها دلالة على جواز الاجتهاد، لأن الإصلاح يعلم بالاجتهاد ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ وعيدٌ ووعد، لمن خالطهم لإفسادٍ وإصلاح، أي يعلم أمره فيجازيه عليه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي لو شاء الله لأوقعكم في الحرج والضيق والمشقة، ولكنه يسَّر عليكم الدين فلم يكلفكم ما يشق عليكم، والعَنَتُ: شدة المشقة، والضرر، وأصله حمل الإنسان على مشقةٍ لا تُطاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ «عزيزٌ» أي غالبٌ على أمره، حكيم أي لا يفعل إلا ما تقتضيه المصلحة، ولهذا لم يكلفكم بما لا تطيقون.

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا رقم ٢٨٧١ والنسائي ٦/٢٥٦ ولفظه عن ابن عباس قال: «لمَّا نزل ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ ونزل ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فإذا فَضَل من طعام اليتيم وشرابه شيءٌ، حُبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿قل إصلاح لهم خيرٌ..﴾ الآية فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم».

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي لا تتزوجوا يا معشر المسلمين بالمشركات الوثنيات، اللواتي ليس لهن دين سماوي، حتى يؤمنَّ بالله واليوم الآخر، ولا يدخل بالمشركات هنا اليهوديات والنصرانيات، لأنَّ لهن حكماً خاصاً لقوله تعالى: ﴿وَطَعامُ الذينَ أُوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكُمْ وطعامُكُمْ حِلٌّ لهم، والمُحْصَناتُ من المؤمناتِ والمحصَنَاتُ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلكُمْ﴾ أي العفيفات من الكتابيات[1] ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي ولأَمةٌ مملوكة مؤمنة، خير وأفضل من حرة مشركة كافرة، لا تؤمن بالله ورسوله، ولو أعجبتكم المشركة بحسنها وجمالها ومالها، فالإيمان أساسٌ في الزواج ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من الإنكاح، والمراد بهم الكفار على الإطلاق، أي لا تزوجوا المشركين بالمؤمنات، سواء كنَّ حرائر أو إماءً ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ ويتركوا ما هم فيه من الكفر، واستدل بها على اعتبار الولي في النكاح مطلقاً، وانعقد الإجماع على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج بالكافر ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مع ما به من ذلّ المملوكية ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ مع ما له من الحرية ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ بما فيه من دواعي الرغبة تعليل للنهي عن مواصلتهم وترغيب في مواصلة المؤمنين

---

(١) هذا الحكم بشرط أن يكون للزوج المسلم، السلطة الكاملة على أولاده، وأن يكونوا تبعاً له عند الفراق، كما هو في النظام الإسلامي، أمَّا إذا خاف أن يتبعوا أمهم كما هو الحال في النظام الغربي والأمريكي، أو كان للأم الكتابية السلطة على تربية الأولاد، فيحرم الزواج بها خشية ضياع الأولاد، وتعريضهم للتنصُّر على يد أُمِّهم النصرانية، فتدبَّر الأحكام والله يرعاك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المذكورون من المشركات والمشركين ﴿يَدْعُونَ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها من الكفر والفسوق، فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم والمقصود أن المؤمن يجب أن يكون حذرا عما يضره في الآخرة، ويجتنب ما يُفضي إلى العذاب، مع أن النفس والشيطان يعاونان على ما يؤدي إلى النار ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي إلى الاعتقاد الحق، والعمل الصالح، الموصلَيْن إليهما، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتوفيق الله تعالى، وتيسيره ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ المشتملة على الحكم الرائعة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها، فيفوزوا بما دُعوا إليه من الجنة والغفران.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ روي عن أنس أنه قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت ـ أي لم يساكنوها في بيت واحد ولم يخالطوها ـ فسأل أصحاب النبيّ ﷺ النبي عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»[1] أي اصنعوا كل شيء من الملاعبة والمضاجعة إلا

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في كتاب الحيض ٢٤٦/١ وتتمته: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يريد هذا الرجل ـ يعنون محمداً ﷺ ـ أن يدعَ من أمرنا شيئاً إلاّ خالفنا فيه، فجاء أُسَيْد بن حُضير، وعَبَّاد بن بشر فقالا «يا رسول الله: إن اليهود تقول: كذا، وكذا، أفلا نجامعهنَّ؟ فتغيَّر وجه رسول =

الجماع، والمحيض مصدر بمعنى الحيض، كالمعيش بمعنى العيش، وأصله: السيلان، يُقال: حاض السيل وفاض ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي إنه شيءٌ مستقذر، مؤذٍ لمن يقربه، لأنه دم منتن، خارج من مجرى البول ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي اجتنبوا مجامعتهن في حالة الحيض ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي ولا تجامعوهنَّ حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن، وهو تأكيد لحكم الاعتزال، وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن - أي جماعهن - لا عدم القرب منهن، أو عدم مؤاكلتهنَّ ومجالستهن، كما كان يفعل اليهود ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا انقطع عنهن دم الحيض، وتطهَّرن بالماء، فأتوهنَّ في المكان الذي أحلَّه الله لكم، وهو القُبُل - الفرج - مكانُ الذرية والنسل، لا الدبر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي التائبين من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتنزهين عن الفواحش والأقذار كمجامعة الحائض، والإتيان في غير المأتيِّ، وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهير.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ مواضع حرث لكم، شُبِّهن بها تشبيهاً، لما يُلقى في أرحامهنَّ من النُّطَف بالبذور، والحرثُ: إلقاء البذر في الأرض ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي فأتوهن في مكان الزرع، وهو كالبيان لقوله ﴿فَأْتُوهُنَّ من حيثُ أمرَكُمُ اللهُ﴾ ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من أيِّ جهةٍ شئتم، باركةً، أو مستلقيةً، أو مضطجعة، بعد أن يكون المأتيُّ واحداً، وهو موضع الحرث، لا مكان الفرث، قال مجاهد: كيف شئتم، وقال الضحاك: متى شئتم، عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها في قُبُلها، جاء الولدُ أحول، فنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[1] وعن أبي

= الله ﷺ حتى ظنَنَّا أن قد وجد عليهما - أي غضب - فخرجا فاستقبلهما هديةٌ من لَبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يَجِدْ عليهما» رواه مسلم.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/١٤٣ ومسلم في النكاح رقم ١٤٣٥.

هريرة قال: قال ﷺ: «ملعون من أتى امرأةً في دُبُرها»(١) وأجمع العلماء على تحريم إتيان النساء في أدبارهن، وقالوا لأن الله نص على ذكر الحرث ـ الزرع ـ فلا يحل العدول عنه إلى غيره ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ فعل الخير، والعمل الصالح، ومنه التسمية وطلب الولد المؤمن، عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهمَّ جنّبنا الشيطان، وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إنْ يُقدّرْ بينهما ولد في ذلك، لم يضرَّه الشيطانُ أبداً»(٢) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ أي أيقنوا أن مرجعكم إليه بالبعث، فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم، وفي هذا تذكير وتحذير.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ عُرْضةً: أي حاجزاً ومانعاً، والمعنى: لا تجعلوا الحلف بالله، سبباً مانعاً عن فعل الخير ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي من أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، فتتعلّلوا باليمين بأن يقول أحدكم: قد حلفتُ بالله ألاّ أفعله، وأريد أن أبرَّ بيميني، بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم، فيكون الله كأنه السبب المانع عن فعل البرّ والخير والإصلاح بين الناس. قيل: إنها نزلت في الصدّيق رضي الله عنه لمَّا حلف ألاّ ينفق على مسطح، لخوضه في حديث الإفك، وقيل: نزلت في ابن رواحة حين حلف ألا يكلّم خَتَنَه،

(١) أخرجه أبو داود في النكاح رقم ٢١٦٢ ورواه الترمذي رقم ١١٧٦ بلفظ قال ﷺ: «لا ينظر الله عزَّ وجلّ إلى رجلٍ أتى رجلاً أو امرأة في دبرها».
(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٢٢٨/٩ فتح الباري.

وروي عن عائشة أن المعنى: لا تكثروا الحلف بالله، في كل حق وباطل، فتبتذلوا اسمه الأعظم في كل كثير وحقير، إذا أردتم لأنفسكم البِرَّ.. فيكون الغرض النهي عن كثرة الأيمان ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يسمع أيمانكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يعلم نيّاتكم، فحافظوا على ما كلفتموه، ولا تكثروا الحلف بالله، فإنه ضربٌ من الجرأة على الله تعالى.

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار، والمراد به في الأيمان ما لا عقد معه ولا قصد، وقد اختلف فيه، فقال أبو حنيفة: هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه، ثم يظهر خلافه، فإنه لا قصد فيه إلى الكذب، وعند الشافعي هو قول العرب: لا والله، وبلىٰ والله، مما يؤكِّدون به كلامهم، عن عائشة رضي الله عنها هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله[1]. ومذهب أبي حنيفة هو قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والنخعي، والزهري، وقتادة ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أي ولكن يعاقبكم، بما اقترفته قلوبكم، من إثم القصد إلى الكذب باليمين، وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله، وهو اليمين الغموس ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو ﴿ حَلِيمٌ ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة، تربصاً للتوبة، والحليم المتأني الذي لا يعجّل بالعقوبة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٧/٢٠٧ موقوفاً على عائشة، ورواه أبو داود مرفوعاً، وإذا ثبت هذا مرفوعاً فهو القول الفصل، لأنه لا عطر بعد عروس، ويكون معنى الآية: لا يؤاخذكم الله بما جرى على لسانكم، من غير قصد الحلف، كقول أحدكم: بلى والله، ولا والله، لا يقصد به الحلف، وإنما يقصد تأكيد الكلام.

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ الإيلاءُ: القَسَمُ والحلف، وفي عرف الشرع الإيلاءُ: اليمينُ على ترك الوطء، روي أن الإيلاء في الجاهلية، كان طلاقاً، وإذا كان الرجل لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوج بها غيره فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها بذلك لا أيّماً، ولا ذات بعل، والغرض منه مضارة المرأة، فأزال الله ذلك ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ أي لهم أن ينتظروا أربعة أشهر، من غير مطالبة بفيءٍ أو طلاق، والإيلاء من المرأة أن يقول: والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعدا، أو لا أقربك على الإطلاق، ولا يكون فيما دون ذلك، وحكمه أنه إن رجع إليها في المدة بالوطء صح الفيء وحنث، ولزمته كفارة اليمين، وإذا مضت الأربعة بانت بتطليقةٍ بائنة ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ أي رجعوا عن اليمين بالحنث في الأشهر ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر للمولي ما قصد بالإيلاء من الإضرار بالمرأة.

﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ أي صمموا قصد الطلاق وأجمعوا عليه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ بما جرى منهم من الطلاق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم، وفيه من الوعيد على الإصرار وترك الفيئة.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾ يريد بها المدخول بهن، من ذوات الأقراء ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ خبر في معنى الأمر، مفيد للتأكيد، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فيخبرُ به موجوداً متحقّقاً ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ تهييجٌ وبعثٌ لهن على

التربص، لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأُمِرْنَ أن يقمعْن أنفسهنّ، ويجبرنها على التربص ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾ أي يتربصن مدة ثلاثة قروء - أي حِيَضٍ - لقوله ﷺ «دعي الصلاة أيام أقرائك»[1] والقرء: اسمٌ يقع على الحيض، والطهر، وبحسب اختلاف أهل اللغة في الأقراء، اختلف الفقهاء على قولين: **أحدهما**: هو الحيض، رُوي ذلك عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأحمد، **القول الثاني**: أنه الأطهار يروى ذلك عن زيد بن ثابت، وابن عمر، وعائشة وهو مذهب مالك والشافعي، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد والحيض، استعجالاً في العدة، وإبطالاً لحق الرجعة ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ﴾ أي فلا يجترئن على ذلك، فإن قضية الإيمان منافية له قطعاً، وهذا وعيدٌ شديد، لتأكيد تحريم الكتمان ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ جمع بعل كعم وعمومة، أي أزواجهن الذين طلقوهن طلاقاً رجعياً، كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة، والضمير لبعض أفراد المطلقات ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ إلى النكاح، والرجعة إليهن ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ في زمان التربص، والحكمةُ في إثبات الرجعة، أنَّ الإنسان لا يدري هل تشق عليه مفارقته أولا، فجعل الله ذلك للتجربة، وهذا التدريج يدل على كمال رحمته تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ أي الأزواج ﴿إِصْلَٰحًاۚ﴾ لما بينهم وبينهنَّ، وإحسانا إليهن، ولم يريدوا مضارتهن بتطويل العدة، وليس المراد به شرطية الإصلاح بصحة الرجعة، بل هو الحث عليه، والزجر عن قصد الإضرار ﴿وَلَهُنَّ﴾ عليهم من الحقوق ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى﴾ لهم ﴿عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ من الحقوق، التي يجب مراعاتها، ويتحتم المحافظة عليها، فقد قال ﷺ في خطبة حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، ولكم عليهنَّ أن لا يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهنَّ ضرباً غير

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، ولفظه عند الترمذي ١/ ٢٢٠ قال ﷺ في المستحاضة: «تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض فيها. .» الحديث.

مبرِّح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف»[1] الحديث، وقوله «لا يوطئن فرشكم» معناه: لا يأذنَّ لأحد أن يتحدث إليهن، وليس المراد بوطء الفرش الزنا، ولو كان المراد ذلك لوجب الحد لا الضرب ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي زيادة في الحق، لأن حقوقهم في أنفسهن، وحقوقهن في المهر والكفاف، وترك الضرار، ونحوها، أو مزية في الفضل، لما أنهم قوّامون عليهن، يخصّون بفضيلة الرعاية والإنفاق، والدرجةُ يعبّر بها عن المنزلة الرفيعة، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام، ممن خالف الأحكام ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وأحكامه.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ هو بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم، والمراد به الرجعي، أي عدد الطلاق الذي يستحق الزوج فيه الرجعة: مرتان أي اثنان، وإيثار لفظ، مرتان، للإيذان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة، لا دفعة واحدة، والجمع بين تطليقتين، وثلاثة، بدعةٌ في طهر واحد، لأنه تعالى أمرنا بالتفريق، ومعنى الآية: إن عدد الطلاق الذي

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع ٢/ ٨٨٦ وهي خطبته ﷺ المشهورة التي حدَّد فيها الحقوق والواجبات العامة والخاصة وهو واقف في عرفات صلوات الله وسلامه عليه، وهي من جوامع الكَلِم.

لكم فيه رجعة إلى أزواجكم إذا كن مدخولاً بهن تطليقتان، وأنه لا رجعة لكم بعد التطليقتين ﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾ أي فالحكم بعدها إمساك لهنَّ بالرجعة ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي بحسن عشرة ولطف معاملة، والمعروفُ: هو كل ما عرف في الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن المعاشرة ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ هو أن يؤدي إليها جميع حقوقها المالية، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء، روي أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ فأين الثالثة؟ فقال ﷺ: «التسريح بإحسان»(١) ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ من المهور فإنَّ ذلك منافٍ للإحسان ﴿شَيۡـًٔا﴾ أي نذراً يسيراً، فضلاً عن الكثير، ثم استثنى الخلع فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ بترك إقامة أحكامه، من موجب الزوجية ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ أيها الحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بمشاهدة بعض الأمارات ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ لا على الزوج في أخذ ما افتدت، ولا عليها في إعطائه، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إنَّ ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، والله لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، إني رفعتُ جانب الخباء، فرأيته أقبل في جماعة من الرجال، فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهاً، وقال زوجها: يا رسول الله، إني أعطيتها أفضل مالي، حديقةً لي، فإن ردَّتْ عَليّ حديقتي طلقتها!! قال ﷺ: ما تقولين؟ قالت: نعم يا رسول الله، وإن شاء زدته، قال: ففرق بينهما»(٢) وهو أول خلع في الإسلام

(١) أخرجه أبو داود من حديث أبي رزين الأسدي.

(٢) الحديث بهذا اللفظ أخرجه ابن جرير الطبري، ورواه البخاري في كتاب الطلاق ٩/ ٤٦٤ بأوجز من هذا بدون قصة رفع الخباء، ولفظه بعد جملة أكره الكفر في الإسلام، فقال لها رسول ﷺ: أتردّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فقال له الرسول ﷺ: اقبل الحديقة، وطلّقها تطليقة.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ بالمخالفة ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه، وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ أي بعد الطلقتين السابقتين ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي من بعد هذا الطلاق، أي إن طلّقها بعد اثنتين، فلا تحل له من بعد ذلك الطلاق ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ حتى تتزوج غيره، واتفق الأئمة على أنه لا بدَّ من الإصابة لما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءت امرأة رفاعة القُرَظي إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: إن رفاعة طلّقني فبتَّ طلاقي، وإني نكحتُ بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب، فقال لها الرسول ﷺ: تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت: نعم، قال: لا، حتى يذوق عُسَيْلتكِ، وتذوقي عُسَيلته»[1] والحكمة في هذا الحكم، الردعُ عن التسرع إلى الطلاق، والعود إلى المطلقة الثلاث، والرغبة فيها، والنكاح بشرط التحليل مكروه لما رُوي عن ابن مسعود أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ المحِلَّ، والمحلَّل له»[2] ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ الزوج الثاني ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ﴾ على الزوج الأول والمرأة ﴿ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد بعد المدة ﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما شرعه الله من حقوق الزوجية، ﴿ وَتِلْكَ ﴾ أي الأحكام المذكورة إلى هنا ﴿ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي أحكامه المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿ يُبَيِّنُهَا ﴾ بهذا البيان اللائق ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يفهمون ويعملون بمقتضى العلم، وتخصيصهم بالذكر للإشادة بهم، لأنهم المنتفعون بالمواعظ والتعاليم الإلهية.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطلاق ٩/ ٣٦١ ورواه الترمذي رقم ١١١٨.
(٢) الحديث أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح ٣/ ٤٢٨.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي آخر عدتهن، فإنَّ الأجل كما يُطلق على المدة يطلق على منتهاها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ أي فراجعوهن من غير إضرار، أو خلُّوا سبيلهن من غير إضرار، والإمساك مجازٌ عن المراجعة، والتسريح بمعنى الإطلاق، مجازُ عن الترك، وهذا كما ترى إعادة للحكم في بعض صوره، اعتناءً بشأنه، ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف، وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه. أي لا تراجعوهنَّ إرادة الإضرار بهن، وكانوا يضارونها لتفتدي المرأة منه بمالها ﴿لِّتَعْتَدُواْ﴾ متعلق بـ﴿ضرارا﴾ أي لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من الإمساك المؤدي إلى الظلم ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعريضها للعقاب والعذاب، وفوَّت على نفسه منافع الدين، من الثواب على حسن المعاشرة، ومنافع الدنيا من عدم رغبة النساء به، لاشتهاره بفعل القبيح ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة ﴿هُزُوًا﴾ أي مهزوءاً بها، أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: كان الرجل يطلِّق ثم يقول: لعبتُ، فنزلت. نهى تعالى عن الهزء، وأراد ما يستلزمه من الأمر بضدّه أي جدُّوا في الأخذ بها، وارعوها حقَّ رعايتها، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وهزلُهُنَّ جِدٌّ: النكاحُ، والطلاقُ،

والرَّجْعةُ»[1] ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية، وبعثة الرسول، بالشكر والقيام بحقوقها ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ القرآن، والسنّة، أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ بما أنزل عليكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في شأن المحافظة على أوامره، والقيام بحقوقه الواجبة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء مما تأتون وما تَذَرون فاحذروا من جزائه وعقابه، وهو وعدٌ ووعيد.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن، دَلَّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين، ففي الآية الأولى معناه المشارفة أي مقاربة انقضاء العدة، وفي الآية الثانية انتهاء العدة ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ العضْلُ: الحبسُ والتضييقُ، وفي الشرع المنع، يقال: عَضَل فلان ابنته إذا منعها من التزوج، والخطاب للأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً، أو للأولياء في عضلهنَّ لبناتهنَّ أن يرجعن إلى أزواجهن، أو الخطاب للناس كافة، والمعنى: إذا وجد فيكم طلاق، فلا يقع فيما بينكم عضل، ﴿أَن يَنكِحْنَ﴾ من أن ينكحن، وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ﴿أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ أي لا يمنعونهنَّ من الرجوع إلى أزواجهن ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بما لا يكون مستنكراً شرعاً، ومروءة، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفؤ، أو بما دون مهر المثل، ليس من باب العضل ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فصّل من الأحكام ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فيسارع إلى الامتثال بأوامره ونواهيه، خوفاً من عقابه، فالمواعظ إنما تنجع فيهم، أمَّا الذين لا يؤمنون بلقاء الله، فلا يخيفهم إنذار ولا تحذير ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي التمسك بأوامر الله، واجتناب نواهيه، أفضل لكم وأطهر، من الوقوع في الآثام، والتعرض لعذاب الرحمن ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله عزَّ وجلّ يعلم ما هو أصلح لكم من الشرائع والأحكام، وما فيه لكم من النفع والصلاح، وأنتم لا تعلمون ذلك، فدَعُوا رأيكم وهواكم، وامتثلوا أمر ربكم تفلحوا.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢١٩٤ والترمذي رقم ١١٨٤ في الطلاق، وصححه الحاكم.

﴿ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ الحديث هنا عن الأمهات المطلقات، بدليل السياق والسِّباق، والتعبير عنهن بالوالدات دون «المطلقات» لاستعطافهن نحو أولادهن، فلا ينبغي أن يضيع الطفل، نتيجة نزاع الوالدين، وافتراق الزوجة عن الزوج، فليس للطفل جناية في هذا الأمر، فالمرأة وإن طُلّقت هي والدة وأم، لا ينبغي أن تفرِّط في ولدها، وهو خبر بمعنى الأمر، أي الواجب على الأمهات، سواءً كنَّ مطلّقات أو غير مطلقات، أن يرضعن أولادهن ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ أي عامين تامين، والتأكيد بقوله ﴿كاملين﴾ لبيان أن التقدير تحقيقيٌّ لا تقريبي، فأكثر مدة للرضاع سنتان كاملتان ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ أي لمن شاء من الوالدين إتمام الرضاعة، ولا زيادة على هذه المدة، وفي الآية دلالة على جواز النقص، إذا استغنى الطفل بالطعام عن حليب أمه، ويجب على المطلَّقة إرضاعه، إذا لم يقبل الولد إلاَّ ثدي أمه، أو لم يجد الأب له ظئراً ـ أي مرضعةً ـ ترضعه، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار، فإن أرضعت المطلَّقة وليدها وجب لها أجرٌ على الرضاعة، كما سيأتي في قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾(١)

(١) سورة الطلاق، الآية: ٦.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى الوالد - الذي ينتسب إليه الأولاد[1] - الإنفاق على الأمهات المطلقات، وكسوتهن، بما هو مشروع ومتعارف، بدون إسرافٍ ولا تقتير، ليقمن بخدمة الأولاد خير قيام ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يُكلَّف العبد بما لا يطيقه ولا يستطيعه، ولهذا تكون النفقة بقدر الطاقة ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي لا ينبغي أن تقع المضارة بين الزوجين، فيضرَّ أحدهما الآخر، بسبب الولد، فترفض الأم مثلاً إرضاعه لتضر أباه بتربيته، وأن يضارَّها الأب فينتزع منها الولد - مع رغبتها في إرضاعه - ليغيظ أحدهما صاحبه، وإضافة الولد إليها تارة ﴿والدةٌ بولَدِها﴾ وإليه أخرى ﴿وَلاَ مولُودٌ لَهُ بولَدِهِ﴾ فيه استعطاف لهما عليه، وتنبيه لهما على أن هذا الطفل، جدير بأن يتفقا على استصلاحه، والإشفاق عليه، فلا ينبغي أن يكون ضحيةً لنزاعهما، الرجل أبوه، والمرأة أمه، فهو ابن كلٍّ منهما، ومن حقهما الإشفاق عليه ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ المراد بالوارث وارث الولد، وهو التفسير المأثور عن عمر، وابن عباس، ومجاهد، أي وعلى وارث الصبي كالجد، والأخ، والعم، الإنفاق على المرضع المطلَّقة، والقيام بحقوقها، مثل ما على والد الطفل من النفقة والسكنى، وقال الشافعي: المراد وارث الأب، وهو الصبيُّ أي ثمن المرضعة من ماله، ولا نزاع فيه، وإنما الكلام فيما إذا لم يكن للصبي مال ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي من الوالدين لا من أحدهما فقط، لاحتمال الإقدام على ما يضرُّ بالولد، بأن تملَّ المرأة من الإرضاع، أو يبخل الأب بإعطاء الأجرة ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ في شأن الولد من الفطام قبل الحولين، أو يشاوران أهل النظر، ليستيقنا أن الفطام قبل الحولين، لا يضرُّ بالولد، ومعنى الفِصال: الفطام ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في

---

(١) لم يقل تعالى: وعلى الوالد، وإنما قال: ﴿وعلى المولود له﴾ لينبّه إلى أن النسب للأب دون الأم فالأولاد جميعاً ينتسبون إلى أبيهم، وهذا الحكم عند الفقهاء يسمى «إشارة النصّ».

ذلك، واعتبر اتفاقهما، لما أن للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية لصلاح الطفل ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي أن تسترضعوا المراضع لأولادكم أي تطلبوا من يرضعهم، يقال: أرضعت المرأة الطفل، واسترضعتُها إيَّاه ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فلا إثم ولا حرج عليكم، أن تطلبوا مرضعة لأولادكم غير الأم، إذا عجزت عن إرضاعه أو استنكفت، وفيه دلالة على أن للأب أن يسترضع لولده، ويمنع الأم من الإرضاع، وهو مذهب الشافعي وعند أبي حنيفة أن الأم أحقُّ برضاع ولدها لقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ وليس للأب أن يسترضع غيرها، إذا رضيت أن ترضعه، والآية محمولة على إذا عجزت أو امتنعت عن الإرضاع، ثم قال تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي إذا دفعتم للمرضع ما اتفقتم عليه من الأجر، فإنها إذا لم تُكرم لا تهتم بالطفل، ولا تعتني بإرضاعه، والتسليم ندبٌ لا شرط للجواز، وقوله: ﴿بالمعروف﴾ أي بالوجه المتعارف بطيب نفس وسرور ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء، وسيجازيكم عليها، وهو حثٌّ وتهديد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي والذين يموتون وتُقبضُ أرواحهم بالموت، فإن التوفّي هو القبضُ، يقال: توفَّيتُ مالي من فلان أي أخذته، فمن مات استوفى عمره كافياً وافياً ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ أي ويتركون زوجاتهم من بعد وفاتهم ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي على هؤلاء الزوجات، أن ينتظرن ويمكثن في العدة، أربعة أشهر وعشرة أيام، حداداً على أزواجهن، ورعاية لحقوقهن، وهذا الحكم لغير الحامل، أما

الحامل فعدتها وضع الحمل، لقوله سبحانه: ﴿وَأُولاَتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والسرُّ في هذا لئلا تختلط الأنساب، وتضيع الحقوق، ولعل المقتضى لهذا أن الجنين في غالب الأحوال، يتحرك لأربعة أشهر، وزيد عليه العشر استظهاراً لجلية الأمر، ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الحكام، أو المسلمون جميعاً ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزوج، وسائر ما حُرّم على المعتدة، عن أم عطية قالت: «كنا نُنْهىٰ أن نُحدَّ على ميّتٍ فوق ثلاث، إلا على الزوج أربعة أشهر وعشراً، ولا نكتحل، ولا نتطيب، ولا نلبس ثوباً مصبوغاً»[1] ، الحديث وقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي الوجه الذي لا ينكره الشرع، وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرع، فعليهم أن يكفوهنَّ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، فلا تعملوا خلاف ما أُمرتم به، والخبيرُ هو العالم بكنه الشيء، الذي يعلم عواقب الأمور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ التعريضُ والتلويحُ إيهامُ المقصود، بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، وهو ضد التصريح، مثل أن تقول لها: إنك لجميلة أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام، الموهم أنه يريد نكاحها، ولا يصرح

(١) أخرجه البخاري ٩/ ٤٣٣ في الطلاق، ومسلم رقم ٩٣٨ باب وجوب الإحداد وأبو داود رقم ٢٣٠٢ في الطلاق أيضاً، وللحديث بقية.

بالنكاح، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي أضمرتم وسترتم في قلوبكم، فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهنَّ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي لا تواعدوهن بالنكاح في السر ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ هو أن تُعرِّضوا ولا تُصرّحوا ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي ولا تعزموا عقدة النكاح حتى تنتهي العدة، وفي النهي عن مقدمة الشيء، نهيٌ عن الشيء أبلغ، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ حتى ينتهي ما كتب من العدة غايته ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما نهيتهم عنه ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ أي احذروا عقابه وعذابه بالاحتراز منه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن عزم ولم يفعل، خشيةً من الله تعالى ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة على عصيانكم أوامره، وفيه دليل على حرمة تصريح خطبة المعتدة من الوفاة، والمعتدة من الطلاق كذلك من باب أولى.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعية عليكم من مهر، وهو الأظهر وقيل: من وزر، لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس، إذا كان الفراق أروح من الإمساك ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ما لم تجامعوهن، اتفقوا على أن المراد بالمسيس، في هذه الآية: الدخولُ، وإنما كنى به تأديباً للعباد ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي إلاّ أن تفرضوا لهنَّ فريضة، فالمعنى: أنه لا تبعية

على المطلّق بمطالبة المهر أصلاً، إلا إذا كانت ممسوسة، فلها المهر ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي ادفعوا لهن المتعة، والمتعةُ والمتاعُ: ما ينتفع به انتفاعاً غير باق، ولهذا قيل للدنيا: متاع، وظاهر الأمر الإيجاب، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي، والحكمةُ في إيجابها جبراً لإيحاش الطلاق وتقديرها مفوّضٌ إلى رأي الحاكم، ويؤيده قوله تعالى ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ الذي له سَعَة ﴿قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ الضيّق الحال ﴿قَدَرُهُۥ﴾ أي ما يليق بحال كل منهما المتعة، بالنظر إلى حال المطلّق إيساراً وإعساراً والمتعة درعٌ وملحفةٌ وخمار على حسب حاله، ولا تجب المتعة إلا لهذه، ويستحب لسائر المطلقات، وقال الشافعي لها المتعة لقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ﴾ ﴿مَتَٰعًا﴾ أي تمتيعاً ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا﴾ أي حق ذلك حقاً ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين يحسنون إلى أنفسهم، بالمسارعة إلى الامتثال، وإنما سُمُّوا «محسنين» ترغيباً وتحريضاً على البرِّ والإحسان.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي حال كونكم مسمين لهن عند النكاح مهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهنَّ نصف ما سميتم من المهر، وهذا صريح في أنَّ المنفيَّ في الصورة السابقة، إنما هو تبعةُ المهر ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي فلهن النصف في كل حال، إلاَّ حال عفوهن، فإنه يسقط بعد وجوبه ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي يترك الزوج ما يعود إليه من نصف المهر، الذي ساقه إليها كاملاً، تكرماً منه وتفضلاً، وهو التفسير المأثور، كما أخرجه البيهقي بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً، وبه قال جمع من الصحابة[1] وقيل: الولي الذي يلي عقد

(١) مستند هذا القول أن الذي بيده عُقدة النكاح حقيقةً: هو الزوجُ، فإن بيده العقد والإبرام، والنقض والطلاق، وقد رُوي عن شريح أنه قال: سألني عليٌّ عن الذي بيده عُقدة النكاح؟ فقلت: هو وليُّ المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج، وروي عن النبي ﷺ مرفوعاً «وليُّ عقدة النكاح الزوجُ» وانظر تفسير ابن كثير ١/٢٩٦.

نكاحهن إذا كانت المرأة صغيرة، وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يؤيد الوجه الأول فإن إسقاط حق الصغيرة ليس في شيء من التقوى، روي أنَّ جُبَيْر بن مطعم تزوج امرأةً، وطلَّقها قبل الدخول بها، فأكمل لها الصَّداق، وقال: أنا أحقُّ بالعفو ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ولا تنسوا الإحسان والجميل الذي بينكم، والخطاب للرجال والنساء بطريق التغليب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم، من التفضل والإحسان.

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ أي داوموا عليها بمواقيتها، وأركانها، وشرائطها، من غير إخلالٍ بشيء منها، ولعل الأمر بها، في تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد، لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها[1]، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي المتوسطة بينها، والوسطى تأنيث الأوسط، وهي صلاة العصر، وعليه الجمهور، ويدل عليها ما رُوي، عن علي أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «ملأ الله قلوبهم وبيوتَهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»[2] ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَٰنِتِينَ﴾ أي مطيعين خاشعين، وقيل: هو السكوت، ويدل على ذلك ما روي عن زيد

(١) إنما وردت آية المحافظة على الصلوات، ضمن آيات الزواج والطلاق، لأن الصلاة أعظم منبّه للمؤمن، للمحافظة على أوامر الله، واجتناب نواهيه، ودفع الحقوق كما قال سبحانه: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فبالصلاة يحفظ الإنسان حقوق الله وحقوق العباد.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ٦/٧٦ ومسلم رقم ٦٢٧ وزاد في بعض الروايات: ثم صلَّاها بين المغرب والعشاء.

ابن أرقم، قال: «كنّا نتكلم في الصلاة، يكلّم أحدنا أخاه في حاجته، حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ فأُمرنا بالسكوت»(١).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره ﴿فَرِجَالًا﴾ أي فصلوا راجلين جمع راجل، وهو الماشي على رجليه، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جمع راكب أي فصلوا راجلين أو راكبين، حسبما تقتضيه الحال، ولا تُخِلُّوا بها ما أمكن وقال أبو حنيفة لا يصلي الماشي، بل يؤخر الصلاة، لأن الرسول ﷺ أخر الصلاة يوم الخندق، وظاهر الآية جواز الصلاة ماشياً عند الضرورة، والدين يسر لا عسر، والمقامات مختلفة، والميسور لا يسقط بالمعسور، وما لا يدرك لا يترك ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وزال خوفكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي فصلُّوا صلاة الأمن، أو اشكروه على الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ كتعليمه إياكم ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من كيفية الصلاة، حالتَيْ: الخوفِ، والأمن، على الوجه الذي شرعه لكم، وعلمكم إيّاه.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ عودٌ إلى بيان بقية الأحكام، المفصّلة فيما سلف ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم﴾ أي يوصون،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ١٩٨/٨ قال ابن حجر في الفتح: وأصحُّ ما دلَّ عليه حديث الباب، أن المراد بالقنوت: السكوتُ، والمراد به السكوتُ عن كلام الناس، لا مطلق الصمت، لأن الصلاة لا صمتَ فيها، بل جميعها قرآنٌ وذكر. اهـ.

أو عليهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تمتع زوجاتهم بعدهم حولاً كاملاً ﴿مَتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ منصوب بيوصون ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي من غير إخراج لهن من المسكن، والمعنى: يجب على الذين يتوفون، أن يوصوا قبل الاحتضار، لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً، بالنفقة والسكنى من تركته، وكان ذلك أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[1] ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بعد الحول، ومضيّ العدة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ لا ينكره الشرع كالتزيّن، والتطييب، وترك الحداد، والتعرض للخطاب، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، يعاقب من خالفه ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي في أحكامه مصالح عباده.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي واجب على الأزواج أن يمتّعوا المطلقات، بقدر استطاعتهم، بالمعروف الذي شرعه الله، وعرفه الناس، جبراً لوحشة الطلاق، والمتعة لكل مطلّقة، دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أو لم يفرض، لعموم لفظ المطلقات، وهذه المتعة إمّا واجبة، إن لم يذكر لها مهر، أو مندوبة إن كان لها مهر مقدر ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي هي حقٌّ واجب، وأمر لازم على المؤمنين الصادقين، المتقين لله عزَّ وجلّ.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح الشافي، الذي يوجّه القلوب نحو المودة والمحبة، يبين الله لكم آياته الشرعية، الدالة على الحلال والحرام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي كي تعقلوا وتتفهّموا حكمة ربكم، في تشريع هذه الأحكام، وتعملوا بمقتضاها.

---

(١) هذا الحكم منسوخ بالآية السابقة ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ رحمةً من الله تعالى، وتخفيفاً عن عباده، وهذا متفق عليه بين الفقهاء، فالآية وإن كانت متقدمة في التلاوة، لكنها متأخرة في النزول.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ هذه رؤية القلب، وليست رؤية بصرية، أي ألم تعلم، ويصل إلى سمعك أيها الإنسان، خبر أولئك القوم، الذين خرجوا من أوطانهم وهم ألوف مؤلفة؟ قال ابن عباس: كانوا أربعة آلاف، وقيل: أربعون ألفاً ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي خوفاً من الموت، وفراراً منه ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ أي فأماتهم الله عزَّ وجلّ ثم أحياهم، ليكون ذلك أعظم برهان، على قدرة رب العالمين في إحياء البشر بعد موتهم! وقصة هؤلاء ـ كما قال الضحاك ـ هم قوم من بني إسرائيل، دعاهم ملكهم إلى الجهاد، فهربوا خوفاً من الموت، وتركوا ديارهم وأوطانهم، فأماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم بدعوة نبيهم «حزقيل» عليه السلام، فعاشوا بعد ذلك دهراً، وقاموا أحياء ينظرون، ثم ماتوا بعد انتهاء آجالهم.

**وقيل:** إنهم جماعة وقع فيهم وباء الطاعون، فخرجوا فراراً من الموت، هاربين إلى الصحراء، فنزلوا وادياً واسعاً، حتى ملأوه، فأرسل الله إليهم ملكين، صاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم[1]. ﴿ إِنَّ

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ١/٣٠٦: وكان في إحيائهم عبرة، ودليل قاطع، على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يغني حَذَرٌ من قَدَر، وأنه لا ملجأ من الله إلاَّ إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد. اهـ.

﴿ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إنه سبحانه لذو إحسانٍ وإنعام على الناس، حيث أحياهم ليعتبروا، وقصَّ عليكم حالهم لتستبصروا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه كما ينبغي، بل يكفرون ويجحدون، وفائدة القصة: تشجيع المسلمين على الجهاد، وحثهم على التوكل والاستسلام.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين الكفار، من أجل إعلاء كلمة الله، لا لحظوظ النفس والغنائم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾؟ أي من ذا الذي يبذل ماله في سبيل الله، طلب رضوانه؟ والقرضُ في اللغة: القطعُ، سُمّي به لأن المقرض يقطع من ماله شيئاً فيعطيه للفقير، واقتراضُ الله تعالى، مَثَلٌ لتقديم العمل العاجل، طلباً للثواب الآجل، والمراد ههنا الجهاد، الذي هو عبارةٌ عن بذل النفس، والمال، في سبيل الله عزَّ وجلّ، ابتغاءَ لمرضاة الله، أو المراد مطلق العمل الصالح، وهذا تلطف منه تعالى، في استدعاء عباده إلى أعمال البِرِّ ﴿قَرْضاً حَسَناً﴾[1] أي خالصاً لوجه الله، لا يطلب من ورائه مديحاً، ولا عطاء من أحد، ولا يكون القرض حسناً إلاَّ بشرائط: ١ - أن يكون من الحلال. ٢ - ومن أجود المال. ٣ - خالصاً لوجه الله تعالى. ٤ - بطيب النفس. ٥ - لا رياء فيه ولا سمعة ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾

---

(١) روي أنه لما نزلت هذه الآية ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ جاء أبو الدحداح إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: أو يريد الله منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله!! فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطاً لي - أي بستاناً - فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء إلى البستان ولم يدخل فيه، فناداها يا أم الدحداح، قالت: لبَّيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عزَّ وجل!! فقالت: ربح بيعك، وخرجت منه مع أولادها» رواه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٣٠٦/١.

فيضاعف جزاءه، ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرةً لا يقدِّرها ولا يعلم مقدارها، إلا الله سبحانه، وإنما أبهم الله ذلك، لأن ذكر المبهم في باب الترغيب، أقوى من ذكر المحدود، والضعفُ: مثلُ الشيء في المقدار، مثل العشرة ضعفها عشرون ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يقتّر على بعض، ويوسّع على بعض، حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسَّع عليكم، كيلا يبدّل حالكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم حسب ما قدمتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ألم يصل إليك خبر القوم من بني إسرائيل؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع، ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أي من بعد وفاته ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ هو شمعون من نسل هارون عليهم السلام ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أَقِمْ لنا أميراً ننهض معه للقتال، وسببُ طلبهم ذلك على ما في بعض الآثار، أنه لمَّا مات موسى، خلفه يوشع، ثم خلفه كالب، ثم حزقيل، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم ظهر لهم عدوٌّ، وهم عمالقة قوم جالوت، وظهروا عليهم، وأسروا من أبنائهم، وضربوا عليهم الجزية، وأخفوا توراتهم، ثم أرسل الله تعالى إليهم شمعون، فقالوا إن كنت صادقاً فابعث لنا مَلِكاً، وكان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك، وطاعة أنبيائهم، وكان الملك يسير بالجموع، والنبيُّ يقيم أمره ويرشده ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ هذا استفهام شك بمعنى لعلكم ﴿إِنْ كُتِبَ﴾ أي فرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ مع ذلك الملك

﴿أَلَّا نُقَٰتِلُوا۟﴾ أي لا تَفُوا بما قلتم، وتجبنوا عن القتال معه ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾ كأنهم قالوا: عدم القتال غير متوقع منا، وإنما لم يصرحوا به تحاشياً عن رد كلام نبيهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أيُّ غرض لنا في ترك القتال، وقد عَرَض لنا ما يوجبه، من الإخراج عن الأوطان، والبعد عن الأولاد، وكان العمالقة أخذوا ديارهم، وسَبَوْا أولادهم، قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الجبن والهَلَع ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فلما فُرض عليهم القتال، نكل أكثرهم عن الجهاد، وتخلفوا بعد مشاهدة العدو، إلا قليلاً منهم، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي والله عالم بظلم هؤلاء الناكثين العهد، وسيجازيهم عليه، والآية وعيد لهم على توليهم عن القتال، وتنافي أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ شروعٌ في تفصيل ما جرى بينه عليه السلام، وبينهم من الأقوال والأفعال، أي قال لهم نبيهم بعد ما أوحى الله إليه: إن الله قد ملَّك عليكم طالوت، و«طالوت» اسم عبري كداود، وهو من سبط بنيامين بن يعقوب عليهم السلام ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أي كيف يكون ملكاً

علينا؟ والحال أننا أحقُّ بالمُلْك منه، لأننا من أولاد الملوك، وهذا منهم تعنّتٌ واعتراض على أمر الله ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ أي وهو عدا عن ذلك فقير لا يملك المال، الذي يجمع القلوب حوله، فكيف يكون ملكاً علينا؟ ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ أي قال لهم نبيهم، لما استبعدوا تملّكه عليهم لفقره: إن الله عزَّ وجلّ قد اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختيار أمران: سعة العلم، وقوة الجسم، وقد خصه الله منهما بحظٍ وافر، والعمدة في اختيار الرجال، وفور العلم ليتمكن من معرفة أمور السياسة، وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء، ثم تمم كلامه بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ لأنه سبحانه مالك الملك، فله أن يؤتيه من يشاء من عباده، وهذه تدل على بطلان من يقول من الشيعة: إن الإمامة موروثة ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ يوسّع على الفقير ويغنيه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يصطفيه للملك، وفي اختياره تعالى ﴿واسع عليم﴾ من حسن المناسبة ما لا يخفى، حيث نبّه فيما سبق على سعة العلم، وبسطة الجسم.

ومن ثَمَّ طلبوا من نبيّهم آيةً، على اصطفاء الله لطالوت، فأجابهم إلى ذلك ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ ﴾ الصندوق، يريد به صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه بين يديه، فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرُّون، ولهذا قال: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي في التابوت السكونُ والطمأنينةُ، والوقار، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به وتقوى، والله ينصر الحق ببعض ما شاء من آياته ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون، وهي عصا موسى وثيابه، وعمامة هارون، وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي حال كونه محمولاً للملائكة(١)، ثم قرَّر تعالى أن مجيء التابوت آية لهم،

---

(١) قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته =

إن كانوا ممن يؤمن ويبصر بعين الحقيقة فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن في نزول التابوت على هذا الوصف، لآية عظيمة على اصطفاء الله لطالوت، ليكون ملكاً عليهم، إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ في هذه القصة إيجاز، يدل عليه السياق ويدركه العالم، وهو: فاتفق بنو إسرائيل، على أن يكون طالوت ملكاً عليهم، وأذعنوا له وانقادوا، وتهيئوا لغزو عدوهم ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي فلما خرج طالوت بالجيش، وانفصل عن بلده لقتال العمالقة، وجاوز الديار، وكانوا ثمانين ألفاً، فيهم المؤمن والمنافق، والشجاع والجبان، أخذ بهم في أرضٍ قفرة، لا ظلَّ فيها ولا ماء، فأصابهم حر وعطش شديد، أراد أن يختبر صبرهم وطاعتهم ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي قال لجنوده: إن الله مختبركم بنهر من ماء ـ وهو نهر بين الأردن وفلسطين ـ ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي فمن شرب من مائه، فلا يصحبني في هذه الحرب ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي ومن لم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي، أراد بذلك أن يختبر طاعتهم

= بين يدي طالوت، والناس ينظرون، فكان ذلك علامةً لهم على اصطفاء طالوت للملك، والإمارة عليهم.

وصبرهم على تحمل المكاره والشدائد، فإنما يعرف الرجال وقت الشدة، ومعنى ﴿يَطْعَمْهُ﴾ أي يذقه، قال ابن قتيبة: يقال: لم أطعم خبزاً، ولا ماءً، ولا نوماً. واستثنى من ذلك من أخذ بيده حفنة ماء، ليبلَّ عطشه، وينقع غُلَّته، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ الغُرفةُ: هي الحفنة التي تحصل في الكف من الماء، أي إلا من اغترف بيده، قليلاً من الماء فشربه، فلا حرج عليه، لأنه يخفّف العناء، ولا يُذهب العطش، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء، علم أنه يطيع فيما سواه، فيصلح لخوض غمار الحرب، ومن غلبت شهوته في الماء، وعصا الأمر، فهو في الشدائد أحرى بالعصيان، فلا يصلح للحرب، قال تعالى مخبراً عنهم ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فشربوا من ماء النهر وأفرطوا، إلاَّ فئةً قليلة منهم صبروا على العطش.

قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقَّى معه أربعة آلاف[1] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي فلما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والحر، ورأوا كثرة عدوهم، اعتراهم الخوف والضعف، فقال فريق منهم ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء، مع قائد جيشهم «جالوت» فنحن قلة قليلة، وهم كثرة كثيرة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ أي قال المؤمنون الصادقون، الذين يعتقدون لقاء الله، وهم الصفوة من العلماء الأبرار ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ليس النصر عن كثرة العدد، فكثيراً ما غلبت الجماعةُ القليلة الجماعةَ الكثيرة، بإرادة الله ومشيئته ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالحفظ والرعاية والتأييد، فالمراد بالمعية هنا: معية نصره تعالى وتوفيقه.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٠.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ أي ولما ظهروا أمام أعدائهم الكثيرين، أمام طالوت وجنوده، وشاهدوا العدو، بما هم عليه من العَدد والعُددَ، وأيقنوا أنهم غير مطيقين لقتالهم ﴿ قَالُواْ ﴾ جميعاً متضرعين إلى الله تعالى، متبرئين من الحول والقوة ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ والمراد حبس النفس على القتال، وعلى مقاساة شدائد الحرب، والإفراغ الصبُّ، يُقال: أفرغتُ الإناء إذا صببت ما فيه، وهو أبلغ من «أنزل علينا صبراً» ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ في ميدان القتال، وثباتُ القدم: عبارة الرسوخ عند المقارعة، وعدم التزلزل وقت المقاومة ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ بقهرهم وهزمهم، ووضع «الكافرين» موضع ضميرهم، للإشعار بعلة النصر عليهم، لأن قوم جالوت كانوا عَبَدة أصنام، وقد راعوا في الدعاء ترتيباً بديعاً، حيث قدَّموا سؤال إفراغ الصبر، ثم تثبيت القدم، ثم النصر الذي هو الغاية.

﴿ فَهَزَمُوهُم ﴾ أي استجاب الله دعاءهم، فصبروا وثبتوا ونُصِروا ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بنصر الله وتأييده ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ أي وقتل البطل «دواد» ـ وكان في ضمن جيش طالوت ـ قتل رأس الطغيان «جالوت» واندحر جيشه ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ أي ملك بني إسرائيل ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة، ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوة في

شخص قبله، بل كانت النبوة في سِبْطٍ، والمُلْكُ في سِبْط ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ تعليمه إياه من صنعة الدروع وكلام الطيور، وسياسة الملك وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ بدل من الناس ﴿بِبَعْضٍ﴾ آخر ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي ولولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس بنصر المسلمين على الكفار، ويكف بهم فسادهم، لأفسدوا في الأرض ولفسدت الأرض بشؤمهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وقتل داود جالوت ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالوجه المطابق، الذي لا يشك فيه أرباب التواريخ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع، وهذا رد لمن أنكر نبوته ﷺ.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)﴾.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل، واللام للاستغراق ومن جملتهم الرسول ﷺ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في مراتب الفضل، بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمآثر جليلة، خلا عنها غيره وراء الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين يستوون في صفة الإيمان، ويتفاوتون في مراتب الكمال، وقيل: التفضيل بالشرائع ويؤيد الأول قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ تفصيل للتفضيل المذكور، أي كلّمه الله تعالى من غير سفير، وهو موسى عليه السلام على جبل الطور، ومنهم آدم عليه السلام، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة ونبينا ﷺ في المعراج، حتى وصل سدرة المنتهى وبينه

وبين موسى بون بعيد ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ بأن فضَّله على غيره من وجوه متعددة، وهو الرسول ﷺ، فإنه خص بالدعوة العامة، والحجج المتكاثرة والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والإبهام لتفخيم شأنه، كأنه العَلَمُ المتعين لهذا الوصف، المستغني عن التعيين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فُضّلتُ على الأنبياء بستٍ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرتُ بالرعب، وأُحلَّت ليَ الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيّون»[1] ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الحجج والمعجزات الظاهرة كإحياء الموتى، وإبراء الأكمة ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي بالروح المقدسة، وهي روح عيسى، وقيل بجبريل، وخص عليه السلام بالتأييد، لإفراط اليهود في التحقير، والنصارى في التعظيم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدى الناس جميعاً ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي من بعد الرسل من الأمم المختلفة لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على الحق ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ من جهة أولئك الرسل، جاءتهم المعجزات والآيات الظاهرة الدالة على حقيقة الحق ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافاً فاحشاً، ثم بيَّن الاختلاف ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بما جاءت به أولئك الرسل من البينات وعملوا به ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بذلك لا ارعواء لهم عنه، فاقتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم، فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم واختيارهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضاً من الاختلاف والشقاق ﴿مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ وما نبض منهم عرق من التطاول والتعادي لما أن الكل تحت ملكوته تعالى، فالتكرير ليس للتأكيد بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجباً لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي من الأمور الوجودية والعدمية فيوفق من يشاء فضلاً، ويخذل من يشاء عدلاً، لا اعتراض عليه في ملكه

---

(١) رواه مسلم في المساجد رقم ٥٢٣ والترمذي في السير رقم ١٥٥٣.

وفعله، وفيه دليل بيِّنٌ على أن الحوادث تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً، إيماناً أو كفراً، وعلى أن الأنبياء عليهم السلام متفاوتة الأقدار، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ ما أوجبنا عليكم إنفاقه وهو المروي عن الحسن وقيل يدخل فيه الفرض والنفل، وهو المروي عن ابن جريج واختاره البلخي ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ ﴾ لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه ﴿ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ ﴾ حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿ وَلَا خُلَّةٞ ﴾ ولا مودة ولا صداقة حتى يغنيكم والخلة بمعنى الخصلة وزناً ومعنى جمعه خلال ﴿ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ ﴾ للكافرين وأما المؤمنون فلهم الشفاعة بإذنه تعالى ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يريد التاركون للزكاة، فوضع «الكافرون» موضعه تغليظاً وتهديداً كقوله تعالى: ﴿ومن كفر﴾ مكان من لم يحج، وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار، لقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ والله سبحانه يذكر شيئاً من الأحكام ثم يذكر عقيبه الوعد والوعيد، ويجمع علم التوحيد، وعلم الأحكام، والقصص، لئلا يوجب الملال، وهذا أحسن في الترغيب، كما أن الإنسان إذا انتقل من بستان إلى بستان آخر، يشرح به صدره، يكون أسعد وأبهج.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو المستحق للعبادة لا غيره، وهو واحد، أحد، فرد صمد، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ والحياة فيه سبحانه صفة موجودة حقيقة، قائمة بذاته تعالى، لا تعلم حقيقتها كسائر صفاته، الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ صيغة مبالغة للقيام أي الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، والقائم بذاته والمقوم لغيره ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ السِّنَةُ: فتورٌ يتقدم النوم، ويقال لها: النعاس، أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس قال: «إن بني إسرائيل قالوا يا موسى: هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربُّه يا موسى يسألونك هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل، ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلثاه نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى، لو كنت أنام، لسقطت السماوات والأرض فهلكن، كما هلكت الزجاجتان في يديك»[1] فأنزل الله على نبيه آية الكرسي. ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ملكاً، وتصرفاً، يتصرف فيهما كما يشاء، وهو تقريرٌ لقيُّوميته، واحتجاج على تفرده في الألوهية، ولم يقل «من في السماوات والأرض» للتنبيه على أن كل المخلوقات، مسخرون في قبضة قدرته، وقهره، وهم في ذلك كالجمادات، التي لا قدرة لها ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى ﴾ بيانٌ لكبرياء شأنه، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه، وهذا استفهام انكاري ﴿ يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ ﴾ أي لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد، إلا إذا أذن له الباريء جلَّ وعلا، ولا يظنّ أحد أن الشفاعة تحويل القَدَر، بمعنى أنَّ الله تعالى يريد تعذيب شخص، فتنقذه الشفاعة، فهذا غير لائق بكبرياء ذاته عزَّ وجل، بل الشفاعةُ مظهرٌ لتكريم الشافع، ودليلٌ على إذنه تعالى ورضائه، كما في

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير في تفسيره ١/٣١٦ وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ـ الميزان ـ ويرفعه، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ـ أي أنوار وجهه ـ ما انتهى إليه بصره من خلقه».

قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي إلا أن يأذن الله بذلك، فالمعنى: لا يشفع أحد إلاّ بإرادته ورضائه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما أمامهم من أمور الدنيا وما خلفهم من أمور الآخرة، لا يغيب عنه شيء من أحوال الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ من معلوماته يقال أحاط بالشيء علماً: إذا علمه بوجوده، وجنسه، وحقيقته، وقدره، وعطفه على ما قبله، لما أنهما جميعاً دليل على تفرده بالعلم الذاتي، الدال على وحدانيته تعالى ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يعلموه وهم الأنبياء عليهم السلام، ليكون دليلاً على نبوتهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مَنْ رَسُولٍ﴾ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الكرسي ما يُجلس عليه، والكلام مساق على سبيل التمثيل لعظمته تعالى[1]، وشأنه، وسعة سلطانه، وإحاطة علمه وأكثر السلف الصالح فوّضوا علمه إلى الله تعالى ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ ولا يُثقله، ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حفظ السماوات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه، ذو العظمة والجلال، الكبير المتعال. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ في عِزّه وجلاله، الذي يُستحقر بالإضافة إليه كلُّ ما سواه أخرج مسلم وأحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي»[2]. وأكثر الأحاديث في هذا الباب، حجة لمن قال إن بعض القرآن يفضل على بعض، فمنع منه الأشعري والباقلاني لاقتضائه نقص المفضول وأجازه إسحق بن راهويه وكثير من المتكلمين، وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلٰهية، دالة على أنه تعالى موجود، واحد

(١) فسَّر ابن عباس الكرسي بأنه العلم كما حكاه عنه ابن جرير، وابن كثير، وقال ابن كثير: وفسَّره بعضهم بالعرش، والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين ٢٥٥٦/١ عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم.. الحديث.

أحد، واجب الوجود، القائم بنفسه، المقيم لغيره، المنزَّه عن التحيز والحلول، المبرأ عن التغير والفتور، مالك الملك والملكوت، متعالٍ لا يدركه الوهم، عظيم لا يحيط به الفهم.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ الإكراه: إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً، يقال: أكرهته على الأمر: أي حملته عليه قهراً وقَسْراً والمعنى: لا إجبار ولا إكراه لأحدٍ، على الدخول في الإسلام ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ تميَّز الإيمان من الكفر، بالآيات الواضحة، فالإيمان رشدٌ، يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غيٌّ، يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ بالشيطان والأصنام، وكلِّ ما عُبد من دون الله ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بالتوحيد، وتصديق الرسل ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ تمسّك ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ من الحبل الوثيق، والمراد بالعروة الوثقى هنا: الدين الحقُّ، الذي جاء به خاتم المرسلين، وهو دين الإسلام، شبَّه المستمسك بدين الإسلام، بالمستمسك بالحبل المحكم، وهو تشبيه تمثيلي، والوثقىٰ: تأنيث الأوثق أي الأشد ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد، عليم بأفعالهم ونيّاتهم، ولما كان الكفر والإيمان ممَّا ينطق به اللسان، ويعتقده القلب، حسن ختم الآية بقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ من أجل النطق، و﴿عَلِيمٌ﴾ من أجل النية والمعتقد.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي الله جلَّ وعلا ناصر المؤمنين، ومتولي

أمرهم ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي يخرجهم بهدايته وتوفيقه، من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، وحَّد تعالى «النور» لوحدة الحقِّ، وجمع «الظلمات» لتعدّد فنون الضلالات، وإنما سمَّى الكفر بالظلمات، لأن الظلمة تحجب الأبصار، كذلك الكفر يحجب البصيرة، حتى لا يدرك الإنسان حقائق الإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ أي والكافرون المكذّبون لرسل الله، أولياؤهم وأنصارهم الشياطين الغاوون ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ أي يخرجونهم بالوساوس وإلقاء الشُّبَه، من نور الإيمان، إلى ظلمات الكفر والضلال ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي أولئك الأشقياء الكفار، هم أهل النار وأصحابها، لا يخرجون منها أبداً، بسبب تمردهم في الطغيان.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ تعجيبٌ للسامع، وتنبيه لأمر هذا الكافر، الذي بلغ به الكفرُ والطغيانُ، إلى درجة الحماقة، أن يجادل ويخاصم «إبراهيم» عليه السلام في وجود الله ووحدانيته، زاعماً أنه لا ربَّ في الوجود، غير «النمرود» وهو «نمرود بن كنعان» ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ أي لأجل أن آتاه الله الملك، حيث حمله بطره، وأورثه كبره، على إنكار وجود الله، فقابل الفضل والإحسان، بالكفر والطغيان، وهذا أقبح الكفر، وأظلم الظلم، لأنه وضع الكفر بنعم الخالق موضع الشكر ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي حين قال له إبراهيم عليه السلام ـ أثناء المحاورة والمناظرة ـ إن ربّي هو الذي ينشىء الحياة والموت في الأجساد، فيحيي ويميت، وهو وحده رب العالمين ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ

﴿وَأُمِيتُ﴾ أي فقال له ذلك الأحمق السفيه: وأنا أيضاً أحيي وأميت، فدعا النمرود برجلين، كان قد حكم عليهما بالقتل، فأخرجهما من السجن، فأمر بقتل أحدهما ثم قال: هذا أمتُّه، وأمر بإطلاق سراح الآخر، ثم قال: وهذا أحييته!! ولما رأى إبراهيم حماقته، وشغبه في الدليل، عدل إلى برهانٍ آخر، أجدى وأنفع في إفحام الخصم، لئلا يجد ذلك الشقي مجالاً للتمويه ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي قال له إبراهيم: إذا كنت تدّعي الربوبية، وأنك تحيي وتُميت، كما يفعل ربُّ العزة والجلال، فهذه الشمس أمامك، تطلع كل يوم من المشرق، وتغرب من المغرب، فأرنا قدرتك، واجعلها تطلع من المغرب، وتغرب من المشرق، ولو مرة واحدة، حتى نرى آثار ربوبيتك!! ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ أي فأصبح مبهوتاً متحيراً ذلك الشقي، لا يستطيع الجواب، وانقطعت حجته أمام الخلق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم، ولا يلهمهم الحجة والبيان، في مقام المناظرة، لقد كان إبراهيم رائعاً وبارعاً، في إفحام خصمه، فلم يلتفت إلى إبطال مقالته الأولى حين سمع جوابه الأحمق ﴿أنا أحيي وأميت﴾ بل انتقل مباشرة إلى مثالٍ آخر، لا يستطيع اللفَّ والدوران حوله، ليبهته ويُلقمه الحجر، ولهذا بُهت الذي كفر، وهذا من قوة ذكاء الخليل إبراهيم عليه السلام، وقوة حجته وبيانه!.

﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

هذا من باب عطف القصة على القصة، وكأنه يقول: هل رأيتَ مثل الذي حاج إبراهيم في ربه؟ وهل رأيت مثل الذي مرَّ على قرية؟ ولهذا عطفها على القصة السابقة، والغرضُ التعجيب في الحالتين: من صنيع النمرود، واستغراب الرجل الصالح «عزير» إعادة الحياة إلى المدينة المخرَّبة على أهلها، وكلتا القصتين فيها إشارة إلى قدرة رب العالمين، في الإحياء والإماتة. قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ جمهور المفسرين على أنه «عزير» الذي زعم اليهود، أنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ لأن الله أماته في الدنيا ثم أحياه، فقالوا: إنه ابن الله، والمعنى: ألم يصل إلى سمعك، ويبلغك خبر الرجل الذي مرَّ على مدينة بيت المقدس، بعد أن خرَّبها «بختنصَّر» المجوسي ودمَّرها على أهلها؟ ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ﴾ أعاده كهيئته يوم موته، عاقلاً فاهماً مستعداً للاستدلال ﴿قَالَ﴾ أي قال له بعد بعثه ﴿كَمْ لَبِثْتَ ۖ﴾؟ ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشؤونه تعالى، ويطّلع في تضاعيفه على أمر آخر، من بدائع قدرته تعالى، وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهراً طويلاً، من غير تغيّر ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ﴾ بناءً على الظن والتقريب ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي مكثت مدة طويلة وهي مائة سنة ﴿فَانظُرْ﴾لتعاين أمراً آخر من دلائل قدرتنا ﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ﴾ لم يتغير في هذه المدة ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه، ليتبيَّن لك ما ذُكر، من اللبث المديد، وتطمئن به نفسك ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ﴾ أي فعلنا ذلك لنجعلك آية للناس، الموجودين في هذا القرن ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي عظام الحمار، لتشاهد كيفية الإحياء ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي نردُّها إلى أماكنها من الجسد، فنركّبها تركيباً لائقاً بها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ﴾ نسترها به كما يُستر الجسد باللباس، روي أنه نودي أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تتجمعي، فاجتمع والتصق كل عضو بما يليق به، ثم انبسط عليه اللحم، ثم الجلد، ثم خرج منه الشَّعْرُ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو ينهق ﴿فَلَمَّا

﴿تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي اتضح اتضاحاً تاماً ﴿قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما شاهده في نفسه وفي غيره.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين ﴿رَبِّ﴾ كلمة استعطاف قُدّمت بين الدعاء، مبالغة في استدعاء الإجابة ﴿أَرِنِي﴾ من الرؤية البصرية ﴿كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ بأن تحييها وأنا أنظر إليها، وإنما سأله لينقل من مرتبة علم اليقين، إلى مرتبة عين اليقين، وفي الخبر «ليس الخبر كالمعاينة» روى محمد بن إسحق أن سبب السؤال، منازعة النمرود إياه في الإحياء حيث رد عليه السلام عليه لمَّا زعم أن العفو إحياء، وتوعَّده بالقتل إن لم يُحْيِ الله الميت بحيث يشاهده فدعا عليه السلام حينئذ ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ أو ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء، حتى تسألني إراءته؟ قال عزَّ وجلّ وهو أعلم بأنه عليه السّلام أثبت الناس إيماناً وأقواهم يقيناً، ليجيب بما أجابه، فيكون ذلك لطفاً للسامعين، فيعلموا غرضه ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على الإحياء على أيّ كيفية شئت ﴿وَلَٰكِن﴾ سألت ما سألت ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ بانضمام العَيان إلى الإيمان، وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة، وهذا لا ينافي منصب النبوة أصلاً، ويدل على ذلك ورود السؤال بلفظ «كيف» فهو لا يشكُّ أنه قادر، ولكنه سأل عن الكيفية، والطمأنينةُ إنما تكون بقوة اليقين، والاضطراب بالشك، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة ﴿قَالَ فَخُذۡ﴾ أي إن أردت فخذ ﴿أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ قيل هي طاووس، وديك، وغراب، وحمامة، وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان واجمع

لخواص الحيوان، ولسهولة تأتِّي ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ صار يصور ويصير لغتان، بمعنى قطَّعه أو أماله، أي أملهن أو قطعهن واجمعهن ﴿إِلَيْكَ﴾ لتتأملها حتى تعلم بعد الإحياء، أن جزءاً من الأجزاء لم ينتقل من موضعه الأول، أمره تعالى بأن يذبحها، ويفرّق أجزاءها، ويمسك رؤوسها، ثم أمره بأن يجعل أجزاءها على الجبال ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ أي قل لهن تعالين بإذن الله ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي ساعيات، والحكمةُ في سعيهنَّ دون الطيران، لأن ذلك أبعد من الشبهة، لأنها لو طارت لتوهم متوهمٌ أنها غير تلك الطيور. روي أنه عليه السلام نادى، فجعل كل جزء منهن يصير إلى صاحبه، حتى صارت جثثاً ثم أقبلن إلى رؤوسهنَّ، فانضمت كل جثة إلى رأسها، فعادت كل واحدة منهن، إلى ما كانت عليه من الهيئة ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، لا يعجزه شيء عما يريده ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة في أفعاله.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في وجوه الخيرات، من الواجب والنفل قيل: المراد هنا الإنفاق في الجهاد، لأنه هو الذي يضاعف هذه الأضعاف، وأما الإنفاق في غيره فلا يضاعف كذلك، وإنما تُجزى الحسنةُ بعشر أمثالها ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مثل نفقتهم كمثل حبّة والحب اسم جنس للحنطة ونحوها، مما يكون في السنبل ﴿أَنبَتَتْ﴾ أخرجت تلك الحبة ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي ساقاً تشعب منها سبع شعب ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ أسند الإنباتُ إلى الحبة، لمَّا كانت من الأسباب، كما يسند إلى الأرض والماء النباتُ، والمنبت على الحقيقة هو الله، والمعنى أنه يخرج منها ساق، يتشعب منها سبع شعب، لكل منها سنبلة فيها مائة حبة، وهو

تمثيل لا يقتضي وقوعه، وقد يكون في الذرة والدخن وفي البر في الأراضي المغلة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ تلك المضاعفة، أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ بفضله، على حسب حال المنفق، من إخلاصه، وتعبه، وإيقاع الإنفاق في أحسن مواقعه، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي واسع الجود والفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان لكيفية الإنفاق الذي بيَّن فضله بالتمثيل المذكور ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي ما أنفقوه ﴿مَنًّا﴾ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، مننتُ عليه أي عددت له ما فعلت له من الصنائع، نهى الشارع تعالى عنه، ومن هنا يقال: «المَنُّ أَخُ المنِّ» أي الامتنان أخ القطع، ويقال إذا صنعتم صنيعة فانسوها ﴿وَلَآ أَذًى﴾ الأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه، فيقول كم تسأل، وقد بليتُ بك، وأمثال ذلك، وقدَّم المنَّ لكثرة وقوعه، وهذه الآيات نزلت في عثمان رضي الله عنه فإنه جهَّز جيش العسرة بألف بعير، وألف دينار، وعبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، ولم يكد يخطر ببالهما شيء من المنِّ والأذى ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ثواب إنفاقهم حسبما وعدهم في التمثيل ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ردٌّ جميل يُردُّ به السائل، من غير إعطاء شيء،

مثل قوله يرزقك الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وعفو عن السائل، إذا وُجد منه ما يثقل على المسؤول من الإلحاح وغيره ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ لكونها مشوبة بضر ما يتبعها ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقات العباد، وإنما أمرهم لمصلحةٍ تعود إليهم، ولا حاجة له إلى منفق يَمُنُّ ويؤذي ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلته بالعقوبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أقبل عليهم بالخطاب إثر بيان ما بَيَّن، بطريق الغيبة مبالغة في إيجاب العمل بموجب النهي ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾ أي لا تضيّعوها، والصدقةُ: ما يخرجه الإنسان من ماله، على وجه القُربة ﴿بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ أي لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما ﴿كَٱلَّذِى﴾ أي إبطالاً مثل إبطال الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي مراءاةً لهم وسمعة، ليروا نفقته، ويقولوا عنه إنه سخيٌّ، والرياء إظهار الجميل ليراه الناس ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي كإبطال المنافق الذي لا يريد به رضاء الله تعالى، ولا ثواب الآخرة، لأنه لا يؤمن بالله حتى يرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ مثل من لا ينفق لوجه الله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ كمثل حجر كبير أملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يسير ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر شديد دافق، عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ نقياً من التراب فالصفوان والتراب إنفاقهُ، والوابل كالرياء والمنِّ والأذى، يحبط عمل هذا ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ لا ينتفعون بما فعلوا، ولا يجدون له ثواباً والضمير للذي ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى ما ينفعهم، وفيه تعريض بأن كلاً من الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لطلب رضاه ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وتثبيتاً لأنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق الروح، فمن بذله لوجه الله، فقد ثبَّت نفسه على الإيمان والإخلاص، وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق، تزكية النفس عن البخل، وحب المال الذي هو رأس كل خطيئة، والمعنى ومثل هؤلاء في زكائها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثل بستان بموضع مرتفع، خصَّها بذلك لأن الشجر فيها أزكى، وأحسن ثمراً ومنظراً، للطافة هوائها، وعدم كثافته ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي مثلَيْ ما كانت تُثمر قبل، فالتشبيه للكثرة، وحاصلُ هذا التشبيه أن نفقات هؤلاء، زاكية عند الله تعالى لا تضيع بحال، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت الإخلاص، وجيد المال ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي رُشَاشٌ خفيف، وهو مطر ضعيف القطر، يكفيها للطافة هوائها، وارتفاع مكانها فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن تكون لوجه الله، زاكية عند الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم ويعلم نيتكم فيها، وهو ترغيب في الإخلاص، وتحذير من الرياء ونحوه.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم﴾ والهمزة لإنكار الوقوع ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ تخصيصها بالذكر، لأنهما أشرف الفواكه وأحسنهما، لما فيهما من الغذاء والتفكه ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جريُ الأنهار من تمام حسنها، وسببٌ لزيادة

ثمرتها ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي تحتوي سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي كبر السن والشيخوخة، وهي مظنة الاحتياج إلى منافعها، لأنه إذا أصابه الكبر، عجز عن الاكتساب، وكثرت حاجاته ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ صغار ولا قدرة لهم على الكسب ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ والإعصار ريح ترتفع بتراب نحو السماء كالعمود، والعرب تسميه أيضاً الزوبعة. روى البخاري عن ابن عباس قال: «قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾؟ قالوا: الله أعلم!! فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل، قال عمر: أيُّ عملٍ؟ قال ابن عباس: لعملٍ، قال عمر: لرجلٍ غني يعمل بطاعة الله عزّ وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعمالَهُ»(١)، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح، الجاري في الظهور مجرى الأمور المحسوسة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ في التوحيد والدين ﴿ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ كي تتفكروا فيها فتنتبهوا بها، وتعملوا بموجبها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي أنفقوا من حلال ما كسبتم وجيّده، كقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٢٠٢.

تنفقوا مما تحبون﴾ وفيه دليل على وجوب الزكاة في أموال التجارة، وعلى إباحة الكسب، وعلى أن المال ينقسم إلى طيّب، وخبيث ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحب، والثمر، والمعادن وغير ذلك، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسان، أو بهيمةٌ، إلا كان له به صدقة»[1]. ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ تيممته أي قصدته، والخبيثُ الرديء الخسيس ﴿مِنْهُ﴾ أي من المال الخبيث ﴿تُنفِقُونَ﴾ تخصونه بالإنفاق، عن البراء بن عازب قال: نزلت فينا كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله بالقِنْوِ فيعلقه بالمسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه، فسقط البسر أو التمر فيأكل، وكان أناس مما لا يرغب الخير يأتي بالقنو فيه الشيص والحشو فيعلّقه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الآية قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده»[2]. وعن علي قال: نزلت في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التَّمر فيصرمه ـ أي يقطعه ـ فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة، أعطاه من الرديء ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي والحال أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته، في أيِّ وقت من الأوقات ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ إلاّ وقت إغماضكم فيه، وهو عبارة عن المسامحة، من قولك: أغمض فلانٌ عن بعض حقه، إذا غض بصره كأنه لا يبصر، وأصله من الغموض وهو الخفاء ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم، وفي الأمر بأن يعلموا ذلك مع علمهم به، توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث، وإيذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأن الله تعالى ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد على نعمه.

---

(١) أخرجه البخاري ٥/٣ ومسلم رقم ١٥٥٣ باب فضل الغرس والزرع.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٢٨.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ قيل: إبليس، وقيل: شياطين الإنس والجن، وكلٌّ من منع فعل الخير والإحسان.

ولما رغَّب الله تعالى الإنسان في الإنفاق حذَّره بهذا من وسوسة الشيطان ﴿ يَعِدُكُمُ ﴾ الوعد هو الإخبار بما سيكون، قالوا في الخير وعَدَه وعداً، وعِدَةً، وفي الشر وعَدَه وعيداً، فالمصدرُ فارق ﴿ ٱلْفَقْرَ ﴾ في الإنفاق، لأن الفقر مما يراه الإنسان شراً، ولهذا يخوف الشيطان به المتصدّقين، فيقول لهم: لا تنفقوا، فإن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي يُغريكم على البخل ومنع الصدقات ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم ﴾ في الإنفاق على لسان نبيكم ﴿ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ ﴾ لذنوبكم ﴿ وَفَضْلًا ﴾ أي وأن يخلفكم أفضل مما أنفقتم ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما تنفقونه فيجازيكم عليه.

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ ﴾ الحكمةُ: تحقيق العلم، وإتقان العمل، والمراد بها علم القرآن والسنة، وروي عن ابن عباس قال: إنها النبوة. وهي في الأصل مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في علم، أو عملٍ، أو قول، ومعنى إيتائها تبيينها والتوفيق للعمل بها ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده بموجب سَعَة فضله، وإحاطة علمه ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي ومن يؤته الله الحكمة، والإظهار في موضع الإضمار للاعتناء بشأنها ﴿ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ إذ جمع له خير الدارين، أخرج الطبراني عن أبي أُمامة مرفوعاً: «إنَّ لقمان قال لابنه: يا بنيَّ عليك مجالس العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة، كما يحيي الأرض

الميت بوابل المطر»[1] وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حَسَد إلا في اثنتيْن: رجل آتاه الله تعالى مالاً فسلَّطه على هَلَكته في الحق، ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها»[2] وهذا بالنسبة إلى حملة العلم الشرعي الذي جاء به حكيم الأنبياء ﷺ، لا ما وضعه الفلاسفة اليونان في وقت كثرت فيه الأوهام ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي وما يتعظ بما قص من الآيات ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إلا ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم، واتباع الهوى وهؤلاء هم الذين أوتوا الحكمة.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في طاعة أو معصية في سبيل الله ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية، متعلق بالمال أو بالأفعال، كالصلاة والصيام ونحوهما، والنذر عقد القلب على شيء والتزامه على وجه مخصوص ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أي يجازي عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يوفون بالنذور، وغير ذلك مما ينتظمه من أنواع الظلم ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من بأس الله، ويمنعهم من عقابه، وفيه وعيد عظيم لكل ظالم.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ سئل رسول الله ﷺ هل صدقة السر أفضل، أم صدقة العلانية؟ فنزلت، والمراد من الصدقات على ما ذهب إليه جمهور

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي أُمامة مرفوعاً، وأمثال هذا كثير من حِكَم لقمان.
(٢) أخرجه البخاري ١/ ١٥٣ في العلم، ومسلم رقم ٨١٦.

المفسرين صدقات التطوع أي إن تُظهروا الصدقات ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فنعم شيئاً إبداؤها إن لم تكن رياءً أو سمعة، ويُستحب إخفاؤها للخائف من الرياء، والكبرياء، والإبداء أفضل في الصدقات المفروضة، وأما التطوع فالإخفاء أفضل، وهي التي أريد بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ أي تعطوها خفية ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ ولعل التصريح بإيتائها الفقراء لحث المتصدق على أن يتحرى موضع الصدقة، فيميز الفقراء من غيرهم، فإذا عجز بعض الناس عن الكسب، لآفة في فكره، أو علة في بدنه، فيجب على الأغنياء الأخذ بيده شكراً لله تعالى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي فالإخفاء خير لكم من الإبداء. عن أبي أمامة أن أبا ذر قال: يا رسول الله: أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: صدقة سرّ إلى فقير[1]، ثم قرأ الآية: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أصل التكفير: السترُ والتغطيةُ، فتكفير السيئات دفع العقاب ورفعه عن الإنسان، بثواب أو بتوبة، حتى تصير بمنزلة ما لم يُعْمَل ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بما تفعلونه، فهو ترغيب في الإسرار.

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أي لايجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد على المحاسن، والنهي عن القبائح، بما أوحي إليك من الآيات ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته إلى ذلك ممن يتذكر بما ذُكِّر، ويختار الخير ﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾ التفات إلى خطاب المكلفين، لزيادة هزّهم نحو الامتثال ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ من أي شيء تنفقون ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ فنفعه الديني

(١) الحديث رواه أحمد، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٠.

لأنفسكم، لا ينتفع به غيركم، فلا تمنُّوا على الفقراء، ولا تؤذوهم ولا تنفقوا من خبيث أموالكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ وطلب ثوابه، أي وليس نفقتكم إلا لابتغاء وجهه، فما بالكم تمنُّون بها؟ وقيل: نفيٌ في معنى النهي ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، روي أن الصدقة إذا خرجت من يد صاحبها قالت: كنتُ صغيرة فكبَّرتني، وكنتَ حارسي فالآن أنا حارسك، وكنت فانياً فأبقيتني!! وروي عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصي فيحصى عليك، ولا توعي فيوعى عليك[1]» والمعنى: أنفقي ولا تشحّي فيجازيك بالتقتير ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون ثواب نفقتكم شيئاً مما وعد.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ بيَّن تعالى في هذه الآية أشد الناس استحقاقاً للصدقة فقال ﴿للفقراء﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٢٤٠ عن أسماء قالت: قلت يا رسول الله، مالي مالٌ إلاَّ ما أدخلَ عليَّ الزبير، أفأتصدَّقُ؟ قال: «تصدَّقي، ولا تُوعي فيوعي الله عليكِ» ورواه مسلم رقم ١٠٢٤ والترمذي رقم ٦٧٢.

﴿أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أحصرهم الجهاد في سبيل الله فمنعهم من التصرف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم بالجهاد ﴿ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الكسب والتجارة، وهم أصحاب الصُّفَّة، كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين، يسكنون صُفَّة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالعلم والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ وعن سعيد بن جُبير: هم قوم اصابتهم الجراحات في سبيل الله فصاروا زمنى ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال وهو من العفة وهي ترك الشيء والكف عنه، مع القدرة على تعاطيه ﴿تَعْرِفُهُم﴾ أي تعرف فقرهم ﴿بِسِيمَـٰهُمْ﴾ من صُفرة الوجه، ورثَاثَة الحال، وأثر الجهد، وقد كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى بالناس «يخرُّ رجال من قيامهم في صلاتهم، لما بهم من الخصاصة، وهم أهل الصفة»[1] والخطاب لكل من له حظ من الخطاب، والسيما: العلامةُ التي يُعرف بها الشيء ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي إلحافاً هو أن يلازم المسؤولَ حتى يعطيه، والمعنى: لا يسألون شيئاً وإن سألوا الحاجة اضطرتهم إليه لم يُلِحُّوا، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغنى غنى النفس»[2] وعن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «من سأل الناس وله ما يغنيه، جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش، أو خدوش أو كدوحٌ، قيل: ما يغنيه يا رسول الله؟ قال: خمسون درهماً، أو قيمتها من الذهب»[3] ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ لا يضيع عنده ويجازي عليها فهو ترغيب في التصدق لا سيما على هؤلاء.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي مسرين

---

(١) أخرجه أبو نعيم عن فضالة بن عُبيدة، ويؤيده قول أبي هريرة: إنْ كدتُ لأخرُّ من الجوع.
(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٣١ ومسلم في الزكاة رقم ١٠٥١.
(٣) الحديث أخرجه أبو داود رقم ١٦٢٦ والترمذي رقم ٦٥٠ والنسائي ٥/ ٩٧ في الزكاة.

ومعلنين، يعني يعمُّون الأوقات بالصدقة، فالمراد بالليل والنهار جميع الأوقات، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ المخبوء لهم في خزائن الفضل ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، أو أريد بالأكل الانتفاع، كما يقال: فلان أكل ماله كلَّه، والربا في اللغة مطلق الزيادة، وفي الشرع هو فضل مال خالٍ عن العوض في المعاوضات. عن جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكِلَه وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء»(١) ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ إذا بعثوا من قبورهم يوم القيامة ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ إلاّ قياماً كقيام المصروع الذي يتخبطه الشيطان ﴿ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ أي الجنون يقال: مُسَّ الرجلُ فهو ممسوس إذا جُنّ، وأصله اللمس باليد، وسمي به لأن الشيطان قد يمس الرجل فيحدث الجنون، وفي الحديث: «ما من، مولود يولد، إلاَّ والشيطان يمسُّه حين يولد فيستهل صارخاً»(٢)، أي يصيح أي لا يقومون إلا كما يقوم المصروع، فيكون نهوضهم وسقوطهم، كالمصروعين، لا لاختلال عقولهم بل لأن الله تعالى أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٥٩٨ باب لعن آكل الربا وموكله.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٣٨ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٦٦ وتتمة الحديث: فيستهلُّ صارخاً من مسِّ الشيطان إياه، إلاَّ مريم وابنها.

فأثقلهم فصارو مخبَّلين، ينهضون ويسقطون، تلك سيماهم عند أهل الموقف ﴿ ذَٰلِكَ﴾ العقاب ﴿ بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ فنظموا الربا والبيع في سلك واحد، لإفضائهما إلى الربح بناءً على ما فهموه، أن البيع إنما حل لأجل الكسب، وذلك في الربا متحقق فكذبهم الله بقوله: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، إذ الحلُّ والحرمةُ ضدَّان، فأنى يتماثلان؟ فإن من أعطى درهمين بدرهم ضيَّع درهماً، فلا يقال إن عوضه هو الإمهال، لأن الإمهال ليس مالاً أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ وعظ وزجر ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وفي ذكر الرب تأنيس لقبول الموعظة، إذ فيه إشعار بإصلاح أمر عبده، أي فمن بلغه وعظ من الله وزجر عن الربا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ واتعظ وانتهى بلا تراخ ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي ما تقدم فلا يؤاخذ فيما مضى، وليس عليه رد ما سلف، لأنه أخذه قبل نزول التحريم، فأما من لم يقبض بعد، فلا يجوز له أخذه، وإنما له رأس ماله فقط، كما بينه تعالى في قوله: ﴿وإنْ تبتم فلكم رؤوس أموالكم﴾ والسلفُ: المتقدِّم وكلُّ شيء قدمته أمامك فهو سلف ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ يجازيه على انتهائه، إن كان عن قبول الموعظة، وصدق النية ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا إذ الكلام فيه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من عاد ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ ماكثون أبداً لكفرهم بالاستحلال.

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يذهب بركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه والمحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال ومنه المحاق في الهلال ﴿ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ ينميها ويزيدها، ويبارك في المال الذي أخرجت منه الصدقة، ويزداد كل يوم جاهُ المتصدق، وذكره الجميل، وميل القلوب إليه، وذلك أفضل من المال ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفر، المصرّ على تحليل المحرمات ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في ارتكابه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ
تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا
تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن
تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ
إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله ورسله وبما جاءهم منه، ومن جملتها تحريم الربا ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ على الوجه الذي أُمروا به ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ عطفهما على ما يعمُّهما، لفضلهما على سائر الأعمال الصالحة ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الموعود لهم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من آت ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على فائت.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ في الظاهر ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي قوا أنفسكم عقابه ﴿ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا تركاً كلياً، نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مالٌ، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا، وقالت قريش: والله ما نعطي الربا في الإسلام، وقد وضع الله تعالى عن المسلمين، واختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة، فكتب عتاب إلى رسول الله ﷺ بقضية الفريقين، وكان ذلك مالاً عظيماً، فأنزل الله تعالى: ﴿وذروا ما بقِيَ مِنَ الرِّبا﴾ فقالوا نتوبُ إلى الله، ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم[1]. وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ على الحقيقة كاملي الإيمان، فإن دليل كماله امتثال المأمور به.

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٨ فقد ذكر هذه القصة من رواية زيد بن أسلم والسُّدِّي.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ ما أُمرتم به من الاتقاء وترك الربا ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به وقيل: فأذنوا أي فأيقنوا. وهو التفسير المأثور عن ابن عباس ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو كحرب المرتدين على الأول. وقيل هذا تهديد لا حرب، وجمهور المفسرين على الأول روي أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من أكل الربا مع الإيمان بحرمتها بعد ما سمعوا من الوعيد ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ تأخذونها تماماً ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالمطل والنقصان فلما نزلت قالت ثقيف: نتوب إلى الله، ورضوا برؤوس أموالهم، فشكا من كان عليهم دين، وقالوا: أخّرونا إلى أن نتدارك الغلات فأبوا أن يؤخِّروهم، فأنزل الله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي إن كان غريم من غرمائكم ذو إعسار، فالحكم إنظاره وإمهاله إلى يساره ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾ بحذف إحدى التائين برؤوس أموالكم على من أعسر بالإبراء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم، لأن فيه الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، وفيه تحريض للتصدُّق على المُعْسرين.

عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال ﷺ: «من سرَّه أن ينجيه الله من كُرَبِ يوم القيامة، فلينفِّس عن معسر، أو ليضَعْ عنه»(١) ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا

---

(١) أخرجه الطبراني، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٩ وروى الإمام أحمد في المسند روايةً أخرى، أنَّ أبا قتادة كان له دَيْنٌ على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبىء منه، فجاء ذات يوم فخرج صبيٌّ فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خَزيرةً ـ حساء فيه لحم ودسم ـ فناداه فقال: يا فلان، اخرج فقد أُخبرتُ أنك ههنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيِّبك عنّي؟ فقال: إني معسرٌ وليس عندي شيء، قال: آللهِ إنك معسرٌ، قال: نعم، فبكى أبو قتادة ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من نفَّسَ عن غريمه أو محا عنه، كان في ظل عرش الله يوم القيامة».

﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي تُعطى جزاءها كاملاً ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو تضعيف عقاب، عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت، وعاش ﷺ بعدها إحدى وعشرين يوماً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شروع في بيان حال المداينة، فإنه تعالى لمَّا بالغ في الوصية، بحفظ المال الحلال عن التلف، لأنه سبب لمصالح المعاش والمعاد، حثَّ على الاحتياط في أمر الأموال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي إذا داين بعضكم بعضاً، تقول: داينتُه إذا عاملته نسيئةً معطياً أو آخذاً، قال ابن عباس: لمَّا حرم الله الربا أباح السلف، وقيل: المراد بها كل ما يؤجل من المعاوضات ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ

﴿مُّسَمًّى﴾ معلوم بالأيام والأشهر، عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «من أسلم في تمر، ففي كيل معلوم، أو وزن معلوم، إلى أجل معلوم»(١) وفي رواية «من أسلف» ومعناهما واحدٌ ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ أي الدين، لأنه أوثق وأدفع للنزاع، وآمن من النسيان، وأبعد من الجحود، والأمر للندب، وعليه الجمهور، ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ﴾ بيان كيفية الكتابة المأمور بها وقال ﴿بَّيۡنَكُمۡ﴾ للإيذان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتداينين، باختيار كاتب فقيه ديّن، حتى يكتب ما هو متفق عليه، من غير زيادة ولا نقصان ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي كاتب مأمون على ما يكتب وفيه دليل على أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدَّلاً بالشرع ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾ أي لا يمتنع أحد من الكُتَّاب أن يكتب كتاب الدين ﴿أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي مثل ما علَّمه الله تعالى كتابة الوثائق، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته، كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة، كقوله تعالى: ﴿وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ﴾ ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ تلك الكتابة التي أمر بها ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ ولا يكون المملي إلا من وجب عليه الحق، لأنه هو المشهود عليه، وعلى ثبوته في ذمته، فيكون ذلك إقراراً على نفسه والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد، ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي المملي المُدِينُ على الكاتب، جَمَع ما بين الاسم الجليل، والنعت الجميل، للمبالغة في التحذير ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ وإن كان حقيراً، بَخَسه أي نقصه، والبخسُ أعمُّ من نقص المكيل والموزون، فإنه يشمل غيرهما من المبيعات ويشمل أيضاً الغل والغش والحيل ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ صرح بذلك لزيادة الكشف والبيان ﴿سَفِيهًا﴾ أحمق أو جاهلاً بالإملاء أو مبذراً لماله ومفسداً لدينه ﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾ أي صبياً أو شيخاً خَرِفاً

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب السلم ٤/ ٣٥٥ ومسلم في المساقاة رقم ١٦٠٤ ورواية البخاري عن ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يسلفون في التمر العام والعامين، فقال لهم: من أسلف في تمر. . .» الحديث.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ بنفسه لخَرَسٍ كما روي عن ابن عباس، أو لما هو أعم منه، من الجهل باللغة، وسائر العوارض المانعة ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ أي متولي أمره وإن لم يكن له خصوص الوليِّ الشرعي، فيشمل القيم والوكيل والمترجم ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بين صاحب الحق والمولى عليه فلا يزيد ولا ينقص ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شاهدان على الدين، والأمرُ للندب، أو للوجوب على الخلاف في ذلك ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ من الرجال المؤمنين، والحريةُ والبلوغ شرطٌ مع الإسلام، إذ الكلام في معاملتهم، أما إذا كانت المداينة بين الكفرة، أو كان من عليه الحق كافراً، فيجوز استشهاد الكافر ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ فيما عدا الحدود والقصاص ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ ممن تعرفون عدالتهم. روي عن عائشة أنها قالت: قال ﷺ: «لا تجوز شهادة خائن، ولا خائنة، ولا مجلودٍ حداً، ولا ذي غِمْرٍ على أخيه، ولا القانع لأهل البيت، ولا ظَنّين في ولاءٍ ولا قرابة»[1] أراد بالخيانة: الخيانة في الدين والأمانة، ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تعليل لاعتبار العدد في النساء، أي لأجل أن تذكِّر إحداهما الأخرى إن ضلت الشهادة، بأن نسيتها، لأن الغالب على طباع النساء النسيان ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ لأداء الشهادة، أو للتحمل، لئلا تضيع الحقوق، وقيل: نزلت الآية حين كان الرجل يطوف بالقوم، فيدعوهم إلى الشهادة، فلا يتبعه أحد منهم ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾ ولا تملُّوا ولا تضجروا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أي الدين أو الحق من كثرة مداييناتكم ﴿صَغِيرًا﴾ كان الحق أو الدين ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾ أي كثيراً، أو مختصراً قليلاً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المديون، أو الوقت الذي اتفق الغريمان على

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الشهادات رقم ٢٢٩٩ وقال: حديث غريب، ومعنى ذي الغِمْر: أي ذي الحقد، والقانع لأهل البيت: هو المنقطع إلى القوم يخدمهم مثل الأجير، والخادم، تردُّ شهادته للتهمة بانتفاعه منهم، والظَّنينُ هو المتَّهم بسبب قرابة أو ولاء.

تسميته ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلك الكتبُ والتسجيل ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه سبحانه ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ وأثبت لها، وأعون على إقامتها، لأن الكتابة تذكر الشهود ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أي وأقرب من انتفاء الريب، للشاهد، والحاكم، وصاحب الحق، فإنه قد يقع الريب في المقدار، والصفة، والأجل، والشهود، وإذا رجعوا إلى المكتوب، زال ذلك الريب ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ أي إلاّ أن تكون المعاملة يداً بيد ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي فيما بينكم ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي لا بأس أن لا تكتبوها، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين، ولكثرته بين الناس، فلو كُلّفوا فيه الكتابة والإشهاد، لشقَّ ذلك عليهم، ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ الأمر في هذه الآية للاستحباب، عند أكثر الأئمة ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم، أو لا يُعطى الكاتب حقه، ويحمل الشاهدُ مؤنةَ مجيئه، ونحو ذلك ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ ما نهيتم عنه أو الضرار ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ مأثم وخروج عن الطاعة، لاحقٌ بكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بجميع مصالح عباده، كرر لفظ الجلالة لتربية المهابة، وللتنبيه على استقلال كل جملة بمعنى، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعدٌ باستمرار التعليم، والثالثة وعد ووعيد وتعظيم لأمر الله تعالىٰ.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي مسافرين أو متوجهين إليه ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ أو آلة الكتابة ﴿فَرِهَٰنٌ﴾ فالذي يُستوثق

به رهان، واتفق العلماء على جواز الرهن في الحضر والسفر، ومع وجود الكاتب وعدمه، وقد صح أن الرسول ﷺ رهن درعه عند يهودي بعشرين صاعاً من شعير، أخذه طعاماً لأهله، والرهن ما وضع عند إنسان مقابل ما أخذ منه ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يدل على اشتراط القبض وعليه الجمهور، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي بعض الدائنين بعض المديونين، واستغنى بأمانته عن الارتهان، فلم يتوثق بالكتابة، والشهادة، والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ﴾ وهو المديون، وإنما عبر عنه بذلك لحمله على الأداء ﴿أَمَانَتَهُ﴾ دَيْنه، سمَّاه أمانة لائتمانه عليه، بترك الارتهان ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في الخيانة، وإنكار الحق ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود أو المديونون، والشهادة شهادتهم على أنفسهم ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾ الإثم أسند إلى القلب لأنه رئيس الأعضاء، وكأنه قيل تمكّن الإثم في نفسه، وأشرف مكانه، ألا ترى أن أصل الحسنات الإيمانُ، وأصل السيئات الكفرُ، وهما من أفعال القلوب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تهديد، لا يخفى عليه شيء فيجازيكم به.

﴿لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً، لا شركة لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه، لأنه الخالق لهما ولما فيهما ﴿وَإِن تُبْدُوا﴾ بأن تظهروه للناس، بالقول أو بالفعل ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من السوء أو العزم به ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ بأن تكتموه منهم، ولا يندرج فيه مالا

يخلو عنه البشر من الوساوس، وأحاديث النفس، التي لا عقد ولا عزيمة فيها وفي الحديث: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»(١) إذ التكليف بحسب الوسع ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة وهو حجة على منكري الحساب، والجمهورُ على أن الحديث في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذة ثابتة في العزم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ وقوله تعالى: ﴿إن بعض الظن إثم﴾ ولأن أعظم المؤاخذات إنما يكون بأفعال القلوب، كاعتقاد الكفر والبدع ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مغفرته بفضله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعدله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح، قدَّم المغفرة رحمة منه للعباد، ترغيباً لهم في المسارعة إلى موجباته ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يثيب من أطاعه، ويعاقب من عصاه.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ شهادة وتنصيص من الله تعالى لرسوله ﷺ على صحة إيمانه، وأنه جازم في أمره غير شاك، والمراد إيمانه بذلك إيماناً تفصيلياً متعلقاً بجميع مافيه من الشرائع والأحكام المذكورة، وفائدة هذه الأخبار أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الإيمان، حيث مُدح به رسوله ﷺ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وحده من غير شريك له، وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله، لتأكيد الإشعار لما بين إيمانه ﷺ المنبىء عن المشاهدة والعيان، وبين إيمانهم الناشىء عن الحجة والبرهان، من التفاوت البيِّن والاختلاف الجلي، كأنهما متخالفان من كل وجه، أي كل واحد منهم آمن بالله ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ من حيثُ إنهم عباد مكرمون، معصومون ومطهَّرون، «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون». ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ من حيث مجيئهما من عند الله تعالى، على وجه يليق

(١) الحديث أخرجه البخاري ٤٧٨/١١ ومسلم رقم ١٢٧ في الإيمان، وأبو داود رقم ٢٢٠٩ باب الوسوسة في الطلاق، وهذه رواية أبي داود، وفي البخاري «ما لم يعملوا به أو يتكلَّموا» بصيغة الجمع.

بشأن كل منهما، وإنما لم يذكر ههنا الإيمان «باليوم الآخر» لاندراجه بكتبه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي يقولون: لا نفرق بينهم بل نؤمن بالكل، قيدوا به إيمانهم تحقيقاً للحق، وتخطئةً لأهل الكتاب، حيث أجمعوا على الكفر بالرسول ﷺ واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام ﴿وَقَالُوا۟﴾ هو حكاية لامتثالهم بالأوامر، إثر حكاية إيمانهم ﴿سَمِعْنَا﴾ بآذان قلوبنا، وعلمنا صحته وتيقنا أن كل تكليف ورد بواسطة الرسول ﷺ إلينا حقٌّ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك وقبلناه عن طوع، واجتنبنا عن نهيك ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ نطلب غفرانك ذنوبنا، وتقديمُ السمع والطاعة على طلب الغفران، لِمَا أن تقديم الوسيلة أدعىٰ إلى الإجابة ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الرجوع بالموت والنشور، وفيه إقرار بالبعث والحساب والجزاء.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تَسَعُ قدرتها، فضلاً ورحمة وتيسيراً عليها لقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ فهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من شر، لا ينتفع بطاعتها، ولا يتضرر بمعاصيها غيرها، وهو للترغيب في المحافظة على موجب التكليف، والتحذير عن الإخلال بها، قال الله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وعن الحسن أن ذلك على تقدير الأمر، أي قولوا في دعائكم ذلك، فهو تعليم لعباده كيفية الدعاء، وهذا من غاية الكرم، أي لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان والخطأ من تفريط، وقلة

مبالاةٍ، والمعاصي كالسموم فكما أن تناولها ولو سهواً مؤد إلى الهلاك، فتعاطي المعاصي خطأ أيضاً، لا يبعد أن يفضي إلى العقاب ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عطف على ما قبله، والإِصْرُ: العهد، والذنب والمراد به التكاليف الشاقة من نحو قتل النفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة، وغير ذلك ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا، وهو ما كلفه على بني إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة في اليوم والليلة ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء والعقوبة أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية استعفاء عن العقوبات التي لا تطاق بعد الاستعفاء عما يؤدي إليها، قيل: هو الفرقة والقطيعة، وقيل: هو المسخ والخسف ونحو ذلك ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا وآثار ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ وتعطف بنا وتفضل ولم يؤت في هذه الجمل الثلاث بلفظ ربنا لأنها نتائج ما تقدم، فجاء فاعف عنا مقابلاً بلا تؤاخذنا، واغفر لنا مقابل: ﴿ولا تحمل علينا إصراً﴾ وارحمنا مقابل: ﴿ولا تحمِّلْنا ما لا طاقة لنا به﴾ ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي مالكنا وسيدنا وناصرنا ومتولي أمورنا ونحن عبيدك ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، والمراد به عامة الكفرة، حكى عن المؤمنين هذه الأدعية بصيغة الجمع، لأن قبول الدعاء عند الاجتماع أكمل، فإذا اجتمعت الأرواح والدواعي على شيء واحد، كان للهمم تأثيرات ولحصوله تلميحات. عن ابن مسعود: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه» كفى بمعنى أغنى أو بمعنى دفع.

وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيها الله تعالى من كنزه الذي تحت العرش فتعلموها وعلموها نساءكم وأبناءكم فإنهما صلاة وقرآن ودعاء»(١).

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي من رواية أبي ذَرٍّ مرفوعاً.

اللهم اجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ووفقنا للعمل الصالح والقول المصيب، واجعل القرآن ربيع قلوبنا وجلاء أسماعنا، وضياء أبصارنا، ونزهة أرواحنا، ويسر لنا إتمام ما قصدناه فلا تجعل لنا مانعاً عما أردناه، وسهل بتوفيقك ما نويناه، وصل وسلم على خير خلقك محمد وعلى آله الواقفين على أسرار كتابك، وأصحابه الفائزين بحكم خطابك.

**«تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة»**

* * *




## مدنية وآيتها مئتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تُسمَّى هي والبقرة بالزهراوين، وتسمى الأمان والكنز، وقد ورد في فضلهما أحاديث كثيرة. سبب نزول هذه السورة الكريمة، وفد نصارى نجران، فقد روى محمد بن إسحق قال: «قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً فخاصموا في عيسى عليه السلام، فقال لهم ﷺ: ألستم تعلمون أن الله تعالى حيٌّ لا يموت، وعيسى يموت؟ وأن ربنا قيِّم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك؟ وأنه تعالى صوَّر عيسى في الرحم، وحملته أمّه ووضعته وأرضعته، وكان يأكل ويُحْدِث، وربنا منزَّهٌ عن ذلك كله؟ قالوا: بلى، ثم قالوا يا محمد: ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا»[1].

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

---

(١) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ١/٣٧٦ وهي من رواية محمد بن إسحق.

﴿ الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ أي الباقي الدائم، القائم على تدبير شؤون العباد ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ القرآن منجماً ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي نزَّله محقاً في تنزيله على ما هو عليه، أو ملتبساً بالعدل في أحكامه، وبالصدق في أخباره ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ أي لما قبله من الكتب السالفة، وفائدة التقييد بها، حثُّ أهل الكتاب على الإيمان به ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ تأكيد لما قبله، وتمهيد لما بعده، إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعةً ووجاهة، ويزداد في القلوب قبولاً ومهابة، ويتفاحش حال من كفر به شناعة.

﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ من قبل القرآن، والتصريح به للمبالغة في البيان ﴿ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ أي أنزلهما هداية للناس، والمراد بالناس الأمم الماضية، من حين نزولهما إلى زمان نسخهما ﴿ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ يريد به جنس الكتب الإلٰهية، فإنها فارقة بين الحق والباطل، ذكر ذلك ليعمَّ ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل، أو المعجزات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها من المعجزات ﴿ لَهُمۡ ﴾ بسبب كفرهم ﴿ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ وهو وعيد، جيء به إثر تقرير التوحيد، زجراً عن الكفر والعصيان ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنقمة عقوبة المجرم، ولم يقل المنتقم، لأنه أبلغ منه، إذ لا يقال صاحب سيف إلا لمن يكثر منه القتل، لا لمن معه سيف.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي شيء كائن في العالم، كلياً كان أو جزئياً والمراد من الأرض والسماء العالم بأسره والتعبير بعدم الخفاء أبلغ من التعبير بالعلم، وهو كالدليل على كونه تعالى حياً قديراً، مالكاً لكل الأشياء.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ تصويركم من الصور المختلفة المتفاوتة في الخلقة، أبيض أو أسود، حسناً أو قبيحاً، كاملاً أو ناقصاً، والتصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، أي يصوركم وأنتم في الأرحام مُضَغ، وفيه من الدلالة على بطلان زعم ربوبية عيسى،

وهو في جملة أبناء الأرحام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيره ما يعلمه، ولا يقدر على مثل ما يفعله ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المتناهي في القدرة والحكمة، ولذلك يخلقكم على نمط بديع، كرر الجملة للدلالة على نفي الإلّهية عن غيره تعالى، توكيداً لما قبلها، ومبالغة في الرد على من ادعى إلّهية عيسى عليه السلام، ثم أتى بالحكمة لأن خلقهم على ما ذكر من النمط البديع، أثرٌ من آثار تلك القدرة الباهرة.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ شروع في إبطال شُبَه الضالين، ولام الكتاب للعهد، أي القرآن الكريم ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أحكمت عبارتها، لظهورها ووضوحها ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصلُه، تُردُّ إليها غيرها في الأحكام، والعرب تسمي كل جامع يكون مرجعاً أماً ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أُخَر جمع «أخرى» مؤنث آخر، ومتشابهات صفة لمحذوف أي محتملات لمعان متشابهات، لا يمتاز بعضها من بعض، ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق، وحكمة ورود المتشابهات، إظهار فضل العلماء فيها، والتشويق على أن يجتهدوا في تدبرها، واختبار للإيمان بالغيب ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عدول عن الحق، قال الراغب: الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين؛ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره، معرضين عن المحكمات، لا تحرِّياً للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى، بل

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم، ويضلوهم بالتشكيك والتلبيس، ومتى أوقعوا تلك الفتنة، صار بعضهم مخالفاً للبعض، وذلك يفضي إلى التقاتل، والهرج، والمرج، فذلك هو الفتنة ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ هو أن يأخذ ظاهر المتشابه، ويحمّل لفظه أحد المحتملات التي توافق أغراضه الفاسدة، ويقرر البدعة والباطل، ويؤوّل حسبما يشتهي[1] ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والحال لا يهتدي إلى تأويله إلا الله، والوقف لازم عند الجمهور على قوله: ﴿إلاَّ الله﴾ وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كوقت قيام الساعة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه، ولم يتزلزلوا في مزالّ الأقدام، ومداحض الأفهام، والمراد بالعلم «العلم الشرعي» المقتبس من مشكاة النبوة، فإن أهله هم الممدوحون بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بالمتشابه، وهو ثناء عليهم بالإيمان واعتقاد الحقيقة بلا تكييف، وهذا قول أكثر المفسرين ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ من عند الله تعالى، لا مناقضة ولا مخالفة بينهما، وفي التعبير بالرب، إشارة إلى سر إنزال المتشابهات، والحكمة فيه لما أنه متضمن معنى التربية، والإيصال إلى معارج الكمال، وقد قالوا: إنما أنزل المتشابه لذلك، وليظهر فضل العلماء، ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبره، وتحصيل العلوم التي نيط بها استنباط ما أريد به من الأحكام الفقهية، فينالوا بذلك المدارج العالية، وذلك من التربية والإرشاد ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن، وحسن النظر، للاهتداء إلى تأويله، لما أنهم قد تجردوا عن الأهواء الزائغة.

---

(١) التأويلُ: كشف المراد عن المشكل من الآية، وأكثر استعمال التأويل في المعاني، فلو قلنا في قوله تعالى: ﴿يخرج الحيَّ من الميّت﴾ إنه أُريد به إخراج الفرْخ من البيضة كان تفسيراً، وإذا قلنا: يراد به إخراج المؤمن من الكافر، أو بالعكس كان تأويلاً، فالتأويل بيان المراد من اللفظ غير الظاهر منه، مشتقٌّ من آل، يؤل، أولاً ومآلاً: إذا رجع، وأما التفسير فهو توضيح المعنى المراد، فتنبَّهْ واللهُ يرعاك.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ أي قولوا: ربنا لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق، إلى اتباع المتشابه بتأويل فاسد لا يرضيك، والزيغ إنما هو ثمرة لما يحدث في القلب، بسبب اختيار الإنسان ما يوافق له، فإن كانت تلك الداعية الكفر فهي: الخذلانُ، والإزاغة، والختم، والطبع، وغيرها، وإن كانت تلك الداعية الإيمان فهي: التوفيقُ، والرشادُ، والهداية، والسَّداد، والتثبيت، والعصمة وغيرها، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو «يا مقلب القلوب ثبّتْ قلبي على دينك» قلت يا رسول الله: ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟ فقال: «ليس من قلب إلاَّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمٰن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»[1] ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ إلى الحقّ والإيمان ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك ﴿ رَحْمَةً ﴾ واسعة تزلفنا إليك، للثبات على الحق، وسؤال ذلك، إشارة إلى أنه منه تعالى فضلٌ محض، من غير شائبة وجوب عليه تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ الهبةُ: العطيةُ الخالية عن الأعواض والأغراض، أي أنت المتفضل بالعطاء والإحسان.

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾ لحساب يوم، أو لجزائه، فحذف المضاف تهديداً لما يقع فيه ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا ينبغي أن يُرتاب في وقوعه، ومقصودُهم من هذا كمال افتقارهم إلى الرحمة، والتأكيد لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة بالآخرة، فإنها المقصد والمآل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ فإن الإلٓهية تنافيه، وإظهار الاسم الجليل، لابراز كمال التعظيم، والميعاد مصدر ميمي بمعنى الوعد، أي لا تخلف وعدك.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم/٣٥١٧/ وقال: هذا حديث حسن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ
سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ
فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم
مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً
لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لمَّا بيَّن الله تعالى دين التوحيد والحق، شرع في بيان من كفر به، والموصول عام في الكفرة ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي لن تنفع أو تدفع عنهم ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ التي أعدُّوها لدفع المضار، وجلب المصالح ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ الذين يتناصرون في الأمور المهمة ويعولون عليهم في الملمات ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء، والمعنى: لن تغني عنهم أموالهم وأولادهم من عذاب الله تعالى شيئاً من الإغناء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي حطبها الذي تُسعَّر به نار جهنم.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأبُ: استمرار الشيء على حالة واحدة، يقال: هو دائب يفعل كذا، إذا استمر في فعله، أي دأب حال هؤلاء الكفرة، في تكذيب الحق، وعدم النجاة من عذاب الله، كحال آل فرعون، من دَأَبَ في العمل إذا كدح فيه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل عاد وثمود ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيان وتفسير لدأبهم، كأنه قيل: كيف كان دأبهم؟ فقيل كذبوا الخ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم، ولم يجدوا محيصاً، فيكون هؤلاء الكفرة كحالهم أيضاً والذنب: الإثمُ يُستعمل فيما بين الرب والعبد، والجُناحُ بين الله والناس، وبين الناس والناس ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تهويل للمؤاخذة، وتنبيهٌ على أن لهم عذاباً مؤخراً، سوى ما نزل بهم من العذاب العاجل.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ رُوي عن ابن عباس أن يهود أهل المدينة، قالوا لمَّا هُزم المشركون يوم بدر: هذا والله النبيُّ الأميُّ، الذي بشَّرنا به موسى عليه السلام، وأرادوا التصديق؛ ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة له أخرى، فلما كان يوم أحد شكُّوا وقالوا: لا والله ما هو به، فلم يسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنقضوا ذلك العهد، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ عن قريب، فالمراد من الموصول اليهود، وقيل: الآية في مشركي مكة وهي من دلائل النبوة، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده، فقتل وأجلى ﴿ وَتُحْشَرُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ المستقر، وهو غاية حشرهم.

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم أنكم ستغلبون ﴿ فِى فِئَتَيْنِ ﴾ أي فرقتين، وأجمع المفسرون على أن المراد بهما رسول الله وأصحابه، ومشركو مكة ﴿ ٱلْتَقَتَا ﴾ أي تلاقيا بالقتال يوم بدر ﴿ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهم المؤمنون، لكن ذكر مكانه من أحكام الإيمان، الجهاد في سبيل الله، مدحاً لهم، وإيذاناً بأنه المدار في تحقيق النصر ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ أي فئة أخرى ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ وإنما لم توصف هذه الفئة، لإسقاطهم عن درجة الاعتبار ﴿ يَرَوْنَهُم ﴾ أي ترى الفئة الأخيرة الفئة الأولى ﴿ مِّثْلَيْهِمْ ﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين ﴿ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ رؤية ظاهرة معاينة، رُوي عن سعيد بن أوس أنه قال: أسر المشركون رجلاً من المؤمنين، فسألوه كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشرة، قالوا: ما كنا نراكم إلاَّ تضعفون علينا!! أراهم الله تعالى كذلك مع قلَّتهم، ليهابوهم، ويجتنبوا قتالهم، فئة الكفار كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً، وهم شاكو السلاح، وفيهم صناديد قريش، ومن الإبل سبعمائة بعير، ومائة فرس، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان معهم سبعون بعيراً، ومن الخيل فرسان فقط، وكان ذلك اليوم في السابع عشر من شهر رمضان، سنة اثنتين من الهجرة النبوية ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ ﴾ يقوّي

من غير توسط الأسباب المعتادة ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ بعونه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من أراد نصرته، كما أيّد المؤمنين في بدر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي التقليل أو التكثير، وغلبة القليل على الكثير ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لعبرةً عظيمة ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي البصائر والعقول السليمة، التي تستفيد من الدلائل الإلهية.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ بيانٌ لحقارة شأن الحظوظ الدنيوية، وتزهيد الناس فيها، وتوجيه رغباتهم إلى ما عند الله تعالى، إثر بيان عدم نفعها للكفرة، الذين يتعززون بها، والمراد بالناس الجنسُ، والمزين هو الله تعالى عند الجمهور، وإنما زينها للابتلاء، كما قال تعالى: ﴿إنَّا جعلْنَا مَا عَلَى الأرْض زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهم﴾ الآية، وعن الحسن: المزيِّنُ هو الشيطان، لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ﴾ والتزيين للشهوات، يُطلق ويراد بها حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إليه تعالى حقيقة، وأن يراد به الحض على تعاطي الشهوات، وهو مضاف إلى الشيطان، تنزيلاً لوسوسته منزلة الأمر بها، وكلامُ الحسن محمولٌ على التزيين بالمعنى الثاني ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي المشتهيات، سمَّاها شهوات مبالغةً، وإيماء إلى أنهم انهمكوا

في محبتها، حتى أحبُّوا شهوتها، والشهوةُ نزوع النفس وتَوَقَانُها إلى ما تريده ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وإنما بدأ بهنّ لأن الالتذاذ بهن أكثر، ولأنهن حبائل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال من النساء»[1] ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ لأن حبهم فطرةٌ وغريزة، وهم فلذات الأكباد، ولأنهم من ثمرات النساء في الفتن، واللفظ يشمل البنات أيضاً، بطريق التغليب ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ مأخوذ من القنطار للتأكيد، كقولهم بدرة مبدرة أي منضم بعضها على بعض ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطير ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلَّمة من السومة وهي العلامة، أو المرعية من أَسَامَ الدابةَ إذا أرسلها للمرعى، والخيل جمع لا واحد له من لفظه، كالقوم، والرهط ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم وهي الإبل، والبقر، والغنم ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ الزرع مصدر، من مفعول ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما يتمتع بها في الدنيا أياماً قلائل، وهي زائلة وفانية ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ أي المرجع وحسن المنقلب، وهي الجنة دار المتقين.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أمر النبي ﷺ بتفصيل ذلك المجمل للناس، مبالغة في الترغيب أي هل أخبركم ﴿بِخَيْرٍ﴾ أي بما هو خير، وإبهام الخير لتفخيم شأنه، والتشويق إليه ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي مما فُصّل من تلك المستلذات، المزينة لكم، لأن نِعَمَ الدنيا مشوبة بالمضرة، ومنقطعة لا محالة، ونِعَمُ الآخرة خالية عن المضار، وباقية ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ يدخل في هذا كل من اتقى الشِّركَ والمعاصي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزهة عن الدنس والقذر الحسِّي، والمعنوي ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي رضوان عظيم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رضاء الله تعالى، وقد نبه الله سبحانه بهذه الآية على نعمه، فأدناها نعم الدنيا،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٩/١١٨ ومسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٧٤٠.

وأعلاها رضوان الله تعالى، لقوله: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وأوسطها الجنة ونعيمها ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي بأعمالهم، فيثيب أو يعاقب، وبصير بأحوال الذين اتقوا، ولذا أعدَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهارُ.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل: مَنْ أولئك المتقون؟ فقيل: هم الذين يقولون ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ إجابة لدعوتك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ إنجازاً لوعدك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ المراد بها الصغائر والكبائر ﴿وَقِنَا﴾ بفضلك ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي أجرنا من عذاب جهنم.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي أعني بهم الصابرين على الإيمان، والطاعات، والمصائب ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قولاً بإخبار الحق، وإخلاص النية ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المداومين على الإيمان والطاعة، المواظبين على العبادات ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أموالهم في سبيل الله ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ الأسحار جمع سَحر، بفتح الحاء أواخر الليالي، وخص الأسحار لأنها وقت إجابة الدعاء، لأنه وقت الخلوّ والنفسُ أصفى، والروحُ أجمع، سيَّما للمتهجّدين!!.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بيَّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها، وإنزال الآيات الناطقة بها، عبَّر عنه بالشهادة إيذاناً بقوته في إثبات المطلوب، فشبَّه سبحانه تلك الدلائل، بشهادة الشاهد في البيان ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالإقرار لما عاينوا من عظيم قدرته ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ أي الأنبياء والعلماء الذين عرفوا وحدانيته بالدلائل القاطعة شهدوا بالإيمان ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل في جميع أموره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر للتأكيد، أي لا معبود بحق إلا الله ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني أنه العزيز الذي لا يُغالب، والحكيم الذي لا يعدل عن الحق.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ
مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ أي لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام، الذي هو التوحيد والتدرُّع بشريعة الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله وإخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هم اليهود، والنصارى والذي اختلفوا فيه الإسلام، كما يشعر به السياق، والتعبير عنهم بهذا العنوان، زيادة تقبيح لهم، فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح، ثم اختلافهم في دين الإسلام حيث قال قوم: إنه حق، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون، واختلافهم في التوحيد، فثلَّث النصارى، وقالت اليهود عزير ابن الله ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي بعدما علموا حقيقة الأمر، وتمكنوا من العلم بالآيات والحجج ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ما كان ذلك الاختلاف إلاّ حسداً بينهم، وطلباً للرياسة لا لشبهة وخفاء في الأمر ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الناطقة بوحدانيته، أو بأي آية كانت من آياته تعالى وبحججه ودلائله، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي فإنه تعالى سريع الحساب يأتي حسابه عن قريب، ويتم بسرعة.

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ في الدين وجادلوك فيه، بعدما أقمت الحجج،

والضمير للذين أوتوا الكتاب من وفد نجران ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي أخلصت نفسي، وقلبي، وجملتي لله وحده، وفيه إشارة إلى أن الجدال معهم ليس في موقعه، لأن الجدال إنما يكون في أمرٍ خفي، والذي جادلوا به أمر مكشوف، وهو الدين القويم الذي ثبتت صحته ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي أنا وأتباعي على الإسلام ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي وقل لليهود والنصارى عامة ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ أي الوثنيين من العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما فعل المؤمنون، فإنه قد جاءكم من الآيات ما يوجبه، أم أنتم على كفركم، وإصراركم على العناد؟ وفي ذلك تعبير لهم بالمعاندة، وقلة الإنصاف، وتوبيخ بالبلادة ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ أي اتصفوا بالإسلام، والدين الحق ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ فقد أصابوا الرشد، حيث خرجوا من الضلالة إلى الهدى ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن قبول الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي لن يضرُّوك شيئاً فإنك رسول، وما عليك إلا أن تبلغ الرسالة، وقد بلغت ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم، فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعدٌ ووعيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أيَّ آية كانت، فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقيقة الإسلام ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ سوى الأنبياء عليهم السلام، ولعل تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو أسلوب تهكم وسخرية.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الصفات القبيحة ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ ضاعت وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها من البر والإحسان، فلهم اللعنة والخزي ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يدفعون عنهم العذاب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ
إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا
جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ
مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي التوراة، وفيه تقبيح لصنيعهم، حيث رفضوا حكم التوراة ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي إلى كتابهم المنزل من عند الله وإضافته إلى اسم الله الجليل لتشريفه، وتأكيد وجوب المراجعة إليه ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ روي أن رجلاً وامرأةً من أهل خيبر زنيا، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ ورجوا أن تكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال علماؤهم ليس عليهما الرجم، فقال ﷺ بيني وبينكم التوراة فأبيا ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التولي والإعراض ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي خدعهم في زعمهم ذلك قولهم ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقولهم: إن الله وعد يعقوب أن لا يعذب أبناءه.

﴿ فَكَيْفَ ﴾ رد لقولهم المذكور وإبطال بما سيحيق بهم من الأهوال أي فكيف يكون حالهم ﴿ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ ﴾ لجزاء يوم ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا

شك في وقوعه ووقوع ما فيه. روي أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ جزاء ما كسبت، من غير نقص أصلاً كما يزعمون وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط، وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون في النار ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ ﴾ الميم عوض عن يا، ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم وأصله يا الله ﴿ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ مالك جنس الملك بحيث يتصرف فيه كيفما يشاء إيجاداً وإعداماً، إحياء وإماتة، من غير مشارك فيه وهو نداء ثان أي يا مالك الملك ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ مفعوله محذوف أي من تشاء إيتاءه إياه ﴿ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ أي ممن تشاء نزعه منه وهذا بيان لبعض وجوه التصرف، الذي تستدعيه مالكية الملك، وتحقيق لاختصاصها به تعالى، المُلْكُ، والمالُ، والجاه، الكل لا يحصل إلاّ من الله عز وجل، أمّا تكثير المال، فقد نرى الرجل في غاية الكياسة، لا يحصل له مع الكدّ الشديد قليل من المال، ونرى الأبله الغافل، قد يحصل له من الأموال ما لا يُحصى، وأما الظفر فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، وعند هذا يظهر قوله تعالى: ﴿تُؤتي الملك من تشاء﴾ ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ أن تعزه في الدنيا ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ بالإدبار والخذلان ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ أي ما تفعله الخيرُ كله، لا بقدرة أحد من غيرك تتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئتك، والخير والشر بيده تعالى، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر، لرعاية الأدب، ونبّه على أن الشر بيده، بقوله: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما سبق، والشر غير مقصود بالذات بل إنما قضاها الله تعالى لحكمة ومصلحة، ألا ترى أن الحجامة، والجراحة، وشرب الدواء الكريه ونحوها من الأمور المؤلمة لكونه وسيلة إلى حصول الصحة، يُعدُّ خيراً لا شراً، وكلُّ قضاء الله تعالى من هذا القبيل.

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ ﴾ الإيلاجُ: الإدخالُ، واستعير لزيادة النهار في الليل وعكسه، بحسب المطالع والمغارب في أكثر البلدان، ولا يضر تساوي الليل والنهار دائماً عند خط الاستواء، لأنه يكفي الزيادة والنقصان فيهما في الأغلب، أي تنقص من ساعات الليل، وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار، وتزيد في الليل ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّۖ ﴾ إخراج الحي من الميت وبالعكس إنشاء الحيوانات والنباتات من موادها، مثل إخراج الزرع من الحب، والنخلة من النواة، والفرخة من البيضة، والإنسان الحيّ من النطفة، وعكس ذلك، وقيل: إخراج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل، وعكسه، والأكثرون على الأول، وهو للحقيقة أقرب ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا يعرف الخلق مقداره، وإن كان معلوماً عنده، ولمَّا بيَّن سبحانه أن إعطاء الملك والإعزاز منه تعالى، نبّه المؤمنين على أنه لا ينبغي أن يوالوا أعداء الله تعالى.

فقال تقدست أسماؤه:

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نهوا أن يوالوا الكافرين، لقرابة بينهم، أو لصداقة ونحوهما، حتى لا يكون حبهم وبغضهم إلا في الله، فإن قيل: إن المحبة للقرابة خارجة عن الاختيار؟ قلنا: المراد هنا ما يقتضيه الإسلام، من بغض وحبّ شرعيين، يصح التكليف بهما، وقد كرر هذا النهي في القرآن، وحمل الموالاة على ما يعمُّ الاستعانة بهم في الغزو، وجوَّز بعضهم الاستعانة بشرط الحاجة والوثوق، ومن الناس من استدلَّ بالآية، على أنه لا يجوز جعلهم عمالاً ولا استخدامهم في أمور الديوان، وكذا أدخلوا في الموالاة المنهيّ عنها السلام، والتعظيم، والتوقير في المجالس ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء، والتعبير عنه بالفعل، للاستهجان بذكره ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ الكلام على حذف المضاف، أي ليس من ولايته أو دينه، وتنوين شيء للتحقير، أي ليس في شيء يصح أن يطلق عليه اسم الولاية، أو الدين، لأن موالاة المتضادَّيْن مما لا تكاد تدخل في الخاطر، كما قال القائل:

تَـوَدُّ عَـدُوّي ثـم تَـزْعُـم أنَّنـي صَدِيقُكَ لَيسَ النَّوْكُ عنكَ بِعَازِبِ

النَّوكُ: الحُمْقُ والجنونُ. وقال آخر:

إذَا وَالَـىٰ صَـدِيقُـك مـن تُعَـادِي فَقَـدْ عَـاداكَ وانقطَـعَ الكَـلاَمُ

الموالاة خلافُ المعاداة وهي من الولى وهو القرب ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟﴾ استثناء مفرغ كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء في حال من الأحوال، إلاّ حال اتقائكم ﴿مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلا أن تخافوا من جهتهم، أمراً يجب اتقاؤه، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة، وإبطان المعاداة، مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء، من غير أن يستحل حراماً من المحرمات، كنقل أخبار المسلمين إليهم، والاستعانة بهم، والآيةُ دليل على مشروعية التقية،

وعرَّفوها بمحافظة النفس، والمال، والعرض، من شر الأعداء، وعدَّ قوم من باب التقية، مداراة الكفار، والفسقة، والظلمة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم لكفّ أذاهم، ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها، لحديث «إنَّا لنبَشُّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم»(١) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي عقاب نفسه وفيه تهديد عظيم، حيث علّق التحذير بنفسه أي ذاته المقدسة، فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إلى حكمه، وإلى جزائه تعالى فيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ ما في قلوبكم، ومن جملتها موالاة الكفرة، وإنما ذكر الصدر لأنه وعاء القلب ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ فيما بينكم مما لا يرضي الله ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيؤاخذكم بذلك ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا من باب إيراد العام بعد الخاص، تأكيداً له وتقريراً ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وبذلك يكمل وجه التحذير، فكأنه سبحانه قال: ويحذركم الله عقابه لأنه متصف بالعلم الذاتي، محيط بالمعلومات كلها، فلا تجترئوا على عصيانه، وموالاة أعدائه، إذ ما من معصيةٍ إلا وهو مطَّلعٌ عليها، وقادر على العقاب لمن فعلها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وإن كان مثقال ذرة ﴿مُّحْضَرًا﴾ تجد جزاءها محضراً بأمر الله ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ أي وما فعلته ﴿تَوَدُّ﴾ وتتمنى يوم ذلك ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي بينها وبين ما عملت من السوء ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ الأمدُ: غاية الشيء

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب تعليقاً عن أبي الدرداء ١٠/ ٥٢٧ بلفظ: «إنَّا لَنَكْشِرُ ـ أي نبتسم ـ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم» ويؤيد هذا حديث عائشة: استأذن على النبي رجل، فقال: «ائذنوا له فبئس أخو العشيرة، فلمَّا دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلتَ ما قلتَ ثم ألنتَ له في القول؟ فقال: أيْ عائشة، إن شرَّ الناس منزلةً عند الله، من تركه الناسُ اتّقاء فُحْشه» رواه البخاري.

ومنتهاه، والمراد هنا الغاية الطويلة، والمسافة البعيدة كما في قوله تعالى: ﴿ياليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين﴾ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ كُرِّرَ للتأكيد والتذكير، ذكره أولاً للمنع عن موالاة الكفار، وهنا للحثِّ على عمل الخير، والمنع عن عمل الشر ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أفاد أن تحذيره تعالى، من رأفته بهم، ورحمته الواسعة. ولمَّا زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله كما قالت اليهود ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقالت النصارى: إنما نعبد المسيح حباً لله وقال المشركون: إنما نعبد الأصنام حباً لله.

نزل في حقهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء بحيث يحملها على ما يقربها إليه، أي قل لهم: إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأني رسوله ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ جواب للأمر أي يرض عنكم، فيقرِّبكم من جنابه عزَّ وجل ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن يتحبَّب إليه بطاعته، واتباع نبيه، فيغفر له ويرحمه.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله تفلحوا وتسعدوا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عن قبول الطاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يرضىٰ عنهم، ولم يقل لا يحبهم لقصد العموم، وللدلالة على أن التولي كفر، فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم، وإن محبة الله تعالى مختصة للمؤمنين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(١).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/ ٢١٤.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ
رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ
وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا
رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا
ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ
يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لمَّا بين الله تعالى، أن الدين المرضي عنده هو الإسلام والتوحيد، وأن اختلاف أهل الكتاب إنما هو للبغي والحسد، وأن الفوز برضوانه ومغفرته منوط باتباع الرسول ﷺ، شرع في تحقيق رسالته، وكونه من أهل النبوة، ثم نص على أن جميع الرسل دعاة إلى عبادة الله وحده، والمراد بآل إبراهيم: إسماعيل، وإسحق والأنبياء من أولادهم الذين من جملتهم النبي ﷺ والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم.

﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾ يعني ذرية واحدة، متسلسلة، بعضها يتشعب عن بعض في التقى والصلاح والدين ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال العباد ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمالهم البادية والخافية، فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، كقوله تعالى ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ ﴾ أي اذكر وقت قول امرأة عمران واسمها «حنَّة» روي أنها كانت عاقراً لا تلد، فبينما هي في ظل شجرة، إذ رأت طائراً

يطعم فرخه، فحنَّتْ إلى الولد وتمنته، فقالت: اللهم إنَّ لكَ عليَّ نذراً إن رزقتني ولداً، أن أتصدَّق به على بيت المقدس، فيكون من خَدَمته، فحملت وقالت ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ وكان هذا النذر مشروعاً عندهم في الغلمان ﴿مُحَرَّرًا﴾ مخلصاً للعبادة ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ أي ما نذرته، وهذا في الحقيقة استدعاء الولد، إذ لا يتصور القبول بدون تحقق المقبول، وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلا طلب رضاء الله تعالى والإخلاص في دعائه ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات، ومن جملتها تضرعي ودعائي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل المعلومات، التي من زمرتها ما في ضميري من النية.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أي فلما ولدت المولود وكان أنثى، قالت على وجه التحسر والاعتذار، مظهرة الأسى والحسرة:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وهذا الكلام ليس من قبيل الإخبار، بل تحسرت إلى مولاها، لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها، أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وجعلها وابنها آية للعالمين، وهي غافلة عن ذلك ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهبت، فإنّ دائرة علمها لا تحيط بما فيها من جلائل الأمور، أو اعتذار آخر منها ببيان أن الذكر ليس كالأنثى، في المزية وصلاحية خدمة المتعبدات، فإنهن بمعزل من ذلك ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وإنما ذكرت ذلك لربها، تقرباً إليه، وطلباً لأن يعصمها ويصلحها ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أجيرها بحفظك، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، وفي ذكر «ذريتها» رمز إلى طلب بقائها، وطلب التناسل منها، والإعاذةُ: الالتجاء إلى الغير، يقال عاذ فلان بفلان إذا استجار به ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي من شر الشيطان الرجيم، المطرود من رحمة الله ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلاّ والشيطان يمسُّه حين يولد،

فيستهلُّ من مسّه صارخاً إلاّ مريم وابنها»[1] فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ قبل الله مريم، ورضي بها في النذر مكان الغلام الذَّكَر، ﴿رَبُّهَا﴾ مالكها ومبلغها إلى كمالها اللائق ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي تقبلها قبولاً حسناً ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ربّاها تربية كاملة بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ أي جعله كافلاً لها، وضامناً لمصالحها، وقائماً بأمورها، وضمها إلى خالتها أم يحيى، حتى إذا بلغت مبالغ النساء، بنى لها محراباً في المسجد، أي غرفة في المسجد يصعد إليها بسلم. روي أنه عليه السلام كان يأتيها بطعامها وشرابها، كل يوم، وكان لا يدخل عليها إلاّ وحده، وإذا خرج أغلق عليها الأبواب، وذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ﴾ وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس أو نوعاً منها غير معتاد فيتعجب: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾؟ أي من أين لك هذا الرزق، الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آتٍ في غير حينه؟ والآية دليل جواز الكرامة للأولياء ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ يعني من الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرزقه ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلاً به.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٦/٣٣٨ وفي تفسير سورة آل عمران، ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٦٦ باب فضل عيسى ﷺ.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أي: في ذلك المكان أو الوقت، روي عن الحسن قال: لمّا وجد زكريا عند مريم ثمر الصيف في الشتاء وسألها أنى لك هذا؟ قالت: هو رزق من عند الله، طمع زكريا في الولد، وقام واغتسل، ثم ابتهل في الدعاء لله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أعطني من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ مباركة صالحة وطلبه بلفظه الهبة لأن الهبة إحسان محض، وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد لكبر سنه ولا للوالدة لكونها عاقر، فكأنه قال: أعطني ذرية من غير طريقٍ معتاد، والمراد من الذرية الولد الواحد ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أراد كثير الإجابة، وهو تعليل لما قبله، وتحريك لسلسلة الإجابة، وفي ذلك اقتداء بجدّه الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿الحمدُ للهِ الذي وَهَبَ لي على الكِبَر اسمَاعيلَ واسحقَ إنَّ ربِّي لَسَميعُ الدعاءِ﴾[1].

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المنادي كان جبريل وحده، والجمع للتعظيم ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي قائماً في الصلاة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي بأن الله يبشرك بولادة غلام اسمه يحيى، سمي بذلك، لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، حتى لم يقم بمعصية قط، وفيه تلميح أن في الصلاة إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المراد بالكلمة عيسى عليه السلام، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وإنما سمي عيسى بذلك، لأنه خُلِق بكلمة «كن» من دون سبب عادي، ويحيي أول من آمن بعيسى عليه السلام، وكان أكبر من عيسى بستة أشهر كما قال الضحاك وغيره ﴿وَسَيِّدًا﴾ فسره ابن عباس بالكريم، وأصل معنى السيد من يسود قومه، ويكون له أتباع وأنصار، ثم أطلق على كل فائق في الدين، فإنه عليه السلام كان سيد قومه، وله أتباع منهم ﴿وَحَصُورًا﴾ هو

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٩.

الذي لا يقرب النساء، مع القدرة على ذلك، قاله ابن عباس، ومن فسَّره بأنه كان عنيّناً فباطل، إذ العِنَّةُ عيبٌ لا يجوز على الأنبياء ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ناشئاً منهم، وكائناً من عدادهم، والمراد من الصلاح صلاح الدين.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ لم يخاطب المَلَك المنادي له، بل جرى على نهج دعائه السابق، مبالغة في التضرع والمناجاة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟ استبعاد من حيث العادةُ واستعظام للقدرة، لشكٍّ منه، وفيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاماً عند التبشير (وأنّى) بمعنى كيف، أي: كيف يكون لي غلام ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن، وأثّر فيَّ وكانت له تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي لا تلد، من العقر وهو القطعُ من الأولاد، قال ذلك مع سبق لدعائه، وقوة يقينه بقدرة الله، استعظاماً لقدرته تعالى ﴿قَالَ﴾ أي الرب تعالى ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي ما يشاء أن يفعله، من الأفعال العجيبة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي علامة أعرف بها الحَبَل، وإنما سألها استعجالاً للسرور، ليتلقى تلك النعمة بالشكر ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أن لا تقدر على تكلم الناس، وإنما حبس لسانه عن مكالمتهم خاصة، لتخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره، قضاءً لحق النعمة، وإنما خص «الناس» للإشارة إلى أنه غير ممنوع من الذكر، والتسبيح ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بنحو يد، أو رأس، قال جمهور المفسرين: عُقد لسانهُ عن تكليم الناس خاصة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحُبْسة، أي ذكراً كثيراً، أو زماناً كثيراً ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى وفي أصل اللغة أبكر: إذا خرج للأمر في أول النهار، ومنه بكَّر وابتكر، إذا تكلَّف الخروج في بداية الصباح.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ كلَّموها شفاهاً كرامة لها، والاصطفاء الأول تقبُّلها من أمها، وتفريغها للعبادة، وإغناؤها برزق الجنة، وتطهيرها عما يُسْتقذر من النساء، والثاني هدايتها وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات، وتبرئتها مما قذفته اليهود بإنطاق الطفل، وجعلها وابنها آيةً للعالمين، والمراد بالملائكة هو جبريل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سوياً﴾ ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ وهذه المقاولة قبل بشارتها بعيسى عليه السلام، وهي من باب التربية الروحانية، بالتكاليف الشرعية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اختاركِ حين تقبَّلك من أمك، حيث ربَّاكِ، ورزقك من أرزاق الجنة ﴿ وَطَهَّرَكِ﴾ مما يستقذر من الحيض والنفاس، أو من الذنوب ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قيل المراد بالاصطفائين واحد والتكرير للتأكيد، وقيل: الأول لخدمة بيت المقدس، والثاني لولادة عيسى عليه السلام.

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ أي أديمي الطاعة ﴿وَٱسْجُدِى﴾ تقديم السجود على الركوع ليقرن بالراكعين، والواو تفيد الاشتراك لا الترتيب ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي ولتكن صلاتك مع المصلين، وكانت رضي الله عنها مقدمة

على الطاعات والعبادات، متبتلة إليه عز وجل، مستعدة لفيضان الروح عليها.

﴿ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق، من قصة حنَّة أم مريم، وزكريا، ومريم ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ نلقيه إليك خفياً، والوحيُ يُطلق على الإشارة الخفية، ومنه قوله تعالى: ﴿فأوحَى إليهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعشِيّاً﴾ وعلى الإلهام الذي يقع في النفس، وهو أخفى من الإيماء، ومنه قوله تعالى: ﴿وأوحَيْنَا إلى أمِّ مُوسَى﴾ ويُطلق على ما يكون غريزة دائمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وأوحَى ربُّكَ إلى النَّحْلِ﴾ وعلى الإعلام في الخفاء كما قال سبحانه: ﴿يُوحي بعضُهم إلى بعض﴾ ووحي الله على أنبيائه، وهو ما يلقيه عليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم، وهو صلة بين عالم الغيب والشهادة، كما قال سبحانه ﴿وَمَا كَان لبَشَرٍ أن يكلمهُ الله إلاّ وَحْياً أو مِنْ وَرَاءِ حجَابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بإذْنِهِ مَا يَشَاءَ..﴾[1] الآية. وصيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحي لم ينقطع ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ عندهم أي عند الذين اختلفوا في تربية مريم، وهو تقرير وتحقيق لكونه وحياً، فإن أمثال هاتيك الحوادث، إما المشاهدة، وإما السماع، وعدمُ السماع محّققٌ فبقي المعاينة، فنفيت في هذه الآية. ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ وهي قداحهم التي طرحوها في النهر، أو هي الأقلام التي يكتبون التوراة بها اختاروها للقرعة تبركاً ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ روي أن حنَّة لمَّا حملت مريم إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار، قالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت ابنة إمامهم، فقال لهم زكريا عليه السلام: إني أحقُّ بها، عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نُقرِعَ بيننا، فانطلقوا إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا، ورست أقلام غيره، فتكفَّلها زكريا ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

(١) سورة الشورى، آية ٥١.

﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾ في شأنها تنافساً في التكفل بها وتكرير ﴿وما كنت لديهم﴾ للدلالة على نبوته ﷺ، فإنه لم يكن حاضراً في الحالين، فمن أين عرف بذلك؟ لا شك أنه كان بطريق الوحي الإلهي.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾ بدل ﴿إذ قالت﴾ الأولى، وما بينهما اعتراض، وهذا شروع في قصة عيسى عليه السلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ﴾ أي بعيسى، والمراد بالكلمة قوله تعالى: ﴿كُن﴾ باعتبار أنه خلق من غير أب بل بواسطة «كن» ﴿مِّنۡهُ﴾ أي كائنة منه تعالى، فالمعنى قال جبريل لمريم يا مريم: إن الله يبشرك من عنده ببشرى، وهي ولد يولد منك، من غير بعلٍ، وذلك الولد ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ﴾ وهو من الألقاب المشرّفة، كالصدِّيق، والفاروق، أصله المشيح بالعبرانية، ومعناه المبارك كقوله تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ بدل من المسيح، وإنما قال ابن مريم إعلاماً لها أنه يولد من غير أب، إذ الأولاد تنسب إلى الآباء، ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب، وفيه رد على النصارى فيما زعموه من بنوّته لله تعالى، ومن كان منسوباً لوالدته كيف يكون إلّهاً، أو ابن إلّه؟ ولم يذكر الله امرأةً باسمها في كتابه العزيز إلاّ مريم لهذه الحكمة ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالنبوة، والتقدم على الناس ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بالشفاعة، وعلو الدرجة، والوجيهُ: ذو الجاه، وهو القوة والمنعة والشرف ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً، وكهلاً[1].

---

(١) ذكر علماء اللغة أن المولود ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا وُلد فهو وليدٌ، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، وإذا استغنى عن اللبن فهو فطيم، فإذا نبتت أسنانه فهو مثغر، فإذا قارب عشر سنين فهو ناشيء، فإذا قارب الحلم فهو مراهق، فإذا احتلم فهو غلام، فإذا ظهر شاربه فهو فتى، ثم ما بين الثلاثين إلى الأربعين هو شاب، ثم كهلٌ إلى أن يبلغ الستين، ثم إذا جاوزها فهو هرمٌ.

والمقصود بيان التسوية بين الكلامين، والمهدُ: مقرُّ الصبي حال رضاعه، وكان كلامه في المهد ساعة واحدة، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام، قاله ابن عباس[1] وقوله: ﴿وجعلني نبياً﴾ إخبارٌ عما يؤول إليه، وجُوّز أن يكون ذلك كرامة لمريم، دالة على براءة ساحتها، وتكليمُه كهلاً بعد نزوله من السماء، بناءً على ما ذهب إليه سعيد بن المسيب أنه عليه السلام رفع إلى السماء، وهو ابن ثلاث وثلاثين[2] وأنه سينزل إلى الأرض ويبقى حياً فيها مدة طويلةً من الزمن، كما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن كعب الأحبار ﴿وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وإنما ختم بكونه من الصالحين، لأن مقام الصالحين في مراتب الأنبياء أعظم المراتب، وذكر أحواله المختلفة إرشاداً إلى أنه بمعزل عن صفة الألوهية.

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ متضرعة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ أي من أين يكون ﴿لِى وَلَدٌ﴾ على وجه التعجب، واستعظام قدرة الله تعالى ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾؟ أي لم يصبني رجل، والمسيسُ هنا كناية عن الوطء، وهذا نفي عام للتزوج وغيره، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إيراد «يخلق» ههنا مكان «يفعل» هناك، لِمَا أن ولادة العذراء، من غير أن يمسَّ بها بشر، أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر، فكان الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام، ولذلك عقب ببيان كيفية الخلق فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ والمراد من هذا الجواب، بيان أن الله تعالى لا يعجزه أن يخلق ولداً بلا أب، لأنه أمر ممكن في نفسه، كيف لا وكثيراً ما نشاهد حدوث بعض الحيوانات على غير سبيل التولد، كحدوث الفأر عن المدر، والحيات عن

---

(١) كان أوَّلُ كلامه عليه السلام قوله: «إني عبد الله آتاني الكتاب. .» وتكلَّم ببراءة أمه.

(٢) واختلف في زمن رسالته، فقيل: كانت في الصِّبا، والمشهور أنه كان ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، ثم رفع إلى السماء، وسينزل في آخر الزمان، لإكمال دعوته، فيكسر الصليب، ويقتل الدَّجَّال، ويحكم بشريعة الإسلام، كما ورد ذلك في كتب الصحاح، صلوات الله عليه، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

الشعر المتعفن، والعقارب عن الأراضي الملوّثة، والذباب عن الباقلاّء، إلى غير ذلك.

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الكتابة وكان عليه السلام أحسن الناس خطاً في زمانه، أو جنس الكتب الإلَهية ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي الفقه، قاله ابن عباس، وقيل: سنن الأنبياء ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إنما ذكر الإنجيل، لكونه معلوماً عند الأنبياء أنه سينزل، وقيل: علمُهُ موهبةٌ إلَهية[1] ﴿وَرَسُولًا﴾ أي يجعله رسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي إلى كلهم، وتخصيص بني اسرائيل لخصوص بعثته إليهم، واليهود في أمره فرقتان: فرقة ترميه بأقبح ما رمت وهم أكثرهم، يرمونه بأنه ابن زنى، وفرقة يصدِّقون بمواعظه أنه لم يخالف التوراة، ويعتقدون أنه عابدٌ من عُبّاد بني إسرائيل وليس برسول ﴿أَنِّىٓ﴾ أي ناطقاً بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بمعجزة واضحة وإنما قاله وجاء بآيات، لأن الكل دلَّ على شيء واحد، وهو صدقه في الرسالة

(١) كما وهب الله خاتم المرسلين، العلم الواسع دون معلّم ﴿وعلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ أصوِّر وأقدِّر ﴿لَكُم﴾ لأجل تحصيل إيمانكم ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ الهيئة: الصورة المهيأة أي مثل صورة الطير، والمراد بالخلق التصوير لا الإيجاد ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للهيئة المقدرة وذكر الضمير هنا مراعاة للمعنى، كما أنَّث في المائدة مراعاةً لِلَّفظ ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ حياً طيّاراً كسائر الطيور ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره تعالى، نبه به على أن إحيائه من الله تعالى لا منه، ولكن بسبب النفخ فيه، وفي هذه المعجزة مناسبة لخلقه بنفخة جبريل من غير أب، ذُكِرَ أن بني إسرائيل طلبوا منه على سبيل التعنت ـ جرياً على عاداتهم مع أنبيائهم ـ أن يخلق لهم خفاشاً، فلما فعل قالوا: ساحر، ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ والأكمه: هو الذي ولد أعمى ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ وهو مرض يحدث في الجسم، يسبب للمريض حكّاً مؤلماً، يقال له: الوَضَحُ، ولم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه، وتخصيص هذين الأمرين، لأنهما ممّا أعيا الأطباء، وكان الغالب على زمان عيسى الطب، فكان إبراؤهما معجزةً له، ودليلاً على صدقه، كما أرى قوم موسى المعجزة بالعصا، حيث كان الغالب عليهم السحر وكان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ كرر بإذن الله، دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس أفعال البشر ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ بالمغيَّبات من أحوالكم التي لا تشكوّن فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الخوارق الأربعة، وهذا من كلام عيسى عليه السلام، حكاه الله تعالى عنه، وقيل: هو من كلام الله ﴿لَأٓيَةً لَّكُمۡ﴾ دالة على صحة الرسالة دلالة واضحة حيث لم تكن أسباباً عادية كما يفعله الأطباء ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مصدّقين للحق غير معاندين، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم موفقين للإيمان انتفعتم بذلك البيان الساطع، بظهور الخوارق من العادات.

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي جئتكم ملتبساً بآية، ومصدّقاً بالتوراة، ومعنى تصديقه الإيمان بجميع ما فيه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ أي

وجئتكم لأحلَّ لكم ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ في شريعة موسى كالشحوم، والتروب والسمك، ولحوم الإبل، والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخاً لشرع موسى عليه السلام، وقيل: إن الإنجيل لم يخص أحكاماً، ولا حوى حلالاً وحراماً، ولكنه رموز وأمثال، ومواعظ وزواجر ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ كرر للتأكيد ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يا معشر بني إسرائيل، فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، ثم وضحه بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ فإنها دعوة الحق، المجمع عليها فيما بين الرسل، أي أطيعوني فيما أدعوكم إليه، وكان عليه السلام يصلي نحو بيت المقدس، ويحرم لحم الخنزير، ويقول بالختان، إلاَّ أن النصارى غيَّروا ذلك بعد رفعه، فاتخذوا يوم الأحد بدل يوم السبت وصلوا نحو المشرق، وأحلوا لحم الخنزير، وحملوا الختان على ختان القلب وغير ذلك.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك

بالحواس، وأصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، وقد استعير هنا للعلم بلا شبهة، والمراد بالكفر إصرارهم عليه، وعتوهم فيه مع العزيمة على إيقاع مكروه به، وقد صح أنه لقي من اليهود - قاتلهم الله - شدائد كثيرة، عن ابن عباس قال: كان اليهود يجتمعون على عيسى ويستهزئون به، ويقولون: يا عيسى ما أكل فلان البارحة؟ وما ادخر في بيته؟ فيخبرهم ويسخرون منه، وكانوا عارفين بأنه المسيح المبشر به، في التوراة، فلما أظهر الدعوة اشتد ذلك عليهم، فأخذوا في أذاه وكفروا به، أي فلمَّا أحسَّ كونه صادراً منهم ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف أي ملتجئاً إلى الله، وقيل معناه: من ينصرني مُنهياً نصره إلى الله؟ كأنه طلب منهم أن ينصروه لوجه الله تعالى، لا لغرض آخر ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حواريُّ الرجل: خاصته، من الحَوَر وهو البياض الخالص، سمي به أصحاب عيسى لخلوص نيتهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي صدقنا بأن الله ربنا ورب كل شيء ﴿وَٱشْهَدْ﴾ أنت يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وإنما طلبوا شهادته تأكيداً لإيمانهم، وإيذاناً بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية، وكانوا اثني عشر رجلاً.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ تضرعوا إلى الله عز وجل، مبالغة في إظهار أمرهم ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ في كل ما يأتي به من أمور الدين ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدانيتك.

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي الذين أحسَّ منهم الكفر من اليهود بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة، والمكر في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة، ولا يسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[1] أي جازاهم

---

(١) المكر في الأصل الخداعُ، وإذا نُسب إلى الله سبحانه، فالمراد به استدراج العبد الكافر والعاصي في غفلته، حتى يوقعه في الهلكة، كما قال سبحانه: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ تشبيهاً لذلك بالخداع، فتنبه والله يرعاك!!.

على مكرهم، حين رفع عيسى عليه السلام وألقى شَبَهَه على من قصد اغتياله، حتى قُتِل. روي أنهم قصدوا قتله، فدخل عيسى بيتاً فيها روزنة - أي طاقة - فرفعه جبريل من تلك الروزنة، فدخل الرجل الخبيث الذي أراد قتله البيت، فألقى الله عليه شَبَهَهُ، فخرج يخبرهم بأنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه، فلم يلتفتوا إلى قوله، ثم اختلفوا وقالوا: وجهه وجه عيسى، وبدنه بدن صاحبنا، فإذا كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أقواهم مكراً وأقدرهم على إيصال الضرر للظالم والفاجر من حيث لا يحتسب.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي أجلك، ومؤخرك إلى أجلك المسمى، عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض وزعم النصارى أن الله تعالى، أماته سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء والصحيح كما قاله القرطبي أن الله رفعه من غير وفاةٍ ولا نوم، وهو اختيار الطبري، والرواية الصحيحة عن ابن عباس ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى محل كرامتي، ومقر ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من سوء جوارهم وقصدهم الخبيث ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ في التوحيد وهم أهل الإسلام، دون الذين كذبوه من اليهود والنصارى، روي هذا عن قتادة والربيع، وقيل: هم النصارى، والمراد من الاتباع مجرد الاتباع والمحبة ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بدين التوحيد ونبوة عيسى، أي يعلونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتّبعوه من آمن بنبوته، من المسلمين والنصارى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ غاية للجعل، وأما بعدها فيفعل الله بهم ما يشاء ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة وغلب المخاطب على الغائبين ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ إثر رجوعكم إليَّ ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في أمر الدين.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أتباعك ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ليس لهم ما نعين يمنعونهم من عذابنا في الدارين.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما أرسلت به ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بما

فرضتُ عليهم، وشرعتُ لهم ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ جزاء أعمالهم كاملة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم ولا يرحمهم، وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متجاوزون الحدود.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وغيره ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ نخبرك به، وإنما أضاف التلاوة إلى ذاته تعالى لأنه بأمره ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ أي المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه، أو المشتمل على الحكم، يريد به القرآن.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي حاله وشأنه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ في تقديره وحكمه ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ كشأن آدم عليه السلام، وحاله العجيبة التي لا يرتاب فيها مرتاب، وهذه الآية نزلت في محاجة نصارى وفد نجران، فقد روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: مالك تحقِّر صاحبنا؟ قال: ما أقول؟ قالوا تقول: إنه عبد الله قال: أجل هو عبد الله ورسوله، فغضبوا وقالوا: هل رأيتَ أحداً من غير أب، فأبوه هو الله، وهو ابنه لا عبده، فقال ﷺ إن آدم ما كان له أب ولا أم، فكذا حال عيسى ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ توضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما، فإن إنكار خلق عيسى بلا أب، ممن يعترف بخلق

آدم بغير أب وأم، مكابرةً وعناد ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي صِرْ بشراً فصار، وفي الآية دلالة على صحة النظر والاستدلال، ثم إن الظاهر أن عيسى خلقه سبحانه من مريم، بجلعها قابلة لذلك ومستعدة له.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هذا هو الحق، الذي أخبرتك به من نبأ عيسى، لا ما يزعمه النصارى من ألوهيته ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات أو لكل سامع، وفي هذا الأسلوب فائدتان: **إحداهما**: أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب ليزداد ثباته، فيكون نوراً على نور، **والثاني**: أن السامع يتنبه بهذا وينزجر عما يورث الامتراء.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي جادلك في شأن عيسى من النصارى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ من الآيات الموجبة للعلم ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا۟﴾ هلموا بالرأي والعزم ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يدع كل منا ومنكم نفسه، وأعزَّة أهله، وفي تقديمهم على النفس، مع أن الرجل يخاطر بنفسه من أجلهم، ويحارب دونهم، للإيذان بكمال أمنه ﷺ عليهم، وأنه لن يصيبهم شائبة من الأذى، لثقته بأنه على الحق ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتباهل ونتضرع إلى الله أن يهلك الكاذب منا، والبهلةُ: الدعاءُ باللعنة ثم شاعت في مطلق الدعاء، كما يقال: فلان يبتهل إلى الله تعالى في حاجته، إلا أنه هنا يفسر باللعن، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي نقول لعنة الله على الكاذبين، ولمَّا قرأ ﷺ هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: نرجع وننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي معه وعلي خلفها[1]، وقال ﷺ: إذا أنا دعوتُ

---

(١) لما أنزل الله هذه الآية: ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً، وفاطمة، وحسَناً، وحُسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢١٠.

فأمَّنوا، فقال أسقف نجران يا معشرَ النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، فقالوا يا أبا القاسم: رأينا أن لا نباهلك اليوم، قال ﷺ: فإذا أبيتم المباهلة أسلموا، فأبوا فقال ﷺ: أناجزكم أي أحاربكم فقالوا: لا نحارب، ولكن نصالحكم على أن ندفع لكم كل عام ألفي حلة، وثلاثين درعاً من حديد، فصالحهم على ذلك، **قال بعض العارفين**: إنَّ لمباهلة الأنبياء، تأثيراً عظيماً، لاتصال نفوسهم بروح القدس، وتأييد الله إياهم به، وهو المؤثر بإذن الله تعالى، ولذا خاف النصارى، وقبِلوا دفع الجزية للنبي ﷺ.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما قص من نبأ عيسى ومريم ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ دون ما ذكروه من أكاذيب النصارى واليهود، والقصص من القَصِّ وهو تتبع الأثر، قصصت الخبرَ قصاً حدَّثتُ به على وجهه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صرح فيه بمن المزيدة للاستغراق، تأكيداً للرد على النصارى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه، في القدرة التامة، والحكمة البالغة، ليشاركه في الألوهية.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن التوحيد، وقبول الحق الذي جاءك من عند الله، بعدما عاينوا تلك الحجج النيّرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم، ووضع المظهر ليدل على أن الإعراض عن التوحيد، إفسادٌ للدين، والاعتقاد، المؤدي إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نزلت في وفد نصارى نجران ﴿تَعَالَوْا﴾ هلمُّوا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ أي كلام، وإطلاقها على ذلك من باب المجاز ﴿سَوَآءٍ﴾ عدل،

قاله ابن عباس: أي مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها الرسل والخَلْقُ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي نوحده بالعبادة، ونخلص فيها ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له، في استحقاق العبادة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحبار، فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلاً منهم بشرٌ مثلنا، فكيف يكونون أربابا!؟ ولمَّا نزلت هذه الآية، قال عدي ابن حاتم: «ما كنا نعبدهم يا رسول الله» فقال ﷺ: «أمَا كانوا يحلّلون لكم، ويحرّمون، فتأخذون بقولهم؟ قال نعم، فقال ﷺ هو ذاك»؟[1]. قال ابن جريج: أي لا يطع بعضُنا بعضًا في معصية الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن موافقتكم بعد عرضكم عليهم، فاعلموا أنهم لزمتهم الحجة، وإنما أبوا عناداً ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟﴾ أي أنصفوا واعترفوا ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دونكم، انظروا إلى ما روعي في هذه القصة، من المبالغة في الإرشاد، وحسن التدرج في المحاجة، حيث بيَّن تعالى أولاً أحوال عيسى، وما توارَدَ عليه من الأطوار، المنافية للإلهية، فلما ظهر عنادهم، دُعوا إلى المباهلة، بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها، دعوا إلى ما اتفق عليه عيسى، وسائر الأنبياء من التوحيد، ثم لما ظهر عدم إجدائه أمروا أن يجهروا بالإيمان ﴿قولوا بأنا مسلمون﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة بنحوه ٥/ ٢٦٠.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ الكلام على حذف المضاف، أي دين إبراهيم، لأن في ذاته ليس فيه مجادلة، روي أنه اجتمع عند رسول الله ﷺ نصارى نجران، وأحبار اليهود، فتنازعوا، فقال الأحبار: ما كان إبراهيم إلاَّ يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى الآية، أي فقل لهم ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ أي إن اليهودية والنصرانية، إنما حدثتا بعد نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة، فقد كان بين موسى وإبراهيم قرابة ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة، وقيل ألفا سنة ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أي أفلا تتفكرون فتعقلون بطلان قولكم؟.

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ ﴾ ها، للتنبيه وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، نُبهوا بها على حالتهم التي غفلوا عنها، أي أنتم ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الأشخاص الحمقى ﴿ حَٰجَجۡتُمۡ ﴾ أي جادلتم ﴿ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ أي في شأن عيسى، وفي التوراة والإنجيل ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ ﴾؟ من أمر إبراهيم، ولا ذكر لدين إبراهيم في كتابكم قطعاً ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي والله يعلم الحقَّ، وأنتم جاهلون به ثم كذَّبهم بقوله:

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا ﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان، من أنَّ إبراهيم عليه السلام، ما كان موجوداً عند نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً؟ ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا ﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة ﴿ مُّسۡلِمٗا ﴾ مؤمناً منقاداً لله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ تعريض بأنهم المشركون، لإشراكهم بالله عزيراً، والمسيح، ورد لادعاء المشركين أنهم على ملَّة إبراهيم.

﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أولى أفعل تفضيل أي أقرب الناس وأحقهم بإبراهيم ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ من أمته، وكانوا على شريعته في زمانه وبعده ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ أي والنبي محمد ﷺ الذي جاء بالحنيفية السمحة، كما قال

سبحانه: ﴿ثمَّ أَوحَيْنَا إليكَ أن اتَّبعْ ملَّة إبراهيم حَنِيفاً. .﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ أي والمؤمنون من أمة محمد ﷺ فهم الجديرون بهذا الفضل، وكونُ المتبعين لإبراهيم في زمانه أولى الناس به ظاهر، وكون نبينا ﷺ أولاهم لموافقة شريعته لشريعة إبراهيم[1]، وكون المؤمنين من هذه الأمة كذلك لتبعيَّتهم له فيما جاء به ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم بالحسنى لإيمانهم، كما هو شأن الولي، ولم يقل «وليهم» تنبيهاً على الوصف الذي يكون الله تعالى ولياً لعباده، وهو الإيمان.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ
دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ
رَبِّكُمْۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الطائفةُ: فرقة من الناس وأقلها ثلاثة، والمشهور أنها نزلت، حين دعا اليهود حذيفة، وعمَّاراً، ومعاذاً، إلى اليهودية ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ كلمة لو تفيد التمني[2] ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾ جملة

---

(١) في الحديث الشريف «إن لكل نبيٍّ ولاةً من النبيّين، وإن وليي أبي وخليلُ ربي ـ يعني إبراهيم ـ ثم قرأ ﷺ: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين﴾» سنن الترمذي ٥/ ٢٠٨.

(٢) جواب «لو» محذوفٌ تقديره: ودَّت إضلالكم لو يضلونكم لسُرُّوا وفرحوا بذلك.

حالية جيء بها للدلالة على رسوخ المخاطبين، وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم، وفيه الإخبار بالغيب، إذ لم يتهود مسلمٌ ولله الحمد ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، وعذابهم يضاعف بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، وفي نفي الشعور عنهم مبالغة في ذمهم.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل، ودلت على نبوته ﷺ أو لم تكفرون بآيات القرآن وأنتم تعلمون ما يدل على صحتها؟ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي تعلمون بالمعجزات أن القرآن حق، والإخبار بما يكتمون في أنفسهم معجز.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بتحريفكم، وإبراز الباطل في صورة الحق ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نعت الرسول ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بما تكتمونه؟

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم رؤساؤهم وأحبارهم، قالوا لأتباعهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي أظهروا الإيمان بالقرآن المنزل على المؤمنين ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أول النهار ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي واكفروا به آخره، وقولوا لهم: إنا آمنا به بادي الرأي، من غير تأمل فيه، فوقفنا على خللٍ فيه فرجعنا عنه ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي المؤمنون ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الإيمان به، أو يشكُّون فيه، ظناً بأنكم رجعتم لخللٍ ظهر لكم[1]، وهذا نوعٌ آخر من تلبيسات اليهود.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ اتفق المفسرون على أن هذا بقية كلام اليهود، أي وقالوا أيضاً ولا تصدّقوا ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ﴾ وافق ﴿دِينَكُمْ﴾ قال الله تعالى:

---

(١) هذه مكيدة دبَّرها اليهود، ليلبِّسوا على الضعفاء أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا عن الإسلام، ليظن الناس أن في الدين عيباً وخللاً فيرتدّوا عنه!!.

﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام، وما عداه ضلال، والجملة اعتراض ﴿أَن﴾ بأن ﴿يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ من الكتاب والحكمة والفضائل، والمعنى لا تقرّوا بأن يؤتى ذلك إلا لمن تبع دينكم ﴿أَوْ﴾ بأن ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾ أي المؤمنون يغلبوكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة، لأنكم أصح ديناً، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فمن أين لكم أنه لا يُؤتى أحد مثل ما أُوتيتم؟ ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ رد وإبطال لما زعموه، أي يجعل رحمته بالنبوة مقصورة على ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وفيه دليل على أن النبوة بالاختصاص لا بالاستحقاق ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقيل الفضل نعم الدين والدنيا ويدخل فيه ما يناسب المقام.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ شروع في بيان خيانتهم في المال، بعد بيان خيانتهم في الدين ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ أي ومن أهل الكتاب من بحيث إن تأمنه ﴿بِقِنطَارٍ﴾ أي مال كثير ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كعبد الله بن سلام، استودعه قرشي ألفاً ومائة أوقية ذهباً، فأداه إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ المراد منه مال قليل ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن عازوراء اليهودي، استودعه رجل ديناراً فجحده وخانه، وقيل: أشد الناس في الخيانة اليهود لأن مذهبهم أنه يحل لهم أخذ مال من خالفهم في الدين، بأي طريق كان ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ استثناء مفرغ أي إلاّ وقت دوامك قائماً على رأسه، مبالغاً في مطالبته، بالتقاضي وإقامة البينة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ أي ذلك الصنيع بسبب

قولهم ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ أي ليس علينا في شأن من لم يكونوا على ديننا، عتابٌ وذم، وقد ادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ بادعائهم ذلك ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم(١).

﴿ بَلَىٰ ﴾ إثباتٌ لما نفوه، أي بلى عليهم فيه إثم، لكنْ ﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ ﴾ الذي عهد إليه في التوراة، من الإيمان بالرسول ﷺ وبالقرآن، وبأداء الأمانات إلى من ائتمنه عليها ﴿ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أي اجتنب الكفر، والخيانة، ونقض العهد ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي يحبهم ويكرمهم، وهذه الآية من الجوامع، لأن الطاعة محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، والوفاء بالعهد مشتملٌ عليهما، والتقوى: هي الاجتناب عن المناهي، وفعل الأوامر الطاعات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ ﴾ يستبدلون ﴿ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ بما عاهدوا الله عليه، من الإيمان، والوفاء بالأمانات ﴿ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ متاع الدنيا من الترؤس، والارتشاء، ونحو ذلك، أخرج البخاري عن ابن أبي أوفىٰ «أن رجلاً أقام سلعة له في

(١) رُوي أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: «إنّا نُصيب في غزونا من أموال أهل الذمة: الدجاجةَ، والشاة، فقال ابن عباس: وماذا تقولون؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأسٌ، قال: هذا كما قال أهل الكتاب ﴿لَيسَ عَلينَا فِي الأُمِّيينَ سَبيلٌ﴾ إنهم إذا أدّوا الجزية، لم تحلَّ لكم أموالهم، إلا بطيب أنفسهم» انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٢.

السوق، فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يُعطه، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية[1]»، وأخرج أحمد وابن جرير عن عدي بن عمرة قال: كان بين امرئ القيس، ورجلٍ من حضرموت خصومة، وارتفعا إلى النبي ﷺ فقال للحضرمي: بيِّنتك وإلاَّ فيمينه!! قال يا رسول الله: إن حلف ذهب بأرضي، فقال ﷺ: «من حلف على يمين كاذبة، ليقتطع حق أخيه، لقي الله وهو عليه غضبان[2]»، فقال امرؤ القيس: يا رسول الله فما لمن تركها، وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة، قال: فإني أشهدك أني تركتها، فنزلت الآية[3]، وقيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة، وحكم الأمانات، ولا مانع من تعدد سبب النزول ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ لا نصيب ﴿لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ من نعيم الجنة، بسبب ذلك الظلم والفجور ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يسرهم كلام أُنس وملاطفة، والظاهر أنه كناية عن غضبه تعالى عليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإنَّ من سَخِط على غيره، أعرض عنه، وعن التكلم معه، والالتفات نحوه وفي قوله: ﴿يوم القيامة﴾ تهويل للوعيد ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهّرهم من الآثام بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه من المعاصي.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ لجماعة هم المحرّفون

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة آل عمران ٨/ ٢١٣.
(٢) أخرج طرفاً منه البخاري في كتاب التفسير بلفظ: «من حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرئٍ مسلم، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان».
(٣) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٣.

ككعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحُيَيّ بن أخطب ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يفتلونها بقراءته، فيميلونها عن المنزَّل إلى المحرَّف أو يعطفونها بشبه الكتاب واللَّيّ: الفتلُ، لويتُ الحبلَ، فتلتُه، ولوى رأسه أماله، والمراد تحريفهم له، كآية الرجم، وصفة النبي ﷺ[1] ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي المحرَّف ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والحال أنه ليس منه في نفس الأمر من كلام الله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ كذباً ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ وبيانٌ لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والحال أنه ليس من عند الله في اعتقادهم أيضاً ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله، والتعمد فيه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي ما صحَّ، وما استقام لأحد، وإنما قال «لبشر» إشعاراً بعلة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة، إلى الأنبياء عليهم السلام ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآمر بالتوحيد، والناهي عن الشرك ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة التي ينطق بها النبيون ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي الرسالة ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشر، بعدما شرَّفه الله تعالى بما ذُكر، وعرَّفه الحق، وأطلعه على شؤونه العالية ثم يقول: ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) المراد أنهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرَّفة، فهم يصرفون الكلام من جانب الخير إلى جانب الشر، ويتلاعبون في كلام الله عزَّ وجل باللَّيّ والتحريف.

تكذيبٌ وردٌّ على عَبَدة عيسى، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي والسيد النجراني: قالا يا محمد أتريد أن نعبدك، ونتخذك رباً؟ فقال ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فنزلت هذه الآية[1] ﴿وَلَٰكِن﴾ يقول: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي يقول: كونوا ربَّانيِّينَ، والربانيُّ منسوبٌ إلى الربِّ، وهو الكامل في العلم والعمل، والألف والنون للمبالغة، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ الباء للسببية، أي كونوا كذلك بسبب مثابرتكم على تعليمكم الكتاب، ودراستكم له، والغرضُ أن لا ينفك العلم عن العمل، إذ لا يُعتدُّ بأحدهما بدون الآخر.

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾ عطف على ثم يقول: أي وما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى، ثم يأمر الناس ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله، ملائكةً كانوا أو أنبياء، لأن مهمة الرسول الدعوة لعبادة الله وحده ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؟ لا ينبغي له هذا.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي اذكر وقت ذلك، ومعنى ميثاق النبيين ما وثقوه على أنفسهم أن يؤمن كل رسول بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره، وإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته، وقيل: إنما أُخذ الميثاقُ من النبيين في أمره ﷺ خاصة، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس

(١) أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٥.

قال: لم يبعث الله تعالى نبياً إلاَّ أخذ العهد عليه في محمد ﷺ لئن بعثه الله وهو حي، ليؤمننَّ به ولينصرنه، فيأخذ العهد على قومه[1]، ثم تلا الآية ﴿ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ أي لتصدقنَّ به ولتنصرنه ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى بعد أخذ الميثاق للتأكيد ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ ﴾ بما ذكر ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ أي أَقَبلْتم عهدي، وسمي إصراً لأنه يشدُّ ويعقد ﴿ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ ﴾ أي فليشهد بعضكم لبعض بالإقرار ﴿ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي على إقراركم هذا.

﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ ﴾ أعرض عما ذُكر من العهد والميثاق ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ التوكيد بالإقرار، ونقض العهد بعد قبوله ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ المتمرِّدون، الخارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٨٥) ﴾.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾؟ عطف على الجملة المتقدمة أي أيتولون فيبغون غير دين الله، بعد أخذ هذا الميثاق المؤكد؟ ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ ﴾ جملة حالية، أي كيف يطلبون غير دينه، والحال وله أسلم ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من الملائكة، والإنس، والجان ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ أي طائعين وُمكْرَهين، لا يُقال كيف قيل أسلم، مع أن الأكثر من الإنس والجن كفارٌ؟

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٦.

لأن كل من فيهما منقادٌ وخاضع لجلال الله، في تكوينه ووجوده، والطوعُ: الانقيادُ بسهولة، والإكراه ما كان ذلك بمشقة وإباءٍ من النفس ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وفيه وعيد أي فيجازيهم على أعمالهم.

﴿ قُلْ ءَامَنَّا ﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن من معه بالإيمان ولذا وحد الضمير في قل وجمع في آمنا ﴿ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهو القرآن الكريم لما أنه منزل عليهم أيضاً بتوسيطه ﷺ وإنما قدمه على المنزل على سائر الرسل، لأنه المعرف له، والعُمْدةُ عليه ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مقرون له بالألوهية والربوبية، نؤمن بجميع رسل الله، ولا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى، كدأب المشركين، والمدعين للتوحيد مع إشراكهم من أهل الكتاب ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ذلك، بل يردُّ أشدَّ رد ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الواقعين في الخسران، وهو حرمان الثواب، وحصول العقاب، وأصل الخسران ذهاب رأس المال، والمراد به هنا تضييع الأعمال الصالحة، لأن الله لا يقبل عملاً من كافر.

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ ﴾ إلى دين الحق ﴿ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ هم جماعة من المنافقين، أبو عامر وأصحابه في اثني عشر رجلاً لحقوا بقريش

فنزلت الآية فيهم، وهو استبعاد لأن يهديهم الله عز وجل، فإن الحائد عن الحق، منهمك في الضلال، بعيد عن الرشاد ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي وقد شهدوا أن الرسول حق لا شك في رسالته ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي الشواهد كالقرآن، وسائر المعجزات الدالة على صحة نبوته ﷺ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفق إلى الحق ما داموا مختارين الكفر ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بوضع الكفر موضع الإيمان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي جزاؤهم على كفرهم، اللعنةُ من الله والملائكة، وجميع الخلائق، مؤمنهم وكافرهم، وبرِّهم وفاجرهم، فالمراد به العموم، لأن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق، ولكنه لا يعرف الحق.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو النار وإن لم يجر ذكره لدلالة الكلام ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾أي من بعد الارتداد ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ وأصلحوا ما أفسدوا، وقيل: أي أصلحوا باطنهم مع الحق، وظاهرهم مع الخلق، بالعبادات والطاعات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل توبتهم، ويغفر لعصيانهم، ويتفضل عليهم باللطف والإحسان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قال عطاء: نزلت في اليهود، كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً برسول الله ﷺ والقرآن ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ ملءُ الشيء مقدار ما يملؤه ﴿ وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ أي فلن يقبل من أحدهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، والكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير، لأنهم لا يملكون شيئاً في الآخرة، وقيل: معناه لو بذله في الدنيا ثم مات على كفره لم ينفعه ذلك ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى من مات على الكفر ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ في دفع العذاب عنهم أو تخفيفه.

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ ﴾ البِرُّ: الإحسانُ وكمالُ الخير، أي لن تبلغوا حقيقة البر، الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا الرضى، والجنة ﴿ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وقيل: لن تنالوا ثواب البِرّ، حتى تنفقوا من أفضل أموالكم، مما تحبونه وتشتهونه لأنفسكم، وكان السلف إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالى، روي عن نافع أنه قال: كان ابن عمر يشتري الحلوى يتصدق بها، فنقول له: لو اشتريت لهم طعاماً كان أنفع لهم فيقول: أنا أعرف الذي تقولونه، ولكن سمعت الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن ابن عمر يحب السكر والحلوى ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من أي شيء كان محبوباً أو غيره ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ فيجازيكم بحسبه، وفيه تحذير من إنفاق الرديء، والترغيب في إنفاق الجيِّد المحبوب.

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ ﴾ أي المطعومات ﴿ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي حلالاً لهم، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث قال الله تعالى: ﴿لا هنَّ حِلٌّ لهم﴾ روي أنه حين قال رسول الله ﷺ: أنا على ملة إبراهيم، قالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً له ﷺ وتكذيباً لهم ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾ وكان قد حرم لحوم الإبل وألبانها، وسبب تحريم ذلك، ما روي عن ابن عباس أن يعقوب كان به «عِرْقُ النِّسا» فنذر إن شفاه الله ألاَّ يأكل أحب الطعام إليه، فحرمها على نفسه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحم الإبل، وأحبَّ الشراب ألبانُها ﴿ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم، لظلمهم وبغيهم، عقوبة وتشديداً، بقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الذينَ هَادُوا حرَّمنا﴾ الآية. ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أمر له ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم، الناطق بصحة ما يقول، في أمر التحليل والتحريم ﴿ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أي في دعواكم. روي أنه ﷺ لما قال لهم ذلك؛ لم يجرأوا أن يخرجوا التوراة وبُهتوا، ورجعوا صاغرين.

﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي اخترع ذلك، بزعمه أن التحريم كان على الأنبياء وأممهم، قبل نزول التوراة، ومعنى الافتراء: الابتداع والاختلاق، والكذبُ إذا كان عن قصد يكون إفكاً، والإفك إذا كان على الغير يكون افتراءً، والافتراء إذا كان بحضرة المقول يكون بهتاناً، وهو الكذب الذي يبهت سامعه أي يدهش له، وهو أفحش الكذب ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي المفترون ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾لأنفسهم، ولأشياعهم بإضلالهم، وإنما قيّد بالبعدية للدلالة على كمال القبح.

﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ ﴾ أي ثبت صدقه تعالى، في أن كل الطعام كان حلاً

لبني إسرائيل إلاَّ ما حرم إسرائيل ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب، في التوحيد، والاستقامة في الدين، وتعريضٌ بشرك اليهود والنصارى.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله، هو المسجد الحرام الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، رُوي عن ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة فنزلت الآية، والمراد بالأولية بحسب الزمان. أخرج الشيخان عن أبي ذر قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيت وُضع للناس، فقال: «المسجد الحرامُ، ثم بيت المقدس..»[(١)] الحديث. ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي البيت الذي ببكة، وهي لغة في مكة، من بكَّه إذا دقَّه، فإنها تدق أعناق الجبابرة، أو لازدحام الحجيج فيها ﴿مُبَارَكًا﴾ أي كثير الخير والنفع، لمن حجه واعتمره، وطاف حوله ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ هادٍ لهم إلى الجنة دار المتقين.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي فيه علامات واضحة كثيرة، تدل على شرفه

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٩٠ ومسلم في المساجد رقم ٥٢٠ ولفظه عن أبي ذرّ قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن أول مسجد وُضع في الأرض؟ قال: المسجدُ الحرام، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً، ثم الأرضُ لك مسجدٌ، فأينما أدركتك الصلاةُ فَصَلِّ».

وفضله على سائر مساجد الأرض ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي منها مقام إبراهيم، ومن الآيات أثر القدم في الصخرة، وإبقاؤه مع كثرة الأعداء ألوف السنين، ومنها زمزم والحطيم، والصفا والمروة ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ هذه آية أخرى، وهي أمن الداخل للحرم بدعوة إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال: «كان الرجل في الجاهلية يقتل الرجل، ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو أبوه، فلا يحركه» وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لو وجدتُ فيه قاتل الخطَّاب ما مسسته حتى يخرج منه» وقال أبو حنيفة: من لزمه القتل في الحل، فالتجأ إلى الحرم، لم يتعرض له، إلا أنه لا يُؤوى، ولا يُطعم ولا يُسقى، حتى يضطر إلى الخروج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي استقرَّ له عليهم فرض الحج، أي قصده وزيارته، فيجب الحج في أول أوقات الإمكان ويكره تأخيره تحريماً، لقوله ﷺ: «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»[(١)] ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي فُرض الحج على القادر المستطيع له، والقدرة إما بالبدن أو بالمال، أو بهما، ويؤيده ما أخرجه الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال: «لمَّا نزلت هذه الآية، قام رجل فقال يا رسول الله: ما السبيلُ؟ قال: الزادُ والراحلة»[(٢)] ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يراد بـ «مَنْ كَفَر» من لم يحجَّ، تشديداً وتأكيداً لوجوبه، ولقد حازت الآية الكريمة كمال الاعتناء بأمر الحج، حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق، و أبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار، وسُلك فيها مسلك التعميم، ثم التخصيص، والإبهام ثم التبيين، لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير، وعبَّر عن تركه بالكفر وجعل

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ وتتمته «فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها الرجل ثلاثاً، فقال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلت: نعم لوجبتْ، ولَمَا استطعتم».

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الحج رقم ٨١٣ وله طُرُق يقوّي بعضُها بعضاً.

جزاءه استغناءه تعالى، المؤذن بشدة المقت، وعظيم السخط، تنبيهاً على وجوبه وفرضيّته على المؤمنين.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هم اليهود والنصارى، خوطبوا بها مبالغة في تقبيح حالهم، في كفرهم بالقرآن الكريم، لأن معرفتهم بالآيات أقوى ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ السمعية والعقلية الدالة على صدق رسول الله تعالى فيما يدعيه؟ والاستفهام للتوبيخ، والإشارة إلى تعجيزهم عن إقامة العذر في الكفر، كأنه قيل: هاتوا عذركم إن أمكنكم ﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ وإظهار لفظ الجلالة لتربية المهابة ﴿ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي والحال أنه تعالى مطلع على أعمالكم، فيجازيكم عليها.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أمر ﷺ بتوبيخهم والتكرير للمبالغة ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ ﴾ أي تصرفون، والصدُّ: المنعُ، يقال: صدَدتُه أي منعته وأهلُ الكتاب كانوا يعرضون عن سلوك سبيل الله، ويُضلون الناس عنها ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الطريقة الموصلة إلى الله تعالى، وهي طريقة الإسلام ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ كانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم، ويحتالون لصدِّهم عنه ﴿ تَبْغُونَهَا ﴾ أي السبيل ﴿ عِوَجًا ﴾ أي باغين، طالبين لها اعوجاجاً، بأن توهموا أن فيه عوجاً عن الحق، عِوجاً بكسر العين في الدين[1] ﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ أي عالمون بأنها سبيل الله، والصدُّ عنها ضلال وإضلال ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد لهم، ولمَّا كان المنكر في الآية الأولى كفرهم، ختمها بقوله: ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ ولمَّا كان في هذه صدُّهم،

---

(١) العِوَجُ: بكسر العين يكون في الدين والطريق، وبالفتح «عَوَج» في الخِلْقة، يقال: في ساقه عَوَجٌ، وفي دينه عِوَج، وانظر الصحاح للجوهري.

قال الله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادِّين فقال عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ خطاب للأنصار على ما يقتضيه سبب النزول، ويدخل غيرهم من المؤمنين في عموم اللفظ، خاطبهم الله تعالى بنفسه، بعدما أمر رسوله ﷺ بخطاب أهل الكتاب، إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله تعالى، وسبب نزولها ما أخرجه ابن إسحق وجماعة عن زيد بن أسلم قال: «مرَّ شمَّاس بن قيس اليهودي، على جماعة من أصحاب النبي ﷺ، من الأوس والخزرج، في مجلس يتحدثون، فغاظه من ألفتهم، فأمر شاباً معه من اليهود فقال: اجلسْ معهم وذكّرهم يوم بعاث ـ وكان هذا اليوم يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج ـ وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، ففعل فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وغضبوا وقالوا: السلاح، السلاح، فاجتمع من القبيلتين خلقٌ كثير، فوصل الخبر إلى الرسول ﷺ، فجاء فيمن معه من المهاجرين، فقال ﷺ: «يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله إلى الإسلام؟» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد لهم من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا واستغفروا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مطيعين، قد أطفأ الله عدو الله شماس فنزلت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿لعلكم تهتدون﴾[1] قال جابر: ما رأيت

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٣٩٧ وصفوة التفاسير ١/٢١٧.

يوماً أقبح أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم، والمراد من الفريق، بعضٌ غير معين، وتعليق الرد بطاعة فريق منهم، للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية، وقوله تعالى: ﴿يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ فيه تثبيت المؤمنين وإظهار لشناعة الكفرة المجرمين.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام إنكاري وتعجيب من حالهم بعد أن اجتمع لهم من الأسباب الداعية إلى تثبيت الإيمان، الصارفة لهم عن الكفر ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، ونبوة رسوله ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ ﷺ يعلمكم الكتاب، ويزكيكم، بتحقيق الحق وإزالة الشبهة، والمراد استبعاد أن يقع منهم الكفر، وعندهم من الدواعي ما يأباه ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ الاعتصام التمسك أي ومن يتمسك بدينه، أو يلتجىء إليه في جميع أموره، وأصل العصمة الامتناع من الوقوع في آفة، وفيه حث لهم في الالتجاء إلى الله في دفع شر الكفار ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أفاد الكلام تحقق الهدى، حتى كأنه حصل، والتنوين للتفخيم، والصراط المستقيم وإن كان هو الدين الحق، والاهتداء إليه هو الاعتصام به، لكن أُبرز في معرض الجواب، للحث على الاستمساك به والترغيب فيه، أخرج الحكيم الترمذي عن الزهري قال: أوحى الله تعالى إلى داود، ما من عبدٍ يعتصم بي من دون خلقي، وتكيده السموات والأرضُ، إلاّ جعلتُ له من ذلك مخرجاً، وما من عبدٍ يعتصم بمخلوق من دوني، إلاّ قطعت أسباب السماء بين يديه، وأَسَخْتُ الأرض من تحت قدميه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ كرر الخطاب بهذا العنوان تشريفاً لهم ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ حق تقواه، وما يجب منها هو استفراغ الوسع في القيام بالواجب، والاجتناب عن المحارم، كقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه: هو أن يُطاع فلايُعصى ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا ينسى، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون نفوسكم لله تعالى، أي لا تموتون على حال من الأحوال، إلاّ حال تحقق إسلامكم، وثباتكم عليه، وذكر بعض المحققين، أن الإسلام هنا لا يُراد به الأعمال، بل الإيمان القلبي، لأن الأعمال حال الموت مما لا تكاد تتأدى، ولذا ورد في دعاء صلاة الجنازة «اللهم من أحييتَه منَّا فأحيِهِ على الإسلام، ومن توفَّيتَه منَّا فتوفه على الإيمان».

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه، روي ذلك بسند صحيح عن ابن مسعود، لحديث «كتابُ الله هو حبل الله الممدودُ، من السماء إلى الأرض»[1] استعار له الحبل، من حيث إن التمسك به، سبب النجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل، سببٌ للسلامة عن التردي في الهلاك ﴿ جَمِيعًا ﴾ أي مجتمعين عليها ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ ولا تتفرقوا عن الحق، بوقوع الاختلاف بينكم كما كنتم في الجاهلية ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام، المؤدي إلى التآلف، وزوال الشقاق والخلاف ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ أي في الجاهلية ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالإسلام، وقيل: أراد سبحانه ما كان بين الأوس والخزرج، التي تطاولت العداوة بينهما مائة وعشرين سنة ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي وكنتم على

---

(١) هذا طرف من حديث مشهور أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رقم ٢٤٠٩ والترمذي في المناقب.

طرف حفرة من جهنم، إذ لم يكن بينكم وبينها إلا الموت، والشفا: هو الطرفُ في اللغة، أي وكنتم مشرفين على أن تقعوا في نارجهنم لكفركم ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بأن هداكم للإسلام، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القرآن الكريم فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى، وازديادكم فيه.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أمرهم سبحانه بتكميل الغير، بعدما أمرهم بتكميل النفس، ليكونوا هادين ومهديين، على ضد أعدائهم، الذين هم ضالون مضلون ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنه الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عما استقبحه الشرع والعقل، وقد اتفق العلماء على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من فروض الكفايات، وقد سئل ﷺ مَن خيرُ الناس؟ قال: «آمَرُهم بالمعروفِ، وأنْهاهُم عن المنكر، وأتقاهم لله تعالى، وأوصلُهم للرحم»(١) وقوله: ﴿منكم﴾ للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من عظائم الأمور، التي لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/١٦.

تعالى، ومراتب الاحتساب، وكيفية إقامتها، فإنَّ من لا يعلمها، يوشك أن يأمر بمنكر، وينهى عن معروف، ويُغلظ في مقام اللين، ويلين في مقام الغلظة، وقيل: «مِنْ» بيانية، فالمعنى: كونوا أمة يدعون إلى الخير كقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة﴾ الآية. ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين، لأن الجهاد فرض كفاية بالإجماع، مع ثبوته بالخطابات العامة، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً ـ هو ما ليس فيه رضاء الله، من قول أو فعل، والمعروف ضده ـ فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ـ معناه فليكرهه بقلبه ـ وذلك أضعف الإيمان»[1] أي أضعف ثمرات الإيمان. وقيل على الأمراء باليد، وعلى العلماء باللسان، وعلى العوام بالقلب ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الفائزون بكل محبوب، وفي الحديث «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»[2] بفتحتين يُطلق على جماعة الإبل يعني ثوابه أكثر من ثواب صدقات الإبل النفيسة.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ ﴾ بالعداوة ﴿ وَٱخۡتَلَفُواْ ﴾ في الديانة، بالتأويلات الزائغة، وكتم آيات الله الناطقة بالرسالة، وتحريفها بحطام الدنيا الدَّنيَّة، كاليهود والنصارى، حيث تفرقوا فرقاً كثيرة، وكفَّر بعضهم بعضاً ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ أي الآيات والحجج المبينة للحق، الموجبة لاتحاد الكلمة، والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول، أصول العقيدة، وأما في الفروع فهو رحمة لما رُوي «اختلاف أمتي رحمة» رواه البزار، وعزاه الزركشي في الأحاديث المشتهرة إلى كتاب الحجة، والحقُّ أن المراد منه اختلاف الصحابة، ومن شاركهم في الاجتهاد، كالمجتهدين المعتدّ بهم من علماء الدين، الذين ليسوا بمبتدعين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ وعيد شديد للذين تفرقوا، وفي الحديث الشريف:

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب قتال الخوارج رقم ٤٧٥٨.

«مَنْ فارق الجماعة شبراً، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[1].

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ بياض الوجه وسواده، كنايتان عن ظهور بهجة السرور، وكآبة الخوف فيه، وقيل: يوسم أهل الحق، ببياض الوجه والصحيفة، وإشراق البشرة، وسعي النور بين يديه، وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ ابتدأ بحال الفريق الثاني، لِمَا أن المقام مقام التحذير، فيقال لهم: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ الهمزةُ للتوبيخ والمراد بهم جميع الكفار من أهل النار، وقال الحسن: إنهم المنافقون، وقيل: إنهم أهل البدع والأهواء ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ الشديد الموصوف بالعظيم، والأمر للإهانة ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ بسبب كفركم وصيغة المستقبل للدلالة على استمرار كفرهم، روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يرد عليَّ يوم القيامة رهطٌ من أمتي، فيُجْلون عن الحوض ـ أي يطردون ـ فأقول: يا رب أصحابي!! فيقول: إنه لا علم لكَ بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم»[2].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾ أي في الجنة، عبَّر عن ذلك بالجنة، تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى، لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، كما ورد في الحديث الشريف «لن يُدخل أحدَكُم عملُه الجَنَّةَ، قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله!! قال: ولا أنا، إلاَّ أن يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ منهُ وفَضْل»[3]. ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها ولا يموتون.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، البخاري في الفتن ١٣/ ٥ بلفظ: «من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتةً جاهلية» ومسلم رقم ١٨٤٩ في الإمارة بنحوه.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٤١٣ ومسلم في الطهارة رقم ٢٤٧ وفي رواية في الصحيحين بعده: فأقول «سُحْقاً سُحقاً لمن بدَّل بعدي» انظر جامع الأصول ١٠/ ٤٦٩.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٥٢ ومسلم رقم ٢٨١٦ في المنافقين.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردة في الوعد والوعيد ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ شيئاً فشيئاً وإسناد التلاوة إليه تعالى مما لا يخفى من العناية بالتلاوة والمتلو عليه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ يستحيل الظلم منه، لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق وفيه تعريض بأن الكافرين هم الظالمون، كما في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون﴾ ونفي الشيء لا يقتضي إمكانه، فقد يُنفى المستحيلُ، كما في قوله تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التعبير بما للتغليب، أي له ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي أمورهم، فيجازي كلاً بعمله.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كان ههنا تامة بمعنى الوقوع والحدوث، والمعنى: خلقتم خير أمة، وهذا قول جمع من المفسرين، وإن كانت ناقصة فالمعنى: كنتم في علم الله، أو صرتم خير أمة ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أظهرت لهم، والخطابُ قيل لأصحاب النبي خاصة، وقيل: إنه عام وهو الصحيح ويؤيده ما أخرجه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «أعطيتُ ما لم يُعط أحد من الأنبياء، نصرُت بالرعب، وأعطيتُ مفاتيح الأرض، وسميت بأحمد، وجُعل الترابُ لي طهوراً، وجُعلتْ أمتي خيرَ الأمم»(١) وقال عمر رضي الله عنه «يا أيها الناسُ من سرَّه أن يكون من تلك الأمة، فليؤدّ الشرط» وأشار بذلك، إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو كلام مستأنف، مبين لكونهم خير أمة، وقوله تعالى: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي عن الكفر، وكل محظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وتدومون على الإيمان به تعالى، وهو يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، فلو أخلَّ بشيء منه لم يكن مؤمناً، وإنما أخَّر الإيمان مع تقدمه وجوداً ورتبةً للاهتمام به، لأنه من وظيفة الأنبياء ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إيماناً صادقاً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ مما هم فيه من الكفر، وليس ﴿خيراً﴾ هنا أفعل تفضيل، بل هو لبيان أن الإيمان فاضل، كما في قوله تعالى: ﴿أفمن يُلقى في النَّارِ خيرٌ﴾؟ ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قيل: الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وهؤلاء مع كفرهم فاسقون متمردون، خارجون عن طاعة الله.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ أي ضرراً يسيراً، كطعنٍ وتهديد أي لن يضروكم ضرراً ما إلا أذىً باللسان أو الطعن ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء، وتولية الأدبار كناية عن انهزامهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لا أحد ينصرهم عليكم، أو يدفع بأسكم عنهم، وفي هذه الآية، دلالة واضحة على نبوة نبينا ﷺ، لكونها من الإخبار بالغيب، الذي وافقه الواقع، لأن يهود بني قينقاع، وبني قريظة، حاربوا المسلمين ولم يثبتوا، ولم ينالوا شيئاً منهم، ولم يتحقق لهم بعد ذلك راية.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٦٤ وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «خيرَ الناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام» يريد تنقذونهم من النار.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أُلزمت على اليهود الذلة، وقد أذلهم الله ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ حيثما وُجدوا وصُودفوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي بدين الإسلام ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أي بعهد الذمة ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي رجعوا به مستوجبين للغضب ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم، إحاطة البيت المضروب على أهله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ظلماً وطغياناً، والتقييد ﴿بغير حق﴾ للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ الضمير لأهل الكتاب جميعاً، سِيقَتْ لتعداد محاسن مؤمني أهل الكتاب ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ مستقيمة على طاعة الله، ثابتة على أمره، والقائمةُ: المستقيمة العادلة، من أقمتُ العودَ فقامَ بمعنى استقام ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي ساعاته، واحدته إِنى بوزن مِعَى ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يصلون، عبَّر عن تهجُّدهم بتلاوة القرآن، لأن التلاوة أهم الأركان في صلاة القيام، حيث تطول الصلاة لطول

القراءة، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسجُدُونَ﴾ أي في حال صلاتهم وقيامهم وسجودهم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ صفة أخرى للأمة أي يؤمنون بها على الوجه الذي نطق به الشرع ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ تحقيقاً لمخالفتهم لليهود، لأنهم مع ضلالهم، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويصدون الناس عن سبيل الله ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن، وأحسن المسارعة المبادرة بالرغبة والاختيار، لأن من رغب في الأمر سارع فيه، وصيغة المفاعلة للمبالغة، ولم يعبر عنها بالعجلة، لأن العجلة التقدم فيما لا ينبغي، وهي مذمومة، والمسارعة مقبولة، وضد العجلة الأناة، وضد المسارعة الإبطاء، وهو مذموم، لقواه تعالى: ﴿وإنَّ منكُم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾.

وصفهم الله بخصائص، ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، مداهنون في الاحتساب، متباطئون في الخيرات ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بالأوصاف الجميلة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من عداد الذين صلحت عند الله حالهم، وهذا ردٌّ لقول اليهود: ما آمَن به إلاَّ شرارنا.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ كائناً ما كان ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يحرموا جزاءه البتة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم، وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير، وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو «أهلُ التقوى».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد به عموم الكفار، لأنهم كانوا يتعززون بكثرة الأموال والأولاد حيث قالوا ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ وكانوا يعيّرون الرسول ﷺ وأتباعه بالفقر ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي من عذاب الله ﴿شَيْئًا﴾ يسيراً، والمراد من الإغناء الدفعُ، وإنما خصَّ الأموال والأولاد بالذكر، لأن الإنسان يدفع العذاب عن نفسه تارة بالفداء

بالمال، وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون مخلدون في عذاب جهنم.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرة مفاخرةً وسُمعة، ورياء وعُجباً، بقصد الثناء، والإشارةُ للتحقير ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي في هذه الدنيا الزائلة ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي بردٍ شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ﴾ زرع ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾ عقوبة على كفرهم، والمراد من التشبيه، الإشارة إلى عدم الفائدة، في الدنيا والآخرة، لأنه إن كان إنفاقهم في عداوة الإسلام، لم ينتفعوا بها، لأنه انقلب الأمر عليهم، وإن كان لمنافع الآخرة، فإن الكفر مانع من الانتفاع بها، فثبت أن جميع نفقات الكفار وصدقاتهم، لا فائدة لهم بها في الدارين ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الله عزَّ وجلَّ والضميرُ للمنفقين أي ما ظلمهم بضياع نفقاتهم، وإهلاك الحرث ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم ظلموا أنفسهم، بارتكاب ما استحقوا به العقوبة الشديدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان رجال من المسلمين، يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار، والقرابةِ، والصداقة، والحلف في الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، وقال مجاهد: نزلت في قوم

من المؤمنين، كانوا يوالون رجالاً من المنافقين، فنهوا عن ذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا﴾ الخ وهي صفة المنافقين ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يُعرِّفه الرجل أحواله، ويُطلعه على أسراره، ثقةً به، مأخوذ من بطانة الثوب، لأنه يلي البدن[١] ﴿ مِّن دُونِكُمْ﴾ أي كائنة من غير المسلمين، ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي لا يقصِّرون لكم في الفساد، وأصل الخبال: الفسادُ الذي يلحق الإنسان، فيورثه اضطراباً كالمرض والجنون، ويُستعمل في الشر والفساد مطلقاً، فالمعنى: أنهم يفعلون معكم ما يقدرون عليه من الفساد ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنَّوْا عَنَتكم، وهو شدة الضرر والمشقة أي تمنوا شدَّةَ ضرركم، في دينكم ودنياكم، لفرط بغضهم لكم ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ ﴾ البغضاء أشد البغض، كالضُرّ مع الضراء ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ظهرت أمارات البغض والعداوة من فلتات ألسنتهم، لأنهم لشدة بغضهم لكم، لا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي وما يبطنونه من البغض لكم، أكبر مما يظهرونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين، ومعاداة الكافرين والمنافقين، أو قد أظهرنا لكم الآيات الدالة التي يتميز بها الولي من العدو ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مابيِّن لكم، أي إن كنتم عقلاء، فلا تتخذوهم أولياء.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ﴾ أي أنتم أولاء خاطئون في موالاة اليهود والمنافقين ﴿ تُحِبُّونَهُمْ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من القرابة أو الصداقة ﴿ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بسبب كونكم مسلمين ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطِلهم، أصلب منكم في حقكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ نفاقاً وتغريراً

(١) البطانة يراد بها خواصُّ الرجل، وأصدقاؤه الذين يبوح لهم بسرّه، مأخوذ من بطانة الثوب، تشبيهاً لذلك الصاحب والصّديق بالبطانة التي تكون داخل الثوب، وهي استعارة لطيفة.

﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ تحسراً وتأسفاً، حيث لم يجدوا إلى التشفي سبيلاً[1] ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم، حتى يهلكوا به، والمراد به ما يغيظهم من قوة الإسلام وعزّ أهله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي يعلم ما في قلوبهم من البغضاء والحسد، والمراد ﴿بذات الصدور﴾: الخواطرُ القائمة بالقلب.

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ ﴾ بيانٌ لتناهي عداوتهم إلى حدّ الحسد، أي ما ينالكم من خير وظفر، ومنفعة ورخاء ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ أي يحزنهم ويغيظهم ذلك ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ من شدة وجدب، وبلاءٍ وهزيمة ﴿يَفْرَحُوا﴾ يبتهجوا ويشمتوا ﴿بِهَا﴾ بإصابتها، فهم لا ترجى موالاتهم أصلاً، فكيف تتخذونهم بطانة؟ ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا ﴾ على عداوتهم وعلى مشاق التكاليف ﴿ وَتَتَّقُوا﴾ الله فتكفُّوا عن موالاتهم، وسائر ما حرَّم الله تعالى عليكم ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ مكرهم وحيلتهم التي دبروها لأجلكم ﴿ شَيْئًا﴾ أي شيئاً من الضرر، وهذا تعليمٌ من الله تعالى، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو، بالصبر والتقوى، يقال: كادَهُ كيداً، خَدَعه ومكَرَ به، وهو أن يحتال الإنسان ليوقع غيره في مكروه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصبر والتقوى ﴿ مُحِيطٌ﴾ علماً فيجازيكم بما أنتم أهله، ويجازيهم على نفاقهم وإجرامهم.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

---

(١) عضُّ الأنامل عادةُ العاجز النادم، الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً، أمام ما عرض له من مصاعب ومتاعب، فيعض على أصابعه تحسراً وأسىً، وهذا من مجاز الأمثال.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أي اذكر للمؤمنين وقت غدوك، ليتذكروا ما وقع فيه، من عدم الصبر والتقوى، فيعلموا أنهم إن لزموا الصبر والتقوى، لا يضرهم كيد الكفرة، والمراد به خروجه ﷺ إلى أحد، وكان ذلك من منزل عائشة رضي الله عنها ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من عند أهلك ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم وتهيِّىء لهم ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواقف وأماكن للقتال ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم، وعليم بنياتكم، وفيه إيذانٌ بأنه قد صدر عنهم من الأقوال والأفعال، ما لا ينبغي صدوره.

روي أنه اجتمع كفار قريش لحرب رسول الله ﷺ، ومن تابعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان، فلما سمع ﷺ خروجهم استشار أصحابه، فقال أكثر الأنصار يا رسول الله اخرج بنا إليهم، لئلا يعيِّرونا أنا جَبُنَّا عنهم، فلم يزل الناس به حتى دخل ولبس لأمَتَه ـ لباس الحرب ـ فخرج بألفٍ، فلما قاربوا عسكر الكفرة، انخذل «عبد الله» بن أبي بثلث الناس ومضى ﷺ حتى نزل الشِعْبَ من أُحد، فجعل ظهر عسكره إلى أحد، وتَعَبأ للقتال، وأمَّر على الرماةِ «عبد الله بن جبير» وكانوا خمسين رجلاً، وقال لهم: ادفعوا عنا بالنَّبْل، لا يأتونا من خلفنا، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ووقع القتال، فأعانهم الله تعالى حتى هزموا الكفار، فلما رأى الرماة انهزام الكفار طمعوا وخالفوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا مواقعهم، فنزع الله الرعب من قلوب المشركين، فكرُّوا عليهم وكان ما كان.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، همُّوا بعد انخزال ابن سلول بالرجوع، فعصمهم الله تعالى، فمضوا مع رسول الله ﷺ، والظاهر أنه ما كانت عزيمة، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على أحدٍ غيره.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل، وبدرٌ ماء

بين مكة والمدينة، كان لرجل يسمى بدراً فسمي به، وكانت وقعة بدر في يوم الجمعة، في السابع عشر من رمضان، في الثانية من الهجرة ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ المراد بالذلة هو ضعف الحال، بقلة العَدَد، والعُدَد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسول الله ﷺ، والصبر على طاعاته، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون ربكم على ما أنعم الله به عليكم من النصر.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ
الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ
رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ
وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ
طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لِنَصَرَكم، أي إذْ نصركم في وقت قولك ﴿للمؤمنين﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة، قال الشعبي: بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذٍ ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ إنكار أن لا يكفيهم ذلك، إشعارٌ بأنهم كانوا كاليائسين من النصر، لضعفهم وقلتهم، وقوة العدوّ وكثرتهم ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ وفي التعبير بعنوان الربوبية لإظهار العناية بهم، والإشعار بعلة الإمداد ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ للنصرة.

﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعدها أي بلى يكفيكم، ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى، حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم، فقال: ﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي إن تصبروا على القتال، وما أمرتم به، وتتقوا ربكم في ما حذَّركم منه من مخالفة رسوله ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي من

ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدر فارت القِدرُ، إذا غَلَت، ومنه: «إن شدة الحر من فور جهنم» يطلق على الغضب، ثم إنه استعير للسرعة، وَوُصف بهذا إيذاناً بتحقق سرعة الإمداد ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم ﴾ في حال إتيانهم ولا يتأخرون عن إتيانهم ﴿ بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ من التسويم وهو إظهار علامة الشيء، والمراد معلِّمين أنفسهم أو خيلهم، عن ابن عباس قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر، عمائم بيض، قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمر، واختلف المفسرون في إمدادهم فقال ابن جرير: وعدهم بثلاثة آلاف، ثم وعدهم بخمسة آلاف في غزوة أحد، ولكن لم يقع ذلك، لعدم وقوع الشرط بالأمور الثلاثة: وهي الصبر، والتقوى، وإتيان أصحاب الكفر، وقد ثبت بالنص أنهم أُمدّوا يوم بدر بألف، كما في سورة الأنفال، وأما يوم «أحد» فالدلالة على أنهم لم يُمدوا، لأنهم لو أمدّوا لم ينهزموا، وإنما قدَّم لهم الوعد بنزول الملائكة، لتقوية قلوبهم.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي الإمداد لبيان أن الأسباب الظاهرة، بمعزِلٍ من التأثير، وأن حقيقة النصر مختص به عزَّ وجل، ليثق به المؤمنون، ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه ﴿ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ أي ما جعل الله إمدادكم لشيء من الأشياء، إلا للبشرى لكم، بأنكم تنصرون ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ أي بالإمداد، وفي الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا يومئذ القتال، وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المؤمنين، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق ﴿ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ بتمكين الله تعالى لهم من رقاب الأعداء، على أن مجرد القتال، لا يستدعي النصر، بل لا بد من انضمام ضعف المقاتلين وأمور أخرى، وما النصر المعهود إلا من عنده تعالى، لا من عند الملائكة ولا غيرهم ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الغالب الذي لا يُغالب فيما قضى به ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ الذي يفعل على ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة.

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾،

والمعنى لقد نصركم الله يومئذ ليقطع أي يهلك وينقص ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي طائفة منهم، بقتل وأسر، وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم سبعون، وأسر سبعون ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي يخزيهم والكبتُ: شدةُ الغيظ، أو وهن يقع في القلب، وقيل: الكبتُ الإصابة بمكروه ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ غير فائزين، والخيبةُ الحرمانُ بعد الأمل، واليأس يكون قبله وبعده، ونقيض الخيبة الظفر، ونقيضُ اليأس الرجاءُ.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لمَّا شُجَّ وجهُ الرسول ﷺ كان يقول: كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم؟ فأنزل الله هذه الآية[1]، وعن ابن عمر قال: قال ﷺ يوم أحد: «اللهم العن أبا سفيان، والعن الحارث بن هشام»، فنزلت هذه الآية والمعنى: ليس لك من أمر هؤلاء شيء، يعني لا تقدر أن تجبرهم على الإيمان، ولا على التوبة، ولا تمنعهم عنها، ولا تقدر أن تعذبهم، فإن الأمور كلها بيد الله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿أو يكبتهم﴾ والمعنى: إن الله مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي جزاءً لظلمهم قد استحقوا التعذيب.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، فله الأمر كله لا مدخل لأحد في ذلك، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مشيئةً مبنيةً على الحِكَم، والمصالح ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذبه عدلاً منه، وتقديم المغفرة للإيذان بسبق رحمته تعالى على غضبه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ

---

(١) هذه الآية في قصة أحد، وقد وردت اعتراضاً في ثنايا الحديث عن غزوة بدر، وذلك لمّا كُسرت رباعيته ﷺ، وشُجَّ وجهُه الشريف، قال صلوات الله عليه: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدّم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فنزلت: ﴿ليس لك من الأمر شيء...﴾ الآية، وانظر صفوة التفاسير.

رَّحِيمٌ﴾ لعباده المتقين، وتخصيصه بالذكر ﴿غفور رحيم﴾ إشارة إلى ترجيح جهة الإحسان، نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ويرحمنا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاطبهم بوصف الإيمان، لأنهم أهل للاستفادة من الخطاب، وتذكيراً لهم بما هو أصلح وأنفع في أمر الدنيا والدين ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ المراد من الأكل الأخذ ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ ضعف الشيء: مثله، وليست هذه الحال لتقييد المنهي عنه، بل لمراعاة الواقع، فقد روي أنه كان الرجل يُربي إلى أجل، فإذا حلَّ قال للمديون: زدني في المال، حتى أزيدك بالأجل، فيفعل عند كل أجل هكذا، فيستغرق الشيء الطفيفُ ماله بالكلية، فنهوا عن ذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهيتم عنه من الربا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين للفلاح، واقتران الرجا بالتقوى، يفيدان أن يكون العبد بين الخوف والرجا، فهما جناحان يطير العبد بهما إلى منازل القدس، ومعارج الفضل والكمال.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي احترزوا من أكل الربا ونحوه، من المعاصي

المفضية إلى دخول النار ﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ﴾ هُيِّئت ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهي غير النار التي يدخلها عصاة المؤمنين، وفيها إشارة إلى أن أكلة الربا على شفا حفرة الكفر وفيها تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار، وبالعَرَض للعصاة، وقال أبو حنيفة رحمه الله: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين، بالنار المعدة للكافرين.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أطيعوا أمرهما راجين لرحمة الله تعالى في جميع أحوالكم، وإيراد لعل في الآيتين للإشعار بعزة منال الفلاح والرحمة.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ﴾ بادروا وأقبلوا عطف على أطيعوا ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة، كالإسلام، والتوبة، والإخلاص، وقيل: إلى الهجرة، والجهاد، والظاهر العموم لأن اللفظ عام ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة، والعرب كثيراً ما تصف الشيء بالعرض، إذا أرادوا المبالغة، فليس المقصود تحديد عرضها بل هو كناية عن السعة، بما هو واردٌ على تصور السامعين ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وإنما أضيفت إليهم، لأنهم المقصودون بالذات.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، ومفعول ﴿ينفقون﴾ محذوف، ليتناول كل ما يصلح للإنفاق ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أي في جميع الأحوال، إذ الإنسان لا يخلو عن مسرَّة أو مضرَّة، والمعنى: لا يخلون عن إنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير، وفي الحديث الشريف: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»، وافتتح بذكر الإنفاق، لأنه أشقُّ شيء على النفس، وأدلُّه على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال، للحاجة إليه في مجاهدة العدوّ، ومواساة المسلمين ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ الممسكين عليه، الكافين عن إمضائه مع القدرة

والغيظُ: هيجان الطبع عند رؤية ما يكرهه أو ينكره[1] ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس، ويدخل تحته هؤلاء، أو العهد فتكون للكاظمين للغيظ، والإحسان إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضر عنه، فالأول هو المراد بقوله تعالى: ﴿الذين ينفقون﴾ ويدخل فيه إنفاق العلم، والمال، وأما دفع الضرر فهو إما في الدنيا فهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه، دالة على جميع جهات الإحسان، ولما كانت هذه الخصال إحساناً ومن فعلها فهو محسن، ذكر الله تعالى ثوابه بقوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ فهو أعظم درجات الثواب.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾فعلةً بالغةً في القبح، كالزنى، والقتل، والتعري عن الثياب ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أتوا ذنباً أيَّ ذنبٍ كان، وقيل: الفاحشةُ الكبيرة، وظلمُ النفس الصغيرة ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ تذكَّروا وعيده وحقّه العظيم ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالتوبة والندم، وإلاَّ فطلب المغفرة مع الإصرار كالاستهزاء، قالت رابعة العدوية: استغفارنا هذا يحتاج إلى الاستغفار ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا رب العزة والجلال، والمراد وصفه تعالى بسعة الرحمة، والحث على الاستغفار، والوعد بقبول التوبة، والإشعار بأن الذنوب وإن جلّت، فإن عفوه تعالى أجلُّ أي هل تعرفون أحداً يقدر على غفر الذنوب، غير من وسعت رحمتُه كلَّ شيء ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ ولم يقيموا على

---

(١) روى البيهقي أن جارية لعلي بن الحسين ـ من آل البيت ـ جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجَّه، فرفع رأسه إليها وهو مغضب، فقالت: إن الله تعالى يقول: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ فقال لها: قد كظمتُ غيظي، قالت: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: قد عفوتُ عنكِ، قالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾ قال: اذهبي فأنتِ حرةٌ لوجه الله تعالى.

ذنوبهم غير مستغفرين والإصرارُ: المداومة في المعصية، ولا يقال في الخير أصرَّ أي ولم يصروا على ما فعلوه من الذنوب[1] ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون قبح فعلهم، والوعيد عليه، والتقييد بذلك، لما أنه قد يُعذر من لا يعلم الأمر، إذا لم يكن عن تقصير في تحصيله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون بالصفات الحميدة ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ستر لذنوبهم كائنة من جهته تعالى لتوبتهم ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ عرضها السماوات والأرض ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ المغفرةُ، والجناتُ، والتعبيرُ ههنا بالأجر، مشعرٌ بأنه مستحق بمقابلة العمل، لمزيد الرغبة في الطاعة، والزجر عن المعاصي، وفي هذه الآيات دلالة على أن المؤمنين ثلاث طبقات: «المتقين، التائبين، والمصرّين» والمغفرة تكون للصنفين الأولين دون المصرّين.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا
تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ
فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ
مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

---

(١) في الحديث الشريف: «ما من عبدٍ مؤمنٍ يذنب ذنباً، فيقوم ويتطهر، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلاّ غفر الله له، ثم قرأ ﷺ: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله...﴾» الآية أخرجه أبو داود والترمذي.

﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ مضت رجوع إلى تفصيل بقية القصة ﴿ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي وقائع سنَّها الله في الأمم المكذبة، ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأقدامكم، والخطاب للمؤمنين ﴿ فَانظُرُوا ﴾ تأملوا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي آخر أمرهم، الذي أدى إليه تكذيبهم لأنبيائهم، واعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم، فالعاقل من اعتبر بغيره.

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي هذا إيضاح لسوء عاقبة المكذبين، يهتدي ويتعظ به المتقون، والمراد أنه هدى وبيان لجميع الناس، لكن المنتفع به المتقون، لأنهم يهتدون به.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ تشجيع للمؤمنين، وتقوية لقلوبهم، وتسلية عما أصابهم يوم أحد من القتل، والجراحات والوهنُ: الضعفُ أي ولا تضعفوا عن الجهاد في سبيل الله عما نالكم، ولا تحزنوا على من قتل ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي والحال أنكم الأعلون الغالبون فإنكم على الحق، وقتالكم لله سبحانه، وقتلاكم في الجنة، وإنهم على الباطل، وقتالهم للشيطان، وقتلاهم في النار، وهو تصريح بالوعد والغلبة، وحكى القرطبي أنهم لم يخرجوا بعد ذلك للغزو، إلاَّ ظفروا في كل غزوة في عهده ﷺ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾متعلق بالنهي، أي لا تهنوا إن رسخ إيمانكم، وإن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون.

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ القَرْحُ: بالفتح والضم الجِراحُ ﴿ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ يوم بدر ويوم أحد، فإن المسلمين نالوا منهم، وانتصروا عليهم، قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ نصرّفها ﴿ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ والأيام يراد بها الأوقات، لا الأيام العرفية، وهي أيام الظفر الجارية فيما بين الأمم، والمداولةُ نقل الشيء من واحد إلى آخر، ومن كلامهم: «الأيام دُوَل»، أي تنقل من أمة إلى أمة والمعنى: لا يدوم مَسَارُّها، ولا مضارُّها، فيوم علينا، ويوم لنا، وفيه تسلية للمؤمنين ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عطف على علة محذوفة، كأنه قيل: نداولها

بين الناس، لتكون حِكَماً وفوائد، وليعلم، والكلام من باب التمثيل، أي يعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين، الثابتين على الإيمان من غيرهم، والعلم فيه مجاز عن التمييز، أي ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنينَ عَلَى ما أنتم عَلَيْهِ حَتَّى يميزَ الخَبيثَ من الطَّيِّب﴾ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد أي يكرم أناساً منكم بالشهادة، وهم شهداء أحد، رُوي عن عكرمة أنه قال: لمَّا أبطأ على النساء الخبرُ، خرجن يستخبرن، فإذا رجلان مقتولان على دابة، فقالت امرأة من الأنصار: من هذان؟ قالوا: زوجك وابنك!! فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، ثم قالت يتخذ الله من عباده شهداء، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة، وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم، وابتلاءً للمؤمنين، ولو كان النصر دائماً للمؤمنين، لكان الناس يدخلون في الإيمان، لأنهم يعرفون أنه الحق وقيل: المراد بالظالمين المنافقين، كابن أُبيّ ابن سلول، ومن تبعه، الذين فارقوا جيش الإسلام، ورجعوا ولم يقاتلوا.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب، إن كانت الدولة عليهم، وأصل التمحيص: تخليص من كل عيب، يقال: محصت الذهب إذا أزلت خبثه ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، ومعنى الآية: إنْ قَتَلكم الكافرون فهو شهادة، وتطهير لكم، وإن قتلتموهم أنتم، فهو استئصال لهم وشفاء لصدوركم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم، ومعناه الإنكار، والخطاب للذين انهزموا يوم أحد ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي والحال أنه لم يتبيَّن المجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون على ما ينالهم في ذات الله؟ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين يتحملون أقسى الشدائد نصرة لدين الله، والمراد من الآية أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر، أي الجمع بينهما.

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ ﴾ خطاب لطائفة من المؤمنين، لم يشهدوا غزوة بدر، فالمراد بالموت، الموت في سبيل الله، وهي الشهادة، ولا بأس بتمنيها، ولا يرد أنَّ في تمني الموت غلبة الكفار، لأن قصد المتمني الوصول إلى كرامة الشهداء لا غير، وكان المتمنون ألحُّوا على الرسول ﷺ في الخروج إلى غزوة أحد، ثم ظهر خلاف ذلك منهم ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شِدَّته ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي فقد رأيتموه معاينين له، حين قُتل من قُتِل من إخوانكم، وهو عتاب في حق من انهزم، وتوبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب، وتسبَّبوا لها، ثم جبُنوا وانهزموا عنها.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ محمد اسم علم لنبينا ﷺ سمَّاه به جده عبد المطلب لرؤية رآها، قال: رجوت أن يحمد في السماء والأرض، وقد كان المشركون يسمونه «مذمَّماً» لأنه عاب دينهم، وحقَّر أصنامهم، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول: ألم تروا كيف صرف الله

لعن قريش، وشتمهم لي، يشتمون مذمَّماً وأنا محمد!! روي أنه لمَّا رمى ابن قمئة رسول الله ﷺ بحجر، فكسر رباعيته، وشجَّ وجهه، وذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وقتله ابن قمئة، وهو يرى أنه قتل النبي ﷺ فقال عدوُّ الله: قد قتلتُ محمداً، وصرخ صارخ ألاَ إن محمداً قد قُتل، فجعل الرسول ﷺ يدعو المؤمنين: إليَّ يا عبادَ الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه، وحموه، حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرق الباقون وقال بعضهم ليت ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قُتل، فارجعوا إلى إخوانكم ودينكم، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإنَّ رب محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله، فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل، فنزلت الآية أي وما محمد إلا رسول، قد مضت من قبله الرسل، والرسل منهم من مات ومنهم من قتل، فعليكم أن تتمسكوا بدينه، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، لأن المقصود من بعثة الرسل، تبليغ الرسالة، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾؟ إنكار لارتدادهم عن الدين، بخلّوه ﷺ بموتٍ أو قتل، وليس المراد ارتدادهم حقيقة، وإنما هو تغليظ عليهم، فيما كان منهم من الفرار، فما ارتد أحد يومئذ من المسلمين، إلا من كان من المنافقين ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ مجاز عن الارتداد، وهو في الأصل الرجوع القهقرى ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ من الضر، وإنما يضر نفسه، بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ المراد بالشاكرين: الثابتين الطائعين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إلا بمشيئة الله تعالى والمعنى: إن لكل نفسٍ أجلاً مسمَّى في علمه تعالى، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، بالإحجام عن القتال، أو الإقدام عليه، وفيه تحريضٌ وتشجيعٌ على القتال لإعلاء كلمة الله ﴿كِتَـٰبًا﴾ أي كتب الله تعالى كتاباً ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ موقتاً بوقتٍ معلوم، لا يتقدم ولا يتأخر، وظاهر الآية يؤيد

مذهب أهل السنة، القائلين بأن المقتول ميتٌ بأجله ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم، وأخذوا يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك، أقبلوا على الغنائم وخلوا مكانهم، فانتهز المشركون ذلك، وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم، والمعنى: من أراد بعمله ثواب الدنيا، نؤته منها ما نشاء أن نؤتيه إياه، كما في قوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ إعلاء كلمة الله ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ من ثوابها، حسبما جرى به الوعد الكريم، والآية وإن نزلت في الجهاد، لكنَّ حكمها أنها عامة في جميع الأعمال الحسنة ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ المراد إمَّا المجاهدون من الشهداء وغيرهم، وإما جنس الشاكر، وهم داخلون فيها دخولاً أوّلياً، وتصدير الجملة بالسين وإبهام الجزاء، من التأكيد، والدلالة على فخامة الجزاء ما لا يخفى.

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلام ناعٍ عليهم سوء صنيعهم، حيث لم يستنُّوا بسنن الربانيين، المجاهدين بنبيهم، مع أنهم أولى بذلك منهم، حيث كانوا خير أمة أُخرجت للناس «كأين» فيها معنى التكثير بمعنى كم ﴿مِّن نَّبِىٍّ﴾ المراد من النبي هنا الرسول ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي كثير من الأنبياء، قاتل معه جموع كثيرة، والربيُّ المنسوب إلى الرب، أي قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، العلماءُ والعابدون أو أتباع كثيرة ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ الوهنُ: العجز والضعف أي فما عجزوا وما جبنوا، ولم تضعف همتهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ من القتل والجراح ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أثناء القتال، فإن كون ذلك في سبيله عزَّ وجل، ممّا يقوّي قلوبهم، ويزيل وهنهم ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ عن الجهاد أمام الأعداء ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي ما خضعوا لعدوهم وأصله من السكون، لأن الخاضع يسكن لصاحبه، ليفعل به ما يريده ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فينالهم الضرر ليعظم قدرهم، وهم الذين يصبرون على مقاساة الشدائد في سبيل الله.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ أي قول المجاهدين الفعلية ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ أي ما

كان قولهم عند الشدائد والآلام، إلا أن قالوا ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي صغائرنا ﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ أي تجاوزنا عن الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم، مع كونهم ربانيين، هضماً لأنفسهم ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ في مواطن الحرب، بتقوية قلوبنا أو وثبِّتْ أقدامنا على دينك الحق ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي على الكفار، وقولُهم هذا، كالتتميم لبيان صلابتهم في الدين والمقصود من الآية الكريمة حكايةُ ما جرى لسائر الأنبياء وأتباعهم، لتقتدي هذه الأمة بهم، وفيه من التعريض بالمنهزمين، وكيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بسبب ثباتهم ودعائهم ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ النصرة والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي وثواب الآخرة الحسن، وهو الجنة، والنعيم المخلد فيها ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي يحب أهل الفضل والإحسان.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ
عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ
بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ
أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ
ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ
ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ
أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ
لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ
بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به، وقيل المراد بهم أهل الكتاب حيث كانوا يقولون: لو كان نبياً لما غُلب، وإنما هو رجل حاله كحال غيره، يومٌ له ويومٌ عليه، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ أي يرجعونكم إلى أول أمركم، وهو الشرك ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ أي غير فائزين بشيء من الدنيا والآخرة، وذلك أعظم الخسران.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية، كأنه قيل: فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم، بل الله ناصركم ومولاكم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة، لأنه القوي القادر الذي لا يُغلب، والناصر في الحقيقة لأوليائه وأحبابه المتقين.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ السين لتأكيد الإلقاء، والرعبُ: الخوفُ والفزع، والمراد من الموصول أبو سفيان وأصحابه من كفار قريش، وفي الحديث: «نصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر»[1] يعني نصرني الله بإلقاء الخوف في قلوب أعدائي، من مسيرة شهرٍ بيني وبينهم، يريد ماقذف الله في قلوبهم من الخوف، يوم أحد، حتى تركوا القتال ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي بسبب إشراكهم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي بإشراكه ﴿سُلْطَـٰنًا﴾ أي حجة، سُميت به لوضوحها وإنارتها ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مسكنهم الذي يأوون إليه في الآخرة النار لا مأوى لهم غيرها ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي بئست جهنم مسكناً ومأوى للظالمين، وإنما وضع الظاهر للتغليظ، والإشعار بأنهم في إشراكهم ظالمون، وفي جعلها مثواهم، بعد جعلها مأواهم، نوع رمز إلى خلودهم فيها، فإن المثوى مكان الإقامة الدائمة.

---

(١) طرف من حديث شريف رواه البخاري ١/٣٦٩ ومسلم رقم ٥٢١ وأوله: «أعطيتُ خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر..» الحديث، وانظر جامع الأصول ٨/٥٢٩.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ روي أنه لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله بالنصر؟ فنزل ﴿وَلَقَد صَدَقَكُمُ اللهُ وَعدَهُ﴾ ووعدُه إياهم بالنصر بشرط التقوى والصبر، بقوله تعالى: ﴿إن تصبروا وتتقوا﴾ وقال ﷺ للرماة: لا تبرحوا عن هذا المكان، فإنا لا نزال غالبين ما دمتم، وقد كان كذلك، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي تقتلونهم قتلاً كثيراً، من حسَّه إذا أبطل حسَّه، وقوله تعالى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بتيسيره وتوفيقه، وتقييد صدق وعده تعالى، بوقت قتلهم بإذنه، صريح في أن الموعود هو النصر العملي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعف رأيكم، وملتم إلى الغنيمة، فإن الحرص من ضعف العقل ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمره ﷺ يعني اختلاف الرماة بعد انهزام المشركين ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر نبيكم بترككم الثغر ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من انهزام المشركين والغنيمة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين انهالوا لجمع الغنائم، وتركوا الجبل، وخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم، حتى نالوا شرف الشهادة ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي كفَّكم عنهم حتى تحولت الحال ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب، ليظهر ثباتكم على الإيمان ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تفضلاً لما علم من ندمكم، والمراد بالعفو هنا عدم العقوبة ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التنوين للتفخيم أي ذو منٍّ وفضلٍ عظيم على عباده المؤمنين.

﴿۞إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلق بصرفكم، والإصعاد الذهاب في الأرض، أصعد ذهب أينما توجَّه ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي لا يقف أحد لأحد، ولا ينتظره، ولا يلتفت إلى ما وراءه، وهو غاية انهزامهم، يقال: فلان لا يلوي على شيء أي لا يعطف ولا يلتفت إليه ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول إليَّ يا عبادَ الله، أنا رسول الله، وإيراده بعنوان

الرسالة، لتعظيم شأنه ﷺ توبيخ للمنهزمين ﴿فِىٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي من ورائكم يقال جئت في آخر الناس وأخراهم فالمعنى كان ﷺ يدعوهم وهو واقف في آخرهم ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ أي فجازاكم الله بما صنعتم، والتعبير بالإِثابة من باب التهكم على حد قولهم: «تحيةُ بَيْنِهِمْ ضربٌ وجيع» ﴿غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ أي غمّاً على غمٍّ[1]، بالقتل، والجراح، وظفر المشركين، والإِرجاف بقتل النبي ﷺ وفوت الغنيمة، فالتنكير للتكثير ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ أي فجازاكم على عصيانكم غماً متصلاً بغم، لتتمرنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة، وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة، عقوبة لكم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم، وبما قصدتم بها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٥٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ۝١٥٥﴾.

---

(١) هذا ما ذهب إليه شيخ المفسرين الإمام الطبري أن المعنى: غماً على غمّ، فتكون الباء بمعنى «على» ورجح هذا القول ابن القيم والحافظ ابن كثير، وقيل المعنى: جازاكم على صنيعكم غماً بسبب غمكم الرسول ﷺ ومخالفتكم أمره، فيكون ذلك عقوبةً لهم، وجزاءً وفاقاً على ما أدخلوه من الغمِّ على رسول الله ﷺ، ولعل هذا الرأي أظهر والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ عطف على فأثابكم، والخطاب للمؤمنين ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي اعتراكم ﴿أَمَنَةً﴾ مصدر كالمنعة ﴿نُّعَاسًا﴾ وذلك أن المشركين لما انصرفوا يتوعدون المسلمين بالرجوع، فلم يأمنوا كرَّتهم، وكانوا تحت السلاح متأهبين للقتال، فأنزل الله عليهم أمنة، فأخذهم النعاسُ، وهو النوم الخفيف، وفائدة النوم أن السهر يوجب الضعف والكلَال، والنوم يفيد عودة القوة والنشأة ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ فيه إشعار بأنه لم يغش الكل. عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشَّاه النعاسُ يوم أُحد، سقط سيفي من يدي مراراً وآخذه[1] ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هم المنافقون أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمُّهم إلاَّ همُّ أنفسهم وطَلَبُ خلاصها ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي والحال أنهم يظنون به تعالى غير ظن الحق الذي يجب أن يظن به سبحانه ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ هل لنا مما أمر الله ووعده من النصر والظفر نصيب قط ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي إن الشأن والغلبة الحقيقية لحزب الله وأوليائه، وغلبةُ الكفار على المسلمين ليس بنصر، لأن النصر ما كانت عاقبتُه سليمة، والمسلمون وإن انهزموا في الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم في الحقيقة، فإن حزب الله هم الغالبون، وأما قول الكفار: «لو كان هذا رسول الله لما سُلِّط عليه الكفارُ» فهذا ظن فاسد، لأن الله يبتلي عباده بما شاء، ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يقولون مظهرين النصرة، مبطنين الإنكار والتكذيب ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم، أو إذا خلا بعضهم إلى بعض ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ كما وعد محمد ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي لما غُلبنا، ولَمَا قُتل من قُتل منا في هذه المعركة، عن الزبير قال: رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف، أرسل الله تعالى

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٠٨.

علينا النوم، فما منا رجلٌ إلاّ ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول: «معتب بن قشير» ما أسمعه إلا كالحُلُم «لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلْنا ههنا» فحفظتُها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية[1] ﴿قُل﴾ يا رسول الله ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ أي لو لم تخرجوا إلى أُحُد، وقعدتم في المدينة ﴿لَبَرَزَ﴾ لخرج لسببٍ من الأسباب الداعية إلى البروز ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ في تلك المعركة ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ إلى مصارعهم ولم تنفعه الإقامة بالمدينة قطعاً، فإن قضاء الله لا يردُّ ولم ينجُ منه أحد ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يبتلي ما في صدوركم من الإخلاص، والنفاق، وهو علة لفعل مقدر، كأنه قيل: فَعَل ما فَعَل لمصالح جمة وليبتلي الخ ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وليكشفه ويميزه من مخفيات الأمور، ويُذكر الصدرُ مع الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ والقلب مقر الإيمان، والفؤاد مشرق المشاهدة، واللبُّ مقام التوحيد وعلى هذا تؤول ليبتلي إسلامكم، وليمحِّص إيمانكم، وربما يقال: عبَّر بذلك للتفنُّن بناءً على أنَّ المراد بالجمعين واحد ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي السرائر الخفية التي لا تكاد تفارق الصدور، والجملة حال أي فعل ما فعل والحال أنه تعالى غني عن الابتلاء، محيط بخفيات الأمور، وفيه وعد ووعيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾ أي هربوا منكم فهو خطاب لمن كان مع الرسول ﷺ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع الرسول ﷺ وجمعُ أبي سفيان للقتال بأحد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي إنما كان السبب في انهزامهم، أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه، وهي الخطيئة، وذلك بإلقاء الوسوسة في قلوبهم ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب التي هي المخالفة لأمر النبي ﷺ وترك المركز، والحرص على الغنيمة، والذنب يجر الذنب، كما

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/٤٢٧.

أن الطاعة تجر الطاعة، لأن مخالفة أمره ﷺ سبَّب لهم الهزيمة ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم لتوبتهم واعتذارهم، أعاد سبحانه ذكر العفو تأكيداً لطمع المذنبين فيه، ومنعاً لهم عن اليأس وتحسيناً للظنون وكان المتولون أكثر القوم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني المنافقين، وهم القائلون: ﴿لو كَانَ لَنَا مِنَ الأمرِ شيءٌ ما قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وإنما ذكر كفرهم صريحاً، لمباينة حالهم لحال المؤمنين، وتنفيراً عن مماثلتهم، وفيه دليل على أن الإيمان ليس عبارة عن مجرد الإقرار باللسان، بل هو تصديق وقول وعمل ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في المذهب، أي قالوا لأجلهم ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها للتجارة أو غيرها قال الزجاج: إذا ههنا لمجرد الوقت، أي حين ضربوا ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ جمع غاز وإنما لم يقل: أو غزَوْا، للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا﴾ بأن لم يسافروا أو لم يغزوا ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ بل كانوا يبقون أحياء بمضمونه كما أنه المنكر على قائليه ألا يرى قوله عزَّ وجل: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ اللام لام العاقبة أي قالوا ذلك واعتقدوه، ليكون ذلك حسرة وغمّاً، وحزناً في قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ لقولهم الباطل، أي هو سبحانه المؤثر في الحياة والممات وحده، من غير أن يكون للإقامة

والسفر، مدخل في ذلك، فإنه تعالى يحيي المسافر والمحارب، مع اقتحامهما لموارد الحتوف، ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهم لأسباب السلامة والراحة، ولا محيص عما قدَّر الله، وفيه المنع عن التخلف عن الجهاد ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوا المنافقين، وترغيب لهم في الطاعة، لأن ابتلاء الله كعلمه، يستعمل في القرآن للمجازاة على العمل، ولا حاجة لله عزَّ وجلّ للامتحان والاختبار.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ أي في سبيله وأنتم متلبسون به فعلاً ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ جواب القسَم والمعنى: إن السفر، والغزو في سبيل الله، ليس ممَّا يجلب الموت، وإن وقع ذلك في سبيل الله، فَمَا تنالون من المغفرة والرحمة بالموت، خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها، وهذا ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وفيه تعزية لهم وتسلية عما أصابهم في سبيل الله، وقدم القتل على الموت، لأنه أكثر ثواباً، وأعظم عند الله كما قال الشاعر:

فإنْ كانت الأبدان للمَوْت أنشئت فقتلُ امرىءٍ بالسيف ـ والله ـ أفضلُ

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾على أي وجهٍ اتفق هلاككم، حسب تعلق الإرادة الإلّهية ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ الرحيم الواسع الرحمة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره فيجازي كلاً منكم بعمله، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والباء متعلق بـ«لنتَ» قُدّمتْ للقصر، و«ما» مزيدة للتأكيد، والتنوين للتفخيم، أي

فبرحمة عظيمة كائنة من الله تعالى ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي كنتَ ليّنَ الجانب لهم، وعاملتهم بالرفق والتلطف، بعدما كان منهم ما كان، أفاد الكلام فائدتين: إحداهما: شجاعتُه ﷺ والثانية: رِفقه حيث ثبت حتى كرَّ عليه أصحابه، ثم ما زجرهم ولا عنّفهم على الفرار، بل آساهم في الغم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي خشن الجانب، شرس الأخلاق، جافياً في المعاشرة ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه، وفي الكلام حذفٌ، أي لو كنت كذلك ولم تلن لهم ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، ولم ينتظم أمر ما بعثت به من إرشادهم إلى صراط مستقيم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقك كما عفى الله عنهم ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقه سبحانه، إتماماً للشفقة، وإكمالاً للبِرِّ بهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمر الحرب إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يُشاور فيه استظهاراً لرأيهم، وتطييباً لنفوسهم، وتمهيداً لسُنَّة المشاورة للأمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَشَاوِرهُم فِي ٱلأمرِ﴾ قال ﷺ: أما إنّ الله ورسوله لَغَنيّان عنها، ولكنّ الله جعلها رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيّاً»[1]. وفي الحديث: «ما تشاور قومٌ إلاّ هُدُوا لأرشد أمرهم»[2] ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ عقيب المشاورة على شيء، واطمأنت به نفسك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فاعتمد عليه وثِقْ به، وفوِّضْ أمرك إليه، فإنه الأعلم بما هو الأصلح، أصل التوكل إظهار العجز والاعتماد على الغير، وهو عندنا على الله سبحانه، ولا ينافي مراعاة الأسباب بل يكون بمراعاتها مع تفويض الأمر إليه تعالى، وفي الحديث: «اعقلها وتوكل»[3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، الواثقين به، فينصرهم ويرشدهم إلى ما هو خير لهم، لأنه سبحانه الملجأ الأعظم، الذي لا تنقضي الحاجة إلا عند بابه.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عدي في الكامل.

(٢) رواه الطبري في تفسيره.

(٣) الحديث رواه الترمذي رقم ٢٥١٩ وسببه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أُطلق ناقتي وأتوكَّل؟ فقال له ﷺ: «اعقِلها وتوكَّلْ» وانظر مع الأصول ١١/ ٧٩٢.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم، سيقت لإيجاب التوكل عليه تعالى، والترغيب لطاعته والتحذير عن معصيته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ويمنعكم معونته ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ استفهام إنكاري مفيد لانتفاء الناصر بطريق المبالغة ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد خذلانه تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المراد بهم جنس المؤمنين، لأن الأمر كله لله، ولا رادَّ لقضائه، ولا دافع لحكمه، فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى لا على غيره.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي وما صحَّ لنبيٍّ ولا استقام أن يخون في الغنائم، فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال: غل، من المغنم: إذا أخذه خفية عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في قطيفة فُقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذها[1]. ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يأتي بالذي غلَّه بعينه، يحمله على عنقه، أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكَرَ الغلول فعظَّمه، وعظَّم أمره، حتى قال: «لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رُغَاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك...»[2] الحديث ولعل السر في ذلك، أن يفضح به على رؤوس

(١) الحديث أخرجه أبو داود، والترمذي في التفسير ٥/ ٢١٤.
(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ١٢٩ ومسلم في الإمارة رقم ١٨٣١ وأحمد في المسند ٢/ ٤٢٦.

الأشهاد، زيادة في عقوبته ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً، خيراً أو شراً، قليلاً أو كثيراً، وضع الكسب موضع الجزاء، تحقيقاً للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب، أو نقص ثواب.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ رضاء الله، أي سعى في تحصيله، بفعل الطاعات، وترك المنكرات ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ﴾ أي غضب عظيم كائن ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ تعالى، والمراد بمن ﴿اتّبع رضوان الله﴾: المؤمنون، والمراد بمن ﴿باء بسخطٍ من الله﴾: المنافقون، وهم الذين باؤوا بسخطِ الله وغضبه، وقيل: الأول فيمن لم يغلَّ، والثاني فيمن غلَّ، والقول الأول أصحُّ وأظهر ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيره ذلك بيان لحال من باء بسخط ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ونظير هذه الآية: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾.

﴿هُمْ﴾ عائد على الموصولين باعتبار المعنى ﴿دَرَجَاتٌ﴾ طبقات متفاوتة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ في علمه تعالى وحكمه، شُبِّهوا في تفاوت الأحوال بالدرجات، إيذاناً بأن بينهم تفاوتاً ذاتياً كالدرجات ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتهم، ويجازيهم على حسبها.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنعم وتفضل وأحسن على المؤمنين من أمة محمد ﷺ، وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة للناس لزيادة انتفاعهم بها ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي من جنسهم، لا مَلَكاً ولا جنيّاً، والامتنان بذلك إما لحصول الأنس فيسهل التلقّي، وتزول

الوحشة والنفرة الطبيعية التي تكون بين الجنسين المختلفين ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن، ويطهّرهم من رجس الكفر والعصيان، ويعلمهم آيات الذكر الحكيم، والسنة النبوية المطهرة التي جاء بها سيد المرسلين وهي الحكمة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر، لا شبهة في كونه ضلالاً.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ الهمزة للتقرير والتقريع، والواو عاطفة على ما سبق من قصة أُحد، ولمّا ظرف بمعنى «حين»، والمرادُ من المصيبة ما أصابهم يوم أحد ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين، وجعل ذلك مثلين بجعل الأسر كالقتل، لأنهم قادرون على قتلهم، والمعنى: أحين أصابكم من المشركين، نصف ما أصابهم منكم، جزعتم ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ وقلتم من أين أصابنا هذا، وقد تقدم الوعد بالنصر؟ وكونُ مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم، ممّا يهوّن الخطب، ويورث السلوة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ تبكيتٌ لهم ببيان أن ما نالهم إنما هو من جهتهم، بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة، فالوعدُ بالنصر كان

مشروطاً بالثبات والطاعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملته النصر عند الطاعة، والخذلان عند المخالفة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع المشركين، يريد يوم أحد ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو كائن بقضائه لمخالفتكم الأمر ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بالعلم التمييز أي يميّز أهل الإيمان من أهل النفاق.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ إعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في سِلك المنافقين، والمعنى: وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز الثابتين على الإيمان، والذين أظهروا النفاق، وفيه تطييبٌ لأنفس المؤمنين، بإزالة مرارة التقريع، أي أنه سبحانه قادر على نصركم بعد فلا تيأسوا ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على نافقوا وهم «عبد الله بن أبيّ»، وأصحابه حيث انصرفوا يوم أُحُد ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ عنا العدوَّ، بتكثير سوادنا، أو ادفعوا عن أهليكم وبلدكم، إن لم تقاتلوا في سبيل الله ﴿قَالُواْ﴾ مستهزئين ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ أي لو نعلم ما يصح أن يُسمَّى قتالاً لاتبعناكم فيه، لكن ما أنتم عليه ليس بقتال، بل إلقاءٌ بالأنفس إلى التهلكة ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ لانخذالهم، وكلامُهم هذا واعتذارهم على وجه الدغل، أمارات ظهرت منهم، وهو مؤذنٌ بكفرهم، فإنَّ تقليل سواد المسلمين تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ المعنى: يتفوهون بقولٍ لا وجود له، فإنهم أظهروا فيه أمرين: الأول عدم العلم بالقتال، والآخر الاتباع على تقدير العلم، وقد كذبوا فيهما، حيث كانوا عالمين به، غير ناوين للاتباع، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصغير لشأنهم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض من المكر والخديعة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ المراد بهم «عبد الله بن أبيّ»، وأصحابه ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لأجلهم، يريد من قُتل يوم أحد من جنسهم وأقاربهم ﴿وَقَعَدُواْ﴾ أي قالوا قاعدين عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ كما لم نُقتل، وفيه

إيذان بأنهم أمروهم بالانخذال، حين انخذلوا وأغووهم ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين على دفع القتل عمن كُتِبَ عليهم، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه فإنه أحرى بكم، والقعود غير مغن عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة، والحذر لا يدفع شيئاً من القدر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ كلام مسوق لبيان أن القتل الذي يحذرونه، ويحذّرون الناس منه، هو أجلُّ المطالب عند المؤمن، نزلت هذه الآيات في شهداء أحد(١)، الذين قتلوا في تلك المعركة، وفيهم

---

(١) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة لئلا يزهدوا في الجنة، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً..﴾» الآية رواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٥٢٠.

«حمزة بن عبد المطلب» عم الرسول ﷺ ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ مستمرون على ذلك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذوو زلفى بالقرب والشرف ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الجنة، وهو تأكيد لكونهم أحياء.

﴿فَرِحِينَ﴾ أي مسرورين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهو شرف الشهادة، والفوز بالحياة الأبدية، والتمتع بنعيم الجنة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يسرون بالبشارة وأصل الاستبشار: طلبُ البشارة، إلا أن المعنى هنا هو الفرح التام ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ أي بإخوانهم المؤمنين، الذين لم يُقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة، وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين، إذا ماتوا أو قُتلوا كانوا أحياء، حياة لا يكدرها خوف ولا حزن، وفيها حث على الجهاد، وترغيب في الشهادة، وامتداح لمن يتمنى لإخوانه، مثل ما أنعم الله عليه.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرره للتأكيد، وليتعلق به قوله بنعمة ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وتنكيرهما للتعظيم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمراد منهم إما الشهداء وإما كافة أهل الإيمان، للإشعار بأن كل مؤمن يستحق الأجر، وليس مخصوصاً بالشهداء.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ صفة مادحة للمؤمنين أي أطاعوا الله ورسوله ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ بامتثال الأوامر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ الجراحات ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟﴾ الجمع بين الوصفين، للمدح والتعليل ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ روى ابن إسحق وغيره، أن أبا سفيان وأصحابه، لمَّا انصرفوا من أُحد فبلغوا الروحاء، ندموا وهمُّوا بالرجوع، فبلغ الأمرُ رسول الله ﷺ، فأراد أن يرهبهم، فخرج بسبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد، وهو على بعد ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه قرح فتحاملوا، وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا فنزلت الآية، وهذا من المعجزات،

لأن المسلمين قد انهزموا، والعادة جارية بأنه إذا انهزم أحد الخصمين، يحصل في قلب الغالب قوةٌ وشدة، وفي قلب المغلوب خوفٌ وخشيةٌ، والحال أنه عز وجل قلب القضية ههنا، فهو معجز خارقٌ للعادة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ روي عن مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم أنهم قالوا نزلت هذه الآية في «غزوة بدر الصغرى»، وذلك أن أبا سفيان حين أراد أن ينصرف، قال يا محمد موعدُنا موسم بدر القابل، فقال ﷺ إن شاء الله، فلما كان القابل، خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل حرَّ الظهران، فألقى الله تعالى الرعب في قلبه، ولقي «نعيم ابن مسعود»، فقال له أبو سفيان: إني واعدٌ محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جدب لا يصلحنا، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج أنا فيزيدهم جرأة، فالْحَقْ المدينة فثبِّطْهم، ولك عندي عشرةٌ من الإبل، فأتى نعيم المدينة ووجد المسلمين يتجهزون للخروج، فقال لهم: تريدون أن تخرجوا إليهم، وقد جمعوا لكم؟ فوالله لا يفلتُ منكم أحد، فكره أصحاب الرسول ﷺ الخروج فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو وحدي»، فخرج ومعه سبعون، وهم يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل» ففي هذا نزلت الآية ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ أي فخافوهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ والمعنى أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت يقينهم بالله سبحانه وازداد إيمانهم، وأظهروا حمية الإسلام، وهو دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصاناً ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا الله، من أحسبه إذا كفاه ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي نعم الموكول إليه هو تعالى: وفي الحديث: «إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبي الله ونعم الوكيل»[1].

(١) أخرجه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره من حديث أنس بن مالك مرفوعاً ١/ ٤٤٠ وفي صحيح البخاري ما يؤيِّده، فقد روى عن ابن عباس ٨/ ١٧٢ أنه قال: ﴿حسبُنا الله ونعم الوكيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناسُ ﴿إن النَّاسَ قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهم، فزادهُمْ إيماناً وقالوا حسبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ﴾.

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي العافية والسلامة والثبات على الإيمان، وطاعة الله ورسوله ﴿وَفَضۡلٖ﴾ أي ربح في التجارة، فإنهم لما أتوا بدراً وكان في أيام الموسم، اتجروا وربحوا ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ من كيد عدوّ، وجراحة، وقتالٍ ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ بجرأتهم وخروجهم إلى وجه العدو طلباً لرضاء الله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضَّل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وحفظهم عن كل ما يسؤهم، مع إصابة النفع، وفيه تحسير لمن تخلَّف عنهم.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى المثبطين، والخطابُ للمؤمنين ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إبليس ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أي المنافقين، والقاعدين عن الخروج مع الرسول ﷺ، وقيل: المعنى «يخوّفكم بأوليائه» وعلى هذا المعنى أكثر المفسرين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ الضمير للناس ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري، فجاهدوا مع رسولي، والخطابُ للقاعدين ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله، على خوف الناس، ويستدعي الأمن من شر الشيطان.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ﴾ توجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ لتشريفه بتخصيصه بالتسلية، والإيذان بأصالته في تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤونه، والمراد بالموصول أما المنافقون قاله مجاهد، وإمَّا قوم من المرتدين قاله علي الجبائي وإمَّا العموم قاله الحسن ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ﴾ يقعون فيه سريعاً، حرصاً عليه، وشدة رغبتهم فيه، ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بفي دون إلى ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ تعليل للنهي، وتكميل للتسلية أي لن يضروا أولياء الله ضرراً ما ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْأٓخِرَةِۖ﴾ لما هم فيه من الانهماك في الكفر، وتمادي طغيانهم، وموتهم على الكفر وصيغةُ الاستقبال ﴿يريد الله﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، ويرجع إلى دوام منشأ هذا المراد وهو الكفر، وفي الآية دليل على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى ﴿وَلَهُمْ﴾ مع هذا الحرمان ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان رغبة فيما أخذوه وإعراضاً عما تركوه، ولهذا وضع اشتروا موضع بدلوا ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ لمَّا جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة، وبتألمه عند كونها خاسرة، وصف عذابهم بالشدة والألم، والآية تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ﴾ خطاب للرسول ﷺ أو لكل من يحسب، والإملاء والإمهالُ: إطالةُ العمر، وقيل تخليتهم وشأنهم، من أملى لفرسه إذا أرخى له الطِّوَل ـ أي الحبل ـ ليرعى كيف شاء ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ تعليل لما قبلها، واللام في (لهم) لام الإرادة، وعند المعتزلة لام العاقبة، والآية حجة لأهل السنة، في عدم وجوب الأصلح ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي لهم عذاب مؤلم موجع، مع الإهانة

والتحقير لتكبُّرهم عن طاعة الله، ولمَّا تضمن الإملاء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها، وذلك مما يستدعي التعزز، وصف عذابهم بالإهانة، ليكون جزاؤهم وفاقاً لعملهم، والآية نزلت في مشركي مكة، وهو المروي عن مقاتل، وقيل في بني قريظة قاله عطاء.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لوعد المؤمنين، ووعيد المنافقين، والمراد بالمؤمنين المخلصون، والمراد بما هم عليه: اختلاطُ بعضهم ببعض، واستواؤهم في إجراء الأحكام الدنيوية عليهم ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ أي ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط، بل يوحي إلى الرسول ﷺ بأحوالهم، ويبتليهم بالتكاليف التي لا يقدر عليها إلا الخُلص، كبذل الأموال، والأنفس في سبيل الله، حتى يعزل المنافق من المؤمن، وتعلق التمييز بالخبيث إشعار برداءة ذلك الجنس، فإن الملقى من الشيئين هو الأدون واختلفوا بما يحصل التمييز، فقيل: بالمحن والمصائب، وقيل بإعلاء كلمة الله، وقيل بالوحي، ولهذا أردفه بقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ تمهيد لبيان المَيْزِ الموعود وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ إشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الإجمال، والإظهار في الموضعين لتربية المهابة، فالمعنى: ما كان الله ليترك المؤمنين، على الاختلاط بالمنافقين، بل يخرج المنافقين من بينهم، وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما في قلبهم، ولكنه تعالى يجتبي لرسالته من يشاء، فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات، واجتباء الله تعالى لرسله، تخصيصه إياهم بفيض إلهيّ، بلا سعي من العبد ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ سوق النظم الكريم، للإيمان بالرسول ﷺ، ولكنه ورد بالتعميم للإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ ﴾ بكل ما جاء به ﷺ حق الإيمان ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ النفاق أو المخالفة في الأمر والنهي ﴿ فَلَكُمْ ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ ﴾ بيان لحال البخل، ووخامة عاقبته أي لا يظنن أولئك البخلاء الذين يمنعون زكاة أموالهم، ولا يمدون يد العون للفقراء والمساكين ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ إيراد ما بخلوا به، بعنوان إيتاء الله إياهم من فضله، للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله تعالى، والبخلاء يمنعون حقوق الله كالزكاة، والفطرة، والأضحية، والنفقات، أو بحكم المروءة نحو الصدقة والهدية، وأشد البخل الإمساك عن نفسه، بأن لا يأكل، أو لا يلبس، أو لا يتداوىٰ، وهذا البخل يسمى شحا[1] ﴿ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُم ﴾ أي لا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيراً لهم ﴿ بَلۡ هُوَ شَرّٞ ﴾ عظيم ﴿ لَّهُمۡ ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم، ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ الكلام عند الأكثرين على ظاهره[2] أي سيكون هذا الذي بخلوا به طوقاً في أعناقهم يوم القيامة، وقال بعضهم: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي وله ما فيهما مما يتوارث به أهلهما من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه، ولا ينفقون في سبيله تعالى، أو أنه تعالى يرث منهم ما يمسكون بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ من المنع والبخل، فيجازيكم على ذلك.

---

(١) هذا أبشع أنواع البخل، أن يبخل من الإنفاق على نفسه، كما قال الشاعر في شخصٍ يدعى عيسى:

يُقَتِّــرُ عِيســىٰ عَلَــى نَفْسِــهِ ... وَلَيْــسَ بِبَــاقٍ وَلاَ خَــالِــدِ

فَلَــوْ يَستَطيــعُ لتَقْتِيــرِهِ ... تَنَفَّــسَ مِــنْ مِنْخَــرٍ وَاحِــدِ

(٢) أخرج البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته، مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ـ أي ثعباناً كبيراً ضخماً ـ يطوّقه فيأخذ بلهزمتيه ـ أي شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالُك، أنا كنزك، ثم تلا الآية ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون..﴾ الآية.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قاله اليهود لما سمعوا قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قالوه على سبيل الطعن والاستهزاء[1]، وظاهر الآية يدل على أن القائلين هذا

(١) روي في سبب نزول هذه الآية، أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه دخل بيت مجتمع اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على عظيم فيهم اسمه «فِنْحاص» كان من علمائهم وأحبارهم، فقال له أبو بكر: اتَّقِ الله وأَسْلِم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال له فِنْحاص: والله يا أبا بكر، ليس لنا من حاجةٍ إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عنَّا ما استقرض منا!! فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص، فَشَجَّهُ شجَّةً عنيفة، وقال له: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربتُ عنقك يا عدوَّ الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ يشكو أبا بكر، وجاء أبو بكر فأخبر =

كانوا جماعة، ومعنى الآية: أنه تعالى سمع مقالتهم ولم يخف عليه أمرهم، وأنه عز وجل أعدَّ لهم ما يكفيهم من العذاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ في صحائف الحفظة أو سنحفظه أي لا نهمله ولا ننساه لأنه كفر بالله، واستهزاء بالقرآن وقرنه تعالى بقوله ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ إيذاناً بأنهما أخوان في العظم، وتنبيهاً على أنَّ من اجترأ على قتل الأنبياء، لم يستبعد منه أمثال هذا القول، ونسبة هذا القتل إلى هؤلاء، باعتبار رضائهم بقتل أسلافهم ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ في اعتقادهم أيضاً، وننتقم منهم بسبب هذا القول ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم، وإنما أضيف إلى الله تعالى، لأنه بأمره، والحريق بمعنى المُحْرِق، والذَّوقُ: إدراك الطعوم، وعلى الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات والأمور العقلية، فيقال: ذقتُ الشقاءَ، ومرارةَ العيش.

﴿ذَٰلِكَ﴾ شهادة إلى العذاب المذكور ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء، والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من الكفر والمعاصي، عبَّر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي والله تعالى ليس بمعذب لعبيده، والتعبير عن ذلك بنفي الظلم، لكمال نزاهته تعالى عن ذلك، وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى، أو الصيغة هنا للنسبة، أي لا يُنسب إليه ظلم، فالمعنى ليس بذي ظلم، ولا يقع منه ظلمٌ لأحد أصلاً.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ المراد من الموصول جماعة من اليهود، ككعب بن الأشرف، ومالك بن حُيَيٍّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أي أمرنا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾أي بأن لا نصدِّق أحداً ممن ادعى الرسالة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا

---

= الرسول بما قاله ذلك الفاجر، فأنكر فنحاص تلك المقالة، فنزلت الآية تصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء..﴾ الآية. من تفسير ابن الجوزي ١/ ٥١٤.

﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ القربان أصله مصدر كالرجحان، وهو كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، والمراد به هنا تقديم شيءٍ تأكله النار، من كبشٍ، أو حبّ، أو طعام، قيل كانت بنو إسرائيل يذبحون الشاة فيضعونها وسط بيتٍ والسقفُ مكشوف، فيدعو نبيهم في البيت وبنو إسرائيل في الخارج، فتنزل نار فتأكله، وقيل إن هذا الشرط كذبٌ على التوراة، من كذب اليهود ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تبكيتاً لهم، وإظهاراً لكذبهم ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي بالقربان الذي تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ في قولكم إنَّا نؤمن بما جاء به، فإنَّ زكريا ويحيى وغيرهما قد جاؤوكم بما قلتم، فما لكم لم تؤمنوا بهم، حتى اجترأتم على قتلهم؟ بيَّن الله عز وجل أنهم يطلبون هذه المعجزة على سبيل العناد، لا على سبيل الاسترشاد، ولذلكَ لم يسعف مطلوبهم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ شروع في تسلية النبي ﷺ، إثْر ما أوحي إليه ما يحزنه من مقالات الكفرة ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني فإن كذَّبك هؤلاء الكفار، فلا يهولنَّك أمرهم يا رسول الله، فقد فعلت الأمم السالفة بأنبيائهم كذلك ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات الواضحات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور كالرسول، يقال زبرت الكتاب: أي كتبته ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾أي الكتاب الهادي، وهو القرآن العظيم، المنيرُ لطريق الحق والهداية والسعادة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ هذا يدل على أن الأرواحَ لا تموت بموت الأبدان، لأن ذائق الشيء، لا بد أن يكون باقياً حال حصول الذوق، ولفظ «كل» يقتضي الشمول، بدليل قوله تعالى ﴿فَصَعِقَ منْ في السَّمَاواتِ ومَنْ في الأرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ وذلك يقتضي أن لا يموت الداخلون في هذا الاستثناء فالمعنى: لا يحزنك تكذيبهم، فمرجع الخلق إلى الفناء ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم، خيراً كان أو شراً، تاماً وافياً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي وقت قيامكم من القبور وفي لفظ التوفية، إشارة إلى

أن بعض أجورهم، تصل إليهم قبل ذلك اليوم، وفي الحديث الشريف «القبر إما روضةٌ من رياض الجنة، أو حُفرةٌ من حُفر النيران»(١) وقال ﷺ: «إذا مات الرجلُ عُرض عليه مقعدهُ بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدُك حتى يبعثك اللهُ يوم القيامة»(٢) وهذه الأحاديث الشريفة تثبت الحياة في القبر ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ بَعُدَ عنها، والزحزحةُ في الأصل: تكريرُ الزحّ، وهو الجذبُ بعجلة ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوزُ: الظفرُ بالبُغية فاز، يفوز: نجا وظفر بمراده ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي لذاتها وزخارفها وشهواتها ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ المتاعُ: كلُّ ما ينتفع به، كالطعام، واللباسِ، وأثاث البيت، مما يُباع ويُشترى، وقد شبهها سبحانه بالمتاع إشارة إلى رداءتها، والغرورُ: الخداع، غرته الدنيا أي خدعته بزينتها وهذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي متاع بلاغٍ إلى انتهاء الأجل.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ﴾ أي والله لتختبرن، جوابُ قسم محذوف، وفيه تسلية للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، عما سيلقونه من جهة الكفار من المكاره، ليوطّنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه، ويقابلوه بالصبر والثبات ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بتكليف الإنفاق، وما يصيبه من الآفات ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل، والأسر، والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخائف ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى، عبَّر عنهم بذلك، للإشعار بمدار الشقاق، وهو الكيد والحسد ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ من هجاء الرسول ﷺ، والطعن في الدين، وإغراء الكفرة على المسلمين، وصدٌّ من أراد الإيمان وهجر المؤمنين، والافتراء على الله وعلى الرسول ونحو ذلك ﴿وَإِن

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦٢.
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ٣/١٩٣ ومسلم رقم ٢٨٦٦.

﴿تَصۡبِرُواْ﴾ على تلك الشدائد والمصاعب عند ورودها ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي تمسكوا بتقوى الله وطاعته، بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب، ولقاء المكروه ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الصبر والتقوى ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي ممّا يجب العزم عليه من الأمور، التي ينبغي أن يعزمها كل أحد، لما فيها من كمال المزية والشرف.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ بيان لبعض إذايتهم، وهو كتمانهم ما فيه من الشواهد على نبوته ﷺ، أي اذكروا وقت أخذه تعالى ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى، ذكروا بعنوان «أوتوا الكتاب» مبالغةً في تقبيح حالهم، ورمزاً إلى أن أخذ الميثاق كان في كتابهم الذي أوتوه ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ الضمير للكتاب، وهو جواب القسم، ينبىء عنه أخذ الميثاق، كأنه قيل لهم: بالله لتبيِّنُنَّه ﴿لِلنَّاسِ﴾ وتظهرون ما فيه من الأحكام والأخبار، والتي من جملتها أمر نبوته ﷺ ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ نهي عن الكتمان بعد الأمر بالبيان، إما للمبالغة في إيجاب المأمور به، وإما لبيان المأمور به أو بالكتمان المنهي عنه، بإلقاء التأويلات الزائغة، والشبهات الباطلة ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثّق ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً، وفيه من الدلالة على أنه يجب على العلماء، أن يبينوا الحق للناس، وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد، من تسهيلٍ على الظلمة، أو تطييب نفوسهم، أو لجر منفعة، أو دفع أذية

﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ﴾ بالكتاب الذي أُمروا ببيانه، ونُهوا عن كتمانه أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ شيئاً تافهاً حقيراً من حُطام الدنيا وأعراضها ﴿فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ أي ما يختارون لأنفسهم.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ الخطاب له ﷺ أو لكل من يصلح له ﴿ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ بما فعلوا، روي عن أبي سعيد الخدري قال: إن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، كانوا إذا خرج رسول الله إلى الغزو، تخلَّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم، فإذا قدم رسول الله اعتذروا إليه، وحلفوا له، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية[1]، والفَرَحُ: لذَّةٌ تحصل في القلب بنيل المراد يستعمل في معان أحدها البطر كما في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يحبّ الفَرِحينَ﴾ الثاني الرضاء وعليه قوله سبحانه: ﴿كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ والثالث السرور وعليه قوله تعالى: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ أي يحبون أن يحمدهم الناس، لأنهم كانوا يفرحون بما فعلوا، من إظهار الإيمان، وقلوبهم قاسية بالكفر والعداوة ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ تأكيد له، والفاءُ زائدة قال الزجاج: إذا طالت القصة، تعيد حسب ما أشبهها توكيداً، فتقول: لا تظنَنَّ زيداً إذا جاءك وكلَّمك بكذا وكذا، فلا تظننه صادقاً، فيفيد لا تظنن توكيداً وتوضيحاً ﴿بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ أي ملتبسين بنجاة منه، لأن لباس الزور لا يبقى، ويكشف حال صاحبه، ويفتضح، والمفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز والنجاة، والآية للتنبيه على بطلان آرائهم، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون

---

(١) أخرج البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم ـ وهو أمير المدينة ـ قال لبوابه: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرىءٍ فرح بما أوتي، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معذَّباً لنعذبنَّ أجمعون!! فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما دعا النبي ﷺ اليهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب..﴾ الآية، وانظر فتح الباري ٨/ ٢٣٣.

بما صنعوا من عذاب الآخرة، كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية، ولذلك كان فرحهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بكفرهم لا غاية له في المدة والشدة.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ له خاصة دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي هو تعالى قادر على عقوبتهم كيفما يشاء.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي في إنشائهما في ذاتهما وصفاتهما، التي تحار فيه العقول ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ في تعاقبهما وتفاوتهما ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ التنكير للتفخيم، أي لآيات كثيرة عظيمة، دالة على وحدته، وكمال علمه، وعلى عجائب شؤونه تعالى، وفيه رمز إلى أن الآيات الظاهرة ـ وإن كانت كثيرة في نفسها ـ إلا أنها قليلة في جنب ما خفي عنها في خزائن الغيب ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي لذوي العقول السليمة، المتفكرين في بدائع صنائع الخالق جل وعلا، الممتثلين لقوله سبحانه: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ فإن كل ما ظهر في مظاهر الإبداع، دليل قوي على الصانع المجيد ﴿الذي أتقن كلَّ شيءٍ خَلقَهُ﴾.

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﴾ المراد بهم الذين لا يغفلون عنه تعالى، في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكر الله، حين أيقنوا بأن كل ما سواه، فائض

منه وعائد إليه[1] ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ فالمراد به ذكره تعالى مطلقاً، في جميع الأحوال، وليس المراد الدوام الحقيقي لاستحالته، بل في غالب أحوالهم، لا يغفلون عنه تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً وهو أفضل العبادات، لما رُوي عن ابن عباس «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» وأصل الفكر إعمال الخاطر في الشيء، والتفكر إنما يكون بالقلب والروح وهو لا يمكن إلا فيما له صورة في القلب، ولهذا فإنه سبحانه خصَّ التفكر في الخلق، ونهى عن التفكر في الخالق، لعدم الوصول إلى كنه ذاته، وصفاته، وقد رُوي عن عبد الله بن سلام قال: «خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون، فقال: تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله[2]»، قدَّم الذكر على التفكر، للتنبيه على أن العقل لا يفي بالهداية، ما لم يتنور بنور ذكر الله، أي يتفكرون في إبداعهما، بما فيهما من عجائب المصنوعات، ولطائف الحِكَم، ويستدلون بذلك على الصانع ووحدته وقدرته وعلمه، لأن عظم آثاره تدل على عظم مبدعها، كما قيل:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدُل على أنَّهُ واحِدُ

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي يقولون ذلك، وهذا إشارة إلى السماوات والأرض، متضمنة لضرب من التعظيم، أي ما خلقت هذا المخلوق البديع عبثاً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، بل منتظماً لحكم جليلة، ومصالح عظيمة، من جملتها أن يكون مداراً لمعايش المخلوقات،

---

(١) الذكر على أقسام: ذكرٌ باللسان، وذكرٌ بالأركان، وذكر بالجَنَان يعني القلب، فالذكر باللسان إنما يكون بالتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، وحمد الله، والثناء عليه بشتى صيغ الذكر، والذكرُ بالأركان أن تصير الجوارح والأعضاء مشتغلةً بالعبادات، منتهيةً عن المنهيات، والذكر بالقلب أن يتفكر المؤمن في دلائل القدرة والوحدانية، ويتفكر في مخلوقات الله، ليستدل بها على عظمة الخالق جلَّ وعلا كما قال سبحانه: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً..﴾ الآية.

(٢) أخرجه أبو نُعيم في الحلية، وانظر الفتح الكبير ٢/ ٣٥.

ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك، عما لا يليق بك من الأمور، التي من جملتها خلق ما لا حكمة فيه، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي احمنا من نار جهنم، كأنهم قالوا: فكَّرنا في خلقك، وعرفنا سرك، وأطعنا أمرك، ونزَّهناك عما لا ينبغي، فقنا عذاب النار، الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ مبالغة في استدعاء الوقاية، وبيان لسببه، وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة في التضرع، وتأكيدها لإظهار كمال اليقين بمضمونها، يقال: أخزاه الله، أي أبعده، وأهانه، وقيل: فضحه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ المراد بالظالمين الكفار، وضع المظهر موضع المضمر، للدلالة على أن ظلمهم، تسبَّب لإدخالهم النار، فالمعنى: ما للظالمين نصيرٌ من الأنصار.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾ حكاية دعائهم المبني على الدليل السمعي، بعد حكاية دعائهم المبني على التفكر في الأدلة العقلية، وفي تنكير المنادي تعظيم لشأنه، والمراد به الرسول ﷺ، وقيل: القرآن، والأول أظهر وأشهر، وإيثاره على الداعي، للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة، وتبليغها إلى الداني والقاصي، لأن النداء برفع الصوت، ومعناه نداء منادٍ، كما يقول: سمعتُ زيداً، أي سمعتُ قوله ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ أي لأجل الإيمان، وهذا أصل بديع، يُصار إليه للمبالغة، في تحقق السماع، وللإيذان بوقوعه بلا واسطة ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ﴾ بأن آمنوا ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ بمالككم ومبلّغكم إلى الكمال ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾ أي فامتثلنا أمره، وأجبنا نداءه ﴿رَبَّنَا﴾ تكرير للتضرع، وإظهار لكمال الخضوع[1] ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي كبائرنا ﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي صغائرنا، وإنما ذكروهما للتأكيد، أي

(١) في هذه الآيات، تعليمٌ من الله لعباده، كيف يدعونه ويبتهلون إليه، وتكرير «ربنا» من باب التضرع، وإظهار كمال الخشوع، وهو مما يوجب حسن الإجابة.

غطِّ ذنوبنا فلا تظهرها بالعقاب عليها ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي اقبض أرواحنا في جملة الأبرار وبصحبتهم وزمرتهم، وفيه إشعار بأنهم كانوا يحبُّون لقاء الله تعالى، والأبرار جمع البار، وهو الصالح الكثير البر الصادق في قوله وفعله.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي على ألسنة رسلك، جَمَع الرسل مع أن المنادي الرسول ﷺ وحده، لما أن دعوته ﷺ منطويةٌ على دعوة الكل، وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله، والله لا يخلفُ الميعاد، لأن مرادهم أن يقولوا اجعلنا ممن له الوعد، وقيل: هو من باب اللجوء إلى الله تعالى، ويقصدون بذلك التذلل لربهم ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأن تعصمنا عمَّا يوقعنا في الخزي في ذلك اليوم، قصدوا بذلك وعده تعالى بقوله: ﴿يومَ لا يُخْزي الله النبيَّ والَّذين مَعَهُ﴾ والخزيُ: الذل والهوان، والإخزاء هو الإذلال بما فيه فضيحة أو عار ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي، والميعاد: الوعدُ، وهذه الدعوات ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد، بل من أن لا يكونوا من جملة الموعودين، بتغيير الحال، وسوء الخاتمة.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دعاءهم، وصيغةُ الماضي للإيذان بتحقق الإجابة ﴿أَنِّي﴾ أي بأني، الباء للسببية، كأنه قيل: فاستجاب لهم ربهم لسبب أني ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أي سُنَّتي مستمرةٌ على ذلك، والمراد الإشعار بأن مدار الاستجابة، أعمالهم التي قدَّموها، لا مجرد الدعاء، وهذا يدل على أن الفضل في باب الدين، بالأعمال الحسنة لا بصفات العاملين ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان للعامل، وتأكيد لعمومه ﴿بَعْضُكُم﴾ أي

الذكور والإناث كائن ﴿مِّنۢ بَعۡضٍۖ﴾ لأنهما من أصل واحد، ولاتفاقهما في الدين والعمل، روي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: قلتُ يا رسول الله ما أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى الآية[1] ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ تفصيل لأعمال العمال، وما أعد لهم من الثواب على سبيل المدح، والتعظيم، والمعنى: فالذين هاجروا من الأوطان من أجل الدين ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ التي ولدوا فيها ونشأوا ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بسبب إيمانهم بالله، ومن أجله، وهو متناولٌ لكل أذية نالتهم، بالشتم والضرب والتحقير، ونهب الأموال، فالهجرة كائنة في آخر الزمان، كما كانت في أول الإسلام ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ الكفار في سبيل الله ﴿وَقُتِلُواْ﴾ استُشهدوا في الجهاد ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ جواب قسم محذوف أي واللهِ لأكفرنَّ ﴿عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ لأمحونَّها وأسترها بالمغفرة، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذا ما عبَّر عنه الداعون بقولهم: ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ وتفسير له ﴿ثَوَابٗا﴾ مصدر مؤكد أي أثيبُهم بذلك إثابة ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ تفضلاً منه تعالى ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ الجزاء يختص به جلَّ وعلا، ولا يقدر عليه غيره.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٣٢.

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ بالتجارة والكسب، بيان لقبح ما أوتي الكفرة من حظوظ الدنيا، والخطاب لكل أحدٍ ممن يصلح للخطاب، أو للرسول ﷺ والمراد به غيره، والمعنى: لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة، والحظّ، ولا تغترَّ بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم، ومتاجرهم، ومزارعهم.

روي أن بعض المسلمين كانوا يرون المشركين في رخاء، فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد، والجوع، والبلاء، فنزلت الآية.

﴿ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ أي ذلك التقلب، متاعٌ يتمتعون به يسيراً في الدنيا ويفنى، أو قليل في جنب ما أعد الله للمؤمنين ﴿ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ ﴾ أي مصيرهم الذي يأوون إليه ﴿ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي ما مهّدوا لأنفسهم، عن عمر بن الخطاب قال: «جئتُ رسول الله ﷺ فإذا هو على حصير، ما بينه وبينه شيء، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيتُ، فقال: ما يبكيكَ يا عمر؟ قلت يا رسول الله: إن كسرى وقيصر على فُرُش الديباج والاستبرق، وأنت رسول الله تنام على الحصير؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ أولئك أقوامٌ عُجِّلتْ لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا»[1].. الحديث.

﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين ﴿ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ ﴾ وإيراد التقوى للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الاتقاء من الشرك والمعاصي ﴿ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ النُّزُلُ: ما يُعدُّ للنَّازل والضيف، من طعام، أو شراب ونحوها ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي الثواب ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكثرته ودوامه كائن ﴿ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من متاع الدنيا، لقلته وسرعة زواله، والتعبير عنهم بالأبرار

(١) هذا طرف من حديث رواه الشيخان، وانظر كامل الحديث في فتح الباري ٨/ ٦٥٨.

للإشعار بأن الصفات المذكورة من أعمال البر، كما أنها من التقوى، التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين، وقدَّم الإيمان بالقرآن، لأنه آخر الكتب الإلّهية، ولا يصح إيمان أحد حتى يؤمن بجميع كتب الله ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار معنى من ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا يغيِّرون كتبهم، ولا يكتمون صفته ﷺ لأجل الرياسة، والمتاع القليل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم بما عُدَّ من صفاتهم الحميدة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي المختص بهم الموعود بقوله تعالى ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والمراد به التشريف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه لجميع الأشياء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ختمت السورة بما يوجب المحافظة عليها فقيل ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على مشاق الطاعة، وتكاليف الدين، وما يصيبكم من الشدائد في الدنيا ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ أي غالبوا أعداء الله، بالصبر في مواطن الحرب، أو على مخالفة الهوى والمعاصي، وتخصيصه بعد الأمر بالصبر لكونها أشد منه وأشق ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أي أقيموا الثغور رابطين، مترصدين ومستعدّين للغزو، وفي الحديث الشريف: «رباطُ يوم في سبيل الله، خير من الدنيا وما عليها»[1] الرباط مصدر رابط إذا أقام في ثغر من ثغور الإسلام حارساً له من العدو، وعن سلمان «رباط يومٍ وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، وإذا مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله» يعني يكتب له أجر رباطه إلى يوم القيامة، وفيه فضيلة مختصة للمرابط لما

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/ ١١ في الجهاد، ومسلم رقم ١٨٨٠ وتتمته «وموضعُ سوطِ أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والرَّوحةُ يروحها العبد في سبيل الله ـ أي رجوعه من الغزو ـ أو الغدوةُ، خير من الدنيا وما عليها» وانظر جامع الأصول ٩/ ٤٧١.

جاء في صحيح مسلم «كلُّ ميت يُختم عليه عمله إلا المرابط[1] » ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمره على الإطلاق ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كي تنتظموا في زمرة المفلحين، الفائزين بكل مطلوب، الناجين من كل الكروب.

**«تمَّ تفسير سورة آل عمران والحمد لله رب العالمين»**

* * *

(١) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي رقم ١٦٢١ وأمّا رواية مسلم ٣/ ١٥٢٠ فهي بلفظ «رباطُ يوم وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه، وإنْ مات جرى عليه عملُه الذي كان يعملُه، وأُجْري عليه رزقُهُ، وأَمِنَ الفتَّان».



## مدنية وآيها مائة وسبعون وست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ خطاب يعمُّ بني آدم، لأن الناس اسم جمع، دخله الألف واللام فيفيد الاستغراق ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ المعروف عند أهل اللسان تغليب المذكر على المؤنث، ولو لم تدخل الإناث في ذلك، لما شاركن في الأحكام، لثبوت أكثرها بمثل هذه الصيغة، أي خافوا ربكم وعقابه في مخالفة أوامره ونواهيه، والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد الأمر، وتأكيد إيجاب الامتثال، وكذا وصف الرب بقوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَكُم ﴾ لأن خلقه تعالى إياهم على هذا النمط البديع، لإنبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات وعن نعمة كاملة لا يقادر قدرها وذلك من دواعي الاتقاء، ومن موجبات الانقياد لجميع أوامره ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ من أصل واحد، وهو آدم عليه السلام، وكان قبل آدم الملائكةُ والجنُّ، وأما البشر فكلهم من آدم، وهو أول مخلوق منهم ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ مسوق لتقرير وحدة المبدأ،

وتفصيل ما أُجمل أولاً، والمراد من الزوج «حواء» فقد خُلقت من ضلع من أضلاع آدم، كما ورد في الحديث: «إن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه»[1] ولعلَّ الفائدة في خلقها من ضلع، إظهار أنه سبحانه قادر على أن يخلق حياً من حي، لا على سبيل التوالد، كما أنه قادر أن يخلق حياً من جماد، وقيل: المعنى وخلق من جنسها، وهو كقوله تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ وهو اختيار أبي مسلم، والقولُ الأول أقوى، لكي يصح قوله تعالى: ﴿خَلَقكم من نَفْسٍ واحدة﴾ ولو كان الأمر كما ذهب إليه أبو مسلم، لكان الناس مخلوقين من نفسين، وهو خلاف النص، وخلاف ما نطقت به الأخبار الصحيحة ﴿وَبَثَّ﴾ فرَّق ونشر ﴿مِنْهُمَا﴾ آدم وحواء بطريق التوالد ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ كثيرة، والمراد من الرجال والنساء الذكور والإناث، لا البالغين والبالغات ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تكرير للأمر، وتذكيرٌ لبعض آخر من موجبات الامتثال، فإن السؤال باسم الجلالة، يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه، وأصل تساءلون: تتساءلون، فحذفت إحدى التائين تخفيفاً ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ أي واتقوا الأرحام فصِلُوها ولا تقطعوها، وقد قرن سبحانه الأرحام باسمه، على أن صلتها بمكان منه تعالى وفي الحديث: «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[2] وهذا يحتمل أن يكون إخباراً، وأن يكون دعاءً وعن أنس «من سرَّه أن يبسط له في رزقه» أي يكثر رزقه «ويُنسأ» أي يُؤخّر «له في أَثَره» أجله «فلْيصلْ رحمه»[3] وفي الآية والأحاديث، دليل على تعظيم حق الرحم، والنهي عن قطعها، وللصلة درجات وأدناها ترك المهاجرة، ووصلها بالكلام، ولو كان بالسلام

---

(1) طرف من حديث أخرجه مسلم رقم ١٤٦٨ والبخاري ٢١٨/٩.

(2) أخرجه البخاري في الأدب ١٠/ ٣٥٠ ومسلم في البِرّ رقم ٢٥٥٥.

(3) أخرجه البخاري في الأدب ٣٤٨/١٠ ومسلم في البِرّ رقم ٢٥٥٧ وأبو داود في الزكاة رقم ١٦٩٣.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ حافظاً مطّلعاً على ما يصدر عنكم، من الأفعال والأقوال، وهو وعد ووعيد.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ الخطاب للأولياء والأوصياء، والمراد بإيتائها تركها سالمة غير متعرض لها بسوء، لا الإعطاء بالفعل، فإنه مشروط بالبلوغ والرُّشد، وقيل: الإعطاء بالفعل أول بلوغهم قبل أن يزول هذا الاسم ورجح غير واحد الوجه الأول، لقوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى﴾ الآية، فإنه كالدليل على أن الآية في الحض على حفظها لهم، ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ أي ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم، بالحلال من أموالكم، أو الأمر الخبيث وهو اختزال أموالهم، بالأمر الطيب الذي هو حفظها، عبر بذلك تنفيراً عما أخذوه، وتصويراً لمعاملتهم بصورة ما لا يصدر عن العاقل، فحقُّ الأولياء أن يكونوا في المعاوضات عاملين لليتيم لا لأنفسهم ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ أي لا تأكلوها مضافة إلى أموالكم، وظاهر هذا النهي عدم جواز أكل شيء من أموال اليتامى، وقد خُصَّ من هذا مقدار أجر المثل، عند كون الولي فقيراً بقوله تعالى: ﴿ومن كان فقيراً فليأكلْ بالمعروف﴾ والمراد بالأكل مطلق الانتفاع، وعبَّر عنه بذاك، لأنه أغلب أحواله، ومعظم المقصود منه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي أكل أموالهم ﴿كَانَ حُوبٗا﴾ أي ذنباً، ثم وصفه بقوله: ﴿كَبِيرٗا﴾ للمبالغة وتهويل أمر المنهي عنه، كأنه قيل إنه من كبار الذنوب العظيمة.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ شروع في النهي عن منكر آخر كانوا يباشرونه، أي إن خفتم أن لا تعدلوا في يتامى النساء، إذا تزوجتم بهن، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن، وذلك أنهم كانوا يتزوجون بهن طمعاً في مالهن، ويسيئون المعاشرة ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن، أخرج البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير، أنه سأل عائشة عن هذه الآية، فقالت: «يا بنَ أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، يشركها في مالها، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها، من غير أن يُقسط في صداقها فنهوا أن ينكحوهنَّ، إلا أن يُقسطوا لهن في صداقهن..»[1] والإقساط العدل والإنصاف، والمراد بالخوف العلم، عبَّر عنه بذلك، إيذاناً بكون المعلوم مخوفاً ومحذوراً، وفي الآية دليل لجواز نكاح اليتيمة، وهي الصغيرة، إلا عند خوف الجور، والمراد بما طاب لكم: ما مالت له نفوسكم، وقيل: ما حلّ لكم، والتعبير عن الأجنبيات بهذا العنوان، فيه من المبالغة في الاستمالة إليهن، والترغيب فيهن، ما لا يخفى ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ معناه الإذن لكل ناكح، أن ينكح أيَّ عدد من الأعداد المذكورة. روي أن «غيلان بن سلمة الثقفي»، أسلم وتحته عشر نسوة، فقال ﷺ له: «أمسك أربعاً، وفارق باقيهن»[2] وروي عن قيس بن الحارث الأسدي قال: «أسلمتُ وعندي ثمان نسوة، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: اخترْ منهن أربعاً»[3] وأجمع فقهاء الأمصار على أنه لا يجوز الزيادة على الأربع ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ بين هذه الأعداد أيضاً[4] كما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٢٣٩ فتح الباري.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح رقم ١١٢٨ وابن ماجه رقم ١٩٥٣ في النكاح أيضاً.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق رقم ٢٢٤١ وهو حديث حسن، وانظر جامع الأصول ١١/ ٥٠٦.

(٤) الحكمة في جواز التعدد، أن الرجل بمقتضى قوته، وبدافع شهوته الطبيعية، قد لا يكتفي بامرأة واحدة، وبخاصة في حالة الحيض والنفاس، فقد لا يستطيع أن يكبح =

خفتم في حق اليتامى ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ فاختاروا واحدة وذروا الجمع ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من السراري مهما كان العدد، لأن الاستمتاع بهن بطريق التسري، لا بطريق النكاح ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي اختيار الواحدة، أو التسري ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ العولُ: الميلُ، من قولهن: عال الميزان إذا مال، وعال الحاكم إذا جار، والمراد هنا الميل المحظور، المقابل للعدل، أي ما ذكر من اختيار الواحدة، أو التسري، أقرب من أن تميلوا ميلاً محظوراً.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي أعطوا النساء التي أُمرتم بنكاحهن ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ جمع صدقة بفتح الصاد وضم الدال، وهي كالصداق بمعنى المهر ﴿نِحْلَةً﴾ قال ابن عباس وقتادة: فريضة من الله تعالى، لأنها مما فرض الله في الديانة، والتعبير عن الإتيان بالنحلة، مع كونها واجبة، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا، وطيب الخاطر، كأنه قيل: أعطوهنَّ مهورهنَّ عن طيب أنفسكم وقال الكلبي: عطيةً من الله تعالى، والنِّحلةُ: العطيةُ، والخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء، لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم، وهذه عادة كثير من العرب اليوم، وهو حرام كأكل الأزواج شيئاً من مهور النساء، بغير رضاهن ﴿فَإِن طِبْنَ﴾ يعني النساء المتزوجات ﴿لَكُمْ﴾ يعني للأزواج ﴿عَن شَىْءٍ مِّنْهُ﴾ يعني من المهر ﴿نَفْسًا﴾ أي فإن وهبن لكم شيئاً من الصَّداق، عن طيب نفس، من غير أن تضطروهن إلى البذل بسوء معاملتكم، ﴿فَكُلُوهُ﴾ أي فخذوا ذلك الشيء، وتصرفوا فيه، تملكاً ﴿هَنِيٓـًٔا

---

= جماح شهوته، وأن يظل مدة عشرة أيام، أو أربعين يوماً مجتنباً لممارسة الجنس، فلئلا ينحرف بارتكاب فاحشة الزنى، أباح له الإسلام التزوج بامرأة أخرى، ثم إن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في أكثر الحالات والبلاد، وذلك داعية إلى انحراف المرأة إذا ما حرمت نعمة الأمومة، وفي ذلك بلايا وكوارث تحل بالمجتمع؛ فلهذه الأسباب وغيرها كان إباحة التعدد علاجاً واقياً لبعض الحالات الاضطرارية، أما في الغرب فالرجل كل يوم يجد من يقع في أحضانها بطريق الرذيلة ليقضي شهوته البهيمية.

﴿مَّرِيٓـٔٗا﴾ صفتان من هَنُؤَ الطعامُ ومَرُؤَ، إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، وقيل: الهنيء: الذي يلذه الآكل، والمريء ما يُحمد عاقبته.

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ الخطاب للأولياء، نهوا عن أن يؤتوا المبذرين، من اليتامى الذين لا رُشد لهم أموالهم، مخافة أن يضيعوها، وإنما أضيفت إليهم وهي لليتامى، تنزيلاً لها منزلة أموالهم الخاصة، فكأن أموالهم عين أموالهم، مبالغةً في حملهم على المحافظة عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ أي بها قوام حياتكم، وصف اليتامى بأنهم سفهاء، باعتبار خفةِ أحلامهم، واضطراب آرائهم، لما فيهم من الصغر، وعدم التدرب، وأصل السفه: الخِفَّةُ، يُقال: تسفهت الريح الشجر أي أمالته، وقوله قياماً أي تقومون وتنتعشون بها، يعني قواماً لأبدانكم، ومعاشاً لأهلكم وأولادكم وفي الآية إشارة إلى مدح المال، فنعم المال الصالح للرجل الصالح، وكان السلف يقولون: المالُ سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله تعالى عليه، خير من أن أحتاج إلى الناس، وفي الحقيقة لا يمكن القيام بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، إلا بواسطة المال، وبه يتمكَّن من جلب المنافع ودفع المضار، وسمى الله تعالى في القرآن الخير للمال، فقال: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ وأمر بحفظ الأموال فقال:

﴿ولا تبذّرْ تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾[1]. ثم قال: ﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ ﴾ أي اجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم، بأن تتجروا وترتبحوا، وتحصلوا من نفعها ما تحتاجون إليه، حتى تكون نفقاتهم وكسوتهم من الأرباح، لا من صلب المال، ولذلك قال: «فيها» ولم يقل: «منها» ﴿ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ أي كلاماً تطيب به نفوسهم، كأن يقول الولي لليتيم مالُكَ عندي، وأنا أمين عليه، فإذا بلغتَ ورشدت، أعطيتك مالك، وقال ابن عباس هو مثل أن يقول إذا ربحتَ فعلتُ بك ما أنت أهله.

﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، أي واختبروا مَنْ عندكم من اليتامى، بتتبع أحوالهم، في الاهتداء إلى ضبط الأموال، وحسن التصرف فيها، وجربوهم بما يليق بحالهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ﴾ أي حتى إذا بلغوا سنَّ البلوغ، لأنه يصلح عنده النكاح، والبلوغ يكون بخمسة أشياء، ثلاثة منها يشترك فيها الذكور والإناث، وهي: الاحتلام، والسنُّ، ونباتُ شعر العانة، واثنان يختصان بالأنثى، وهما: الحيضُ، والحمل، ولم يختلف العلماء فيها إلاَّ في السن، فقال الشافعي: خمسة عشر سنة، وهو قول أبي يوسف ومحمد ورواية عن أبي حنيفة وعليه الفتوى عند الحنفية، وهذا قول أكثر أهل العلم، وعند مالك سبعة عشر سنة ﴿ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم ﴾ أي شاهدتم، وتبينتم، وعرفتم، وقال مجاهد: أحسستم ﴿ مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا ﴾ أي اهتداءً إلى وجوه التصرف، من غير عجز وتبذير وصلاحاً في المعاملات ﴿ فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ، وظاهر الآية الكريمة أنه لا يدفع أموالهم إليهم ولو بلغوا ما لم يؤنس منهم الرشد ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ ﴾ أي لا تأكلوا أموالهم مسرفين مبادرين كبرهم، بأن تسرعوا في إنفاقها وتقولوا: ننفق كما نشتهي، قبل أن يكبر اليتامى، فينتزعوها من أيدينا، والإسرافُ: التباعد

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٦.

عن الاعتدال في أمور المال[1]، أو في أمور الدنيا، والمبادرةُ: المسارعة وتصح المفاعلة فيها بأن يبادر الولي أكل مال اليتيم، واليتيمُ يبادر نزعه منه، وأصلها من البدار وهو الامتلاء ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي ومن كان من الأولياء والأوصياء غنياً فليكفَّ نفسه عن أكلها، وليقنع بما آتاه الله تعالى من الغنى، إشفاقاً على اليتيم وإبقاءً على ماله ﴿وَمَن كَانَ﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر حاجته الضرورية، وأجرة سعيه وخدمته، وفيه ما يدل على أن للوصي حقاً لقيامه عليها، واختلف العلماء في حكم هذه الآية: فروي عن عمر، وابن عباس، أنه يأخذ على وجه القرض، فإن أيسر قضاه، وقال قوم: لا ضمان عليه، بل يكون ما يأكله كالأجرة له على عمله، لما روي عن ابن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: ليس لي مال، ولي يتيم، فقال ﷺ: كل من مال يتيمك، غير مسرف ولا متأثِّلٍ مالاً، ومن غير أن تقي مالك بماله[2]. رُوي عن عمر بن الخطاب أنه قال: إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى، بمنزلة مال اليتيم، إن استغنيتُ استعففتُ، وإن احتجتُ أخذت منه بالمعروف، فإذا أيسرتُ قضيت ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ بعدما راعيتم الشرائط المذكورة ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها، فإنه أنفى للتهمة، وأبعد من الخصومة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً، فلا تخالفوا ما أُمرتم به، ولا تتجاوزوا ما حُدَّ لكم، والحسيبُ بمعنى المحاسب، أو الكافي، قال ابن جبير: لا شاهد أفضل من الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) سرف المال إنفاقه في غير منفعة وإن كان قليلاً، قال مجاهد: «لو أنفقتَ درهماً في معصية الله كنت مسرفاً، ولو كان لرجل مثل جبل أبي قبيس ذهباً فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً» وأخرج أبو نعيم عن عمر بن الخطاب أنه قال: إياكم والبطنة من الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السَّرف، وإن الرجل لن يهلك حتى يُؤثر شهوته على دينه. وقال طبيب العرب ابن كلدة: المعدةُ بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدنٍ ما اعتاد.

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا رقم ٢٨٧٢ والنسائي ٦/ ٢٥٦.

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ شروع في بيان أحكام المواريث، والمراد بالأقربين: المتوارثون منهم ﴿ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ إيراد حكمهنَّ على الاستقلال، للاعتناء بأمرهن، والإيذان بأصالتهن في استحقاق الإرث، ولإبطال حكم الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: إنما يرث من يحارب، ويذبُّ عن الحَوْزة والمراد من الرجال، الذكورُ كباراً أو صغاراً، ومن النساء البناتُ مطلقاً ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ بدل مما ترك، وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة، كآلات الحرب للرجال، فالآية تفيد أن لكل فريق حقاً في التركة ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أي مقطوعاً بأمر الله عزّ وجل وحكمه.

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ أي قسمة التركة، ﴿ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ممن لا يرث، لكونه محجوباً، أو من ذوي الأرحام والقرينة على ذلك ذكر الورثة قبل ذلك ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ ﴾ من الأجانب ﴿ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ أي أعطوهم شيئاً من المال المقسوم، وهو أمر ندبٍ كُلِّف به البالغون من الورثة، تطييباً لقلوبهم، وتصدقاً عليهم وأما إذا كان الورثة صغاراً فليس إلاّ قول المعروف، بأن يقول الولي: إني لا أملك هذا المال، وهو لهؤلاء الضعفاء

﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ وهو أن يدعو لهم، ويعتذر من ذلك، ولا يمنَّ عليهم.

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه، في أمر اليتامى، فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف، بعد وفاتهم، والمقصود من الأمر، أن لا يضيعوا اليتامى، حتى لا تضيع أولادهم، وإن راعوا الأمر، حفظ الله أولادهم ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في ذلك ﴿ وَلْيَقُولُوا ﴾ لليتامى ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ وإنما أمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية، مراعاة للمبدأ والمنتهى، ثم أمرهم بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم، بالشفقة وحسن الأدب، ومحاسن الأفعال، والقولُ السديد: هو الموافق للشرع والعقل.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ﴾ وإنما علق الوعيد على الأكل ظلماً، لأنه قد يؤكل على وجه الاستحقاق، كالأجرة، والقرض، فلا يكون ظلماً ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ أي ملأ بطونهم ما يجرُّ إلى النار ويؤدي إليها، وفي حديث الإسراء قال: «نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافرُ كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار، فيقذف في أجوافهم حتى تخرج من أسافلهم، ولهم خوار وصراخ، فقلت يا جبريل: من هؤلاء قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً»[1] ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ سيدخلون ناراً هائلة، يقال: صلى النار قاس حرها وصليته شويته وأصليته وصلّيته ألقيته فيها، والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار ألهبتها، روي أنه لما نزلت هذه الآية، ثقل ذلك على الناس، واحترزوا عن مخالطة اليتامى وأموالهم، فشقَّ ذلك على اليتامى، فنزل قوله تعالى: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ الآية.

---

(١) هذا طرف من حديث الإسراء الطويل أخرجه ابن أبي حاتم، وابن جرير الطبري.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً
فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ
لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ
أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى
بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ شروع في تفصيل أحكام المواريث المجملة في قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب﴾ الآية، أي يأمركم ويعهد إليكم وعَدَل عن الأمر إلى الإيصاء، لأنه أبلغ وأدل على الاهتمام، وطلب الحصول بسرعة ﴿فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ أي ميراث أولاد كل واحد منكم، ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي للذكر منهم حظ مثل حظ الأنثيين، والبداية ببيان حكم الذكر، لإظهار مزيته، وإيثار اسمي الذكر والأنثى، للتنصيص على استواء الكبار والصغار في الاستحقاق، من غير دخل للبلوغ والكبر، كما هو زعم الجاهلية، حيث كانوا لا يورثون الأطفال والنساء، والمراد حال الاجتماع، وأما في حال الانفراد، فالابن يأخذ المال كله ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ أي إن كان الأولاد نساء خُلَّصاً ليس معهن ذكر، ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي نساءً زائدات على اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً﴾ أي امرأة واحدة، ليس معها أخ ولا أخت ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ مما ترك ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي لأبوي الميت ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿إِن كَانَ لَهُۥ﴾ أي للميت ﴿وَلَدٌ﴾ أو ولد الابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً كان أو متعدداً، غير أن الأب في صورة الأنوثة، بعدما أخذ فرضه المذكور، يأخذ ما بقي بالعصوبة ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾ ولا ولد ابن ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فحسب ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ مما ترك، والباقي للأب، هذا إذا لم يكن معهما أحد الزوجين، أما إذا كان معهما ذلك، فللأم ثلث ما بقي

بعد فرض أحدهما، لا ثلث الكل فإنه يفضي إلى تفضيل الأم على الأب، مع كونه أقوى منها في الإرث، وذلك خلاف وضع الشرع، فقد أخرج البيهقي عن عكرمة قال: أرسلني ابن عباس إلى زيد بن ثابت أسأله عن زوج وأبوين، فقال زيد: للزوج النصف وللأم ثلث ما بقي، وللأب بقية المال، فأرسل إليه ابن عباس أفي كتاب الله تجد هذا؟ قال: لا، ولكنْ أكره أن أفضّل أماً على أب ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ أي عدد ممن له إخوة، سواء كانت من جهة الأبوين، أو من جهة أحدهما، وسواء كانوا ذكوراً أو إناثاً، أو مختلطين، وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالأب ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ أي سدس التركة لا الثلث ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه، فلا تُقسم التركة إلا بعد إخراج الوصية، وسداد الديون عن الميت. ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ الجملة مؤكدة لأمر القسمة، والآباء والأبناء عبارة عن الورثة، الأصول والفروع، والخطاب للمورّثين، وتوجيه ذلك أنه تعالى بيَّن القسمة، وكانت الأنصباء مختلفة، والعقول لا تهتدي إلى كمية ذلك، فربما يخطر للإنسان أن القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه كانت أنفع وأصلح، كما تعارفه أهل الجاهلية، حيث كانوا يورّثون الرجال الأقوياء، ولا يورثون الصبيان والنسوان، فأنكر الله تعالى عليهم، ما عسى أن يخطر ببالهم من هذا القبيل، وأشار إلى قصور أذهانهم، فكأنه قال: إن عقولكم لا تحيط بمصالحكم، فلا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم، في عاجلكم وآجلكم، فاتركوا تقديركم بعقولكم، وكونوا مطيعين لأمر الله تعالى، فإنه العالم بمغيبات الأمور وعواقبها ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فرض ذلك فريضةً من الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي بالمصالح والرتب ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما قضى وقدَّر، والخَبَرُ عن الله تعالى بمثل هذه الألفاظ، كالخبر بالحال والاستقبال، لأنه تعالى منزه عن الدخول تحت الزمان، أي لم يزل موصوفاً بهذه الصفات.

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ﴾ أي زوجاتكم ﴿ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾ ذكراً كان أو أنثى، واحداً كان أو متعدداً، منكم كان أو من غيركم، من بطنها أو من صلب بنيها أو بني بنيها وإن سفل، لأن لفظ الولد ينتظم الجميع، والباقي لورثتهن من ذوي الفروض والعصبات ﴿ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾ على ما فصل من التفصيل ﴿ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾ من المال، والباقي للورثة ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ متعلق بكلتا الصورتين والكلام فيه مر آنفاً ﴿ وَلَهُنَّ ﴾ أي للزوجات، تعدَّدن أو لا ﴿ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ﴾ على التفصيل المتقدم ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ فُرض للرجل ضعف ما فُرض للمرأة، كما في النسب لاحتياجه إلى المال أكثر منها ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ ﴾ المراد بالرجل: الميّتُ ﴿ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ هي في الأصل مصدر بمعنى الكَلال وهو الإعياء، ثم استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد، لضعفها بالنسبة إلى قرابتهما، وتُطلق على من لم يُخلِّف والداً ولا ولداً، وعلى ما ليس بوالد ولا ولد، ﴿ أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾ أي امرأة تورث كذلك ﴿ وَلَهُۥٓ ﴾ أي للرجل أو لكل منهما ﴿ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ من

الأم فقط، وعلى ذلك عامة المفسرين، وأخرج غير واحد عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يقرأ «وله أخ أو أخت من أمه» وإن كانت هذه القراءة شاذة، إلا أن كثيراً من العلماء استند إليها، بناءً على أن الشاذة من القراءة إذا صح سندها كان كخبر الواحد في وجوب العمل به ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ أي الأخت والأخ ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ مما ترك، من غير تفضيل للذكر على الأنثى، لأن الإدلاء على الميت بمحض الأنوثة ﴿فَإِن كَانُوٓاْ﴾ أي الأخوة والأخوات من الأم، والتذكير للتغليب ﴿أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي أكثر من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ يقتسمونه بالسوية، والباقي لباقي الورثة، وهذا مما لا خلاف فيه لأحد من الأمة ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي من غير ضرار لورثته، فلا يقر بحق ليس عليه، ولا يوصي بأكثر من الثلث، فالدين هنا مقيد كالوصية، كأنه قال: أو دين يوصي به وعن ابن عباس أن الإضرار بالوصية من الكبائر، لحديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار»(1) الحديث ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي يوصيكم الله بذلك وصية، والتنوين للتفخيم ونظير ذلك (فريضة من الله) ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما دبره لخلقه من الفرائض ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فلا يَغْتَرَّنَّ المضار بالإمهال.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

(1) أخرجه الترمذي في الوصايا رقم ٢١١٨ وأبو داود في الوصايا كذلك رقم ٢٨٦٧ ولفظ الترمذي: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية، فتجب لهما النار» ثم قرأ أبو هريرة «من بعد وصية يوصى بها أو دينٍ غيرَ مضار».

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ شرائعه التي هي كالحدود التي لا يجوز مجاوزتها وأطلقت عليها الحدود لشبهها بها من حيث إن المكلف لا يجوز له أن يتجاوزها إلى غيرها ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جميع الأوامر والنواهي، التي من جملتها ما فصل ههنا ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ﴾ دخول الجنة ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمر به الأحكام، ولو في بعض الأوامر والنواهي، وقال ابن جريج: من لا يؤمن بما فصل سبحانه من المواريث، وحكي مثله عن ابن جبير ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ شرائعه المحدودة في جميع الأحكام استحلالاً ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ هائلة عظيمة لا يُقادر قدرها ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ ولعل إيثار الإفراد ههنا ﴿خالداً فيها﴾ واختيار الجمع هناك ﴿خالدين فيها﴾ للإيذان بأن الخلود في دار الثواب، بصفة الاجتماع، أجلب للأنس، كما أن الخلود في دار العذاب، بصفة الإفراد أشد في استجلاب الوحشة ﴿وَلَهُ عَذَابٌ﴾ عظيم ﴿مُّهِينٌ﴾ أي مذلٌّ له أي وله عذاب جسماني، وعذاب آخر لا يعرف كنهه، وهو العذاب الروحاني كما يؤذن به وصفه. وفي ختم آيات المواريث بهذه الآية، إشارة إلى عظم أمر الميراث، ولزوم الاحتياط، وعدم الظلم فيه، لحديث «من قطع ميراثاً فرضه الله ورسوله، قطع الله ميراثه من الجنة»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ «من فرَّ من ميراث وارثه، قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة» سنن ابن ماجه، أبواب الوصايا رقم ٢٧٣٥ باب الحيف في الوصية.

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ ﴾ شروع في بيان بعض الأحكام، المتعلقة بالرجال والنساء، واللاتي جمع التي على غير قياس، وقيل هي صيغة موضوعة للجمع، والفاحشةُ: الفعلةُ القبيحة، يراد بها الزنا، لزيادة قبحه، أي والنساء اللاتي يَفعلن الزنا، أي يزنين ﴿ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ ﴾ أي فاطلبوا أن يشهد عليهن، بإتيانهنَّ الفاحشة، أربعة منكم أي من رجال المؤمنين وأحرارهم، ويشترط في هذه الشهادة العدالة، والذكورة، واشترط الأربعة في الزنا تغليظاً على المدعي، وستراً على العباد ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ عليهن بالإتيان ﴿ فَأَمۡسِكُوهُنَّ ﴾ فاحبسوهن عقوبة لهن ﴿ فِي ٱلۡبُيُوتِ ﴾ واجعلوها سجناً عليهن ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ ﴾إسناد التوفي إلى الموت، باعتبار تشبيهه بشخص يفعل ذلك، والكلام على حذف المضاف، والمعنى: حتى يقبض أرواحَهُنَّ الموت ﴿ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾ أي مخرجاً من الحبس، بما يشرعه من الحد لهن وكان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام، فنسخ بالحد.

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ ﴾ هما الزاني والزانية، وقال ابن زيد: أراد بهما البكران، ويؤيد ذلك كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد، وبذلك يندفع التكرار ﴿ فَـَٔاذُوهُمَاۖ ﴾ بالتوبيخ والتقريع ﴿ فَإِن تَابَا ﴾ عما فعلا من الفاحشة بسبب الإيذاء ﴿ وَأَصۡلَحَا ﴾ أعمالهما ﴿ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ ﴾ أي اصفحوا عنهما، وكفوا عن أذاهما ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا ﴾ مبالغاً في قبول التوبة ﴿ رَّحِيمًا ﴾ واسع الرحمة، والخطاب هنا للحكام.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ﴾ أي إن قبول التوبة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ وليس به الوجوب، إذ لا يجب على الله تعالى شيء، ولكنه تأكيد للوعد، يعني أنه يكون لا مَحَالة، كالواجب الذي لا يُترك وقيل «على» بمعنى «عند» وعليه الطبري أي إنما التوبة عند الله ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ المراد بالسوء المعصية، صغيرة أو كبيرة ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي يعملون السوء ملتبسين بها سفهاً، وليس المراد به عدم العلم بكونه سوءاً، بل عدم التفكر في العاقبة، كما يفعله الجاهل ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ فإنه صريح في أن وقت الاحتضار، هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة وفي الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1]. وفي الإتيان بثم إيذان بسعة عفوه تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بما ذكر ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ وهذا وعد بالوفاء بما وعد أولاً فلا تكرار ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مبالغاً في العلم والحكمة، فيبني أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ﴾ على الله ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ جمع السيئات باعتبار تكرر وقوعها، لا لجميع أنواعها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بأن شاهد الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا ﴿قَالَ

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٣١ وأحمد في المسند رقم ٦١٦٠ والحاكم في المستدرك ٤/٢٥٧ من حديث ابن عمر، وهو حديث حسن.

﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ أي هذا الوقت الحاضر، ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ﴾ أي وليس قبول التوبة لهؤلاء العصاة، ولا للذين يموتون كفاراً، وذكر هؤلاء، مع أنه لا توبة لهم رأساً، مبالغة في بيان عدم قبول توبة، المسوّفين ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المذكورون من الفريقين ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي هيأنا لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعاً، والإعتادُ: التهيئة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾ هذا نهي عن أعمال الجاهلية. روي عن ابن عباس أنه قال: كان إذا مات قريب رجل، يلقي ثوبه على امرأته، أو على خبائها فيمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حَبَسها حتى تموت فيرثها، وإن شاء زوَّجها غيره وأخذ صداقها، فنهى الله تعالى المؤمنين عن ذلك ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ الخطاب للأزواج، والعضلُ: الحبس والتضييقُ، أي ولا أن تضيقوا عليهن، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من الصَّداق، بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ المراد بالفاحشة هنا: النشوزُ وسوء الخلق، قاله الضحاك وابن عباس.

وقال الحسن: إن المراد بها الزنا، وفي الآية إباحة الخلع عند النشوز، لقيام العذر، بوجود السبب من جهتهنَّ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾

خطاب للذين يسيئون العشرة معهن، والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة، والمراد ههنا: النَّصفة في المبيت، و النفقة، والإحسان في المقال، والفعل، ونحو ذلك ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ ﴾ أي كرهتم صحبتهنَّ، من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك، فلا تفارقوهن، بمجرد كراهة النفس، واصبروا على معاشرتهن ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ كالولد الصالح، أو الإلفة والمحبة، وبذلك قال ابن عباس ومجاهد، والمعنى: فإن كرهتموهن فاصبروا عليهنَّ، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً، وفيه من المبالغة في الحمل على ترك المفارقة، وتعميم الإرشاد ولذا استدل بالآية، على أن الطلاق مكروه ومبغوض عند الله.

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ﴾ أيها الأزواج ﴿ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ﴾ إقامة امرأة ترغبون فيها ﴿ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ أي امرأة ترغبون عنها، بأن تطلقوها ﴿ وَءَاتَيْتُمْ ﴾ أي أعطى أحدكم ﴿ إِحْدَىٰهُنَّ ﴾ أي إحدى الزوجات التي تريدون أن تطلقوها وتجعلوا مكانها غيرها ﴿ قِنطَارًا ﴾ أي مالاً كثيراً ﴿ فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ ﴾ أي من القنطار ﴿ شَيْـًٔا ﴾ يسيراً فضلاً عن الكثير ﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ مسوق للتفسير عن المنهي عنه، والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ويُدهشه، وقد يستعمل في الفعل الباطل، ولذلك فسر ههنا بالظلم، وكان في الجاهلية إذا أراد أحدهم أن يتزوج امرأة، بَهَت التي تحته بفاحشة، حتى يُلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها، ليصرفه إلى تزوج الجديدة، فنهوا عن ذلك.

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ ﴾ إنكار بعد إنكار، وقد بولغ فيه، حيث وُجّه الإنكار إلى كيفية الأخذ، إيذاناً بأنه مما لا سبيل له إلى التحقق ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي على أيِّ حالٍ تأخذونه، والحال أنه قد جرى بينكم وبينهن، أحوالٌ منافية له، من الخلوة، والاستمتاع بهن بالمغازلة والمعاشرة الزوجية، قال ابن عباس: «الإفضاءُ في هذه الآية: الجماعُ، ولكنَّ الله كريم يكْني» وهذه كناية لطيفة ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا

﴿غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً وهو ما أوثق الله عليهم بقوله: ﴿فإمساك بمعروف﴾ وما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله»(١).

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ شروع في بيان من يحرم نكاحها من النساء مبالغة في الزجر عنه، حيث كان ذلك ديدناً لهم، فقد كان الرجل في الجاهلية، إذا توفي عن امرأته، كان ابنه أحقّ بها من نفسها، إن شاء أن ينكحها إن لم تكن أمه، أو يُنكحها من شاء، فلما مات أبو قيس،

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه مسلم في خطبة حجة الوداع، رقم ١٢١٨.

قام ابنه حصن، فورث امرأته، ولم ينفق عليها، ولم يورثها من المال شيئاً فأتت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ارجعي لعلَّ الله ينزل فيك شيئاً، فنزلت ﴿ولا تنكحوا﴾ الآية، واسم الآباء ينتظم الأجداد، فتثبت حرمة ما نكحوها نصاً وإجماعاً، والمعنى: ولا تنكحوا التي نكحها آباؤكم بعقد صحيح، ودخل بها ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لمن نكح كأنه قيل: أيَّ امرأةٍ كانت ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فإنه موجب للعقاب، إلا ما قد مضى فإنه معفو عنه، حيث إن الإسلام يهدم ما قبله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ بيان لكون المنهي عنه في غاية القبح، وأنه لم يزل في حكم الله موصوفاً بذلك، وقد كان هذا النكاح يسمى في الجاهلية «نكاح المقت» أي مبغوض ومستحقر ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس طريقاً ذلك النكاح المشؤوم ومما يدل على فظاعة أمره، ما أخرجه أحمد والحاكم، والبيهقي عن البراء، قال: لقيتُ خالي ومعه الراية، قلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوَّج امرأة أبيه من بعده، فأمرني أن أضرب عنقه، وآخذ ماله(١).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ ليس المراد به تحريم ذواتهن، بل تحريم نكاحهن، والأمهات تعم الجدات وإن علون، والبنات تتناول بناتهن، وإن سفلن، والأخواتُ يتضمن الأخوات الشقيقات أو من الأب، أو الأم، والعمةُ كل أنثى ولدها من ولد والدك، والخالة كل أنثى ولدها من ولد والدتك، قريباً أو بعيداً، وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القربى والبعدى، وكل امرأة حرَّم الله نكاحها بالنسب فحرمتها مؤبدة ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ والرضاعة بفتح الراء والرِّضاعة بالكسر، معناها مصُّ الثدي، وشرعاً مصُّ الرضيع من ثدي الآدمية في المدة، وهي سنتان، وقد نزَّل الله سبحانه الرضاعة منزلة النسب، حتى سمى المرضعة أمّاً للرضيع ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾

(١) أخرجه أحمد، والحاكم، والبيهقي من حديث البراء بن عازب، المسند ٤/ ٢٩٢.

والمراضعة أختاً، وكذلك زوج المرضعة أبوه، وقد قال ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[1] وظاهر الآية أنه لا فرق بين قليل الرضاع، وكثيره في التحريم ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ شروع في بيان المحرمات من جهة المصاهرة، والمراد بالنساء الزوجات المنكوحات على الإطلاق، سواء كنَّ مدخولاً بهنَّ أو لا، وهو مجمع عليه عند الأئمة الأربعة وهنَّ محرماتٍ بمجرد العقد، لكنْ يُشترط أن يكون النكاح صحيحاً، ويدخل في لفظ الأمهات الجدات من قبل الأب والأم، وإن علون ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ الربائب جمع ربيبة وهي ولد المرأة من زوج آخر، لأنه يربيه غالباً كما يربي ولده، وإن لم يكن ذلك أمراً مطرداً وهو المعنى في الحجور، والحجور جمع حجر بالفتح والكسر، وهو في اللغة حضنُ الإنسان، وقالوا فلان في حجر فلان أي كنفه وَمَنَعَتِه، وهو المراد في الآية، ووصف الربائب بكونهن في الحجور، خارج مخرج الغالب، وليس بشرط، وفائدته تقوية علة الحرمة، كما أنها النكتة في إيرادهن باسم الربائب، دون بنات النساء ويدخل في الحرمة بنات الربيبة، والربيب، وإن سفلن ﴿ مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ اللاتي صفة للنساء وهي للتقييد، إذ ربيبة الزوجة غير المدخول بها ليست بحرام، ومعنى الدخول بهن إدخالهن الستر، وهي كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ أصلاً أي بأمهات الربائب ﴿ فَلَا جُنَاحَ ﴾ أي فلا إثم ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ في نكاح الربائب، إذا فارقتموهن أو متن، وفيه إشارة إلى أن المعتبر في الحرمة، هو الدخول لا غيره ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ﴾ أي زوجاتهم جمع حليلة، سميت الزوجة بذلك لحلها للزوج، وكذا يقال للزوج: حليلٌ، إذْ كلٌّ منهما حلالٌ لصاحبه، ثم يراد بالأبناء الفروع، فتحرم حليلة الابن السافل على الجد الأعلى، وكذا ابن البنت وإن سفل ﴿ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ لإخراج

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٩/١٤٠ ومسلم في الرضاع رقم ١٤٤٧.

الأدعياء من التبنّي ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ المراد به جمعهما في النكاح، لا في ملك اليمين، روي أن رجلاً سأل عثمان عن أختين مملوكتين لرجل، هل يجمع بينهما؟ فقال عثمان: أحلتهما آية وهي قوله تعالى: ﴿إلاّ ما ملكت أيمانكم﴾ وحرَّمتهما آية، فأما أنا فلا أحب أن أضيع ذلك»[1] فرجح علي التحريم، وعثمان التحليل، وقول علي أظهر، ويشترك في هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، لقوله ﷺ: «لا تُنكح العمة على ابنة الأخ، ولا ابنة الأخت على الخالة»[2] لأن ذلك يفضي إلى قطيعة الرحم، ولا فرق بين كونهما أختين من النسب، أو الرضاعة ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء منقطع أي لكن ما قد مضى لا تؤاخذون به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي ساتراً لذنوب عباده، يغفر لهم ما حصل قبل التحريم، رحيماً بعباده ولذلك لم يعاقبهم.

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هنَّ ذوات الأزواج، أحصنهنَّ التزوج عن الوقوع في الحرام، والإحصان ورد في القرآن بأربعة معان: **الأول**: التزوجُ كما في هذه الآية، **الثاني**: العِفَّة كما في قوله: ﴿محصنين غير مسافحين﴾ **الثالث**: الحرية، كما في قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات﴾ **الرابع**: الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿فإذا أحصِنَّ﴾ أي أسلمن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي حرمت عليكم المحصنات، إلا المحصنات اللاتي ملكتموهن فتحل بملك اليمين بعد الاستبراء ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً، وفرضها فرضاً، وهو تحريم ما حرم الله تعالى من النساء ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي أحل لكم نكاح ما سواهن ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ أي بيَّن لكم تحريم المحرمات، أي إحلال ما سواهن، إرادة أن تبتغوا النساء ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ بأن

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح رقم ١٤٠٨ وفي رواية أخرى «نهى رسول الله ﷺ أن يجمع الرجلُ بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها».

تصرفوها إلى مهورهن ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ أي أَعِفَّاءَ متزوجين بطريق شرعي ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ السفاح: الزنا من السفح وهو صبُّ الماء، وسمي الزنا به لأنه لا غرض له إلا الصب فقط لتفريغ الشهوة، وفي الآية دليل على أن النكاح لا يكون إلا بمهر، وأنه يجب وإن لم يُسمَّ، وأنَّ غير المال لا يصلح مهراً، وقال بعض الشافعية: يجوز النكاح على ما ليس بمال، ويؤيده «اذهبْ فقد ملكتها بما معكَ من القرآن» وروى البخاري عنه قال جاءت امرأةٌ فقالت يا رسول الله: إني وهبتُ نفسي لك، فقام رجل فقال زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة؟ فقال: «هل عندك ما تصدقها إياه؟ فقال: ما عندي إلاَّ إزاري، فقال ﷺ: هل معك شيءٌ من القرآن؟ قال: نعم، سورة كذا، وكذا، قال ﷺ: زوجتكها بما معك من القرآن»(١) قيل: الحديثُ يدل على جواز تعليم القرآن صداقاً، لأن الباء تقتضي المقابلة في العقود، وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: لا يكون التعليمُ مهراً، والتعليم ليس له ذكرٌ في الخبر، فيجوز أن يكون مراده ﷺ زوجتك تعظيماً للقرآن، ولأجل ما معك منه ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ أي استنفعتم بالنكاح من النساء، والسين للتأكيد لا للطلب، **قال الحسن ومجاهد**: معناه ما انتفعتم وتلذَّذتم بالجماع بنكاح صحيح ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن إنما سمي أجراً لأنه بدل المنافع ﴿فَرِيضَةً﴾ بمعنى مفروضة أي فريضةً فرضها الله عليكم ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا إثم ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ﴾ من الحط عن المهر، أو الإبراء منه ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ أي الشيء المقدر، وقيل: الآية في المتعة، وهي النكاح إلى أجل معلوم، من يوم أو أكثر وإلى ذلك ذهبت، الشيعة الإمامية، ولا نزاع عندنا في أنها أُحِلَّت ثم حُرّمت، وكان هذا في ابتداء الإسلام، وأنه ﷺ لم يكن أباحها وهم في بيوتهم، وإنما أباحها لهم في أوقات الضرورات، حتى حرَّمها عليهم في آخر الأمر، تحريم تأبيد، لما رُوي عن علي كرَّم الله وجهه قال: «نهى رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٩/ ١٥١.

عن متعة النساء..»[1] الحديث. وعن سَبرة الجهني، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إني كنت أذنتُ لكم في الاستمتاع من النساء، وإنَّ الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة..»[2] الحديث. وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، من الصحابة ومن بعدهم، واحتج الجمهور على حرمة المتعة بوجوه: **أولاً**: إن الوطء لا يحل إلا في الزوجة أو المملوكة لقوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلاَّ على أزواجهم أو ما ملكت أيْمَانهُم﴾[3] والمرأة المتمتع بها ليست مملوكة، ولا زوجة، لانتفاء لوازم الزوجية كالميراث، والعدّة، والطلاق، والنفقة فيها. **ثانياً**: إنه تعالى قال: ﴿مُحصِنِينَ﴾ والإحصان لا يكون إلا في النكاح الصحيح، **ثالثاً**: وقال تعالى: ﴿غيرَ مسافحين﴾ والمتعةُ لا يراد بها إلا سفحُ الماء، فكان سفاحاً، ولذا تجد المتمتَّع بها، في كل شهر تحت سافح، وفي كل سنة بحجرِ ملاعب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرع لهم، ومن ذلك النكاح الذي يحفظ الأموال والأنساب.

﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٧/٣٦٩ ومسلم في النكاح رقم ١٤٠٧ ولفظه كما في الصحيحين أن علياً قال لابن عباس: إن رسول الله ﷺ نهى عن مُتعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُر الإنسية.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٠٦ وأبو داود رقم ٢٠٧٢ في كتاب النكاح.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٥ و٦.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾المراد بالطَّوْل: الغِنَى والسَّعة، وبذلك فسره ابن عباس ومجاهد وأصله الفضلُ والزيادةُ ﴿ أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ حرائر المسلمات، بدليل مقابلتهن بالمملوكات، فإن حريتهن أحصنتهن عن ذل الرق والابتذال ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ أي فلينكح ما ملكته أيمانكم ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي من الإماء المسلمات، والفتى: العبدُ، والأمةُ فتاة والمعنى: ومن لم يستطع سعةً في المال، يبلغ بها نِكاح الحرة، فلينكح أَمَةً، وظاهر النظم الكريم، يفيد عدم جواز نكاح الأَمة للمستطيع، كما ذهب إليه الشافعي للشرط المذكور في الآية الكريمة ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ ﴾ جملة معترضة جيء بها لتأنيسهم بنكاح الإماء، ببيان أن مناط التفاضل، ومداد التفاخر، هو الإيمان دون الأحساب والأنساب، على ما نطق به قوله تعالى: ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والمعنى: إنه تعالى أعلم منكم بمراتبكم في الإيمان، ورب أَمَة يفوق إيمانها إيمان الحرائر، فليكنْ هو مطمح نظركم ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أي لا تستنكفوا من نكاح الإماء فكلكم بنو آدم، ودينكم دين الإسلام وهو تحذير عن التعيير بالأنساب ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ ﴾ إعادة الأمر لزيادة الترغيب ﴿ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ أي واذ وقفتم على جلية الأمر فانكحوهن بإذن مواليهن، وهذا الإذن شرط لجواز نكاح الأَمَة فلا يجوز بلا إذن، والمراد بعدم الجواز عدم النفاذ، مثل ذلك نكاح العبد، فقد قال النبي ﷺ «أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر»[1] والعهرُ الزنا ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي أدوا إليهن من غير مماطلة وإضرار ﴿ مُحْصَنَٰتٍ ﴾ أي حال كونهن عفائف عن الزنا ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ أي غير مجاهرات بالزنا ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ الأخدانُ: الأصدقاء على الفاحشة أي مسرّاتٍ به، وكان الزنا في الجاهلية منقسماً إلى سرٍّ، وعلانيةٍ، وكانوا يحرّمون ما ظهر منه،

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢٠٧٨ والترمذي رقم ١١١٢ في كتاب النكاح.

ويستحلُّون ما خفي، ويقولون: لا بأس به، ولتحريم القسمين نزل قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحشَ ما ظَهَر منها وما بطن﴾ ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ بالأزواج، وذهب كثير من العلماء، إلى أن المراد من الإحصان: الإسلامُ، لا التزوج ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ أي فعلن فاحشة الزنا، وثبتَ ذلك ﴿فَعَلَيۡهِنَّ﴾ فثابت عليهن شرعاً ﴿نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي الحرائر الأبكار ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ أي الحدّ الذي هو جلدُ مائة، فنصفُه خمسون جلدة، ولا رجم عليهن، لأنه لا يُنتصف، ويُجلد العبد للزنا خمسينَ جلدةً، ولا فرق بين المتزوج وغير المتزوج، وعُلم هذا بدلالة النصِّ، وقال بعضهم: يُجلد كالحر لعموم قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني﴾ الآية والآية المنصِّفة في الإماء، والصحيحُ الأول ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الإماء ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ﴾ أي لمن خاف الزنا بسبب غلبة الشهوة عليه، وهو مأثور عن ابن عباس، وهو شرط آخر، لجواز تزوج الإماء عند الشافعي، ومذهب الإمام الأعظم ليس بشرط، وإنما هو إرشاد للأصلح ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ﴾ أي وصبركم عن نكاح الإماء ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾ من نكاحهن، وإن رُخص لكم فيه، لما فيه من تعريض الولد للرقّ، ولأن حقَّ المولى فيه أقوى، فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر، والمولى يقدر على استخدامها كيفما يريد، في الحضر والسفر، وعلى بيعها للحاضر والباد، وفي ذلك مشقة عظيمة على الأزواج، ولا يكاد يتحمل ذلك غيور ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ فيغفر لمن لم يصبر ﴿رَّحِيمٞ﴾ مبالغ في الرحمة، لذلك رخَّص لكم في نكاحهن.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ أي يريد الله أن يبين لكم ما خفي عنكم من

مصالحكم، ومحاسن أعمالكم ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ أي يرشدكم ﴿ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الأنبياء والصالحين أي مناهج من تقدَّمكم منهم، لتقتفوا أثرهم ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ويوفقكم للتوبة، ويتجاوز عنكم ما أصبتم، قبل أن يبين لكم.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم بالأشياء، فيعلم ما شرع لكم من الأحكام ﴿ حَكِيمٌ ﴾ مراعٍ في جميع أفعاله الحكمة والمصلحة.

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يوفقكم لما فيه صلاح دينكم ودنياكم ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ يعني الفسقة، لأنهم يدورون مع شهواتهم البهيمية، من غير تحاشٍ عنها، فكأنهم بانهماكهم فيها امتثلوا أمرها، واتَّبعوها، قال ابن عباس: إنهم الزناة، وقيل: إنهم اليهود، والمجوس، والعموم أولى لكل من سار في طريق الشهوات والمحرَّمات ﴿ أَن تَمِيلُوا۟ ﴾ عن الحق، بموافقتهم على اتباع الشهوات، واستحلال المحرمات ﴿ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ أي بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة على الندرة، من غير استحلال.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ أي في أمر التكاليف، فلذلك شرع لكم الشرعة الحنفية، السمحة السهلة، ما لم يخفف عن غيرها من الأمم ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ أي في أمر النساء، عاجزاً عن مخالفة هواه، حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات، ولا يستخدم قواه في مشاق الطاعة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ شروع في بيان بعض الحرمات، المتعلقة بالأموال والأنفس، والمراد من الأكل التصرفات، وعبَّر به لأنه معظم المنافع، والمراد بالباطل ما يخالف الشرع، كالربا، والقمار، والبخس، والظلم ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أي إلا أن تكون التجارة، تجارة صادرة عن تراضٍ كائن منكم، والمراد من التراضي، مراضاة العاقِدَيْنِ فيما تعاقدا عليه، وقت الإيجاب والقبول، والآية تدل على جواز البيع بالتعاطي، والبيع الموقوف، إذا وجدت الإجازة، لوجود الرضا، وفي الحديث الشريف «أطيبُ الكسبِ كسبُ التجار، الذين إذا حدَّثوا لم يكذبوا، وإذا وَعَدوا لم يُخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يَذِمُّوا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يَمْطُلوا، وإذا كان لهم لم يُعَسِّروا»(١) والمراد بالتراضي انتقال المال بطريق شرعي، سواء كان تجارةً، أو إرثاً، أو هبة، أو غير ذلك، وهو من استعمال الخاص وإرادة العام ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالانتحار(٢)، أو بإلقاء النفس إلى التهلكة، ويؤيده ما رُوي عن عمرو بن العاص في قصة التيمم(٣)، أو بارتكاب ما يؤدي إلى قتلها، وقيل: المراد بالأنفس من كان من أهل دينهم، فإن المؤمنين كنفس واحدةٍ، وعبر بذلك للمبالغة في الزجر، جَمَع في التوصية بين حفظ النفس، والمال، الذي هو شقيقها، من

---

(١) أخرجه الأصبهاني عن معاذ بن جبل مرفوعاً، والبيهقي في الشعب، وانظر نصَّ الحديث في المتجر الرابح للدمياطي ص ٦٣٥.

(٢) قال ﷺ: «من تردَّىٰ من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم، يتردَّىٰ فيها، خالداً مخلَّداً فيها أبداً. .» الحديث رواه مسلم.

(٣) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «لما بعثني النبي ﷺ عام ذات السلاسل، احتلمتُ في ليلة شديدة البرد، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أهلك، فتيمَّمتُ ثم صليتُ بأصحابي صلاة الصبح، فلمَّا قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرتُ ذلك له، فضحك ﷺ ولم يقل شيئاً». أخرجه أحمد وأبو داود.

حيث إنه سبب قوامها، رأفة بهم، ورحمة، كما أشار إليه بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أمر ما أمر، ونَهَى ما نهى، لفرط رحمته تعالى بكم.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي يفعل ما نهى الله عنه بقتل النفس، وأكل الأموال بالباطل، والإشارة بقوله ﴿ذلك﴾ يدل على فظاعة قتل النفس، وبعد منزلته في الفساد ﴿عُدْوَٰنًا﴾ أي معتدياً ظالماً، إفراطاً في التجاوز عن الحد ﴿وَظُلْمًا﴾ وإتياناً بما لا يستحقه لا خطأً ولا قصاصا، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي ندخله إياها ونحرقه بها، والتنوين للتعظيم أي ناراً شديدة هائلة ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه، لأن الله تعالى لا يعجزه شيء.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ﴾ أي كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، والكبيرةُ: ما كبُر وعَظُم من الذنوب، وهي كل ذنب رتب الشارع عليه الحدَّ، أو صرَّح بالوعيد فيه، **وقال الواحدي**: الصحيح أن الكبيرة ليس لها حدٌّ يعرفها العباد به، أخفى الله تعالى ذلك عن العباد، ليجتهدوا في اجتناب المنهي، رجاء أن تجتنب الكبائر، ونظير ذلك إخفاء الصلاة الوسطى، وليلة القدر وساعة الإجابة، وفي الحديث الشريف «ألاَ أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وقول الزور . . .» الحديث[1] وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله: وما هُنَّ؟ قال: الشركُ بالله، والسحرُ، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات»[2] أي البريئات من الزنا وروى ابن جبير عن ابن عباس أنه قيل له: هل الكبائر سبع؟ فقال: هي إلى السبعمائة أقرب منها

---

(١) أخرجه البخاري ٥/ ١٨٢ في الشهادات، ومسلم في الإيمان رقم ٨٨.
(٢) أخرجه البخاري ٥/ ٢٩٤ في الوصايا ومسلم رقم ٨٩ في الإيمان، والنسائي ٦/ ٢٥٧.

إلى السبع ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ أي نغفر لكم ﴿سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا﴾ هو الجنة ﴿كَرِيمًا﴾ أي حسناً مرضياً مع الكرامة والإعزاز.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي عليكم، لمَّا نهاهم الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل، عقبه بالنهي عما يؤدي إليه من الطمع في أموالهم، على سبيل الحسد، لتطهر أعمالهم الظاهرة والباطنة، والمعنى: لا تتمنوا ما أعطاه الله تعالى بعضكم من المال، والجاه، فإنه ذريعة إلى التحاسد والتعادي، وعدم الرضى بما قسم الله لهُ وهي قسمة صادرة من حكيم خبير، كما قال الشاعر:

وأظلمُ خَلْقِ الله مَنْ بات حاسداً لمن بات في نَعْمائِهِ يتقلَّبُ

وقيل: لمَّا جعل الله في الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين، قالت النساء: نحن أحوج لأن يكون لنا سهمان لأنَّا ضعفاء، وهم أقوياء، وأقدر على طلب المعاش منا، فنزلت، وهذا هو الأنسب بتعليل النهي بقوله سبحانه: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ فإنه صريح في جريان التمني بين فريقي الرجال والنساء، والمعنى لكل من الفريقين في الميراث نصيب معيَّن المقدار، مما أصابه بحسب استعداده، عن أم سلمة قالت: قلتُ يا رسول الله يغزو الرجالُ ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ولا تتمنوا ما فضل اللهُ به

بعضكم على بعض..﴾[1] ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي لا تتمنوا ما للناس وأسألوا الله مثله من خزائنه التي لا تنفد، وهو يدل على أن النهي عنه هو الحسد، وفي الأثر: لا يتمَنينَّ أحدكم مال أخيه، ولكنْ ليقل: اللهمَّ ارزقني مثله، وأعطني ما يكون صلاحاً لي في ديني ودنياي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ولذلك جعل الناسَ على طبقات، ورفع بعضَهم على بعض درجات، حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم، بموجب المشيئة المبنية على الحِكَمَ والمصالح **وقال ابن عيينة**: لم يأمر سبحانه بالمسألة إلا ليعطي ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة في الدرجة يلونها ويحرزون منها أنصباءهم بحسب استحقاقهم المنوط بينهم وبين المورث من العلاقة ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هم موالي الموالاة، أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان الرجل يعاقد الرجل في الجاهلية، فيقول: دمي دَمُك، ترثني وأرثك، فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم، فنسخ ذلك بقوله سبحانه ﴿وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض﴾ ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ الضمير للموالي، أي من التركة عند عدم الورثة، وفي رواية عن ابن عباس أخرجها البخاري والنسائي أنه قال في الآية «كان المهاجرون لمّا قدموا المدينة، يرث المهاجرُ الأنصاريَّ، دون ذوي رحمه، للأخوّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلمّا نزلت ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ نُسخت، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصي له»[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي لم يزل سبحانه عالماً بجميع الأشياء جليّها، وخفيّها، فيجازي كلاً حسب فعله، وفيه وعد ووعيد.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٢٤٧.

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا (٣٤) وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا (٣٥) ﴾.

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي شأنهم القيام عليهن، بالأمر والنهي، قيام الولاة على الرعية، وعلّل ذلك بأمر وهبيّ، وكسبيّ فقال سبحانه: ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ أي بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء، بكمال العقل، وحسن التدبير، ومزيد القوة، ولذلك خُصُّوا بالنبوة، والإمامة، والولاية، ووجوب الجهاد والجمعة، ونحوها ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ﴾ أي وبسبب إنفاقهم من أموالهم، وهو ما أنفقوه من المهر والنفقة وفيه دليل وجوب نفقتهن عليهم، واستدل بالآية على أن للزوج تأديب زوجته، ومنعها من الخروج، وأن عليها طاعته، واستدل بها أيضاً مَنْ جَعَل للزوج الحجرَ لزوجته في نفسها ومالها، فلا تتصرف فيه إلا بإذنه، لأنه سبحانه جعل الرجل قوّاماً، وهو الناظر على الشيء الحافظُ له ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ منهن ﴿ قَٰنِتَٰتٌ ﴾ أي مطيعات لله تعالى، قائمات بحقوق الأزواج ﴿ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ ﴾ أي حافظات لما يجب عليهن حفظه، في حال غيبة الزوج، من الفروج والأموال وقيل: المراد حافظات لأسرار أزواجهن، أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء التي إذا نظرتَ إليها سرَّتْكَ، وإذا أمرتها أطاعتكَ، وإذا غبتَ عنها حفظتكَ في مالكَ ونفسها، ثم قرأ ﷺ ﴿الرجال قوامون﴾[1] الآية»

(١) أخرجه البيهقي وابن جرير الطبري، وأخرجه أبو داود رقم ١٦٦٤ في الزكاة بلفظ «ألا =

﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ بحفظ الله إياهن وأمره إياهن بحفظ الغيب، وكتم أسرار أزواجهن ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ عصيانهنَّ، وترفعهنَّ عن مطاوعة الأزواج، من النشز وهو المكان المرتفع، وهو خطاب للأزواج، وإرشاد لهم إلى طريق القيام عليهن، أي تظنون عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ فانصحوهنَّ بالترغيب والترهيب، وقولوا لهن: اتقين الله، وارجعن عما أنتنَّ عليه، واعلمن أن طاعتي فرض عليك ونحو ذلك ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ في المراقد ولا تباشروهن، فيكون كنايةً عن الجماع، وقيل: أن يعتزل عنها إلى فراش آخر ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ ضرباً غير مبرّح ولا شائن، والأمور الثلاثة مترتبة، ينبغي أن يتدرج فيها، قيل: للزوج أن يضرب المرأة على أربع: ١ ـ ترك الزينة والزوج يريدها، ٢ ـ وترك الإجابة إذا دعاها إلى فراشه، ٣ ـ وترك الصلاة والغسل من الجنابة، ٤ ـ والخروج من البيت إلاّ لعذر شرعي. وتحمل أذى النساء، والصبر عليهن، أفضل من ضربهن ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ ﴾ بترك النشوز، وانقدن لما أوجب الله عليهن من طاعتكم ﴿ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ بالتوبيخ والإيذاء، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وحاصل المعنى: إذا استقام ظاهرهن وأطعنكم فلا تعلوا عليهن، ولا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ فاحذروه، فإنه تعالى أقدر عليكم على من تحت أيديكم، أو أنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم، ويتوب عليكم، فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند طاعتهن لكم[1].

---

= أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة: إذا نظر إليها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته» وانظر الحديث في جامع الأصول ٢/ ١٦٣.

(١) انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا، ونرعى شؤونهن، وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها، حيث أمرنا بالوعظ، ثم بالهجران، ثم بالضرب ضرباً رفيقاً من غير إيذاء، ثم ختم الآية بصفة العلوّ والكبر، لينبه تعالى العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها، وإنه تعالى عون الضعفاء، وملاذ المظلومين!!.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الحكام، وقيل: لأهل الزوجين، أي وإن خشيتم مخالفة وعداوة بين الزوجين فابعثوا أيها الحكام رجلاً وسطاً، يصلح للحكومة والإصلاح من أهله، وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للصلاح، وهذا على وجه الاستحباب، فلو نصبا من الأجانب جاز، والخوف ههنا بمعنى العلم أي إن علمتم أو ظننتم تأكد المخالفة، بحيث لا يقدر الزوج على إزالته، فابعثوا لفضِّ النزاع حكماً من أهله، وحَكَماً من أهلها، وللحكمين حق التوفيق أو التفريق بين الزوجين، لما رُوي أنَّ رجلاً وامرأةً جاءا إلى علي كرم الله وجهه، فأمر أن يبعث رجلاً حكماً من أهله، ورجلاً حكماً من أهلها، ثم قال للحكمين: تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تَجمْعا تجمعا، وإن رأيتما أن تفرقا تفرقا، قالت المرأة: رضيتُ بكتابِ الله تعالى، بما عليَّ فيه ولي، وقال الرجل: أما الفرقة فلا، فقال علي: كذبتَ واللهِ، حتى تقرَّ بمثل الذي أقرّتْ به[1].

قال ابن العربي في الأحكام: إنهما قاضيان لا وكيلان، فإن الحَكَم، اسم في الشرع له ﴿ إِن يُرِيدَآ ﴾ الحكمان ﴿ إِصْلَٰحًا ﴾ أي بين الزوجين، وتأليفاً، وكانت نيتهما صحيحة، وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى ﴿ يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ يوقع بين الزوجين الموافقة، والألفة، والمودة، أي إن قصدا الإصلاح وزوال الشقاق، أوقع الله بينهما الألفة والوفاق، وفيه تنبيه على أنّ من أصلح نيته فيما يتحراه، أصلح الله مبتغاه، وعدم التعرض لذكر الفراق، للإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغي أن يحدث صدوره عنهما، وأن الذي يليق بشأنهما هو إرادة الإصلاح ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ يعلم كيف يرفع الشقاق، ويوقع الوفاق، وفيه من الوعيد، للحكمين والزوجين، في سلوك ما يخالف طريق الحق والإصلاح.

---

(١) أخرجه الشافعي في الأم، والبيهقي في السنن.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والأقارب، إثْرَ بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الأزواج، وقدم الأمر بما يتعلق بحقوق الله، لأنها المدار الأعظم ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ صنماً أو غيره، أو شيئاً من الإشراك، جلياً أو خفياً، وهذا النهي إشارة إلى الأمر بالإخلاص، فكأنه قيل: اعبدوا الله مخلصين له العبادة، روي أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «يا معاذ، هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإنَّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة فقال يامعاذ: هل تدري ما حقُّ العباد على الله، إذا فعلوا ذلك؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم»[1] ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ أي أحسنوا بهما إحسانا ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي أحسنوا إلى ذي القرابة ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ من الأجانب ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الذي قرب جواره وقيل: الذي له مع الجوار قربٌ واتصال بنسب ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ أي البعيد. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ما زال

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس ٨/٣٩٨ ومسلم في الإيمان رقم ٤٨ والترمذي رقم ١٨ في الإيمان أيضاً.

جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننتُ أنه سيورثه»[١] أي سيحكم جبريل بميراث أحد الجارين من الآخر، وفي الحديث الشريف: «واللهِ لا يؤمنُ، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمنُ جارهُ بوائقه»[٢] يعني شرَّه وأذاه. والجيران ثلاثة: فجار له ثلاثة حقوق: حقُّ الجوار، وحقُّ القرابة، وحقُّ الإسلام، وجارٌ له حقان: حقُّ الجوار، وحق الإسلام، وجار له حقٌّ واحد: حقُّ الجوار، وهو غير المسلم من أهل الكتاب.. ويُبدأ بالأقرب فالأقرب ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ هو الرفيق في السفر، وقيل: الرفيقُ في أيِّ أمرٍ من الأمور، كتعلم، وصناعة، وسفر، ومن قعد بجنبك في مسجد، أو في مجلس لما فيه من العموم، وروي عن علي كرَّم الله تعالى وجهه ﴿والصاحب بالجنب﴾ المرأةُ، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: خير الأصحاب عند الله، خيرهم لصاحبه، وخيرُ الجيران عند الله تعالى، خيرهم لجاره[٣]. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر أو الضيف، فقد قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٤]. قيل: إكرامه تلقيه بطلاقة الوجه، وتعجيل قِراه، والقيام بنفسه في خدمته ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ العبيد، والإماء والإحسان إليهم. أن لا يكلفهم ما لا يطيقون، ولا يؤذيهم، وأن يعطيهم من الطعام والكسوة، ما يحتاجون إليه بقدر الكفاية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً، يأنف عن أقاربه وجيرانه، وأصحابه، ولا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا﴾ يتفاخر عليهم تكبراً، وإنما خص الله هذين الوصفين في هذا الموضع، لأن المختال قلَّما يقوم برعاية الحقوق، أخرج الطبراني عن ثابت ابن قيس قال: «كنتُ عند

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ١٠/ ٣٦٩ ومسلم في البرِّ والصِّلة رقم ٢٦٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ١٠/ ٣٧١ ومسلم في الإيمان رقم ٤٦ باب تحريم إيذاء الجار.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة رقم ١٩٤٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٠/ ٣٧٣ ومسلم رقم ٤٧.

رسول الله ﷺ، فقرأ هذه الآية، فذكر الكبر وعظّمه، فبكى ثابت فقال له رسول الله ﷺ ما يبكيك؟ فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال، حتى إنه ليعجبني أن يحسن شِرَاكُ نَعْلي!! قال ﷺ: فأنت من أهل الجنة، إنه ليس بالكبر أن تحسن راحلتك، ورحلك، ولكنَّ الكبرَ سفهُ الحق، وغمط الناس»(١) أي احتقارهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بما في أيديهم ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ فيأمرونهم به مقتاً للسخاء ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ الغنى، والعلم، فهم أحقاء بكل ملامة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي أعددنا لهم ذلك، وضَعَ المظهر موضع المضمر، إشعاراً بأن من هذا شأنه، فهو كافر لنعم الله، ومن كان كافراً لنعم الله، فله عذاب يهينه، كما أهان النعم بالبخل والإخفاء، وسبب نزولِ الآية ما رُوي عن ابن عباس أن حلفاء كعب بن الأشرف من اليهود، أتوا رجالاً من الأنصار، فقالوا لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر، فإنكم لا تدرون ما يكون لكم؟ فنزلت الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ أي ينفقونها للفخار والشهرة، وإنما شاركوهم في الذم والوعيد، لأن البخل والسرف، طرفا إفراط، وتفريط، وهما سواء في القبح، واستجلاب الذم ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي للفخار، لا لوجه الله العظيم المتعال ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ ليتحروا بالإنفاق مراضيه تعالى وثوابه، وهم اليهود ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إبليس وأعوانه التابعين له والرفقة الأشرار ﴿لَهُۥ قَرِينٗا﴾ أي صاحباً في الدنيا

---

(١) أخرجه الطبراني وابن مردويه، وفي رواية أبي داود أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ ـ وكان رجلاً جميلاً ـ فقال يا رسول الله: «إني رجل حُبِّب إليَّ الجمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحبُّ أن يفوقني أحد بِشراك نعل ـ أي رباط النعل ـ أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبر: من بَطِر الحقَّ، وغَمَط الناس» أي لم يقبل الحق، واحتقر الناس، وانظر جامع الأصول ١٠/ ٦١٥.

كما في قوله تعالى: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ ﴿فَسَآءَ﴾ فبئس الشيطان ﴿قَرِينًا﴾ لأنه يدعوه إلى المعصية المؤدية إلى النار، وفي الآية تنبيه على أن الشيطان حملهم على ذلك، وزيَّنه لهم، ويجوز أن يكون وعيداً لهم، بأن يُقرن بهم الشيطان في النار كقوله تعالى: ﴿ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْر الرحمن نُقيِّضْ له شَيْطَاناً فهو لهُ قَرِينٌ﴾[1] .

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ ﴾ أيْ أيُّ وبالٍ وضرر يحيق بهم ﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟﴾ ابتغاء وجه الله تعالى ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من فضله من الأموال؟ المراد توبيخهم على الجهل بمكان المنفعة، وهذا أسلوب بديع، كثيراً ما استعمله العرب في كلامهم، كما يقال للمنتقم: ما ضرَّك لو عفوتَ؟! ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم، تنبيهاً على سوء بواطنهم، وأنه تعالى مطلع على ما أخفوه في أنفسهم، فيجازيهم به.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ المثقال من الثقل ومعناه المقدار والوزن، أي إن الله لا يظلم مقدار ذرة، وهي النملة الحمراء الصغيرة، وعن ابن عباس: أنه أدخل يده في الغبار، ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة، فقد ذكر سبحانه الذرة، لأنها أقل شيء مما يدخل في نَظَر البشر ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ أي يضاعفها

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

أضعافاً كثيرة والمراد يضاعف ثوابها، كما في الحديث: «أن تمرة الصدقة يربيها الرحمن حتى تصير مثل الجبل»[1] ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ ﴾ أي يعطي صاحبها من عنده، على سبيل التفضل، زائداً على ما وعد في مقابلة العمل ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ عطاءً جزيلاً وهو الجنة دار المتقين.

﴿ فَكَيْفَ ﴾ حال هؤلاء الكفرة ﴿ إِذَا جِئْنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم ﴿ بِشَهِيدٍ ﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه من قبائح الأعمال، وهو نبيهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا خاتم النبيين ﴿ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ تشهد على صدق الأنبياء، وعلى العصاة من أمتك، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن، فقلت يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أُنزل!! قال: نعم، فإني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء، حتى أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ قال: حسبك الآن، فنظرت فإذا عيناه تذرفان»[2].

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة، والإشارة لبيان شدة هول القيامة ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الأمر، من الكفرة والعصاة، يودون في ذلك اليوم لمزيد شدته ﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي يودون أن يدفنوا، وتُسوَّى الأرضُ بهم، وأنهم لم يُبعثوا ولم يُخلقوا، أو يكونوا تراباً كما في قوله تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ وجواب لو محذوف لظهوره أي لو تسوى لسُرُّوا واستراحوا من العذاب ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ولا يقدرون على كتمانه، لأن جوارحهم تشهد عليهم، روى الحاكم وصححه عن ابن عباس أنهم إذا قالوا: ﴿والله رَبِّنَا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، ولفظُه «مَنْ تصدَّق بعدْل ـ أي قيمة ـ تمرةٍ من كسبٍ طيّبٍ، ولا يقبل اللهُ إلاّ الطيّبَ، فإنَّ الله يقبلُها بيمينه، ثم يُربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدُكم فُلوَّه ـ أي فرسه ـ حتى تكونَ مثلَ الجبل».
(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٢٥٠.

ما كنَّا مشْرِكينَ﴾ ختم الله على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم، فيتمنون أن تُسوّى بهم الأرض»[1] وقال الحسن: إنها في مواطن: ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همساً، وفي موطن يتكلمون ويكذبون، ويقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، وفي موطن يعترفون كقوله تعالى: ﴿فاعترفوا بذنبهم﴾ وآخر تلك المواطن أن يُختم على أفواههم، وتتكلم جوارحهم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾
لما نُهوا فيما سلف عن الإشراك به تعالى، نُهوا ههنا عما يؤدي إليه من حيث لا يحتسبون، روي في سبب نزول هذه الآية عن علي رضي الله عنه قال: صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدَّموني، فقرأت: ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. ونحن نعبد ما تعبدون﴾ فخلطت فيها، فنزلت هذه الآية[2]. وكانت الصلاة صلاة المغرب كما ذكر المفسرون، والمراد بقربها القيامُ إليها، إلا أنه نهى عن القرب مبالغةً، والمعنى لا تصلُّوا في حالة السكر، حتى تعلموا قبل الشروع ما تقرؤونه، والمراد من

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، وروى نحوه ابن كثير ١/ ٥١١.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٢٦ وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أبو داود في الأشربة «باب في تحريم الخمر» والحاكم وصححه.

السكر: السكرُ من الخمر، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ولفظ السكر حقيقة فيه، وما قيل: إنه السكر من النوم والنعاس فبعيد ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على وأنتم سكارى، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى، ولا في حالة الجنابة، والجنُبُ: يستوي فيه المذكَّر والمؤنث، والواحدُ، والتثنيةُ، والجمع، لجريانه مجرى المصدر واشتقاقه من المجانبة وهي المباعدة، وقيل: للذي يجب عليه الغسل جنب، لأنه يجتنب الصلاة، ودخول المسجد، وقراءة القرآن حتى يتطهر ﴿إِلَّا عَابِرِى﴾ مجتازي ﴿سَبِيلٍ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي ولا تقربوا الصلاة جنباً في حال من الأحوال، إلا حال كونكم مسافرين، وقيل: إن رجالاً من الأنصار، كانت أبوابهم في المسجد، وكانت تصيبهم الجنابة، ولا يجدون ممرَّاً إلا في المسجد، فرُخّص لهم ذلك، وبه قال الشافعي، والمشهور منع دخول الجنب المسجد مطلقاً ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ غاية للنهي عن قربان الصلاة حالة الجنابة، والاغتسال أن يغسل بدنه كله، من فرقه إلى قدمه، كما حُكي في غسل النبي ﷺ أنه كان يتوضأ ثم يفيض الماء على سائر جسده[1]. وفي الآية الكريمة رمزٌ إلى أنه ينبغي للمصلي أن يحترز عما يلهيه، ويشغل قلبه، وأن يزكي نفسه عما يدنّسها، لأنه إذا وجب تطهير البدن، فتطهير القلب عن خاطر غير طاهر أولى ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ شروع في تفصيل ما أجمل في الاستثناء، والمراد من المرض ما يمنع من استعمال الماء مطلقاً، سواء كان بتعذر الوصول إليه، أو بتعذر استعماله، فإن الواجد له عند التعذر كالفاقد، والذي تقرر في الفقه، أن المريض

---

(١) روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة غسل يديه، ثم يُفرغ بيمينه على شماله، فيغسل فرجه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء ويُخلّل بها أصول شعره، ثم يصبُّ على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يُفيض الماء على سائر جسده» متفق عليه.
وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «بلُّوا الشعر، وأنقُوا البشرة، فإن تحت كل شعرة جنابة».

الذي يخاف إذا استعمل الماء أن يشتد مرضه يتيمم، ولم يشترط الفقهاء خوف التلف لظاهر النص، وهو بإطلاقه يبيح التيمم لكل مريض ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي أو كنتم على سفرٍ ما، طال أو قَصُر ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ هو المكان المنخفض من الأرض، والمجيء منه كناية عن الحدث، لأن المعتاد أن من يريد قضاء الحاجة يذهب إليه، ليواري شخصه عن أعين الناس، ولا يجلس في مكان مرتفع، وفي ذكر «أحد» دون غيره، إيماء إلى أن الإنسان ينفرد عند قضاء الحاجة، وهو أدب الإسلام، أي وإن جاء أحد منكم من الغائط ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ يريد سبحانه أو جامعتم النساء، إلا أنه كنى بالملامسة عن الجماع، لأنه مما يُستهجن التصريح به، وهو المروي عن علي، وابن عباس، ومجاهد، ولفظ اللمس، والمسّ، وردا في القرآن بمعنى الجماع، فيكون إشارة إلى الحدث الأكبر، وعن ابن مسعود والنَّخعي والشعبي أن المراد بالملامسة هنا: التقاء البشرتين، سواء كان بجماع أو بغير جماع، ووجه هذا القول أن اللمس حقيقةٌ في اللمس باليد، وأما من حمله على الجماع فمجازٌ، والأصل حمل الكلام على الحقيقة، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء، وقال مالك وأحمد: إن كان اللمس بشهوة ينقض، وإلاَّ فلا، ومذهب أبي حنيفة لا ينقض ولو بشهوة، لأن المراد بالآية الجماع دون اللمس باليد ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ وهذا هو السبب في الحقيقة، وهو فقدان الماء، كأنه قيل: أو لم تكونوا مرضى، أو مسافرين، بل كنتم فاقدين للماء ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي فاقصدوا عند عدم وجود الماء، شيئاً من وجه الأرض طاهراً، فتيمموا به بشرط أن يكون طاهراً، والصعيدُ: وجهُ الأرض تراباً أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه، وقال الزجاج: لا أعلم خلافاً بين أهل اللغة في أن الصعيد وجه الأرض، والطيبُ: الطاهر، وقال بعضهم: هو الترابُ المنبتُ دون السبخة، والتيمم لغةً: القصدُ، والمعنى فتعمَّدوا واقصدوا، شيئاً من وجه الأرض طاهراً، وهذا دليل واضح على جواز التيمم بالحجر والصخر، وإن لم يكن عليه تراب،

وإلى ذلك ذهب أبو حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف والشافعي وأحمد: إنه لا يجوز التيمم، إلاّ أن يعلق باليد شيءٌ من التراب، لتقييد المسح به في المائدة بقوله سبحانه: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ وكلمة «من» للتبعيض ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ أي وجوهكم وأيديكم إلى المرفقين، لما روى أبو داود أن رسول الله ﷺ تيمَّم ومسح يديه إلى مرفقيه، كما رُوي عن جابر «التيمم ضربتان: ضربةٌ للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين» هذا مذهب الشافعي والجمهور، ويشهد لهم القياسُ على الوضوء، والمراد استيعاب هذين العضوين بالمسح، كما في الوضوء، وهو ظاهر الرواية، وجه الظاهر أن التيمم قائم مقام الوضوء، ولهذا قالوا يخلّل الأصابع، وينزع الخاتم، ليتمَّ المسحُ، وحكم المحدث، والجنب، والحائض، والنفساء واحد، وهو ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين، ومن قال: إن التيمم للجنب لا يصح فهو مخطىء، فإن الآية كالصريح في جواز تيمم الجنب، على أن الأحاديث ناطقة بذلك، فقد أخرج البخاري عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لم يصلِّ في القوم، فقال يا فلان: «ما منعك أن تصلي؟ فقال: يا رسول الله أصابتني جنابة ولا ماء، فقال ﷺ: عليك بالصعيد فإنه يكفيك»[1] وعن عمار قال: «أجنبت فلم أجد ماءً، فتمرغت في الصعيد، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال ﷺ: إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا، ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وكذا اليمين على الشمال، وظاهر كفيه ووجهه»[2] ففي الحديث دلالة على أن المحدث

(١) أخرجه البخاري في التيمم ١/٣٧٩ باب الصعيد الطيب وضوء المسلم، وفي كتاب الأنبياء، وأخرجه مسلم أيضاً في كتاب المساجد رقم ٦٨٢ والنسائي في الطهارة ١/١٧١.

(٢) أخرجه البخاري ١/ ٣٨٥ في التيمم، ومسلم في كتاب الحيض باب التيمم رقم ٣٦٨ والنسائي في الطهارة ١/ ١٧٠.

والجنب في التيمم سواء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلذلك يسَّر الأمر عليكم، ورخَّص لكم في التيمم وهو تعليل للترخيص والتيسير.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حال اليهود، والتحذير عن موالاتهم، روي عن ابن عباس أنها نزلت في بعض أحبار اليهود، كانوا إذا تكلم رسول الله ﷺ لوَّوا لسانهم، وعابوه، ويأتون رأس المنافقين «عبد الله بن أبي» ورهطه يتآمرون معهم على الإسلام، والمراد من الكتاب التوراة، و«من» للتبعيض أي حظاً يسيراً من علم التوراة ﴿ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ بيان لمناط التشنيع، ومدار التعجيب، كأنه قيل: ماذا يصنعون حتى ينظروا إليهم؟ فقيل: يأخذون الضلالة ويتركون ما أُوتوه من الهداية، بإنكارهم نبوته ﷺ بعد ما علموا وتيقنوا بحقّية دينه، وأنه هو المبشَّر به في التوراة ﴿ وَيُرِيدُونَ ﴾ أي لا يكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون ﴿ أَن تَضِلُّواْ ﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿ ٱلسَّبِيلَ ﴾ المستقيم الموصل إلى الحق، والتعبير بصيغة المضارع في الموضعين، للإيذان بالاستمرار التجددي، أي هم مستمرُّون دائبون في إرادة ذلك، وفي ذلك أيضاً تقبيح لهم.

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم أيها المؤمنون ﴿ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوتهم وما يريدون بكم، لتكونوا على حذرٍ منهم، ومن مخالطتهم، فلا تلتفتوا

إليهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ في جميع أموركم ومصالحكم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي ناصراً لكم على أعدائكم، فثقوا به، واكتفوا بولايته ونصرته، ولا تتولوا غيره، ففي الآية وعدٌ ووعيد، وترغيب وترهيب.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ بيان للموصول الأول أي من هؤلاء اليهود فريق مجرمون خبثاء، مفسدون في الأرض ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي يبدّلون كلام الله، ويحرّفونه قصداً وعمداً، كما يحرِّفون الكلام عن مقصده الأساسي فيشتمون الناس باسم التحية، ويتظاهرون بالمحبة والوئام، وهذا من خبثهم وفجورهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك إذا دعوتهم للإيمان: سمعنا قولك، وعصينا أمرك، والمراد أنهم مع ذلك التحريف، يقولون في كل أمر مخالف لأهوائهم، عناداً وتحقيقاً للمخالفة ﴿سَمِعْنَا﴾ أي فهمنا ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك، وذلك أنهم كانوا إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر، قالوا في الظاهر: سمعنا، وقالوا في الباطن: عصينا، وقيل: إنهم كانوا يظهرون ذلك عناداً واستخفافاً ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي يقولون ذلك في أثناء مخاطبته ﷺ، وهو كلام ذو وجهين: محتمل للشر، بأن يحمل على معنى: اسمع حال كونك غير سامع كلاماً أصلاً، وهو دعاء عليه بالصَّمم أو الموت، ومحتملٌ للخير، بأن يحمل على اسمع منا غير سامع كلاماً مكروهاً، وهم يضمرون في أنفسهم المعنى الأول ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي ويقولون هذا أيضاً ﴿راعنا﴾ وهي كلمة مسبة وشتيمة، من الرعونة وهي الحُمقُ ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي فتلاً بها أي يفتلون ما يضمرونه من الشتم، إلى ما يظهرونه من التوقير ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ أي قدحاً فيه بالاستهزاء، أي يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والطعن في الدين كما فَعَل الخبثاء حين دخلوا على الرسول ﷺ فقالوا: السَّامُ عليك يا محمد، أي الموت عليك، وأظهروا أنهم يريدون السلام عليه، وكانوا يقولون لو كان نبياً حقاً، لأخبر بما قلنا له، فأظهره الله تعالى على خبث ضمائرهم، من العداوة والبغضاء، فكان ذلك دلالة على نبوته ﷺ، لأن الإخبار عن الغيب معجز ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ إذا سمعوا شيئاً

من أوامر الله تعالى ﴿قَالُواْ﴾ بلسان المقال ﴿سَمِعْنَا﴾ سماع قبول، مكان قولهم سماع الرد ﴿وَأَطَعْنَا﴾ مكان قولهم عصينا ﴿وَٱسْمَعْ﴾ مكان قولهم اسمع غير مسمع ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ بدل قولهم راعنا، ﴿لَكَانَ﴾ قولهم هذا ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وأنفع من قولهم ذلك ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي أعدل في نفسه وأصوب ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ولكن لم يقولوا ما ينفع، بل قالوا ما يضرُّ، ولذلك أبعدهم الله عن الهدى، وطردهم من رحمته، بسبب كفرهم وعنادهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يُعبأ به، وهو الإيمان ببعض الرسل والكتب، ويجوز أن يُراد بالقلة العدم، ثم عقَّب ذلك بالمبادرة إلى سلوك محجة الهدى، مشفوعاً بالتحذير والتخويف فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ﴾ إيماناً شرعياً ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي بالذي أنزلناه من عندنا على رسولنا من القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي مصدِّقاً للتوراة ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ أي من قبل أن نمحو ما خطَّه الباري في صحائف الوجوه، فنجعلها كخفّ البعير، أي نطمس منها الحواس من أنفٍ، وعينٍ، وحاجبٍ، فتصبح كالأدبار، وهو تشويه لمحاسن الوجه ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أي نخزيهم بالمسخ، كما أخزينا به أصحاب السبت، فقد مسخهم الله إلى قردة وخنازير، **قال المبرد:**

إنه منتظر، ولا بدَّ من طمسٍ ومسخٍ في اليهود، قبل قيام الساعة، وقد جرت عادةُ الله سبحانه مع اليهود، بأن ينتقم من أخلافهم لرضاهم بما صنعت أسلافهم، وقيل: هذا الوعيد كان متوجهاً إليهم، لو لم يؤمن أحد منهم، وقد آمن جماعة من أحبارهم، فلم يقع، ورُفع عن الباقين، وقيل: كان الوعيد أحد الأمرين، كما ينطق قوله تعالى: ﴿أو نلعنهم﴾ فإن لم يقع الأمر الأول، فلا نزاع في وقوع الأمر الثاني، فإن اليهود ملعونون بكل لسان، وفي كل زمان ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بإيقاع شيء ما أراده، وحَكَم به وقضاه ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً واقعاً في الحال، أو كائناً في المستقبل لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ كلام مستأنف، لتقرير ما قبله من الوعيد، فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون، من التحريف والتدليس، ويطمعون في المغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿يأخذون عَرضَ هَذَا الأَدْنَىٰ ويقولُونَ سَيُغْفر لنَا﴾[1] والمراد من الشرك: الكفرُ، أي لا يغفر الكفر لأنه ذنب كبير لا ينمحي عنه أثره، ويغفر ما دونه من الذنوب ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما دون الشرك، وإن كانت كبيرة مع عدم التوبة، تفضلاً وإحساناً، لكن لا لكل أحد بل ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له، وذهب المعتزلة إلى أنه لا فرق بين الشرك وما دونه من الكبائر، في أنهما يُغفران بالتوبة، ولا يُغفران بدونها، فهم قد أخطأوا الفهم الصحيح، لأن مساق النظم الكريم، لإظهار عظم جريمة الكفر، ببيان استحالة مغفرته، دون غيره من الذنوب، ولو شرطنا التوبة، لم يظهر بينهما فرق، ولم يحصل المقصود من الزجر عن الكفر، وفيه ردٌّ أيضاً على الخوارج، الذين زعموا أن كل ذنب شرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي ومن يشرك بالله أيَّ شرك كان ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي ارتكب ما تُستحقر دونه الآثام، فلا تتعلق به المغفرة قطعاً، وقد استبشر

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٦٩.

الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الآية، وقال علي بن أبي طالب: «ما في القرآن آيةٌ أحبُّ إليَّ من هذه الآية: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء...﴾»[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ تعجيب من حالهم، المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان، نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وقالت اليهود: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ ويدخل في الآية، من زكَّى نفسه، وأثنى عليها لغير غرض صحيح، أي يزكُّون أنفسهم بزكاء العمل، أو بزيادة الطاعة والتقوى، فهذه الأشياء لا يعلمها إلا الله تعالى، فلهذا قال الله: ﴿فلا تزكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ وقال هنا ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتدُّ بها، دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان، من حُسْن وقبح، وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي يُعاقبون بتلك الفعلة القبيحة، ولا يظلمون في ذلك العقاب ﴿فَتِيلًا﴾ أي أدنى ظلم، وهو الخيط الذي في شق النواة، يُضرب به المثل في القلة والحقارة، كالنقير للنقرة التي في ظهرها، والقطمير وهو قشرتها الرقيقة، وهذه الأشياء «الفتيل، النقير، القطمير» تُضرب أمثالاً للشيء التافه الحقير.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله، وأزكياء عنده، وأن ذنوبهم مغفورة، ولشناعة هذا الافتراء، أكَّده تعالى بما ينبه على شناعة وقبح هذا الأمر فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي لا يخفى كونه إثماً، من بين آثامهم الكثيرة، وذنباً يستحقون عليه أشدَّ العقاب.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٣٧ وقال: هذا حديث حسن غريب. أقول: إنما استبشر المسلمون بهذه الآية، لأن المؤمن إذا مات على الإيمان، فله أملٌ بدخول الجنة، مهما كثرت وعظمت ذنوبه، لأن الله تعالى يغفر كل ذنب إلاَّ الشرك، فلم ينقطع الرجاء من الرحمة والغفران.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تعجيبٌ من حالٍ أخرى لليهود، زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم، والآيةُ نزلت، ـ كما روى ابنُ عباس ـ في كعب بن الأشرف، من رؤساء اليهود، خرج إلى مكة في سبعين راكباً من اليهود، ليحالفوا قريشاً بعد غزوة أحد، على محاربة رسول الله ﷺ، وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ فنزل كعبٌ على أبي سفيان، فأحسن مثواه، وقال أبو سفيان لكعبٍ: إنك تقرأ الكتاب، ونحن أمّيون لا نعلم، فأيُّنا أهدى طريقاً، نحن أم محمد؟ قال: ما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت، نسقي الحاج، وننحر الجزور، ونقري الضيف، ونعمر بيت ربنا، ونصل الرحم، ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، فقال: أنتم أهدى منه سبيلاً، فأنزل الله في ذلك الآية ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾[1].. والجبتُ في الأصل صنمٌ، ثم استعير في كل معبود غير الله تعالى، والطاغوتُ يطلق على كل باطل، من معبود أو غيره، ورُوي عن عمر بن الخطاب أنه قال: الجبتُ: الساحرُ، والطاغوتُ: الشيطانُ، ومعنى الإيمان بهما: أي أنهم يصدّقون بألوهية الأوثان والشيطان، وكل ما عُبد من دون الرحمن ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص: ٨٩، وجامع البيان للطبري ٨/ ٤٦٨.

أي لأجلهم وفي حقهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الكفار من أهل مكة ﴿أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ أي أقوم ديناً، وأرشد طريقة، من محمد وأصحابه، يفضّلون الكفار على المسلمين، ولفظ ﴿من الذين آمنوا﴾ ليس من كلام القائلين، بل من جهة الله تعالى، تعريفاً لهم بالوصف الجميل، وتخطئةً لمن رجَّح عليهم المتصفين بأقبح القبائح، وإنما قال اليهود الضالون: أهدى من محمد وأصحابه، فوصف الله الرسول وأصحابه بالإيمان إشادة بهم وتكذيباً لأعدائهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون المبعدون في الضلالة ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي أبعدهم عن رحمته وطردهم ﴿وَمَن يَلۡعَنِ﴾ أي يبعده ﴿ٱللَّهُ﴾ من رحمته ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ أي ناصراً، يمنع عنه العذاب، وفيه تنصيص على حرمانهم من نصرة قريش، ووعد المؤمنين بأنهم المنصورون ثم شَرَعَ في تفصيل بعضٍ آخر من قبائحهم فقال سبحانه:

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي بل ألهم نصيب من الملك؟ والمراد جحد ما تدعيه اليهود، من أن الملك يعود إليهم في آخر الزمان ﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي أحداً أو الرسول ﷺ وأتباعه، كما روي عن ابن عباس ﴿نَقِيرًا﴾ أي ما يوازي نقيراً، وهو النقرةُ في ظهر النواة، وهو مثلٌ في القلة والحقارة، وهذا توضيحٌ وبيان لشحهم وبخلهم، فإذا بخلوا بالنقير وهم ملوك، فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء؟ ويجوز أن تكون الهمزة لإنكار الواقع، على معنى: ألهم نصيب وافر من الملك، حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين، وقصور مشيدة كالملوك، فلا يؤتون مع ذلك نقيراً، كما تقول لغني لا ينفق على أبيه الفقير، ألك هذا القدر من المال فلا تنفق على أبيك شيئاً؟

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ انتقال من توبيخهم بالبخل، إلى توبيخهم بالحسد، الذي هو أقبح الرذائل، والإشارة إلى الرسول ﷺ والمؤمنين، فإن اليهود كانوا يطمعون أن يكون النبي الموعود منهم، فلما خصَّ الله تعالى

العرب، فبعث محمداً ﷺ منهم، ولم يبعثه من بني إسرائيل، حسدوهم، أي بل أتحسدونهم ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني النبوة، والكتاب، وازدياد العز والنصر، يوماً فيوماً ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾ إلزام لهم بما هو مسلم عندهم، أي إن حسدوا الناس على ما أُوتوا، فقد أعطينا أسلافكم مثل هذا فليس الإيتاء ببدع منا، لأنا قد آتينا من قبل هذا ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي جنسه، والمراد به التوراة، والإنجيل، والزبور ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة وإتقان العلم والعمل ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾ مع ذلك ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره، فكيف يستبعدون نبوته ﷺ؟ وكيف يحسدونه عليها؟ وتكرير الإيتاء للتفصيل والإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة، والمراد ﴿بآل إبراهيم﴾ أنبياء ذريته ووصفُ الملك بالعِظَم، وتنكيره التفخيمي ﴿مُلْكاً﴾ من تأكيد الإلزام، وتشديد الإنكار ما لا يخفى.

﴿فَمِنْهُم﴾ أي من هؤلاء اليهود الحاسدين وآبائهم ﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي بما أوتي آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ﴾ أي أعرض ﴿عَنْهُ﴾ ولم يؤمن به، ولم يكن في ذلك توهين أمره، فكذلك لا يوهن كفرُ هؤلاء أمرك، وفيه تسلية للرسول ﷺ ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي ناراً مسعَّرة موقدة إيقاداً شديداً، يُعذَّبون بها أي إن لم يُعجَّلوا بالعقوبة، فقد كفاهم ما أعد الله لهم من سعير جهنم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي هؤلاء الكفار، من اليهود والنصارى، والوثنيين، الذين أنكروا وحدانية الله، وكذبوا رسله ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي

سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة، وسوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد، وتنوب عنها السينُ، كقوله تعالى: ﴿سأصليه سقر﴾ وقد تذكر للوعد، كما في قوله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وكثيراً ما تفيد هي والسين توكيد الوعيد، وتنكير «ناراً» للتفخيم، أي يدخلون ناراً هائلة ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي احترقت وتلاشت، من نضج الثمرُ واللحم نُضجاً، إذا أدرك ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي أعطيناهم مكان كل جلد محترق، جلداً جديداً مغايراً للمحترق صورة، وإن كانت مادته الأصلية موجودة، بأن يُزال عنه الإحراق، فلا يقال: إن الجلد الثاني لم يعص؟ وهذا السؤال مما لا يكاد يسأله عاقل، فضلاً عن فاضل، ذلك لأن عصيان الجلد وتألمه وتلذذه غير معقول، لأنه من حيث ذاته لا فرق بينه وبين سائر الجمادات، فالحق إن العذاب على النفس الحساسة، بأي بدنٍ حلَّت، وفي أيّ جلد كانت، وكذا يقال في النعيم ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ليدوم ذوقه ولا ينقطع، والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق، ليس لبيان قلته، بل لبيان إحساسهم في كل مرة بالعذاب، كإحساس الذائق بالمذوق، وللإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه، ولعلَّ السِرَّ في تبديل الجلود، مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب، مع إبقاء أبدانهم على حالها؟ أن الإنسان ربما يتوهم زوال الإدراك بالاحتراق، ففي النضج والتبديل نوع إياس لهم، وتجديد حزن على حزن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريده، مما أوعد به أو وعد، ولا يمانعه أحد ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره وتقديره وتعذيب من يعذبه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بعد ذكر سوء حال الكفرة، ذكر تعالى حسن حال المؤمنين، تكميلاً للترهيب والترغيب، أي إن الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، وعملوا الأعمال الحسنة ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وفي السين تأكيد للوعد، وفي اختيارها هنا واختيار سوف في آية الكفر ما لا يخفى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ الأبدُ: الدهرُ الطويل، الذي ليس بمحدود، أي سندخلهم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، مخلَّدين فيها أبداً، لا يموتون فيها ولا

يخرجون منها، ولهم مع ذلك النعيم زوجات مطهرات من الأقذار، من الحيض، والنفاس، والبول، والغائط، وأمثال ذلك، لأن الجنة دار السرور والحبور ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلاً دائماً لا تخترمه الشمس، وسَجْسَجاً[1] لا حرَّ فيه ولا قرَّ، وفيه الإشارة إلى النعمة الدائمة التامة، رزقنا الله التفيؤ فيه، والظليلُ صيغة مشتقة من لفظ الظلّ للتأكيد، كما هو عادتهم في نحو قولهم: يومٌ أيوم، وليلٌ أليل، وإنما خاطبهم به، لأن بلاد العرب في غاية الحرارة، فكان الظلُّ عندهم من أعظم أسباب الراحة، والظليلُ: كنايةٌ عن الراحة، فلا شمس في الجنة، قال الله تعالى: ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾[2]، ولمَّا شرح الله تعالى بعض أحوال الكفار عاد إلى ذكر التكاليف الشرعية، التي كلف بها عباده المؤمنين، منها أداء الأمانات، والحكم بين الناس بالعدل، وطاعة الله وطاعة رسوله فقال تقدست أسماؤه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (٥٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ وهو خطاب يعمُّ حكمه المكلفين، كما أن الأمانات تعمّ جميع الحقوق، المتعلقة بذممهم، من حقوق الله تعالى، وحقوق العباد، سواءً كانت فعلية، أو قولية، أو اعتقادية وعموم الحكم لا ينافي خصوص السبب[3]، روى البخاري عن عبد الله بن

(١) السَّجْسَجُ: اللطيفُ المعتدلُ، الذي لا حرَّ فيه ولا برد. اهـ الوسيط في اللغة.

(٢) سورة الدهر، آية: ١٣.

(٣) روي في سبب نزول هذه الآية، أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، طلب مفتاح الكعبة =

عمر أن رسول الله ﷺ قال: أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: «إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1] أي مال عن الحق ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي إذا قضيتم بين الناس في الخصومات ﴿أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي بالإنصاف والسوية، وهذا أمر للولاة بإيصال الحقوق إلى أصحابها، وينبغي للحاكم أن يسوي بين الخصمين في خمسة: في الدخول عليه، والجلوس بين يديه، والإقبال عليهما، والاستماع منهما، والحكم بالحق إلى مستحقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي نعم شيئاً يعظكم به، والمخصوص بالمدح محذوف، وهو المأمور به، من أداء الأمانات، والعدل في الحكومات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالكم، فهو وعد ووعيد.

وبعد أن أمر الولاة بالعدل، أمر الرعية بالطاعة فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة، أمر الناس بطاعتهم، بعدما أمرهم بالعدل، تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق، وأمَّا أمراء الجور، فبمعزل من استحقاق العطف على الله ورسوله، وإعادة الفعل اعتناءً بشأنه ﷺ، وإيذاناً بأن له ﷺ استقلالاً بالطاعة، لم تثبت لغيره، وأمَّا

---

= من «عثمان بن طلحة» فصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله عليه الصلاة والسلام وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى عليٌّ يده وأخذه منه وفتح بابها، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة وصلى بها ركعتين، فلما خرج أمر علياً أن يردَّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وأن يعتذر إليه، فقال له عثمان: آذيتَ وأكرهت ثم جئت تترفق!! فقال: لقد أنزل الله فيك قرآناً يتلى، وقرأ عليه الآية، فكان ذلك سبب إسلامه، وقال له الرسول ﷺ: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبرٍّ» وانظر تفسير ابن كثير ١/٥٢٨.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١/٨٤ باب علامات المنافق، ومسلم في الإيمان أيضاً رقم ٥٨.

أولو الأمر فقد شرط فيهم أن يكونوا مسلمين، وأن يكونوا متمسكين بشرع الله، ولهذا قال: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ الخطاب عام للمؤمنين والشيء خاص بأمر الدين، بدليل ما بعده، والمعنى: فإن تنازعتم أيها المؤمنون، أنتم وأولو الأمر منكم، في أمرٍ من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فارجعوا فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى كتابه ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ أي إلى سنته، ووجوب الطاعة لهم ما داموا على الحق، فلا تجب طاعتهم فيما خالف الشرع فقد قال ﷺ: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»(١) ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ متعلق بالأمر الأخير، إذ هو المحتاج إلى التحذير، وجواب الشرط محذوف، أي إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فردُّوه إلى الله والرسول، فإنَّ الإيمان بهما يوجب ذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرد والطاعة لأمر الله ورسوله ﴿خَيۡرٞ﴾ لكم وأصلح عاجلاً ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أي عاقبةً ومآلاً.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾.

(١) طرف من حديث أخرجه البخاري في المغازي ٨/٤٧ ومسلم في الإمارة رقم ١٨٤٠ وله قصة وهي كما في البخاري «بعث الرسول ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا حطباً وأوقدوا ناراً، فأوقدوها فقال: ادخلوها، فهمُّوا وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي من النار، فقال ﷺ: لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إلى يوم القيامة، لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعةُ في المعروف».

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للنبي ﷺ وتعجيب له، أي ألم ينته علمك ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ زعم يُطلق بمعنى القول والظن، وأكثر ما يستعمل فيما كان باطلاً، أو فيه ارتياب، والمراد به هنا مجرد الادعاء، وظاهر الآية يدل أنها نزلت في بعض المنافقين، أرادوا أن يتحاكموا إلى بعض أهل الطغيان، ولم يريدوا التحاكم إلى النبي ﷺ ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وهو التوراة، ووصفوا بهذا الادعاء لتأكيد التعجيب، ببيان المباينة بين دعواهم، وبين ما صدر عنهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ رُوي عن ابن عباس قال: حادثة وقعت في قتيل بين بني قُرَيظة وبني النضير، وكان بعضهم يريد التحاكم إلى الرسول ﷺ، فأبى المنافقون منهم إلا التحاكم إلى أبي برزة الكاهن الأسلمي، فانطلقوا إليه فسألوه فقال: أعظموا اللقمة، فقالوا: لك عشرة أوساق، فقال لا بل مائة وسق، فأنزل الله فيهم[1] ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ الضمير راجع إلى الطاغوت ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ الآية في حكم التعجيب، فإنَّ اتباعهم لمن يريد إضلالهم، أعجب من كل عجب وقوله: ﴿ضلالاً بعيداً﴾ أي إضلالاً بعيداً، أي مستمراً إلى الموت، والمعنى يريدون أن يتحاكموا إلى الشيطان، وهو في صَدَد إرادة إضلالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لأولئك الزاعمين للإيمان ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في القرآن من الأحكام ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رَأَيْتَ﴾ أبصرت أو علمت ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ الزاعمين للإيمان والتصديق به، وإظهار المنافقين في مقام الإضمار، للتسجيل عليهم بالنفاق ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً.

---

(١) وذكر الحافظ ابن كثير وغيره، أن الآية نزلت في خصومةٍ وقعت بين يهودي، ورجل من الأنصار منافق «بشر» يزعم الإيمان، فقال له اليهودي: تعالَ نتحاكم إلى محمد، فقال له المنافق: لا، بل تعال نتحاكم إلى «كعب بن الأشرف» الذي سمَّاه الله بالطاغوت.. وانظر صفوة التفاسير ١/ ٢٨٥.

﴿فَكَيْفَ﴾ أي كيف يكون حالهم ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ نكبة تظهر نفاقهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ماعملوا من الجنايات، التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت، والإعراض عن حكمك ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ للاعتذار عما صنعوا ﴿يَحْلِفُونَ﴾ أي حالفين لك ﴿بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ إلى الخصوم ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بينهم، ولم نرد بالمرافعة إلى غيرك، عدم الرضا بحكمك، فلا تؤاخذنا بما فعلنا، وفي هذه الآيات دلائل على أن من ردَّ شيئاً من أوامر الله تعالى، أو أمر الرسول ﷺ فهو خارج عن الإسلام كما حَكَم الصحابة بارتداد مانعي الزكاة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق، وفنون المكر والخديعة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن عقابهم للمصلحة، ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وَجَلٍ وحذر ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي ازجرهم بلسانك، وكفَّهم عن النفاق والكيد والكذب ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي قل لهم خالياً، لا يكون معهم أحد، لأنه أدعى إلى قبول النصيحة، ولذا قيل: النصيحة بين الملأ تقريع ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ مؤثراً يبلغ فيهم ويؤثر، ليكون لهم رادعاً، ولنفاقهم زاجراً.

| |
|---|
| ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾. |

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي وما أرسلنا رسولاً من الرسل، لشيء من

الأشياء ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بسبب إذنه تعالى في طاعته، وأمر الناس بأن يطيعوه ويتبعوه، لأن طاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله، و«من يطع الرسول فقد أطاع الله» ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالنفاق وعرّضوها إلى العذاب ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من ذلك، من غير تأخير، مستغفرين الله من ذنوبهم، متوسلين إليك للتنصل عن جناياتهم، ولم يزدادوا جناية بسترها بالأيمان الفاجرة ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لذنوبهم بالتوبة والإخلاص وبالغوا في التضرع ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي واستغفرتَ لهم، وإنما أتى به على طريقة الالتفات، تفخيماً لشأنه ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أن من حق الرسول، أن يقبل اعتذار التائب، وإنْ عظم جرمُه ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم، متفضلاً عليهم بالرحمة.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوربك، ولا مزيدة لتأكيد القسم(١) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يستحقون اسم الإيمان في السر والحقيقة ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أي يتحاكموا إليك، وإنما جيء بصيغة التحكيم، إيذاناً بأن اللائق بهم، أن يجعلوه حكماً بينهم، ويرضوا بحكمه، مع قطع النظر عن كونه حاكماً بأمر الله ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم من الأمور واختلط ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟﴾ عطف على مقدَّر ينساق إليه الكلام، أي فتقضي بينهم، ثم لا يجدوا ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي ضيقاً مما حكمتَ به ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه، من غير تردّد ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي ينقادوا لك انقياداً، بظاهرهم وباطنهم، يقال: سلَّم نفسه لله وأسلمها: إذا جعلها

---

(١) إن الله تعالى لما أرسل ﷺ بالدين الحق، ومنحه الحجة وأعطاه كل ما ينبغي له من الحكمة، والبراهين القاطعة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بأحسن الطرق ولم يؤمنوا مع كل هذا، فلم يبق له إلاَّ أن يُقسم لهم، فأنزل الله تعالى عليه أنواعاً من القسم، ولهذا كثرت في أوائل سور التنزيل، وفي السبع الأخير خاصة، وهذا هو السرُّ من القسم في القرآن الكريم.

خالصة له، وحكم هذه الآية باق إلى يوم القيامة، وليس مخصوصاً بالذين كانوا في عصر النبي ﷺ، فإن قضاء شريعته قضاؤه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضنا وأوجبنا عليهم، وهذه الآية متصلة بما تقدم من أمر المنافقين، وترغيبهم في الإخلاص وترك النفاق ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ كما أمرنا بني إسرائيل حين عبدوا العجل ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ كما أمرنا بني إسرائيل بالخروج من مصر ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ أي المكتوب عليهم لضعف إيمانهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم المخلصون من المؤمنين ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي ما يؤمرون من متابعة الرسول ﷺ، والانقياد إلى حكمه، ظاهراً وباطناً ﴿لَكَانَ﴾ فعلهم ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عاجلاً وآجلاً ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لهم على الحق والثواب، وأبعد لهم عن النفاق والضلال.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم﴾ أعطيناهم ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثواباً كبيراً جليلاً، لا يعرف أحد مبدأه، ولا منتهاه.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يصلون بسلوكه إلى عالم القدس، ويدخلون به جنان النعيم، وفي الأثر: «من عمل بما علم، أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم».

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ بالانقياد لأمره ونهيه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ باتباع شريعته، والرضاء بحكمه، بالانقياد التام ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المطيعون الذين علت درجتهم شرفاً وفضلاً ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بما تقصر العبارة عن تفصيله وبيانه ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للمنعم عليهم، وفي الحديث الشريف: «المرء مع من أحبَّ»[1] وقال النبي ﷺ لأبي ذرّ: «أنت مع من أحببتَ» يعني أنت تكون مع محبوبك في الآخرة. وأخرج الطبراني والضياء المقدسي وحسَّنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي، وإني أذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك، عرفتُ أنك رفعتَ مع النبيِّين، وخشيت أن لا أراك، فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئاً، حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ومن يطع الله والرسول...﴾ الآية[2]. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ الصِدِّيقُ: صيغة مبالغة بمعنى: المبالغ في الصدق، والإخلاص، في الأقوال، والأفعال، والشهداء جمع شهيد، والمراد بهم الذين بذلوا أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله، وهم المقتولون بأيدي الكفار من المسلمين، والصالحون الصارفون أعمارهم في طاعة الله، وأموالهم في مرضاته سبحانه، فالمنازل أربعة بعضها دون بعض ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ الرفيقُ: الصاحب، مأخوذ من الرفق، وهو لينُ الجانب، واللطافةُ في المعاشرة وهو كالصديق، في استواء الواحد، والجمع فيه.

---

(١) حديث «المرء مع من أحبَّ» أخرجه البخاري في الأدب ١٠/ ٤٦١ وله قصة وهي أن أعرابياً سأل النبي ﷺ متى الساعة؟ فقال: وما أعددتَ لها؟ قال: لا شيء إلاَّ أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: أنت مع من أحببتَ!! وفي رواية: «المرء مع من أحبَّ» قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت!! قال أنسٌ: «فأنا أحبُّ النبي ﷺ وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبّي إياهم» ورواه مسلم رقم ٢٦٤١ في البر.

(٢) أخرجه الطبراني، وقال المقدسي: لا أرى بإسناده بأساً، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٥.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما للمطيعين من عظم الأجر، ومزيد الهداية، والإشارة إلى فضلهم ومزيتهم ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الفضل العظيم كائن من الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بجزاء من أطاعه وبالعُصاة والمطيعين، ومن يصلح لمرافقة هؤلاء، ومن لا يصلح لمرافقة الصالحين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟
جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ
لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾
۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ
وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء، وخذوا عدتكم من السلاح، واحترزوا منهم، ولا تمكنوهم من أنفسكم ﴿فَٱنفِرُوا۟﴾ فاخرجوا إلى الجهاد ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة، جمع ثبة، وهي الجماعة من الرجال، فوق العشرة، أي انفروا جماعات متفرقة ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين جماعةً واحدة، والآية وإن نزلت في الحرب، لكن يقتضي إطلاقُ لفظها، وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها.

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب لمعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين، والمبطئون المنافقون، الذين تخلّفوا عن الجهاد، من بطّأ بمعنى أبطأ، أو ثبّطوا غيرهم كما ثبّط ابن أبيّ يوم أحد، أي وإن منكم لمن يتثاقل ويتخلف عن الجهاد ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ كقتل، وهزيمة ﴿ قَالَ﴾ أي المبطّىء فرحاً لصنعه ﴿ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ﴾ بالقعود ﴿ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي حاضراً في المعركة، فيصيبني ما أصابهم.

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ ﴾ كفتح وغنيمة كائن ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ تعالى، وفي نسبة الفضل إلى الله، دون إصابة المصيبة، تعليم لحسن الأدب مع الله تعالى ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ ندامةً على تثبيطه، وتحسراً على فواته، وقوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ اعتراضٌ بين الفعل ومفعوله، الذي هو قوله: ﴿ يَٰلَيْتَنِى ﴾ الخ، لئلا يُفهم من كلامه أن تمنّيه لمعية المؤمنين لنصرتهم، بل هو للحرص على المال ﴿ كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أي آخذ من الغنيمة حظاً وافراً، فالفوز العظيم الذي عناه، هو حطامُ الدنيا.

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قدم الظروف على الفاعل للاهتمام به ﴿ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يشرون مضارع شرى، ويكون بمعنى باع، واشترى، من الأضداد، أي فليقاتل المخلصون، الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية، الذين تركوا الدنيا واختاروا الآخرة، أُمروا بالثبات على القتال، وعدم الالتفات إلى تثبيط المبطئين ﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وهذا وعدٌ له بالأجر العظيم، سواءٌ استُشهد أو انتصر، ترغيباً في القتال، وتكذيباً لقولهم: ﴿قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ وإنما قال: ﴿ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ﴾ للتنبيه على أن المجاهد، ينبغي أن يثبت في المعركة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق، وإعزاز الدين ولا يحدّث نفسه بالهرب، ولذا لم يقل فيُغْلَبْ أو يَغْلِب.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ خطاب للمأمورين بالقتال مبالغة في التحريض ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ لكم غير مقاتلين، والمراد لا عذر لكم في ترك المقاتلة ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي وفي سبيل المستضعفين، وهو تخليصهم من الأسر، ومن أيدي الكفار. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هم المسلمون الذين بقوا بمكة، مستذلين لضعفهم عن الهجرة، وإنما ذكر الولدان، مبالغةً في الحث، وتنبيهاً على تناهي ظلم المشركين، بحيث بلغ أذاهم الصبيان، والتعبيرُ بالولدان على طريق التغليب، ليشمل الذكور والإناث .
﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالشرك، الذي هو ظلمٌ عظيم، وبأذية المؤمنين وقوله تعالى: ﴿الظالم أهلُها﴾ وصفٌ للقرية، إلا أنه أسند إلى أهلها، فَوُقِّرتْ عن نسبة الظلم إليها، تشريفاً لها، والمراد بها مكة ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمرنا، وينقذنا من أعدائنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا عليهم، كانوا يدعون الله بالإخلاص، فاستجاب الله دعاءهم حيث يسَّر لبعضهم الخروج إلى المدينة، ثم فتح مكة على يدي رسول الله ﷺ فتولاهم ونصرهم حتى صاروا أهلها. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كلامٌ مبتدأ، سيقَ لترغيب المؤمنين للقتال ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، فالله وليهم وناصرهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي الشيطان، الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ أي فقاتلوا يا أولياء الله ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي الكفار، فإنكم تغلبونهم، فشتان بين من يقاتل في سبيل الرحمٰن، ومن يقاتل في سبيل الشيطان ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه غرور، لا يؤول إلى محصول، فكيف بالقياس إلى قدرته عزَّ وجلّ؟ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ
عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا
لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي
بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ
لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ من قوم طلبوا القتال وهم بمكة، فقيل لهم: أمسكوا أيديكم وكفُّوا عن قتال المشركين، فلم يَحِنْ وقتُه، واشتغلوا بعبادة الله تعالى. قال الكلبي: إن جماعة من أصحاب الرسول ﷺ منهم عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم كانوا يلقون من مشركي مكة أذى شديداً قبل الهجرة، فيشكون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: ائذن لنا يا رسول الله في قتال هؤلاء الكفرة، فقد كنَّا في عزَّة ونحن مشركون، فلمَّا آمنَّا صرنا أذلة!! ويقول لهم الرسول ﷺ كفُّوا أيديكم فإني لم أومر بذلك(١)، فهو قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ أي كفُّوا أيديكم عن القتال ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾ واشتغلوا بما أُمرتم به، وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة، كان قبل فرض الجهاد ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ ﴾ فلما هاجروا إلى المدينة وأُمروا بالقتال، كرهه بعضهم، لكن لا شكاً في الدين، بل خوفاً من الموت، بموجب الطبيعة البشرية ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم، كما يخشون الله أن يُنزل عليهم بأسه، والمراد بهم المنافقون

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/٥٣٨.

أو ضعفاء الإيمان، ولا يصدر هذا عن صحابي كريم ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي أشد خشيةً من المؤمنين لربهم الذين هم أهل خشية الله ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ في هذا الوقت، لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى، بل على طريق تمنٍ للتخفيف ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ حذراً من الموت، والظاهر أنهم ما تفوهوا به، لكن قالوه في أنفسهم، فحكى الله عنهم، بدليل أنهم لم يوبَّخوا على هذا السؤال ﴿قُلْ﴾ تزهيداً لهم فيما يؤملونه ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي جميع ما يُستمتع به في الدنيا، تافهٌ قليل، سريع الزوال، بل أقلُّ مِنْ قليل بالنسبة إلى ما في الآخرة[1] ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي ثوابها ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من ذلك المتاع القليل وإنما قيل ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ حثاً لهم على تقوى الله ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم، والفتيلُ: هو الخيط الذي في شق النواة، وهو مثل في القلة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟﴾ في الحضر أو السفر، أو في البَرِّ أو في البحر ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الذي لأجله تكرهون القتال، وتحبون القعود عنه، وفي التعبير بالإدراك إشعار بأن القوم، لشدة تباعدهم عن أسباب الموت، كأنهم في الهرب منه، وهو مجدٌّ في طلبهم، لا يفتر لحظة عنهم إلى أن يدركهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل﴾ ولأن الحذر لا ينجي من القدر ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي في قصور أو حصون مرتفعة، والبروجُ البيوت على أطراف القصر، من تبرجت المرأة إذا ظهرت ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في المنافقين واليهود، وذلك أنهم كانوا قد بسط عليهم الرزق، فلمَّا قدم النبي ﷺ المدينة، فدعاهم إلى الإيمان وكفروا، أمسك الله عنهم بعض الإمساك، فقالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا، منذ قدم هذا الرجل ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ فالمعنى: إن تصبهم نعمة

---

(١) يدل عليه قوله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلاَّ كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ ـ يعني البحر ـ فلْينظر بمَ يَرجع» رواه مسلم.

ورخاء، نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية من جدبٍ وغلاء، أضافوها إليك متشائمين، كما حُكِيَ عن أسلافهم بقوله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يطَّيروا بموسى ومن معه﴾ الآية ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي كل واحدة من النعمة والبلية، من جهة الله تعالى، خلقاً وإيجاداً، لا خالق سواه، فهو وحده النافع الضار، أُمر ﷺ بأن يردَّ زعمهم الباطل، ويلقمهم الحجر، ببيان أن الخير والشرَّ بتقدير الله تبارك وتعالى من غير أن يكون له مدخل في وقوع شيء منهما ثم قال تعالى تقبيحاً لهم: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ اليهود والمنافقين المحتقرين ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ أي يفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ أي كلاماً يوعظون به، وهو تعيير لهم بالجهل، وتقبيحٌ لحالهم، والمعنى أيُّ شيء حصل لهؤلاء، لكَيْ يفهموا نصوص القرآن الناطقة بأن الكلَّ من عند الله تعالى؟.

ثم وضَّح تعالى الأمر فقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ الخطاب عام لكل سامع، أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان، فمن الله تعالى تفضلاً منه وكرماً، وما أصابك من بلية ومصيبة ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي فهي منها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها، وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة إليه تعالى، نازلة من عنده عقوبة، لقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيب عبداً نكبةٌ إلاَّ بذنب»[1] وهو لا ينافي قوله سبحانه ﴿قل كل من عند الله﴾ فإن الكُلَّ منه تعالى إيجاداً، غير أن الحسنة إحسان، والسيئة مجازاة وانتقام، ثم اعلم أن المراد بالحسنة والسيئة: النعمةُ والبلية، لا الطاعة والمعصية ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ بيانٌ لجلالة منصبه ﷺ، ومكانته عند الله تعالى، بعد بيان

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٢٥٢ في التفسير، ولفظه «لا يصيب عبداً نكبةٌ ـ أي مصيبة ـ فما فوقها أو دونها إلاَّ بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم قرأ ﷺ ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتْ أيديكم﴾».

بطلان زعمهم الفاسد، في حقه ﷺ أي مرسلاً لكل الناس، وفيه ردٌّ على من زعم اختصاص رسالته ﷺ بالعرب ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي حسبك أن الله تعالى شاهد على صدق نبوتك.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ أي من أطاع الرسول فقد أطاع الله، لأنه ﷺ مبلغ لأمره ونهيه، فمرجع الطاعة وعدمها هو الله سبحانه، ولمَّا قال هذا قال المنافقون: ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل؟ ينهى أن يُعبد غير الله، ثم هو يريد أن نتخذه رباً، كما اتخذت النصارى عيسى إلهاً، فنزلت لبيان أن طاعته طاعة له تعالى، لأنه مبلغ عن الله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة وأعرض عنها ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الضمير للمنافقين كما روي عن ابن عباس والحسن ﴿طَاعَةٌ﴾ أي أمرنا طاعة، ورفعُها للدلالة على الثبات ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي خرجوا من مجلسك ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي دبَّر جماعة من رؤساء المنافقين، أمراً غير الذي أمرتهم به، وهو الخلاف والعصيان لما تأمرهم به ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ أي خلاف ما قلت لهم، من طاعة الله وطاعة رسوله، والتبييتُ من البيتوتة لأن الأمور تدبَّر بالليل، ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يثبته في صحائفهم للمجازاة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي تجافَ عنهم، ولا تبال بهم وبما صنعوا، ولا تتصدَّ للانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في

الأمور كلها وفوض أمرك إليه تعالى، وثق به ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي قائماً بتدبير شؤونك، فيكفيك مضرتهم. وينتقم لك منهم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أفلا يتأملون في معانيه، ويتبصرون ما فيه؟ وفي الآية إنكارٌ واستقباحٌ لعدم تدبرهم القرآن، أي أفلا يتدبرون القرآن، ليعلموا كونه من عند الله، بمشاهدة ما فيه من الشواهد الدالة على صدق الرسول ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي القرآن ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ كما يزعمون ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع، إذ لا علم بالأمور الغيبية لغيره سبحانه، وحيث كان كلها مطابقاً للواقع، تعيَّن كونه من عند الله تعالى.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى
ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا
تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ
أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ
مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ﴾ أي المنافقين وبعض ضعفاء الإيمان ﴿أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ أي خبر من الأخبار، عن المؤمنين بالظفر والغنيمة، أو النكبة والهزيمة، ممَّا يوجب الأمن أو الخوف ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ أي أفشوه، والباء مزيدة، والكلام مسوقٌ لبيان جنايةٍ أخرى من جنايات المنافقين، وذلك أنه إذا غزت سرية من المسلمين أخبروا الناس عنها، فقالوا: أصاب المسلمون من عدوهم، كذا وكذا، فأفشوه بينهم من غير أن يكون لهم خبر، وكان إذاعتهم له مفسدة على المسلمين، يذيعونه قبل أن يتحققوا منه، فيعود

ذلك وبالاً على المؤمنين ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي ذلك الأمر الذي جاءهم ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وهم كبار الصحابة، البصراء في الأمور ﴿لَعَلِمَهُ﴾ أي لعلم تدبير ذاك الأمر الذي أخبروا به ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر أي يستخرجون علمه عن جهتهم، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر أول ما تحفر، فاستعير لما يخرجه الرجل بفضل ذكائه من المعاني، يقال: استنبط الفقيه المسألة: إذا استخرجها باجتهاده وفهمه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الخطاب للطائفة المذكورة أي لولا فضله تعالى عليكم ورحمته، بإرشادكم إلى طريق الحق الذي هو المراجعة في مظان الاشتباه إلى الرسول وإلى أولي الأمر الواقفين على أسرار الكتاب والراسخين في معرفة الأمور ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ وعملتم بآرائكم الضعيفة أو بآراء المنافقين، ولم تهتدوا إلى الصواب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم أولو الأمر، المستنيرة عقولهم بأنوار الإيمان، بواسطة الاقتباس من مشكاة النبوة، وفيه إنكار على كلٍّ من يحدث بكل ما سمع قبل تحققه، وفي الحديث الشريف: «كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكل ما سمع»[1] يعني لو لم يكن للرجل كذب، إلاّ تحدّثه بكل ما سمع، بشيء لم يعلم صدقه.

﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو جواب شرط محذوف، أي إن لم يقاتلوا وتركوك وحدك، فقاتل في سبيل الله ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي لا يضرك فخالفتهم وتقاعدهم، فتقدم إلى الجهاد، فإن الله ناصرك لا الجنود ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حثهم على القتال، ورغبهم فيه، وذكّرهم أنهم آثمون بالتخلف ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وعد منه سبحانه محقق الإنجاز، وقد كان كذلك، فقد روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى، فلما بلغ الميعاد دعا ﷺ الناس

(١) أخرجه مسلم في المقدمة ١/ ١٠ باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، وأبو داود في الأدب رقم ٤٩٩٢.

إلى الخروج فكرهه بعضهم، فنزلت فخرج ﷺ مع جماعة من أصحابه، حتى أتى موسم بدر، فكفاهم الله سبحانه بأس العدو، وألقى الله تعالى الرعب في قلب أبي سفيان، فلم يخرج ولم يكن القتال يومئذ، وانصرف ﷺ بمن معه سالمين ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾ من الذين كفروا ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ أي تعذيباً، وأشدُّ بطشاً ونكالاً، والمقصود من الجملة التهديد والتشجيع.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ﴾ الشفاعة: هي التوسط بالقول، في وصول شخص إلى منفعة من المنافع، وكون التحريض الذي فعله ﷺ من باب الشفاعة ظاهر، فإن المؤمنين تخلصوا بذلك من مضرة التثبيط، وتعيير العدو، وفازوا بالأجر الجزيل، وربحوا أموالاً جسيمة بسبب ذلك، وكان معهم أموال التجارة فباعوها، وأصابوا خيراً كثيراً ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ وهو ثواب الشفاعة، والتسبب في الخير الواقع بها ﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ﴾ هي خلاف الشفاعة الحسنة، ومنها الشفاعة في حد من حدود الله تعالى، والقصاص، ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ نصيب من وزرها، مساوٍ لها في القدر، من غير أن ينقص منه شيء، والتعبير بالكفل قيل: للتفنن، وقال بعضهم: إن الكفل غلب في الشر، فجزاء الحسنة يضاعف، وأما الكفل فهو المثلُ المساوي، فمن جاء بالسيئة لا يُجزى إلا مثلها، وفي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ مقتدراً من أقات على الشيء إذا قدر عليه، وقيل إنه المجازي أي يجازي على كل شيء.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ﴾ التحية مصدر حيّىٰ تحية وأصلُها الدعاء بالحياة وطولها، ثم استعملت في كل دعاء، وكانت العرب تقول عند اللقاء: حيَّاك الله[1]، أي أطال الله حياتك، فأبدلها الإسلام بالسلام قال الله تعالى

(١) أما التحية بقول الإنسان: أهلاً وسهلاً ومرحباً، أو كيف أصبحتم، فسنة عند لقاء الإخوان، لكن ينبغي أن يكون هذا بعد السلام.

﴿تحيتهم فيها سلام﴾ والتحيات لله أي البقاء لله، ومعنى الآية: إذا سلَّم عليكم أحد من المسلمين، فردُّوا عليه بأحسن مما سلَّم ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أي بتحية أحسن منها، بأن تقولوا «وعليكم السلام ورحمة الله» إذا اقتصر المسلم على الأول، وبأن تزيدوا «وبركاته» إن جمعها المسلم، وهي النهاية لانتظامها فنون المطالب، التي هي السلامة عن المضار، ونيل المنافع ودوامها. أخرج البيهقي عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن رجلاً سلَّم عليه، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال عروة: ما ترك لنا فضلاً، إن السلام قد انتهى إلى وبركاته ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي أجيبوها وردّوا عليه بمثل ما سلَّم، ووجوب رد التسليم على الكفاية، والدليل ما أخرجه البيهقي: «يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلّم أحدهم، ويجزىء عن الجلوس أن يردَّ أحدهم» ولو سلَّم يهودي، أو مجوسي، فلا بأس بالردّ، ولكن لا يزيد، ولا يسلم ابتداءً وعن الحسن وقتادة أنهما قالا في الآية: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ للمسلمين ﴿أو ردُّوها﴾ لأهل الكتاب(١). ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم، ومن جملتها ما أمرتم به من التحية، فحافظوا على مراعاتها، رَوَىٰ مسلم عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(٢).

---

(١) قال الفقهاء: يكره السلام في مواضع: على مصلٍّ، وتالٍ للقرآن، وذاكر لله، ومحدّث، وخطيب، ومكشوف عورة، وعلى مغنٍّ، ومتغوّط، وعلى الكافر، والفتاة الأجنبية، وحكم النساء مع النساء، كحكم الرجال مع الرجال، يسلِّم بعضهن على بعض، أما سلام الرجل على النساء، فإن كنَّ جمعاً جالسات، فيستحب أن يسلم عليهن، إذا لم يخف على نفسه أو عليهن فتنة، لما رُوي عن أسماء بنت يزيد قالت: «مرَّ علينا رسول الله ﷺ فسلَّم علينا» أخرجه أبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٤٥ ولفظه «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا. . » الحديث، ورواه أبو داود في الأدب رقم ٥١٩٣.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ ﴾ جواب قسم محذوف أي والله ليجمعنكم، والجمعُ بمعنى الحشر، ولهذا عُدّي بإلى ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ أي والله ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة، سميت القيامة لقيام الناس من قبورهم ﴿ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ ﴾ في يوم القيامة أو في الجمع ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، والمعنى: لا أحد أكثر صدقاً منه تعالى في وعده وكلامه.

﴿ ۞فَمَا لَكُمۡ ﴾ الاستفهام للإنكار، والخطاب فيه معنى التوبيخ ﴿ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ أي أيُّ شيءٍ كائن لكم في أمرهم وحالهم، تفترقون ﴿ فِئَتَيۡنِ ﴾ رُوي عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناسٌ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتان: فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول لا، فأنزل الله الآية[1]. ﴿ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم ﴾ ردَّهم إلى الكفر ﴿ بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ بسبب ما كسبوه من الارتداد ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ أي أتريدون هداية من أضلَّه الله؟ وهو توبيخ لهم على زعمهم هداية المنافقين، الذين أضلهم الله تعالى ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾ أي ومن يخلق الله فيه الضلال، كائناً من كان، فلن تجد سبيلا من السبل لهدايته وفلاحه.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٢٥٦/١ وتتمة الحديث أن النبي ﷺ قال: «إنها طيبةٌ تنفي الخَبَثَ، كما تنفي النارُ خَبَثَ الفضة».

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي ودوا أن تكفروا ﴿ كَمَا كَفَرُواْ ﴾ أي مثل كفرهم ﴿ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ أي فتكونون مستوين في الكفر ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، أي إذا كان حالهم ما ذُكر فلا توالوهم ولا تصادقوا منهم أحداً ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم، بهجرة كائنة لله تعالى، لا لغرضٍ من أغراض الدنيا ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن الإيمان والهجرة الصحيحة ﴿ فَخُذُوهُمْ ﴾ إذا قدرتم عليهم ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ من الحل والحرم، فإن حكمهم حكم سائر المشركين، أسراً وقتلاً ﴿ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي جانبوهم مجانبة كلِّية، ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرةً أبداً، كما يشعر بذلك المضارع الدال على الاستمرار والتكرير المفيد للتأكيد.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ استثناء من قوله سبحانه فخذوهم واقتلوهم، أي إلا الذبن يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم، وهم بنو مدلج، فقد رُوي عن الحسن أن «سُراقة بن مالك المدلجي» قال: لمَّا ظهر رسول الله ﷺ على أهل بدر، قال سراقة بلغني أنه ﷺ يريد أن يبعث «خالد بن الوليد» إلى قومي، من بني مدلج فأتيته، فقلتُ بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فأخذ

رسول الله ﷺ بيد خالد، فقال اذهب معه فافعل ما يريد، فصالحهم خالد، فهم الذين حالفوا رسول الله ﷺ وصالحوه[1] ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ أي أو الذين جاؤوكم كافِّين عن قتالكم وقتال قومهم، فقد استثنى تعالى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان: أحدهما من لحق بالمعاهدين، والآخر من جاء محايداً، لا يريد قتال المسلمين، ولا قتال قومه المشركين ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ والحَصَرُ الضيق والانقباض ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي من أن يقاتلوكم وهم «بنو مدلج» وكانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين، ولا يريدون قتال المشركين لأنهم أقاربهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ببسط أيديهم، وتقوية قلوبهم، وإزالة الرعب عنها ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ ببسط ذلك ولم يكفوا عنكم، والمقصود من ذلك الامتنان على المؤمنين ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله تعالى ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الصلح، فانقادوا واستسلموا ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقاً، أي فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم، بالأسر أو بالقتل.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ بالوفاق، وهم أناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياءً، ثم يرجعون إلى كفار قريش فيرتكسون إلى الأوثان، ليأمنوا المسلمين، وليأمنوا قومهم، وهم قوم من أسد، وغطفان، وبنو عبد الدار ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي دعوا إلى الكفر وقتال المسلمين ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ أي قُلبوا فيها أقبح قلب، وكانوا فيها شراً من كل عدوّ وشرير ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ بالكف عن التعرض لكم بوجهٍ ما ﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي لم يلقوا إليكم الصلح ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي ولم يكفوا أنفسهم عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾

---

(١) انظر القصة في تفسير ابن كثير ٥٤٦/١ وفي القصة: فصالحهم خالد على أن لا يُعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريشٌ أسلموا معهم، فنزلت ﴿إلاّ الذين يصلون إلى قوم﴾ الآية.

أي تمكنتم منهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ حجة واضحة في أخذهم وقتلهم لظهور عداوتهم، ووضوح كفرهم وخباثتهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا (٩٢) وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا (٩٣)﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ﴾ أي ما صحَّ له وليس من شأنه ﴿أَن يَقۡتُلَ﴾ بغير حق ﴿مُؤۡمِنًا﴾ فإن الإيمان زاجرٌ عن العدوان ﴿إِلَّا خَطَـٔٗاۚ﴾ أي إلا على وجه الخطأ، فإنه ربما يقع دون قصد ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ أي فعليه إعتاق نسمة لوجه الله تعالى، عبّر عن الكل بالجزء ﴿مُّؤۡمِنَةٖ﴾ محكوم بإيمانها وإن كانت صغيرة ﴿وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ أي مؤداة إلى ورثته، يقتسمونها كسائر المواريث، والديةُ على العاقلة، والكفارة على القاتل ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ أي إلا أن يتصدق أهله عليه فيسقطوا الدية، سُمي العفو عنها صدقة، حثاً عليه، وتنبيهاً على فضله ﴿فَإِن كَانَ﴾ أي المقتول خطأً ﴿مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾ كفار محاربين ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ ولم يعلم به القاتل، لكونه بين أظهر قومه ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ أي فعلى قاتله الكفارة، دون الدية: إذ لا وراثة بينه وبين أهله، لأنهم محاربون، فتجب الكفارة للعصمة وهي الإسلام، ولا تجب الدية لئلا يستعينوا بها على المسلمين ﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول المؤمن ﴿مِن

﴿قَوْمٍ﴾ كفرة ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي عهد موثق ﴿فَدِيَةٌ﴾ أي فعلى قاتله دية ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ من أهل الإسلام إن وُجدوا وقيل: إلى أهله الكافرين للعهد، واستدل بالآية على أن دية الذمي كدية المسلم ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كما هو حكم سائر المسلمين، وكونه فيما بين المعاهدين، لا يمنع وجوب الدية، وهذا منتهى العدالة والاعتراف بالمواثيق والعهود ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي رقبة ليحررها، أو لم يجد الثمن ﴿فَصِيَامُ﴾ فعليه صيام ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ لم يتخلل بين أيامها إفطار، ولو أفطر يوماً ولو بعذر، كالمرض والسفر، استأنفه لانقطاع التتابع بالفطر، والعذرُ يمكن الاحتراز عنه، لأنه قد يجد شهرين لا عذر فيهما ﴿تَوْبَةً﴾ أي شرع لكم ذلك توبة أي قبولاً لها، وفيه إشارة إلى التقصير بترك الاحتياط ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي توبة كائنة من الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بجميع الأشياء ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما شرع وقضى من الشرائع والأحكام.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ لمَّا بين الله تعالى حكم القتل خطأ، عقَّب ذلك ببيان القتل عمداً، واقتصر ههنا على حكمه الأخروي ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ أي قاصداً قتله عالماً بإيمانه ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ الذي يستحقه بجنايته ﴿جَهَنَّمُ﴾ وقوله تعالى ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ حال كأنه قيل: فجزاؤه أن يدخل جهنم خالداً فيها أي ماكثاً طويلاً إلى حيث شاء الله تعالى ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي انتقم منه ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ أي أبعده عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾ في جهنم ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدرُه، لارتكابه أمراً عظيماً، ففي الحديث الشريف «كل ذنب عسى الله تعالى أن يغفره، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»[(١)] وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على دم امرىء مسلم بشطر كلمة، كُتِبَ بين عينيه يوم القيامة، آيسٌ من رحمة

---

(١) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم رقم ٤٢٧٠ ورواه النسائي ٧/ ٨١ وهو حديث حسن.

الله»[1] تمسكت الخوارج والمعتزلة بهذه الآية، في خلود من قتل المؤمن عمداً في النار، وأجاب بعض المحققين، بأن ذلك خارج مخرج التغليظ في الزجر، فقول المعتزلة بالخروج من الإيمان يخالف قوله تعالى: ﴿كتب عليكمُ القصاص في القتلى﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ شروع في التحذير عما يوجب الندم، من قتل من لا ينبغي قتله، ومن قلة المبالاة في الأمور ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي سافرتم للغزو على ما يدل عليه السباق والسياق والضرب كناية عن الإسراع في السير ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾[2] أي فاطلبوا بيان الأمر، ولا تتعجلوا فيه بغير تدبر، وتحققوا ليتبين لكم المؤمن، من الكافر ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ

(١) أخرجه ابن عدي والبيهقي، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٨.

(٢) روى أحمد والترمذي عن ابن عباس قال: مرَّ رجل من بني سُليم على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم له، فسلَّم عليهم، قالوا: ما سلَّم عليكم إلا ليتعوذ منكم ـ أي ليتخلص منكم ـ فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله. . .﴾ الآية، سنن الترمذي ٥/ ٢٢٤. وروىٰ السدي أن رسول الله ﷺ بعث سرية عليها أسامة بن زيد إلى بني سُليم، فلقوا رجلاً منهم مع غنم له، فأقبل عليهم فقال: السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فشدَّ عليه أسامة فقتله واستاق غنمه، فأخبروا رسول الله ﷺ فحزن حزناً شديداً وقال: قتلوه من أجل الغنم، فقال أسامة: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السيف، فقال ﷺ: هلاَّ شققت عن قلبه!! الحديث.

﴿إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ لمن حيّاكم بتحية الإسلام، والمعنى: ولا تقولوا لمن أظهر لكم ما يدلُّ على إسلامه، أو لمن ألقى إليكم الاستسلامَ والانقيادَ ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وإنما فعلتَ ذلك خوف القتل، بل اقبلوا منه ما أظهره، وعاملوه بموجبه، والاقتصارُ على ذكر تحية الإسلام، للمبالغة في النهي والزجر، والتنبيه على كمال ظهور خطئهم، ببيان أن تحية الإسلام، كانت كافية في الانزجار عن التعرض لصاحبها، فكيف وهي مقرونة بكلمة الشهادة؟ ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تطلبون ماله، الذي هو حطام الدنيا السريع النفاد ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تعليل للنهي، أي فعند الله مغانم كثيرة تغنيكم عن قتل أمثاله لأخذ ماله ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي أول ما دخلتم في الإسلام، تفوهتم بكلمتي الشهادة، فحصَّنتم بها دماءكم وأموالكم، فمنَّ الله عليكم بالإيمان، فقيسوا حاله على حالكم ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ فاطلبوا بيان هذا الأمر، وافعلوا به ما فعل بكم في أوائل أموركم، من قبول ظاهر الحال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفيتها ﴿خَبِيرًا﴾ مطلعاً أتم اطلاع، فيجازيكم بحسب ذلك، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجاتهم في الجهاد، روى البخاري عن ابن عباس: هم القاعدون عن بدر، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفائدة التقييد الإيذان بعدم إخلال وصف القعود بإيمانهم، والإشعار بعلة استحقاقهم لما سيأتي من الحسنى ﴿غَيْرُ أُو۟لِى

﴿ٱلضَّرَرِ﴾ الضررُ: المرضُ، والعِللُ التي لا سبيل معها إلى الجهاد، كالعمى، والزمانة، أو نحوهما، وفي معناها العجز عن الأهبة ﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمته ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ إنفاقاً فيما يوهن كيد الأعداء ﴿وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ حملاً لها على الكفاح عند اللقاء ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ في سبيله ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ من المؤمنين غير أولي الضرر ﴿دَرَجَةٗۚ﴾ لا يقادر قدرها، وهذا التصريح بما أفهمه نفى المساواة فإنه يستلزم التفضيل، ودرجةً منصوب على المصدر لتضمنها التفضيل، كأنه قيل: فضَّلهم تفضيله واللائق بهم ﴿وَكُلّٗا﴾ أي وكل واحد من الفريقين: المجاهدين، والقاعدين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المثوبة ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ وهي الجنة، والجملة اعتراضٌ جيء به تداركاً لما عسى يوهمه تفضيل أحدهما على الآخر، من حرمان المفضول، وإنما التفاضل في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ مصدر مؤكد أي أجراً لأعمالهم. ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بدل من أجراً بدل الكل، مبين لكمية التفضيل أي درجات كائنة ﴿مِّنۡهُ﴾ تعالى ﴿وَمَغۡفِرَةٗ﴾ أي ومغفرة عظيمة ﴿وَرَحۡمَةٗۚ﴾ أي ورحمة واسعة، كرَّر تفضيل المجاهدين وبالغ فيه، تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه، والمراد بالتفضيل الأول، ما خوَّلهم الله عاجلاً في الدنيا من الظفر والغنيمة، والذكر الجميل، وبالثاني ما أنعم الله عليهم في الآخرة، من الدرجات العالية، هذا حكمُ ما بين المجاهدين وبين القاعدين، وأما أولو الضرر فهم مساوون للمجاهدين في الأجر والمنزلة، لما رواه مسلم عن جابر قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فقال: إنَّ بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، حَبَسهمُ المرضُ»(1)

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة رقم ١٩١١ وأخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ٣٤ بلفظ «إن قوماً خلفنا بالمدينة، ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً، إلاَّ وهم معنا، حبسهم العذرُ» وزاد في رواية أبي داود: قالوا يا رسول الله: وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذرُ».

واحتج بالآية من فضَّل الغنى على الفقر، بناءً على أنه سبحانه فضَّل المجاهدين بأموالهم على القاعدين، وقدَّمهم على المجاهدين بأنفسهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر الذنوب، ويرحم العباد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ بيان لحال القاعدين عن الهجرة، إثر بيان حال القاعدين عن الجهاد ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ التوفي هنا قبض الروح، والمراد من الملائكة ملكُ الموت وأعوانه، وقيل: المراد به مَلَك الموت فقط، وهو من باب إطلاق الكل وإرادة البعض، والتحقيق أنه لا مانع من نسبة التوفي إلى الله تعالى، وإلى ملك الموت وإلى أعوانه، وفي القرآن الكريم: ﴿الله يتوفى الأنفسَ﴾ و﴿قُل يتوفاكم مَلَكُ الموتِ﴾ و﴿توفَّتْهُ رُسُلُنا﴾ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة، واختيار مجاورة الكفار، ولمَّا خرج المشركون إلى بدر، خرجوا معهم، فقتلوا مع الكفار، فنزلت الآية في حقهم ﴿قَالُوا۟﴾ أي الملائكة للمتوفَّينْ لتقاعدهم عن نصرة الله ورسوله ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي في أيِّ شيء كنتم من أمر دينكم؟ ﴿قَالُوا۟﴾ متعللين بما يوجب التقصير ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي في أرض مكة، عاجزين عن القيام بواجب الدين، فأخرجونا كارهين ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الملائكة تكذيباً لهم، وإبطالاً لتعللهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾؟ إلى بلدٍ آخر منها تقدرون فيه على إقامة الدين، كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة، فأكذبهم الله تعالى، فقد كانوا متمكنين من المهاجرة والخروج في سبيل الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين

شرحت حالهم الفظيعة ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ أي مسكنهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ لتركهم الفريضة المحتومة، فقد كانت الهجرة واجبة في صدر الإسلام أو لنفاقهم ونصرتهم أعداء الله تعالى على خير أحباء الله عزَّ وجل ﴿وَسَآءَتْ﴾ أي بئست جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ أي مصيرهم ومسكنهم، وفي الآية إشارة إلى وجوب المهاجرة، من موضعٍ لا يتمكن الرجل من إقامة دينه، بأي سبب كان.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ استثناء منقطع، أي إلا الذين عجزوا عن الهجرة وضعفوا ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي لكنْ من كان منهم عاجزاً مستضعفاً كالرجال المسنين، والنساء والأطفال الصغار، والمراد التسوية بين هؤلاء في عدم الإثم والتكليف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة وما يتوقف عليه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ واهتداء السبيل معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المستضعفين ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ذكر بكلمة الإطماع، ولفظِ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن، ويترصد الفرصة، ويجب طلب العفو، رجاءً وطمعاً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ لعباده، يعفو ويغفر لأهل الأعذار، وقد كان ﷺ يدعو للضعفاء الذين منعهم المشركون من الهجرة فيقول في دعائه: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعيَّاش بن ربيعة المستضعفين بمكة، قال ابن عباس: «كنتُ أنا وأبي، ممن عَذر الله تعالى، يعني من المستضعفين»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٢٥٥ قال ابن حجر: أراد بذلك حكاية الآية: ﴿والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ فهو من الولدان، وأمُّه من المستضعفين.

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ترغيب في المهاجرة، وتأنيس لها ﴿ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا ﴾ أي يجد فيها متحولاً ومهاجراً، وإنما عبَّر عنه بذلك، تأكيداً للترغيب، لما فيه من الإشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجرهم، والرغم: الذلُّ والهوانُ، وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب ﴿ وَسَعَةً ﴾ أي في الرزق، وإظهار الدين، فأرض الله واسعة، ورزقه وافر سابغ على العباد ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي قبل أن يصل المقصد، وإن كل ذلك خارج بابه، كما ينبىء عنه إيثار الخروج على المهاجرة ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي ثبت أجره عند الله، ثبوت الأمر الواجب، بوعد الله تعالى، وهو تأكيد للوعد، فلا شيء يجب على الله لأحد من خلقه، وفي الشرطين دلالة، على أن المهاجر له إحدى الحسنين: إما أن يُرغم أنف أعداء الله تعالى، بالوصول إلى الخير والسعة، وإما أن يدركه الموت ويصل إلى السعادة الحقيقية، والنعيم الدائم، وكلُّ هجرة في غرضٍ ديني، من طلب علم، أو حج، أو جهاد، أو نحو ذلك، فهي هجرة إلى الله عزَّ وجل لحديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١) ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ مبالغاً في المغفرة، فيغفر له ما فرط

---

(١) أخرجه الشيخان البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو حديث مشهور.

منكم من الذنوب، التي من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت العودة ﴿رَّحِيمًا﴾ مبالغاً في الرحمة، فيرحمه بإكمال ثواب هجرته ونيته.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي إذا سافرتم أيَّ سفر كان، ولذلك لم يقيّده بما قيّد به الهجرة، والمراد من الأرض ما يشمل البر والبحر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي حرج ومأثم ﴿أَن تَقْصُرُوا۟﴾ أي في أن تقصروا، ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي فليس عليكم جناح في أن تقصروا بعض الصلاة، بتنصيفها، وظاهر الآية الكريمة التخيير، وبه تعلق الشافعي، وعند أبي حنيفة ومالك يجب القصر، وهو قول عمر، وعلي، وابن عباس، أخرج النسائي وابن ماجه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «صلاةُ السفر ركعتان، تمامٌ غيرُ قصر، على لسان نبيكم ﷺ»[1] وروى الشيخان عن عائشة أنها قالت: «أولُ ما فرض الله تعالى الصلاة ركعتين، ركعتين، فأُقِرَّت في السفر، وزيدت في الحضر»[2] وروده بنفي الجُناح، لأنهم ألفوا الإتمام، فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أنَّ عليهم نقصاناً، فصرَّح بنفي الجناح لِتَطِيبَ نفوسهم، وتطمئن إليه كما في قوله تعالى: ﴿فمن حجَّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما﴾ مع أن ذلك الطواف واجب ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي إن خشيتم أن يقصدكم الكفار بقتل أو جراح وأنتم في الصلاة، وجواب الشرط محذوف، لدلالة ما قبله عليه، أي إن خفتم أن يتعرضوا لكم ما تكرهونه، فليس عليكم جناح الخ وهو شرط معتبر في شرعية صلاة الخوف، أما في حق مطلق التقصير، فلا اعتبار اتفاقاً، لتظاهر السنن على مشروعيته في حالة الأمن أيضاً، لما رُوي عن يعلى بن أمية أنه قال: قلتُ لعمر بن الخطاب إنما قال الله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم﴾ فقد أمن الناسُ، فقال عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألتُ رسول الله ﷺ عن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الصلاة رقم /١٠٥٠/ وأخرجه النسائي أيضاً.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب قصر الصلاة ٢/٥٦٩ من فتح الباري.

ذلك، فقال: «صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»[1] يعني القصر في السفر مع الأمن. وهذا تيسير من الله على عباده، في قصر الصلاة في السفر، سواء كان الناس في خوفٍ أو أمن، والقصر ثابت بهذه الآية في حال الخوف خاصة، وأمَّا في حال الأمن فبالسنة المطهرة، لما تقدم من حديث يعلى بن أمية، ولما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «سافر رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، لا يخاف إلا الله، فصلَّى الرباعية ركعتين». وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ هو كالتعليل لقصر الصلاة، فإنَّ كمال العداوة من موجبات تعرضهم للخطر، واشتغالهم بالصلاة مظنة لوقوعهم في الفتنة، والمعنى: إن الكافرين أعداء لكم، ظاهرو العداوة، ولا يمنعهم فرصة اشتغالكم بعبادة الله أن يقتلوكم، لأنهم أعداء لكم ألداء، فخذوا حذركم منهم، وقد خفَّف الله عنكم الصلاة، فصلُّوا كما علَّمكم الله.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح الآثار مسنداً إلى يعلى بن أمية، ورواه ابن ماجه في كتاب الصلاة رقم ١٠٥١ عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلتُ: ﴿ليس عليكم جناح﴾ فذكره.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ولا يخفى أن الأئمة بعده نوابه، فيتناولهم الحكم الوارد في حقه عليه الصلاة والسلام، أي وإذا كنت يا محمد مع هؤلاء المؤمنين الخائفين في المعركة، وأردت أن تقيم بهم الصلاة ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أي فاجعلهم طائفتين، طائفة تصلي معك وهم مدجّجون بالسلاح، وطائفة أخرى تقف بإزاء العدو ليحرسوكم منهم، وإنما لم يصرّح بالطائفة الثانية لظهورها ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي ولتأخذ هذه الطائفة القائمة معك أسلحتهم، فلا يضعوها ولا يلقوها، بل تكون مصاحبة لهم، تحرساً من العدوان.. أخرج أبو داود والنسائي عن ثعلبة بن زهدم قال: «كنّا مع سعيد بن العاص بطبرستان، فقام فقال: أيكم صلّى مع رسول الله صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا، فصلّى بهؤلاء ركعة، وبهؤلاء ركعة، ثم لم يقضوا»[1] وكان هذا بمحضرٍ من الصحابة، ولم ينكره أحد ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي القائمين معك وأتموا الركعة ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي فلينصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ وهي الطائفة الواقفة تجاه العدو، ونكَّرها لأنها لم تذكر قبل ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ الركعة الباقية، ولم يبين في الآية الكريمة حال الركعة الباقية من الطائفتين، وقد بين ذلك بالسنة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الأولى ركعة، وبالثانية ركعة كما في الآية، فجاءت الطائفة الأولى وذهبت الأخرى إلى مقابلة العدو، حتى قضت الأولى الركعة الثانية، بلا قراءة وسلموا، ثم جاءت الأخرى وقضوا الركعة الأولى بقراءة، حتى صار لكل طائفة ركعتان، وهذا ما ذهب إليه إمامنا الأعظم وإنما سقطت القراءة عن الطائفة الأولى في الركعة الثانية لأنهم في حكم المتابعة ولا كذلك

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة رقم ١٢٤٦ والنسائي في صلاة الخوف ١٦٧/٣ قال أبو داود: وروى بعضهم أنهم قضوا ركعة، وانظر الروايات في جامع الأصول ٥/ ٧٤٤.

الطائفة الأخرى لأنهم في الركعة الأولى لم يكونوا مقتدين بالإمام، وذهب بعضهم إلى أن صلاة الخوف ركعة ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ﴾ الطائفة الأخرى ﴿حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ولعلَّ زيادة الأمر بالحذر في هذه المرة، لكونها مظنةً لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي ﷺ في شغل، وأما قبلها فربما يظنون أنهم قائمون للحرب ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي تمنوا أن ينالوا منكم غِرَّة وينتهزوا فرصة، فيشدّوا عليكم شدَّةً واحدة، وهذا الأمر للوجوب لقوله تعالى ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ حيث رخص لهم في وضعها، إذا ثقل عليهم حملها، بسبب مطرٍ أو مرض، وأمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقيل ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ لئلا يهجم العدو عليكم غيلة أي بعد إلقاء السلاح للعذر، وفيه دلالة على وجوب الحذر، عن جميع المضار المظنونة، كالاحتراز عن الوباء والأمراض المعدية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر، بعد الأمر بالحزم، ليقوي قلوبهم وليعلموا أن الواجب أن يحافظوا على ضرورة التيقظ والتدبر، ويعلموا أن التحرز في نفسه عبادة.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي صلاة الخوف إذا أديتموها على الوجه المبيّن، وفرغتم منها ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أي فداوموا على ذكر الله تعالى، ومناجاته ودعائه، في جميع الأحوال، حتى في حال القتال، كما في قوله تعالى: ﴿إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[1] وقيل في معنى الآية: إذا أردتم الصلاة، فصلُّوا قياماً، وقعوداً إن عجزتم عن القيام، ومضطجعين إن عجزتم عن القعود، ولا يخفى أن حمل الآية على ذلك في غاية البعد، لأن حمل لفظ الذكر على الصلاة مجاز، فلا يُصار إليه إلا لضرورة ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي أقمتم كما قال قتادة ومجاهد، ولما كان الضرب كني به عن السفر، ناسب أن

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٥.

يكنى بالاطمئنان عن الإقامة، وأصل الاطمئنان السكون والاستقرار، أي إذا سكنتم عن السفر، واستقررتم في أمصاركم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدُّوا الصلاة التي دخل وقتها وأتموها، وعدّلوا أركانها، وراعوا شروطها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ مكتوباً محدوداً بأوقات معلومة، لا يجوز إخراجها عن أوقاتها.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب الكفار بالقتال، والتعرض لهم ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ تشجيع لهم أي ليس ما تجدون من الألم بالجراح، والقتل، مختصاً بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم، يصيبهم كما يصيبكم، فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم، مع أنكم أجدر منهم بالصبر، لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون من الثواب في الآخرة، لأنهم لا يعتقدون بالجزاء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فيعلم أعمالكم وضمائركم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر وينهى، فجدُّوا في الامتثال، فإن فيه عواقب حميدة وفوزاً بالمطلوب.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني إنَّا أنزلنا إليك القرآن لبيان الحق أو ملتبساً بالحق ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ برهم وفاجرهم ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي بما عرَّفك وأوحى به إليك ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي مخاصماً، نزلت في «طُعْمَة بنِ أُبَيْرق» سَرَق درعاً من جاره قتادة بن النعمان، في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخبأها عند «زيد اليهودي» فالتمست الدرع عند طُعْمة فلم توجد، وحلف ما أخذها، وما له بها علم، فتركوه، واتَّبعوا أثر الدقيق، حتى انتهى إلى منزل اليهودي، فأخذوها، فقال دفعها إليَّ «طُعْمة» وشهد له ناس من اليهود، فقال قوم طُعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فاسألوه أن يجادل عن صاحبهم «طعمة» فهمَّ النبي ﷺ أن يعينهم، لأن طعمة في الظاهر من المسلمين، وقومه شهدوا ببراءته فنزلت الآية ثم قال تعالى:

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي استغفر الله تعالى ممَّا هممت به، تعويلاً على شهادتهم، وليس في الآية ما يدل على وقوع ذنب حتى يستغفر منه ولكنْ لعظمته، ومقامه المحمود، يوشك أن يكون كالذنب، فلا متمسك بالأمر بالاستغفار في عدم العصمة، كما زعمه البعض، وقيل: المراد واستغفر لأولئك الذين برَّؤوا ذلك الخائن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إن الله كان مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره، روي أن طعمة هرب إلى مكة وارتد، ونقب حائطاً لأجل السرقة فسقط الحائط عليه ومات.

﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي يخونونها، وجعلت خيانة الغير خيانة لأنفسهم، لأن وبالها وضررها عائد عليهم، ويحتمل أنه جعلت المعصية خيانة، فمعنى يختانون أنفسهم يظلمونها باكتساب المعاصي، والمراد طعمة ومن عاونه ببراءته من قومه، فإنهم شركاء في الإثم والخيانة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ كثير الخيانة، مفرطاً فيها، ومصرّاً عليها ﴿ أَثِيمًا﴾ منهمكاً فيها، وصيغة المبالغة لبيان إفراطهم في الخيانة والإثم،

فإن قيل لم قيل: ﴿خوَّاناً﴾ مع أنَّ طعمة صدر عنه خيانة واحدة؟ قلنا: علم الله أنه كان فيه خيانة كثيرة، فلذلك جاء بصيغة المبالغة، روي أن عمر رضي الله عنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكي وتقول: هذه أول سرقة سرقها، فاعفُ عنه، فقال: كذبتِ، إن الله تعالى لا يؤاخذ في أول مرة!!.

﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يستترون منهم حياءً وخوفاً ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يستحيون منه سبحانه، وهو أحق أن يُسْتحيَىٰ منه، ويُخاف من عقابه، وإنما فسّر الاستخفاء بالاستحياء، لأن الاستتار منه تعالى محالٌ، فلا فائدة لنفيه ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ عالم بهم وبأحوالهم، فلا طريق إلى الاستخفاء منه سوى ترك ما يؤاخذ به، وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية ﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ﴾ أي يدبّرون ويزوّرون ﴿مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ من رمي البريء، وشهادة الزور، ولعلهم اجتمعوا في الليل، ورتَّبوا كيفية المكر، فسمى الله تعالى كلامهم ذلك، بالقول المبيَّت الذي لا يرضاه سبحانه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والخافية ﴿مُحِيطًا﴾ لا يعزب عنه شيء منها ولا يفوته، بل هو سبحانه مطلع على الخفايا والنوايا.

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خطابٌ لقوم طعمة، أي ها أنتم يا معشر القوم ﴿ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي خاصمتم عن طعمة وأمثاله في الدنيا ﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؟ عند تعذيبهم، ومن يدفع عنهم إذا أخذهم الله بعقابه؟ ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾؟ حافظاً من بأس الله تعالى وعقابه؟ والاستفهام في الموضعين للنفي أي لا أحد يجادل عنهم، ولا أحد يكون عليهم وكيلاً.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ قبيحاً يسوء به غيره، كما فعل «طعمة» ﴿ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ أي يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ بالتوبة الصادقة، ولو قبل الموت بيسير ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا ﴾ لما استغفره منه كائناً ما كان ﴿ رَّحِيمًا ﴾ متفضلاً عليه، وفيه مزيد ترغيب في التوبة والاستغفار.

﴿ وَمَن يَكْسِبْ ﴾ أي يفعل ﴿ إِثْمًا ﴾ ذنباً من الذنوب ﴿ فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ بحيث لا يتعدى ضرره إلى غيرها، فليحترز عن تعريضها للعقاب عاجلاً أو آجلاً ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ مبالغاً في العلم ﴿ حَكِيمًا ﴾ مراعياً للحكمة ومن ذلك أن لا تحمل وازرة وزر أخرى.

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً ﴾ أي صغيرة، أو ما لا عمد فيه من الذنوب ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ أي كبيرة، أو ما كان عن عمد ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ ﴾ أي يقذف به ﴿ بَرِيٓـًٔا ﴾ مما رماه به، كما فعل طُعمة باليهودي ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلَ ﴾ أي بما فعله من تحميل جريمته على البريء ﴿ بُهْتَٰنًا ﴾ هو الكذب الذي يتحير في عظمته ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي جرماً وذنباً فاحشاً.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بإعلام الله لك بالوحي ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي من الذين دافعوا بالباطل عن طعمة ﴿ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ أي بأن يضلوك عن القضاء بالحق ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي وبال إضلالهم راجع إليهم ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾ فإن الله عصمك، وما خطر

ببالك كان اعتماداً منك على أقوالهم، لا ميلاً عن الحكم ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن الجامع بين العنوانين، وقيل: المراد بالحكمة السنة ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ بالوحي أمور الدين، وأحكام الشرع ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من الشرائع والأمور الغيبيّة ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة العامة، والرياسة التامة، والشفاعة العظمى، وهذا أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل، لأن الفضل العظيم كان بتعليم العلم.

> ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ الضمير للناس والنجوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة أو اثنان يقال ناجيته أي ساررته، والاسمُ النجوى، وتكون بمعنى التناجي، ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي لكنْ في نجوى من أمر بصدقة ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو كل ما عرفه الشرع، واستحسنه، فيشمل جميع أصناف البر كإغاثة ملهوف، وإرشاد ضال وغير ذلك ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عند وقوع المعاداة بينهم، من غير أن يجاوز في ذلك حدود الشرع، نعم أبيح الكذب لضرورة الإصلاح كما جاء في الحديث الشريف: «ليس الكذَّابُ الذي يُصلح بين الناس»[1] وعن أبي الدرداء قال: قال ﷺ:

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٥/٢٢٠ ومسلم رقم ٢٦٠٥ وتتمته: «يصلح بين الناس فيقول خيراً، أو ينمي خيراً» أي ينقل كلاماً فيه خير وهو غير صادق فيه.

«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاحُ ذات البين»[1] ولا يخفى أن هذا ونحوه مُخْرَجٌ مَخْرَجَ الترغيب، وليس المراد ظاهره، إلا أن يكون إصلاحاً، يترتب على عدمه شر عظيم بين الناس ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أي المذكور من الصدقة، وعمل الخير، والإصلاح بين الناس ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أي لأجل طلب رضاء الله تعالى، والتقييد به لأن الأعمال بالنيات، وأن من فعل خيراً لغير ذلك، لم يستحق به غير الحرمان ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يحيط به نطاق الوصف.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي يخالفه والتعرض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعة ما اجترؤوا عليه من المشاقة ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ ظهر له الحق، قال الزجاج: والآية نزلت في «طُعمة» لمَّا ارتد بعد أن أسلم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي غير ما هم عليه من عقد، وعمل، وهو الدين القيّم ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ أي نجلعه والياً لما تولاه من الضلال، بأن نخلي بينه وبين ما اختاره في الدنيا ﴿ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ﴾ في العقبى أي ندخله إياها ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي جهنم، والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه تعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقَّة، واتباع غير سبيل المؤمنين، لحرمة كل واحد منهما[2].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ كرر للتأكيد، وخص هذا الموضع به ليكون كالتكميل لقصة من سبق، بذكر الوعد بعد

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٩١٩ والترمذي في صفة القيامة رقم ٢٥١١ قال الترمذي: صحيح، وتتمَّته: «فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».

(٢) جعل تعالى اتِّباع غير طريق المؤمنين ضلالاً، لأن هذه الأمة المحمدية معصومة بمجموعها، لا بأفرادها، كما قال ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» فدلَّ ذلك على لزوم الجماعة، وسلوك طريق المؤمنين «وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» كما جاء في الحديث الشريف!!.

ذكر الوعيد ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ شيئاً من الشرك أو أحداً من الخلقِ مع الله تعالى ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ عن الحق، وإنما جعل الجزاء ههنا ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وفيما تقدم ﴿فقد افترى﴾ لما أن تلك كانت في أهل الكتاب، وهم مطلعون من كتبهم على صحة أمر الرسول ﷺ ومع ذلك كفروا، فصار ذلك افتراءً واختلاقاً على الله تعالى، وهذه الآية في أناس لم يعلموا كتاباً، ولا عرفوا من قبلُ وحياً، فأشركوا وضلوا مع وضوح الحجة، وكان ضلالهم بعيداً.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي ما يعبدون من دونه عزَّ وجل ﴿ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ جمع أنثى، كاللات، والعُزَّىٰ ومناة، ونحوها، وكان لكل حي صنم يعبدونه، ويسمونه أنثى بني فلان لأنها كانت جمادات، والجمادات تؤنث؛ ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفرط حماقتهم، وقيل: المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله ويقولون في أصنامهم هنَّ بنات الله وكانوا يجعلون عليها أنواع الحلي ويزينونها على هيئة النِّسوة، وقيل سماها الله تعالى إناثاً لضعفها وقلة خيرها ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ أي وما يعبدون ﴿ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أي شيطاناً طاغياً متمرداً، بلغ الغاية في العتو والفجور هو الذي أغواهم على عبادتها، فكانت طاعتهم له عبادة، والمريد والمارد هو العاري عن الخير.

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي طرده وأبعده عن رحمته ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي شيطاناً مريداً، جامعاً بين الفجور، وبين لعنة الله، وقد

أقسم على أن يضل البشر، ويجعل منهم حظاً مقدراً معلوماً من أتباعه المجرمين[1].

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ عن الحق بالدعاء إلى الضلالة ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ الأماني الباطلة ويقول لهم ليس وراءكم بعثٌ ولا نشر، ولا جنة ولا نار، فافعلوا ما شئتم ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ ﴾ بالتبتيك ﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ أي فليقطعنَّها وليشقنها بموجب أمري، وهذا إشارة إلى ما كانت الجاهلية تفعله، من شق أو قطع أذن الناقة، إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وتحريم ركوبها والحمل عليها، وسائر وجوه الانتفاع بها ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ ﴾ ممتثلين بلا ريث ﴿ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ عن نهجه صورةً أو صفة، ويندرج فيه خصاءُ العبيد، والوشمُ، والوشرُ، اللواطة، والسحاق، ونحو ذلك، وخُصَّ من تغيير خلق الله، الختان، والوشم لحاجة، وقصُّ ما زاد من اللحية ونحو ذلك ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بإيثار ما يدعو إليه، على ما أمر الله تعالى به، ومجاوزته عن طاعة الله إلى طاعته ﴿ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ أي ظاهراً وأيُّ خسرانٍ أعظم من أن يضيع رأس ماله، ويبدل مكانه من الجنة، بمكانه من النار.

﴿ يَعِدُهُمْ ﴾ أي ما لا يكاد ينجزه ﴿ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ الأماني الفارغة وما لا ينالون ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة، أو بلسان أوليائه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الشيطان وأولياء الشيطان ﴿ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مرجعهم ومستقرهم جهنم ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ أي معدلاً ومهرباً، وهو اسم مكان من حاصَ يحيص إذا عدل وولَّى، ومنه: «وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ» أي في أمرٍ يعسر التخلص منه، أي مالهم من معدلٍ يلجأون إليه.

(١) هذا النصيب من أتباع الشيطان هم بعث النار، كما جاء في الحديث الصحيح، يقول الله عزَّ وجل لآدم يوم القيامة: «يا آدمُ أخرجْ بعثَ النار من ذريتك!! قال يا ربِّ وما بعثُ النار؟ ـ أي ما مقداره وما عدده؟ ـ فيقول: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون. . .» الحديث أخرجه مسلم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يتبع الشيطان وإخوانه ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ وهذا وعد إثر وعيد الكافرين، وإنما قرنهما زيادةً لمسرة هؤلاء، ومساءة أولئك ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ وعدُ الله ذلك الذي ذكره وعد حق لا شك فيه ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ أي قولا جملة بليغة مؤكدة، والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، ترغيباً للعباد في تحصيله، والقيلُ: مصدرٌ كالقول، والقال، وقال ابن السكيت: القيلُ والقالُ اسمان لا مصدران.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب ينال بأمانيكم أيها المسلمون، ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما يُنال بالإيمان، والعمل الصالح، قال الحسن البصري: «ليس الإيمانُ بالتمني، ولا بالتحلي، ولكنْ ما وقَرَ في القلب، وصدَّقه العمل»(1) والآية ردٌّ على اليهود والنصارى الذين قالوا ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ولهذا أتبعه بقوله ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ عاجلاً أو آجلاً، وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: «لمَّا نزلت هذه الآية، شقَّ ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: سدّدوا وقاربوا فإن

(1) أخرجه ابن أبي شيبة، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٠.

في كل ما أصاب المسلم كفارةٌ، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة يُنكبها»[1] والأحاديث في هذا المعنى أكثر، ولهذا قال العلماء: إن الأمراض ومصائب الدنيا وهمومها، يكفرَ الله بها الخطيئات ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ولا يجد لنفسه، إذا جاوز موالاة الله ونصرته، من يواليه وينصره، في دفع العذاب عنه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي بعضها أو شيئاً منها، فإن كل أحد لا يتمكن من كلها. ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ في موضع الحال أي سواءً كان العامل ذكراً أو أنثى ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بشرط اقتران العمل به، فلا اعتداد بالعمل بدون الإيمان، وفيه دفع توهم أن العمل الصالح ينفع الكافر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من اتصف بالإيمان، والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بنقص شيء من الثواب، وإذا لم ينقص ثواب المطيع، فبالحري أن لا يزاد في عقاب العاصي، لأن المجازي أرحم الراحمين، ولذلك اقتصر على ذكره عقيب الثواب.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

---

(1) أخرجه مسلم في البرّ والصّلة رقم ٢٥٧٤ والترمذي في التفسير رقم ٣٠٤ وهذه رواية الترمذي، وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول ٢/ ١١٠.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله، لا يعرف لها رباً سواه، وهذا غاية العبودية أن يستسلم العبد وينقاد لأمر الله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي آت بالحسنات، وبالأعمال الصالحة، على الوجه اللائق الذي فسره به ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه» ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الموافقة لدين الإسلام، مستقيماً على سبيله ومنهاجه ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائفة إلى الدين الحق ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي اصطفاه وخصصه بكرامة، تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكره تفخيماً لشأنه عليه السلام، والخليلُ: الصديقُ الحميمُ، سمي خليلاً لأن المحبة لله تتخلل القلب حتى لا تدع فيه مكاناً إلا ملأته وخالطته، وهي صفة اختص بها إبراهيم عليه السلام.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جملة مبتدأة سيقت لتقرير وجوب طاعة الله على أهل السماوات والأرض، ببيان أن ما فيهما من الموجودات له تعالى، فيختار منهما من يشاء، وما يشاء، وهو دليل على أن اتخاذه خليلاً، لاحتياج الخليل إليه، لا لاحتياجه تعالى، وفيه أيضاً إشارة إلى أن خلته لا تخرجه عن العبودية لله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدرة، فكان عالماً بأعمالهم، فيجازيهم على خيرها وشرها.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ الاستفتاء طلب الفتوى، يقال: استفتيتُ الرجلَ فأفتاني، أي يطلبون منك تبيين المشكل من الأحكام في النساء، مما يجب لهن وعليهن، وقال غير واحد: إن المراد يستفتون في ميراثهن والقرينة على ذلك سبب النزول، وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصبيان شيئاً، وكانوا يقولون: لا يغزون، ولا يغنمون فنزلت ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين الله تعالى لكم حكمه فيهن ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي وما يتلى عليكم في القرآن يبين لكم ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي ما يتلى عليكم في شأنهن، وإضافة اليتامى إلى النساء، بمعنى «مِنْ» لأنها إضافة الشيء إلى جنسه ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا

﴿كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي ما كتب الله لهنَّ من الميراث ومن الصداق ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ في أن تنكحوهن أو عن أن تنكحوهن، فإن أولياء اليتامى كانوا يرغبون فيهن، إن كن جميلات، لا لأجل المعاشرة بل لأكل مالهن، وإلاَّ كانوا يعضلوهن طمعاً في ميراثهن ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ عطف على يتامى النساء وقد كانوا لا يورثونهم كما لا يورثون النساء ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أي ويأمركم أن تقوموا وهو خطاب للأئمة أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للأولياء والأوصياء بالنصفة في حقهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ في حقوق المذكورين ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ حسبما أُمرتم به، أو ما تفعلونه من خير على الإطلاق، ويندرج فيه ما يتعلق بهؤلاء اندراجاً أولياً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه، واقتصر على ذكر الخبر، لأنه هو الذي رغب فيه، وفي ذلك إشارة إلى أن الشر مما لا ينبغي أن يقع منهم.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ هذا من جملة ما اخبر الله تعالى أنه يفتيهم به في النساء، مما لم يتقدم ذكره في هذه السورة، والخوف إمَّا على حقيقة، أو على التوقع، أي وإن امرأة توقعت لما ظهر لها من المخايل والأمارات﴿مِن بَعْلِهَا﴾ أي زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ تجافياً عنها، وترفعاً عن صحبتها، كراهةً لها، ومنعاً لحقوقها مسيئاً عشرتها، وأن يؤذيها بسبب من الأسباب ويطلق على كل من صفة أحد الزوجين ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ بأن يقل

مجالستها ومحادثتها ومضاجعتها، وهي أخف من النّشوز، لكبرٍ في سن، أو دمامة، أو مَلاَل، أو غير ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي فلا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْهِمَآ﴾ أي المرأة وبعلها حينئذ ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ﴾ أن يتصالحا بأن تحطَّ له بعض المهر، أو القَسْم، أو تهبَ له شيئاً لتستعطفه بذلك، وتستديم المودَّة بينهما، وصدَّر ذلك بنفي الجُناح، لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة، وذكر «بينهما» تنبيهاً على أنه ينبغي أن لا يطَّلع الناس على ما بينهما، أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: «خشيتْ سودةُ رضي الله عنها أن يطلّقها رسولُ الله ﷺ، فقالت يا رسول الله: لا تطلّقني وأجعلُ يومي لعائشة، ففعل، فنزلت هذه الآية»[1]. وأخرج الشافعي عن ابن المسيب أن ابنة محمد بن مسلمة، كانت عند رافع بن خديج، فكره منها أمراً، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلّقني، واقْسِمْ ما بدا لك، فاصطلحا، فجرت السُنَّةُ، ونزل القرآن ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾ من الفرقة وسوء العشرة، أو من الخصومة، ويجوز أن لا يراد به التفضيل، بل بيان أنه من الخير، كما أن الخصومة من الشر ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ والجملتان اعتراضٌ، الأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتمهيد العذر في المماكسة والشقاق، ومعنى إحضار الأنفس الشح: جعلها حاضرة له، مطبوعة عليه[2] فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها، والتقصير في حقها، ولا الرجل يسمح بأن يمسكها، ويقوم بحقها على ما ينبغي، إذا كرهها أو أحبَّ غيرها.. ثم حثَّ الله تعالى على متابعة الشريعة بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ في العِشْرة مع النساء، بالإقامة على نسائكم وإن كرهتموهن وأحببتم غيرهن ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ النشوز والإعراض، وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة، ولم تضطروهن إلى بذل شيء من حقوقهن، أو بذل ما يعزُّ عليهنَّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢٣٢.
(٢) الشُحُّ: هو البخل الشديد مع الحرص على عدم الإنفاق، فالشحُّ أقبح من البخل.

والخصومة، وغير ذلك من أعمالكم ﴿ خَبِيرًا ﴾ عليماً به فيجازيكم عليه، وفي خطاب الأزواج بطريق الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان، ولفظ التقوى، من لفظ الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة ما لا يخفى.

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميلٌ البتَّة، لا في المعاملة، ولا في ميل القلب إلى جانب إحداهن، وهذا غير ممكن بين البشر، رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهمَّ هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملِكُ، ولا أملك»[1]. ومراده ﷺ «بما لا أملك» ميل القلب فإنه ليس بطاقة الإنسان ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ على تحري ذلك، وبالغتم فيه ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ أي فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور، واعدلوا ما استطعتم، ﴿ فَتَذَرُوهَا ﴾ أي التي ملتم عنها فتدعوها ﴿ كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ التي ليست ذا بَعْل، ولا مطلَّقة، وفي الحديث الشريف «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحدُ شقيه ساقط»[2] ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ ﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ فيما يستقبل من الجور والميل ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ يغفر لكم ما مضى من الحيف والظلم ﴿ رَّحِيمًا ﴾ يتفضل عليكم برحمته.

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا ﴾ أي وإن لم يتفقا على شيء، وتفرَّقا بالخلع أو بالطلاق، يغني الله كلاً منهما عن الآخر، أي يجعله مستغنياً عن الآخر ﴿ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ من غناه وقدرته أي يرزقه زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهنأ من عيشه، وفيه تسلية للزوجين بعد المفارقة، وقيل زجر لهما

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح رقم ٢١٣٤ والترمذي رقم ١١٤٠ باب التسوية بين الضرائر.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح رقم ١١٤١ وأبو داود في النكاح أيضاً رقم ٢١٣٣ والنسائي في عشرة النساء ٧/٦٣ وفي رواية أبي داود: «جاء يوم القيامة وشقه مائل».

عن المفارقة، وكيفما كان فهو مقيد بمشيئة الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ كافياً للخلق ﴿حَكِيمًا﴾ متقناً في أفعاله وأحكامه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جملة منبهة على كمال سعته وعظيم قدرته ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ومن سبقهم من الأمم، ومساق الآية لتأكيد الأمر بالإخلاص ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي كما وصيناكم أنتم ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي أمرنا كلاً منكم ومنهم، بأن اتقوا الله، فالمعنى أن الأمر بالتقوى قديمة، أوصى الله تعالى بها جميع عباده ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وقلنا لكم ولهم: إن تكفروا فاعلموا أنه سبحانه مالك الملك والملكوت، فلا يضره كفركم، كما أنه لا ينفعه شكركم وتقواكم، وصّاكم بذلك، لرحمته لا لحاجته، ثم قرر ذلك بقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته، محموداً، في ملكوته، سواء حمدتموه أو لم تحمدوه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له سبحانه ما فيهما من الخلائق، يتصرف فيهم كيف يشاء ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ في تدبير أمور الكل.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي إن يردْ إذهابكُم يهلككم ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ قال ابن عباس: المراد من «الناس» المشركون والمنافقون، أي يوجد قوماً آخرين من البشر، وفيه تهديد للكفار، يعني أن إبقاءكم على ما

أنتم عليه من الكفر والعصيان، إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم، لا لعجزه سبحانه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي إفنائكم بالمرة، وإيجاد آخرين ﴿قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة، لا يمتنع شيء عليه أراده.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي همُّه الدنيا فقط، كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة، والمنافع الدنيوية ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فمَالَهُ يطلب أخسهما؟ فليطلبهما أو ليطلب الأشرف منهما، وهو ثواب الآخرة حتى يحصل له ذلك، ويحصل له ثواب الدنيا على سبيل التَّبع، كما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان همه الآخرة، جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه، فرَّق الله تعالى شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلاَّ ما كُتِب له»(1). ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فيه معنى التوبيخ أي يرائي المرائي، والله تعالى سميع بما يهجس في خاطره، بصيرٌ بأحواله فيجازيه على ذلك.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾.

---

(1) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٨٣ ورواه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦٧ بلفظ «من كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلاَّ مَا قُدِّر له. .» الحديث، وانظر جامع الأصول ١١/ ١١.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته حقَّ الاجتهاد، نبَّه سبحانه بلفظ القوَّامين، على أن مراعاة العدالة يجب أن تكون على الدوام، فإن من عدل مرة أو مرتين، لا يكون في الحقيقة عادلاً بل ينبغي أن يكون مستمراً في العدل ﴿ شُهَدَآءَ ﴾ بالحق ﴿ لِلَّهِ ﴾ بأن تقيموا شهاداتكم لوجه الله تعالى، لا لغرض دنيوي ﴿ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم، بأن تُقرُّوا عليها، لأن الشهادة بيان للحقّ، سواءً كان عليه أو على غيره ﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴾ ولو كانت على والديكم وأقاربكم، أو أقرب الناس إليكم ﴿ إِن يَكُنْ ﴾ أي المشهود عليه ﴿ غَنِيًّا ﴾ يُبتغى في العادة رضاؤه ويُتَّقى سخطُه ﴿ أَوْ فَقِيرًا ﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، ولا تجوروا فيها ميلاً أو ترحماً ﴿ فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ ﴾ بالغني والفقير، وبالنظر لهما، فلو لم تكن الشهادة ـ عليهما أو لهما ـ صلاحاً لما شرعهما ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أي هوى أنفسكم، إرادة ﴿ أَن تَعْدِلُواْ ۚ ﴾ عن الحق من العدول، أي تظلموا وتجوروا في شهادتكم ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓاْ ﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، بأن تأتوا بها لا على وجهها ﴿ أَوْ تُعْرِضُواْ ﴾ أي تتركوا إقامتها فيكتمها أو لا يقيمها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الليِّ والإعراض ومن جميع أعمالكم ﴿ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم عليها لا محالة.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ خطاب للمسلمين ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ اثبتوا على الإيمان، وداوموا عليه، وازدادوا فيه طمأنينةً ويقيناً، وقيل: الخطاب للمنافقين فمعنى «آمنوا» أي أخلصوا الإيمان واختاره الزجاج ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ أي جنس ما أنزل على الأنبياء ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك، فقد ضل بعيداً عن المقصد، لا يكاد يعود إلى طريقه ويستفاد منه أن الكفر بأي بعضٍ كان ضلال مبين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يعني اليهود آمنوا بموسى ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ حين عبدوا العجل ﴿ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ﴾ بعد عوده إليهم ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ بعيسى ﴿ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا ﴾ بمحمد ﷺ، رُوي ذلك عن قتادة، والذي يميل القلب إليه، أن المراد قوم تكرَّر منهم الارتداد، ويؤيده ما أخرجه ابن جرير عن علي أنه قال، في المرتد: يُستتاب ثلاثاً، ثم قرأ هذه الآية ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ إذ يُستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر، ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبهم خربت بالكفر، وبصائرهم عميت عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم، ولم يغفر لهم.

﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ يعني إلى النجاة، أو إلى الجنة.

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾.

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ وضع «بشّرْ» موضع «أنْذِرْ» تهكُّمٌ بهم ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وجيعاً يصل وجعه إلى قلوبهم، وهذا يدل أن الآية في المنافقين، فهم قد آمنوا في الظاهر، وكفروا في السر، مرة بعد أخرى، ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ والمراد بالكافرين اليهود والمشركين

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ متجاوزين ولاية المؤمنين المخلصين ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ أي المنافقون ﴿عِندَهُمُ﴾ أي عند الكافرين ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ القوة والغلبة والمنعة؟ والاستفهام للإنكار ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي إنها مختصة به تعالى، يعطيها من يشاء، وقد كتبها سبحانه لأوليائه فقال: ﴿ولله العِزَّةُ ولرسولِهِ وللمؤمنينَ﴾[1].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب للمنافقين لزيادة التوبيخ، كأنه قيل: أتتخذونهم أولياء وأصدقاء توالونهم، والحال أنه تعالى قد نزَّل عليكم ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي القرآن الكريم ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي أنه إذا سمعتم آيات القرآن، يكفر بها الكافرون، ويستهزىء بها المستهزئون، فلا تجالسوهم ولا تسمعوا لهم وقوله تعالى: ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ حالان من الآيات، جيء بهما لتقييد النهي عن المجالسة في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَإِذَا رأيتَ الذَّينَ يَخُوضونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عنهُمْ حتَّى يخوضُوا في حَديثٍ غَيْرِهِ﴾ كان المنافقون يجالسون اليهود ويخوضون معهم مع الاستهزاء، فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهي المسلمون عن مجالسة المشركين بمكة، وهذا يقتضي الانزجار عن مجالستهم، فكيف بموالاتهم والاعتزاز بهم؟! ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ﴾ في الإثم، لأنكم قادرون على الإعراض عنهم، والإنكار عليهم، قال العلماء: وهذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر أو خالط أهله، كان في الإثم بمنزلتهم، إذا رضي به، وإن لم يباشره، فإن جلس ولم يرض بفعلهم، بل كان ساخطاً عليهم، وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر فيه أهون وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ

---

(١) العزة غير الكِبر، فهي إكرام المرء نفسه فلا يضعها موضع الذلة والهوان، وأما الكبر فهو جهل وغرور، وهو أن ينزل الإنسان نفسه فوق منزلتها، قال رجل لعلي رضي الله عنه: إن الناس يزعمون أن فيك كبراً!! قال ليس ذاك بالكبر، ولكنه عزة المؤمن، وتلا الآية ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ تعليل لكونهم مثلهم في الكفر، وقد وضع موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالنفاق، وتعليلاً للحكم بمأخذ الاشتقاق. قال بعض المحققين: إن المقصود من الخطاب هنا المؤمنون الصادقون، والمراد بمن يكفر ويستهزىء المنافقون والكافرون، ويؤيد ذلك ما نقل عن الواحدي أنه قال: كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، فنهى الله تعالى المسلمين عن مجالستهم، واستدل بعضهم بالآية على تحريم مجالسة الفساق والمبتدعين، والمراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالستهم، لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ صفة للمنافقين، والخطاب للمؤمنين الصادقين أي ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من ظفر أو إخفاق ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فإن كان فتح وظفر على الأعداء ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ نجاهد عدوكم، فأعطونا نصيباً من الغنيمة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ في الحرب وغلبة على المسلمين، سمَّى ظفرَ المسلمين فتحاً، تعظيماً لشأنهم، ولتضمنه إعلاء كلمة الله، ونصرة الدين، وظفر الكافرين نصيباً تخسيساً لحظهم، لأنه مقصور على أمر دنيوي، سريع الزوال ﴿قَالُوٓا۟﴾ للكفرة ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي ألم نغلبكم، ونتمكن من قتلكم، وأسركم، ونطلعكم على أسرار محمد وأصحابه؟ ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبّطناهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم، فهاتوا لنا نصيباً مما أصبتم منهم، ومراد المنافقين إظهار المنة على المشركين، في أنهم كانوا السبب في انتصار الكفار على المؤمنين ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حكماً يليق بشأن كل منكم، من الثواب والعقاب ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي يوم القيامة، وهو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، بدليل أنه عطفه على قوله ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أو في الدنيا، أي لم يجعل لهم على المؤمنين سلطاناً تاماً بالاستئصال، أو حجة قائمة عليهم.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع، فيظهرون الإيمان ويضمرون الكفر، وعن الحسن البصري أن المراد يخادعون النبي ﷺ على حد قوله تعالى: ﴿إنَّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ أي فاعل بهم ما يُفعل في الخداع، حيث تركهم في الدنيا كأنهم مسلمون، معصومو الدم والمال، وأعدَّ لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ متثاقلين متباطئين، لا نشاط لهم كالمكْره على الفعل، لأنهم لا يعتقدون ثواباً في فعلها، ولا عقاباً في تركها ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي إلاّ ذكراً قليلاً باللسان، واستدل بالآية على استحباب دخول الصلاة بنشاط.

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الإيمان، والكفر أي متردّدين بينهما، متحيرين، قد ذبذبهم الشيطان[1]، وأصل الذبّ: الطردُ، ذبذبه إذا تركه

(١) في الحديث الشريف «مثل المنافق كمثل الغنم العائرة بين الغنمين ـ أي المترددة بين القطيعين من الغنم ـ تُعير إلى هذه مرَّةً، وإلى هذه مرة» أخرجه مسلم والنسائي، وزاد=

متردداً ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ أي لا منسوبين إلى المؤمنين حقيقة، لإضمارهم الكفر، ولا إلى الكافرين لإظهارهم الإيمان ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ لعدم استعداده للهداية والتوفيق ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ موصلاً إلى الحق والصواب، فضلاً أن يهديه إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ فإنه صنيع المنافقين وديدنهم فلا تتشبَّهوا بهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ أي حجة بينة، فإن موالاتهم دليل على النفاق، وفيه دلالة على أن الله تعالى، لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة، دون متعلقها، بأن يقال: أتجعلون لله عليكم سلطاناً، للمبالغة في إنكاره، وتهويل أمره، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته، فضلاً عن صدور نفسه.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهي الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان عذابهم كذلك، لأنهم أخبث الكفرة، إذ ضمّوا إلى الكفر استهزاءً، بالإسلام، وخداعاً للمسلمين، وأما قوله ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه فهو منافقٌ» الحديث، فمن باب التشديد والتهديد، مبالغةً في الزجر، والدَّرَكُ كالدَّرج، إلا أنه يقال باعتبار الهبوط، والدَّرَجُ باعتبار الصعود ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ يخلصهم منه أو يخفف عنهم ما هم فيه[2].

---

= النسائي: «لا تدري أيّها تتبع».

(١) سورة النور، آية: ٤٠.

(٢) تدبر هذه الآيات الكريمة، وانظر بعين العظة والاعتبار، إلى حال هؤلاء المنافقين الأشرار، فقد شرط تِبارك وتعالى للتوبة على الكفار شِرطاً واحداً، وهو الانتهاء عن الكفر ﴿قلْ للذين كفروا إن ينتهوا يُغْفر لهمْ ما قد سَلَف﴾ وأما المنافقون فقد شرط للتوبة عليهم أربعة شروط وهي: التوبة الصادقة، وإصلاح ما فسد من العمل، والاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، ومع كل هذه الشروط فقد جعلهم في ضمن =

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ عن النفاق ﴿ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم ﴿ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ وثقوا به، وتمسكوا بدينه ﴿ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ ﴾ أي جعلوه خالصاً ﴿ لِلَّهِ ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ورضاه ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلاً منذ آمنوا ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يُقادر قدره.

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾؟ أي أيَّ شيء يفعل الله تعالى بتعذيبكم؟ أيتشفى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يستدفع به الضر، كما هو شأن الملوك، فإنه الغني المتعالي عن أمثال ذلك، وإنما هو أمر يقتضيه الكفر، فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر، انتفى التعذيب ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا ﴾ أي مثيباً على الشكر، يقبل اليسير، ويعطي الجزيل ﴿ عَلِيمًا ﴾ بجميع أحوالكم وأعمالكم، فيجازيكم على ذلك.

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ المراد بالجهر هنا الإظهار، أي لا يحب الله سبحانه أن يُعلن أحد بالسوء بين المؤمنين، بذكر العيوب والسيئات، لأن في هذا الجهر مفسدتين: **الأولى**: أنها مجلبة للعداوة وقد

---

= المؤمنين تبعاً، ولم يقل: هم المؤمنون، وجعل الأجر لأهل الإيمان دونهم، للتنبيه على عظم جريمة النفاق والمنافقين.

تفضي إلى سفك الدماء. **الثانية**: أنها تؤثر في نفوس السامعين بما تورث من الضغائن، وفي الحديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النار»(١) ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ إلا جَهْر من ظُلم، بالدعاء على الظالم، ويذكره بما فيه من السوء، فإن ذلك غير مسخوط عنده سبحانه، روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «المستبَّان ما قالا ـ يعني إثم ما قالا من السباب ـ فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم»(٢) يعني إذا تجاوز المسبوب في السبّ، يكون آثماً أيضاً، وقيل: إن الله تعالى لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظلم، بل يحب لهم أن يكونوا أعزة، أباة، وقال ﷺ في الحديث الشريف: «لَيُّ الواجد ظلمٌ، يُحلُّ عِرْضَه، وعُقوبته»(٣) واللَيُّ: المطلُ، والواجدُ: القادرُ على وفاء دينه، يُحلُّ عرضه بأن يقال: فلان ظالم يمطل، ويبيح للإمام عقوبته وتعزيره ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ بجميع المسموعات، فيندرج فيه كلامُ المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع المعلومات، ومن جملتها حال الظالم والمظلوم.

﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ أي تظهروا أيَّ خيرٍ كان، من الأقوال والأفعال ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي تفعلوه سراً ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾ مع ما سُوّغ لكم من مؤاخذة المسيء، والتنصيصُ عليه مع اندراجه في إبداء الخير، لما أنه الحقيق بالبيان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي يكثر العفو عن العصاة، مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك، وهو حثٌّ للمظلوم على تقديم العفو،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الزهد رقم ٢٣١٥ ورواه البخاري في الرقاق ٢٦٦/١١ بلفظ «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم، أبعد ما بين المشرق والمغرب».

(٢) أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٨٧ وأبو داود في الأدب رقم ٤٨٩٤ والترمذي رقم ١٩٨٢ ولفظه عندهم «فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم».

(٣) أخرجه أبو داود في الأقضية رقم ٣٦٢٨ والنسائي في البيوع ٣١٦/٧ ورواه البخاري تعليقاً ٤٦/٥ في الاستقراض، قال الحافظ في الفتح: وصله أحمد وإسحق في مسنديهما.

بعدما رخَّص له في الانتصار حملاً على مكارم الأخلاق، ففي هذه الألفاظ اليسيرة معان كثيرة لأن جميع الخيرات تنحصر في قسمين: **أحدهما**: صدق النية والعمل مع الحق، **والثاني**: التخلق بحسن الخلق مع الخلق، فتدخل في هذه الكلمات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ هم اليهود والنصارى، وهو ما يقتضيه رأيهم، لا أنهم يصرّحون بذلك ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأن يؤمنوا بالله تعالى، ويكفروا بالرسل ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ كما فعل أهل الكتاب، وما ذلك إلا كفر بالله، وتفريق بين الله تعالى ورسله، لأنه عز وجل قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء، فمن كفر بواحدٍ منهم فقد كفر بالكل، وبالله تعالى أيضاً ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين الإيمان والكفر ﴿سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ أي طريقاً يسلكونه، مع أنه لا واسطة بينهما، إذ الحق لا يختلف، كما قال تعالى: ﴿فماذا بعد الحق إلاّ الضلال﴾؟

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ هم الكاملون في الكفر محققاً، ولا عبرة بإيمانهم هذا ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لهم، وإنما وضع الاسم الظاهر، ذماً لهم ﴿عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ يهينهم ويذلهم.

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي لم يؤمنوا ببعض الرسل ويكفروا بالبعض ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بالنعوت المذكورة ﴿ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ ﴾ نعطيهم، وتصديره بسوف للتأكيد، والدلالة على أن الوعد كائن لا محالة، وإن تأخر ﴿ أُجُورَهُمْ ۗ ﴾ الموعودة لهم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما فرط منهم ﴿ رَّحِيمًا ﴾ مبالغاً في الرحمة، فيضاعف حسناتهم.

﴿ يَسْـَٔلُكَ ﴾ يا رسول الله ﴿ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هم أحبار اليهود ﴿ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ حيث قالوا: إن موسى جاء بألواح من عند الله، فأتنا بألواح من عند الله، فطلبوا أن يكون المنزل جملة، وأن يكون بخط سماوي، وقال قتادة: إنهم سألوا أن يُنزِّل عليهم كتاباً خاصاً لهم ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ ﴾ شيئاً ﴿ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ المذكور وأعظم، فإن استعظمتَ ما سألوه منك، فقد سألوا موسى أكبر منه، والمعنى: أن لهم في ذلك عرقاً راسخاً، وأن ما اقترحوا عليك ليس أول جهالتهم وخبالاتهم، وكل ذلك يدل على أنهم مجبولون على اللجاج والعناد، والفسق والفساد، ففيه تسلية للنبي ﷺ ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي مجاهرين معاينين ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ أي نار جاءت من السماء فأهلكتهم ﴿ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل في الدنيا ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ ﴾ إلهاً ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي المعجزات التي أظهرها لفرعون وقومه، لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم في وقت الاتخاذ ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ ﴾ حين تابوا، وهذا استدعاء لهم إلى التوبة، كأنه قيل: إن الذين أجرموا وتابوا عفونا عنهم، فتوبوا أنتم أيضاً حتى نعفو عنكم ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ حجة ظاهرة على من خالفه كالعصا، واليد، يعني أن قوم موسى وإن كانوا قد بالغوا في العناد معه لكنا نصرناه وفيه بشارة للرسول ﷺ بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندونه فإنه ﷺ في العاقبة يستولي عليهم.

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴾ أي رفعنا الطور كائناً فوقهم ﴿ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ أي بسبب ميثاقهم، روي أنهم همُّوا بنقضه فرفع عليهم، فخافوا وأقلعوا عن

النقض ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ على لسان يوشع عليه السلام بعد مضي زمان التيه ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ خاضعين شكراً لله ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان داود ﴿لَا تَعْدُوا﴾ لا تتجاوزوا ﴿فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً بأن يأتمروا بأوامر الله تعالى، وينتهوا عن مناهيه، والمراد بعدم اعتدائهم في السبت، عدم اصطيادهم يوم السبت، فقد كان محرماً ذلك عليهم.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي فبسبب نقضهم ميثاقهم، فعلنا بهم ما فعلنا، من اللعن، والمسخ، وغيرهما من العقوبات ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن، أو بما في كتبهم ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي قتلهم رسل الله بغياً وعدواناً، وهذه أعظم الجرائم ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي مستورة بأغطية فلا نفهم ما تقول ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ليس عدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غلفاً، بل ختم الله عليها بسبب كفرهم، وهذا الطبع بمعنى الخذلان ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الإيمان، أو قليلاً منهم.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ عطف على «كفرهم» الذي قبله، والمراد بالكفر الكفر بعيسى عليه السلام ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره، حيث نسبوها إلى الزنى فقالوا إنها زانية، وتمادوا على ذلك، غير مكترثين بقيام المعجزة بالبراءة.

﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ على سبيل التبجح ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ نظم قولهم هذا في سلك جناياتهم، لابتهاجهم بقتل النبي، والاستهزاء به، فإن وصفهم له بعنوان الرسالة، إنما هو بطريق التهكم به، كقول المشركين لرسولنا ﷺ: ﴿يا أيها الذي نُزّل عليه الذِكْر إنّك لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ادّعىٰ اليهود أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وصدّقهم النصارى على ذلك، فكذّبهم الله عزَّ وجل جميعاً، وردَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ روي عن ابن عباس أنَّ رهطاً من اليهود سبُّوه وأمه، فدعا عليهم فمسخوا قردةً وخنازير، فبلغ ذلك يهوذا فجمع اليهود، فاتفقوا على قتله، فساروا إليه ليقتلوه، فأدخله جبريل بيتاً ورفعه منه إلى السماء، ولم يشعروا بذلك، فدخل عليه «طيطانوس» ليقتله فلم يجده، وألقى الله تعالى عليه شَبَه عيسى، فلما خرج قتلوه ظناً منهم أنه عيسى وصلبوه، والمراد من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وقع لهم تشبيه بين عيسى، ومن صُلب ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في شأن عيسى وهو يعمُّ اليهود والنصارى، فقال اليهود قتلناه، وتردد الآخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وأما النصارى فهم متفقون على أن اليهود قتلوه، والنسطورية منهم يدَّعون أن المسيح صُلب من جهة ناسوته، لا من جهة لاهوته ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي لفي تردد ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ الاستثناء منقطع، أي لكنهم يتبعون الظنَّ، وفي الأناجيل «أن المسيح قال لتلاميذه: كلكم تشكُّون فيَّ هذه الليلة»[1] أي الليلة التي يُطلب فيها للقتل، فإذا كانت أناجيلهم ناطقة، بأنه أخبر أن تلاميذه وهم أعرف الناس به، يشكُّون فيه في ذلك الوقت، فهل يستغرب اشتباه غيرهم؟ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي قتلاً يقيناً كما زعموه بقوله: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم﴾ وقيل معناه: ما علموه يقيناً بل بطريق الظن.

---

(١) إنجيل متى ٢٦ ـ ٣١، ومرقس ١٤ ـ ٢٧.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أي إلى سمائه قال أبو حيان: وهو حي في السماء الثانية، على ما صحّ عن النبي ﷺ في حديث المعراج، وهو هنالك مقيم، حتى ينزل إلى الأرض، يقتل الدجال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يُغالب فيما يريده ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله.

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ «إنْ» نافية بمعنى «ما» ﴿إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ جملة قسمية، والمعنى: ما من اليهود والنصارى أحد، إلاّ يؤمنَنَّ بأن عيسى عبدُ الله ورسولُه، قبل أن يموت، ولو حين أن تزهق روحه، ولا ينفعه إيمانه، وقيل: الضميران لعيسى، والمعنى: إنه إذا نزل من السماء، آمن به أهل الملل جميعاً، حتى تكون الملة واحدة، وهي ملة الإسلام وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وقتادة ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ﴾ عيسى ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على أهل الكتاب ﴿شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ التعبير عنهم بهذا العنوان، إيذان بعظم ظلمهم، أي بسبب ظلم عظيم صادر عنهم ﴿حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ فإنهم كانوا كلما ارتكبوا معصية، يحرم عليهم نوع من الطيبات، التي كانت محللة لهم، عقوبة من الله، ومع ذلك كانوا يفترون

على الله الكذب، ويقولون: لسنا بأول من حُرّمت عليه، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما، فكذبهم الله تعالى ﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ناساً كثيراً، أو صدّاً كثيراً.

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا، لكنَّ التوراة التي بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذ الربا من شعبهم، دون الأجانب، وهذا كذب على الله، فقد ثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ كالرشوة، والخيانة ونحوهما ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيان لجزائهم في الآخرة هيأه الله عزَّ وجل لهم.

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي لكن الثابتون في العلم منهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه، نزلت الآية فيهم كما أخرجه البيهقي ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منهم وصفوا بالإيمان زيادة في البيان ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ حال من المؤمنين، مبينة لكيفية إيمانهم، أي يصدّقون بالقرآن، كما يصدّقون بالكتب السماوية السابقة حق التصديق ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ منصوب على المدح أي أخص بالذكر المقيمين الصلاة منهم، والنصب على المدح لا يأتي في كلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة ههنا مزية الصلاة، وكون إقامتها آية كمال الإيمان، فتقدير الآية أي أعني المقيمين الصلاة.

﴿ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وصفوا أولاً بكونهم راسخين، ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء، ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع، ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد، تحقيقاً لحيازتهم الإيمان الكامل ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ تنكير الأجر للتفخيم، ولا يخفى ما فيه من المناسبة بين طرفي الاستدراك، حيث أوعد الأولون بالعذاب الأليم، ووعد الآخرون بالأجر العظيم.

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ
إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ
وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ
عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا
﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ
بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزِّل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاجٌ عليهم بأنه ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وإنما شأنه ﷺ كشأن سائر الأنبياء عليهم السلام، الذين لا ريب لأحد في نبوتهم، فلمَّا لم يكن عدم إنزال الكتاب دفعةً واحدةً قادحاً في نبوتهم، علمنا أن إصرار اليهود على طلب هذا باطل ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي كما أوحينا إلى إبراهيم ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ ﴾ خُصُّوا بالذكر مع انتظامهم في سلك النبيين، تشريفاً لهم، وتصريحاً بمن ينتمي إليهم من اليهود ﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ عطف على أوحينا لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء، والزبور جُعِل اسماً للكتاب المنزل على داود عليه السلام، وكان إنزاله عليه منجماً، قال القرطبي: كان فيه مائة وخمسون سورة، ليس فيها حكم من الأحكام، وإنما هي حِكَمٌ، ومواعظ، وتحميدٌ وتمجيد.

﴿ وَرُسُلٗا ﴾ أي أرسلنا رسلاً ﴿ قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ ﴾ أي حكينا أخبارهم لك ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ أي من قبل هذه السورة ﴿ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ

﴿عَلَيْكَ﴾ أي من قبل، وقد ورد في الخبر أن الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر، والأنبياء مائة ألفٍ وأربعة وعشرون ألفا[1]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ مصدرٌ مؤكد رافع لاحتمال المجاز، **قال الفراء**: العرب تسمي ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل، ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أكّد به لم يكن إلاّ حقيقة الكلام، والظاهر أن التكليم كان من وراء حجاب، لقوله سبحانه: ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلِّمه الله إلاّ وحياً، أو من وراءِ حجاب﴾!!.

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ﴾ نصب على المدح، أو بإضمار أرسلنا، أي مبشرين من آمن ومن عمل صالحاً بالأجر العظيم ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من كفر وعصى بالعذاب الأليم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾ أي معذرة يعتذرون بها، قائلين: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيبيّن لنا شرائعك؟ كما في قوله تعالى: ﴿ولَوْ أنّا أهلكناهُمْ بعذَابٍ من قَبْلِهِ لقالوا ربّنا لولا أرسَلْتَ إلينَا رسُولاً فنتَّبع آياتِكَ﴾؟ وإنما سميت حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة في فعل من أفعاله، للتنبيه على أن المعذرة في القبول عنده بمنزلة الحجة القاطعة ولذلك قال سبحانه ﴿وَمَا كنَّا مُعَذّبينَ حَتَّى نَبْعَثَ رسُولاً﴾ وفي الآية دلالة على أنه لا بد من الشرع، وإرسال الرسل، وأن العقل لا يغني عن ذلك، وزعم المعتزلة أن العقل كافٍ، وأن إرسال الرسل للتنبيه ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ أي بعد إرسالهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يُغالب في أمره ﴿حَكِيمٗا﴾ في جميع أفعاله، ومن ذلك قطع الحجة بإرسال الرسل الكرام مبشِّرين ومنذرين.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾ استدراك عن تعنتهم في سؤالهم إنزال كتاب عليهم من السماء، أي إن كانوا قد أنكروا نبوتك يا محمد، فإن الله يشهد بأنك رسوله، أي يُثبت ذلك ويقرّره ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ من القرآن المعجز الدال

---

(١) وذلك في حديث أخرجه أحمد في المسند ١٧٨/٥ وفيه: «أن الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر جَمّاً غفيراً».

على نبوتك ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أنزل ملتبساً بعلمه بحال من يستعد للنبوة، ويستأهل نزول الكتاب عليه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أيضاً بنبوتك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ما شهد به لك، حيث نصب الدليل، وأزال الشبه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أنزل إليك، والمراد بهم اليهود، ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو دين الإسلام، صدُّوا من أراد سلوكه، بقولهم: ما نعرف صفة الرسول في كتابنا ونحو ذلك، من إلقاء الشبهات في قلوب الناس ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ بالكفر والصدّ ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، لأن المُضلَّ اغرقُ في الضلال، وأبعد عن الانقلاع عنه من الضالِّ بنفسه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما ذكر آنفاً ﴿وَظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بإنكار نبوته، وبتغيير نعته، وظلموا الناس بصدهم عن الصراط المستقيم، الذي فيه صلاحهم في المعاش والمعاد ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ما داموا في الكفر، لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر، والآية في اليهود على الصحيح، وقيل: إنها بالمشركين ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ أي إلاَّ الطريق الموصل لهم إلى نار جهنم لأعمالهم السيئة، المؤدية بهم إلى نار الجحيم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لأن من مات على كفره، فهو خالد في النار، وقوله تعالى: ﴿أبداً﴾ رافعٌ لاحتمال حمل الخلودِ على المكث الطويل، فيكون المراد بالتأبيد: الخلود الدائم الذي لا نهاية له ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي جعلهم خالدين في جهنم أبدا ﴿عَلَى ٱللَّهِ

﴿يَسِيرًا﴾ سهلاً لا صارف له عنه، وهذا تحقير لأمرهم، وبيانٌ لأنه تعالى لا يعبأ بهم، ولا يبالي بكفرهم وفجورهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لمَّا قرر أمر النبوة، وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها، ونبَّه على أن الحجة قد وضحت، فلم يبق لأحد عذر في عدم القبول، خاطب الناس عامة، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ تكرير للشهادة، وتقرير لحقية المشهود به، لتأكيد وجوب طاعته، وقوله ﴿بالحق﴾ أي بالقرآن الكريم، وبدين الإسلام ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ بالرسول وبما جاء به من الحقِ ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي إيماناً خيراً لكم مما أنتم عليه، لأنه يزكيكم ويطهركم، من الأدناس الحسية والمعنوية ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ أي إن تستمروا على الكفر ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات، أي كلُّها له عز وجلَّ خلقاً،، وملكاً، وتصرفا، لا يخرج من ملكوته شيء منها، فهو غني عنكم وعن غيركم، لا يتضرر بكفركم، وهو قادر على تعذيبكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال الكل ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبَّر لهم.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى، زجراً لهم عما هم عليه من الضلال البعيد ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي لا تجاوزوا الحدَّ في أمر الدين، بادعائكم ألوهية المسيح ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي لا تعتقدوا إلا القول الحق، دون دعوى الاتحاد والحلول، واتخاذ الصاحبة والولد، وفي الحديث الشريف «لا تطروني - أي لا تجاوزوا الحدَّ في مدحي - كما أطرى النصارى ابن مريم - أي كما بالغ النصارى في مدحه - فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسوله»[1] ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ ذكر اسم أمه «ابن مريم» لبطلان ما وصفوه به من نبوّته للهِ تعالى ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي أنه مقصور على رتبة الرسالة، لا يتخطاها إلى ما تقولون من الألوهية ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أي مكوَّنٌ بكلمته، سبحانه وأمره، الذي هو «كنْ» من غير واسطة الأب ولا بنطفة، وأوضحه بقوله ﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي أوصلها إليها فجعله كالمني الذي يلقى في الرحم، وقيل: أعلمها إياها بطريق البشارة، وذلك قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهُ يُبشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمه المسيح﴾ الآية، والإلقاء يستعمل في المعاني والكلام، كما يُستعمل في المتاع، ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القَوْلَ﴾ الآية ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ والروحُ: هي النفس الناطقة، المستعدة للبيان، وفهم الخطاب، ولا تفنى بفناء الجسد، وأنها جوهر لا عَرَضٌ، فلما كان عيسى مكوناً من النفخ وصف بالروح، و «مِنْ» في قوله تعالى ﴿منه﴾ لابتداء الغاية، لا تبعيضية كما زعمت النصارى، يحكى أن طبيباً نصرانياً ناظر الواقدي ذات يوم، فقال له: إن في كتابكم ما يدلُّ على أن عيسى جزء مِنه تعالى وتلا هذه الآية، ﴿وروح منه﴾ فقرأ الواقدي ﴿وسخَّرَ لكمْ مَا في السَّماواتِ وَمَا في الأرضِ جَميعاً مِنه﴾ فقال إذاً يلزم أن تكون جميع الأشياء جزءاً منه سبحانه، فأفحمه وأخرسه ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ وخصوه بالألوهية ﴿وَرُسُلِهِۦۖ﴾

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٥٤.

أجمعين، وصفوهم بالرسالة، ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ الله، والمسيح، ومريم، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿أأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتّخِذُوني وأمي إلَهَيْنِ مِنْ دونِ الله﴾ والنصارى يعبّرون عن أقانيم ثلاثة فيقولون: الأب، والابن، وروح القدس، ويريدون بالأول الذات، وبالثاني العلم، وبالثالث الحياة، فذهب الملكانية منهم، أن كل واحد منها إله، وصرّحوا بإثبات التثليث، وهو أن الإله ثلاثة، وذهب بعض اليعقوبية إلى أن الكلمة انقلبت لحماً، ودماً، فصار الإله هو المسيح، وحكى المؤرخون أن رؤساء النصارى، اجتمعوا ليبحثوا عن القول المرضي، فاتفق قولهم على شيء فحرروه، وسمَّوه بالأمانة، وأكثرهم اليوم عليها، وهي أن يؤمن بالله الواحد، الأب صانع كل شيء، المسيح ابن الله من أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسَّد من روح القدس، وولد من مريم وصُلب، وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس على يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارةً أخرى، وهذه الأقاويل مع مخالفتها للعقول، مما لا مستند لها، ولا أصل لها في شرع الإنجيل، ولا مأخوذة من قول المسيح، ولا من أقوال تلامذته، ومع ذلك فهي متناقضة، يكذب بعضها بعضاً، واعلم أنه سبحانه إنما حكى في بعض الآيات قول بعضٍ منهم، وفي بعضٍ آخر قول الآخرين، وحكاية دعواهم ألوهية مريم، وألوهية عيسى، إنما نطق بها القرآن، وهو معتقد الأكثرين منهم، يقولون: الرب يسوع أي عيسى، ويؤلهونه وأمَّه، ثم إنه سبحانه لمَّا بالغ في زجر القائلين، أردف النهي بقوله: ﴿ٱنتَهُواْ﴾ أي عن القول بالتثليث يكن ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ هذا الانتهاء ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بالذات، لا تعدد فيه بوجهٍ ما، منفرد في ألوهيته ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أسبحه تسبيحاً أي أنزّهه تنزيهاً من أن يكون له ولد، لأن الولد يشابه الأب، ويكون مثله، والله تعالى منزه عن الشّبَه والمثل، ولا يتطرق إليه الفناء ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي له ما فيهما من الموجودات، والمسيح من جملتها، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام، وهو

يتعالى عن أن يكون جسماً ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد، فإن الحاجة إليه ليكون وكيلاً لأبيه، والله سبحانه قائم بحفظ الأشياء، مستغنٍ عمن يخلفه أو يعينه!!.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ أي لن يأنف، والاستنكافُ: الاستكبار مع الأنفة، وعن ابن عباس أي لن يستكبر المسيح ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له، فإن عبوديته شرفٌ يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره، روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيبُ صاحبنا؟ قال ﷺ: وأيَّ شيء أقول؟ قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله، قال: إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله، قالوا: بلى، فنزلت الآية[1]، ومما يدل على عبوديته من كتب النصارى، أن بولس قال في رسالته الثانية: انظروا إلى هذا الرسول «يسوع» المؤتمن من عند من خَلقه، مثل موسى في جميع أحواله، غير أنه أفضل من موسى!! وقال مرقس في إنجيله: قال يسوع: إن نفسي حزينة حتى الموت، ثم خرَّ على وجهه يصلي لله تعالى، ونصوصُ الأناجيل ناطقة بعبوديته عليه السلام لله تعالى ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح، أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله تعالى، والملائكة المقربون: هم الذين حول العرش، واحتج بالآية المعتزلة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، لأن كلام العرب، الترقي من الفاضل إلى الأفضل، فيكون المعنى: لا يستنكف المسيح ولا من فوقه، كما يقال: لن يستنكف من هذا الأمر الوزيرُ، ولا السلطانُ، وهو استدلال في غير محله، لأن المراد في الآية: القوة والاقتدار، وهو المناسب لسياق الآية، لأن المقصود الرد على النصارى، في اعتقادهم ألوهية عيسى، مستندين إلى كون إحياء الموتى، وإبراء

(١) أوّلُ كلمةٍ نطق بها السيد المسيح وهو طفل في المهد ـ كما سمعها النصارى ـ هي قوله ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فكيف يزعمون ألوهيته وهو يقول لهم: أنا عبدُ الله، ولستُ إلهاً ولا ابناً لله، أفلا يعقل النصارى هذا الكلام؟.

الأكمه، والأبرص، خوارق، فناسب أن يقال: بل من هو أكثر خوارقاً وأظهر آثاراً، كالملائكة المقربين، الذين من جملتهم جبريل، فيكون تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي عن طاعته ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ عن ذلك، غروراً وإعجاباً، فيحملها بذلك على غمط الحق، سواء كان لله تعالى، أو لخلقه، وعلى احتقار الناس، كما جاء في الحديث «الكِبْرُ: بَطَرُ الحق، وغَمْطُ الناس»(١) أي استحقارهم وتعييبهم ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي المتكبرين على الله، والمستنكفين، لينالوا جزاءهم يوم الدين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بيان لحال الفريق الفائز برضوان الله، وهم الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ من غير أن ينقص منها شيئاً أصلاً ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ بتضعيفها أضعافاً مضاعفة، وبإعطائهم ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أخرج الطبراني عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ يدخلهم الجنة ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ الشفاعة فيمن وجبت لهم النار، ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا﴾ عن عبادته عز وجل وطاعته ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يحيط به الوصف ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمورهم، ويدبّر مصالحهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم وينجيهم من العذاب.

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٩١ وأبو داود في الأدب رقم ٤٠٩١ ولفظ مسلم «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبةٍ من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبرُ بطر الحق، وغمطُ الناس».

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب لكافة المكلفين ﴿ قَدْ جَآءَكُم ﴾ أتاكم ووصل إليكم، ﴿ بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي حجة قاطعة، والمراد بها المعجزات، وقيل هو النبي ﷺ، وقوله سبحانه ﴿مِن رَّبِّكُم﴾ أي كائن من ربكم، والتعرض لعنوان الربوبية لإظهار اللُّطفِ بهم، وللإيذان بأن مجيئه إليهم، لتربيتهم وتكميلهم ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ﴾ بواسطة النبي ﷺ ﴿ نُورًا مُّبِينًا ﴾ وهو القرآن، وإطلاق النور المبين لأنه بيِّنٌ بنفسه، غير محتاج إلى غيره، هادٍ للخلق بإخراجهم من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان، أي قد جاءكم دلائل العقل، وشواهد النقل، ولم يبق لكم عذر.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ إيماناً صادقاً لا يشوبه شك ولا ارتياب ﴿ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي اعتصموا به سبحانه ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ الرحمةُ: الجنة، لأنها موضع تنزّل رحمة الله ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ أي إحسان لا يُقادر قدره، زائد على ذلك ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ ﴾ إلى الله عز وجل ﴿ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أي طريقا مستقيماً يبلغون به الغاية، أما في الدنيا فالسيادةُ والعزة، وأما في الآخرة فبالجنة والرضوان.

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ أي في الكلالة، استغنى عن ذكره بوروده في قوله

تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «مرضتُ فأتاني رسولُ الله ﷺ، فأُغمي عليَّ فتوضأ النبي ﷺ ثم صبَّ عليَّ من وضوئه، فأفقتُ، فقلتُ، يا رسول الله: كيف أصنع في مالي؟ فلم يردَّ عليَّ شيئاً حتى نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلالَةِ﴾»[1] ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ استنباط مبين للفتيا أي إن أحد مات ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى، واقتصر على ذكر عدم الولد، مع أن عدم الوالد أيضاً معتبر في الكلالة، ثقةً بظهور الأمر، ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ والمراد بالأخت من ليست لأم فقط، فإن فرضها السدس ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي بالفرض، والباقي للعصبة، أو لها بالرد إن لم يكن عصبة ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي والأخ يرث أخته، إن كان الأمر بالعكس ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى، فالمراد بإرثه لها إحراز جميع مالها ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فصاعداً ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ المعتبر في الحكم هو العدد، دون الصغر والكبر ﴿وَإِن كَانُوٓا۟﴾ أي من يرث بطريق الأخوَّة ﴿إِخْوَةً﴾ أي مختلطة ﴿رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يقتسمون التركة على طريقة التعصيب[2]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/ ٢٩٠ ومسلم في الفرائض رقم ١٦٢٦.

(٢) الإسلام دين العدالة والإنصاف، لا يحابي ولا يداري أحداً على حساب آخر، ولهذا شرَّك المرأة في الإرث، على خلاف عادات الجاهلية، حيث كانوا لا يورِّثون النساء ولا الصغار من الأطفال، ويقولون: كيف نعطي المالَ من لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً، ولا يقاتل عدواً؟! فجاء الإسلام فرفع عن كاهلها الظلم، ودفع عنها العدوان، وجعل لها نصيباً مفروضاً في التركة، على كُرْهٍ من الرجال، بتشريعه الخالد العادل ﴿للرجال نصيبٌ مما تركَ الوالدان والأقربونَ، وللنساءِ نصيبٌ مما ترك الوالدانِ والأقربونَ، ممَّا قلَّ منهُ أو كَثُرَ نَصيباً مفروضاً﴾. وإنما كان نصيب الذكر ضعف الأنثى، لضخامة مسؤولية الرجل، وكثرة نفقاته، فالرجل مكلَّف بالإنفاق على الأسرة والأولاد، والمرأة لا تُكلف بالإنفاق على أحد، والرجل يدفع المهر للزوجة، والمرأة تأخذ المهر، والرجل يكلف بنفقة المطعم، والملبس، وأجور السكن، وتكاليف العلاج والدواء، للزوجة والأبناء، والمرأة لا تُكلَّف بشيء من ذلك، فكان من العدالة أن يكون حظُّه من الميراث، أوفر من حَظِّ المرأة، لكثرة نفقاته =

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي حكم الكلالة ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ أي لئلا تضلُّوا في ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي بكل شيء من الأشياء، التي من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فيبين مصلحتكم ومنفعتكم، خُتمت هذه السورة بآية الفرائض، وفيها أحكام الموت الذي هو آخر أمر كل حيّ، وهي أيضاً آخر ما نزل من الأحكام، فحَسنُ لذلك الختام.

**«تمَّ بتوفيقه تعالى تفسير سورة النساء»**

* * *

= ومسؤولياته المالية، فهذه بعض وجوه أخذ الرجل أكثر من الأنثى، فبمقدار الإنفاق يكون الأخذ والعطاء، والغُنْمُ بالغُرْم، كما يقول العرب في الأمثال!!.

# فهرس المجلد الأول

بعون الله تعالى تم انتهاء المجلّد الأوّل

ويليه المجلّد الثاني ويبدأ بتفسير سورة المائدة